M

AL-HA

AL-ISLA

D

3

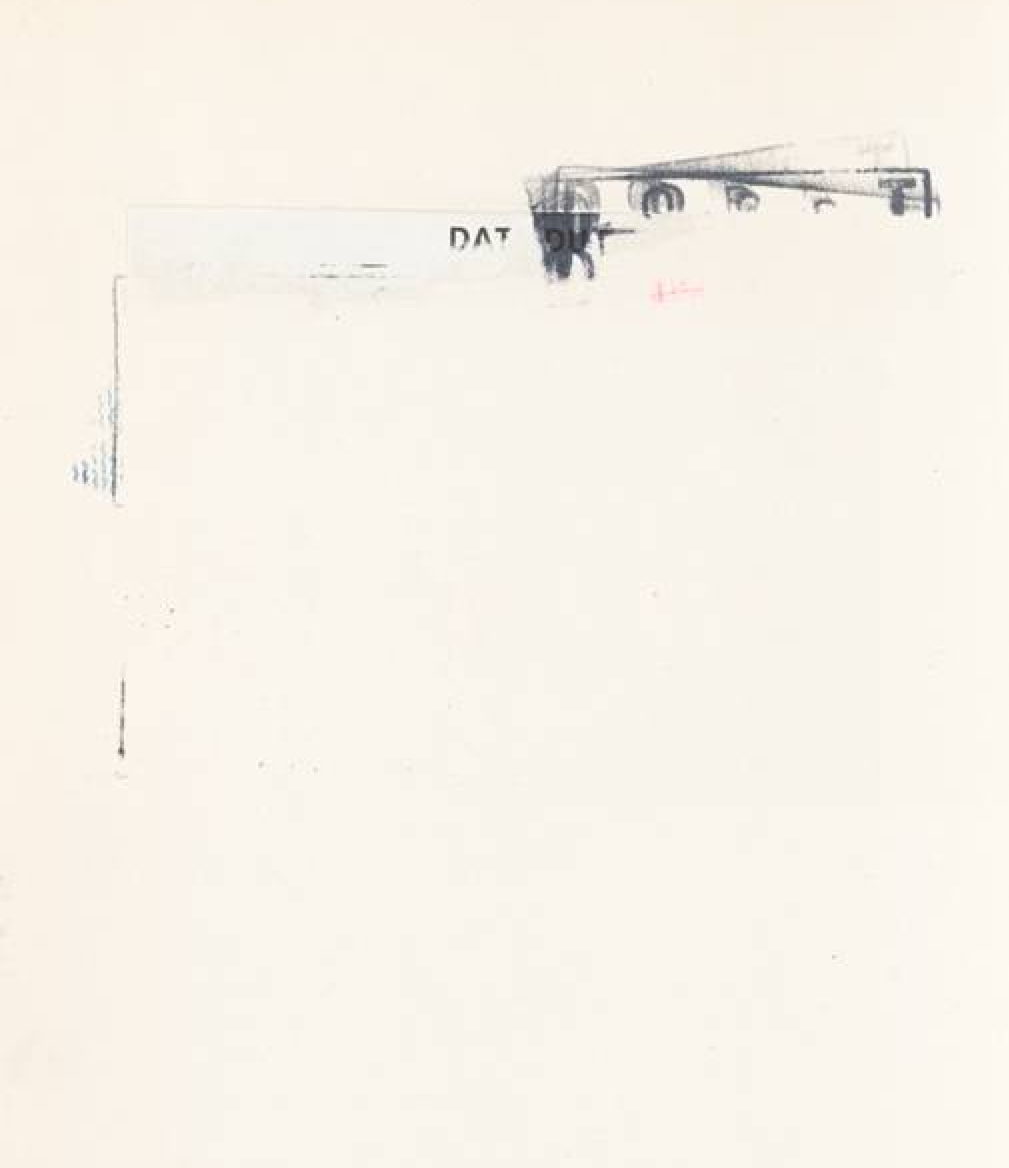
A

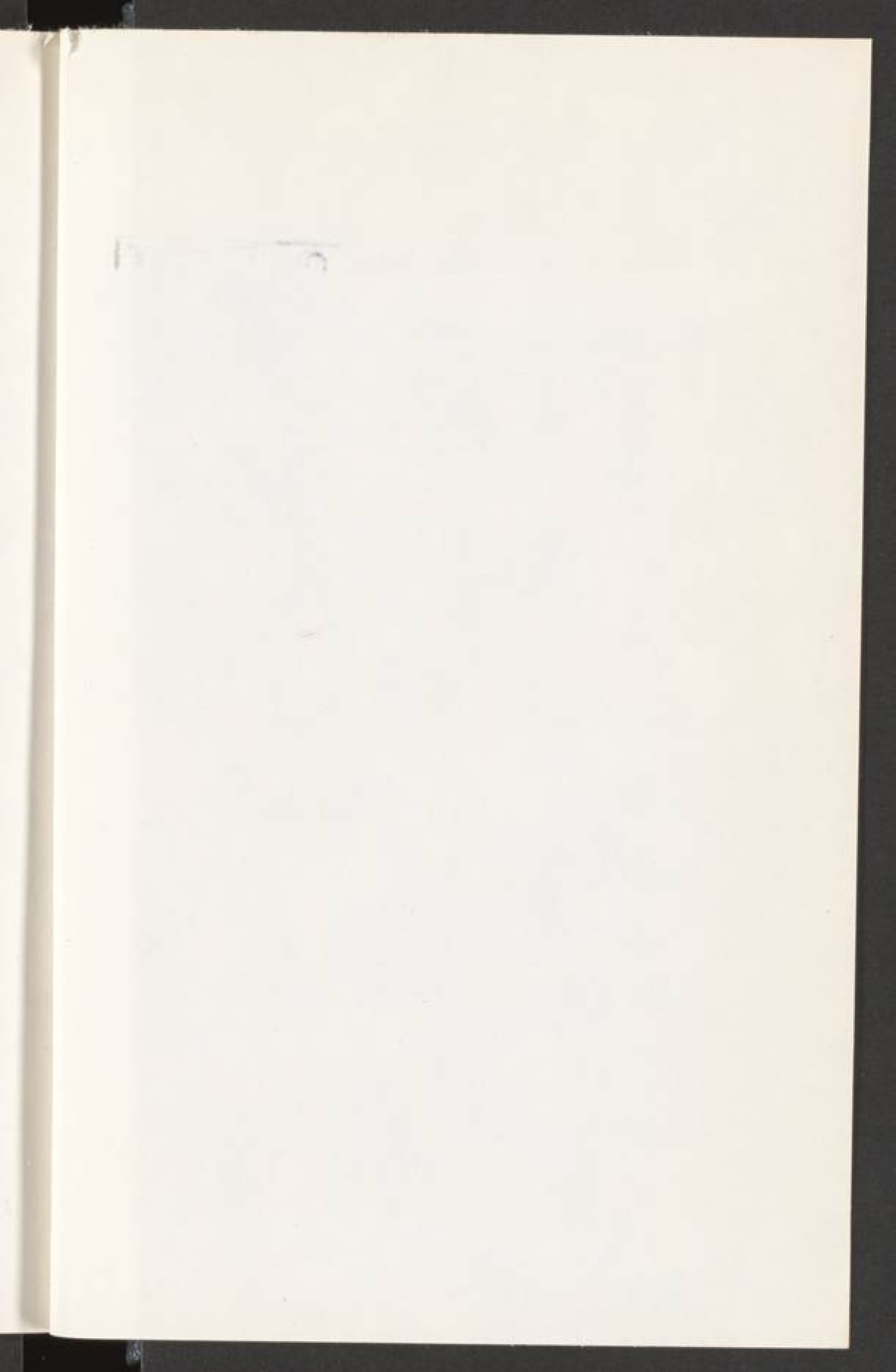
.MO

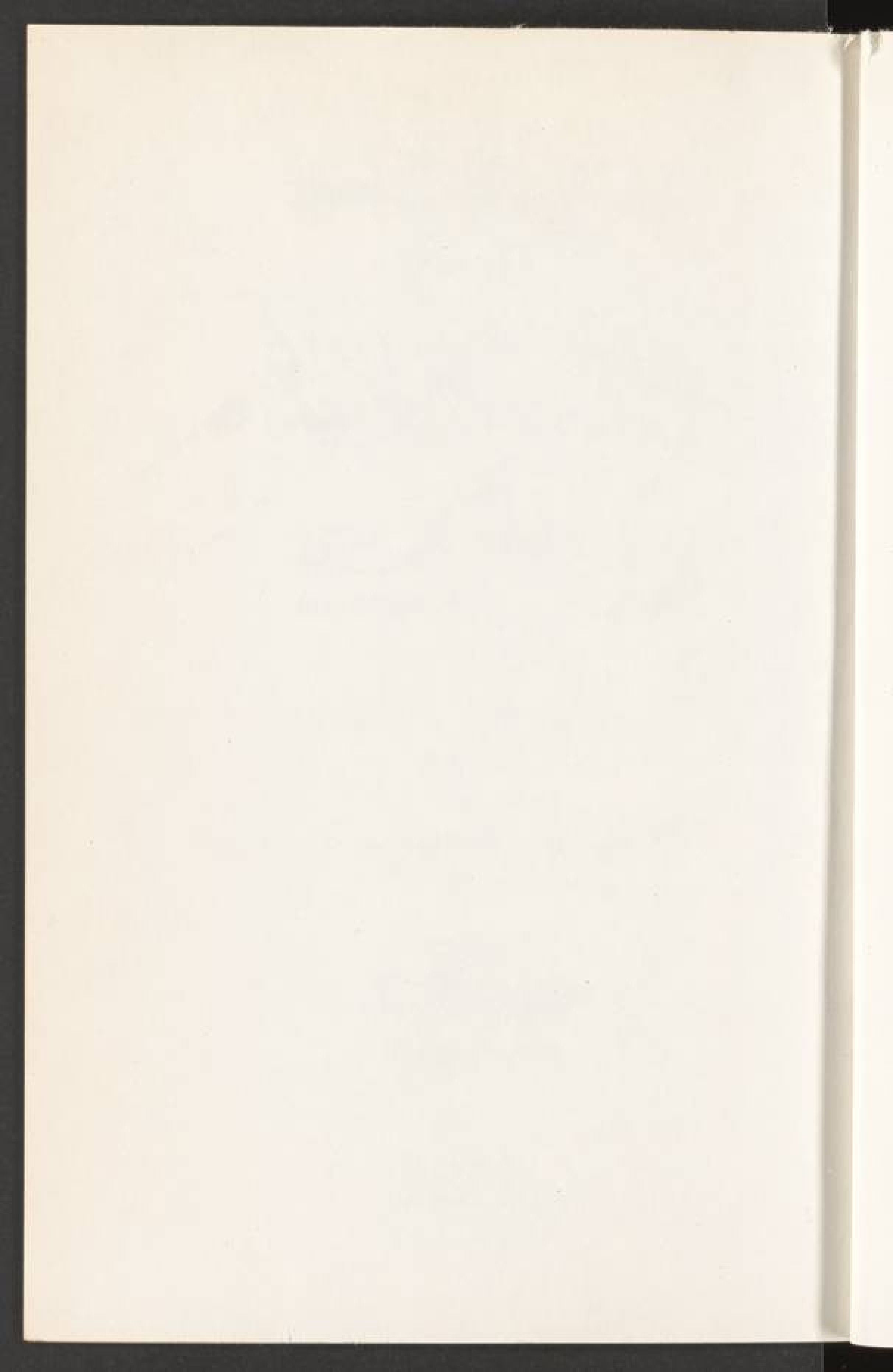
U

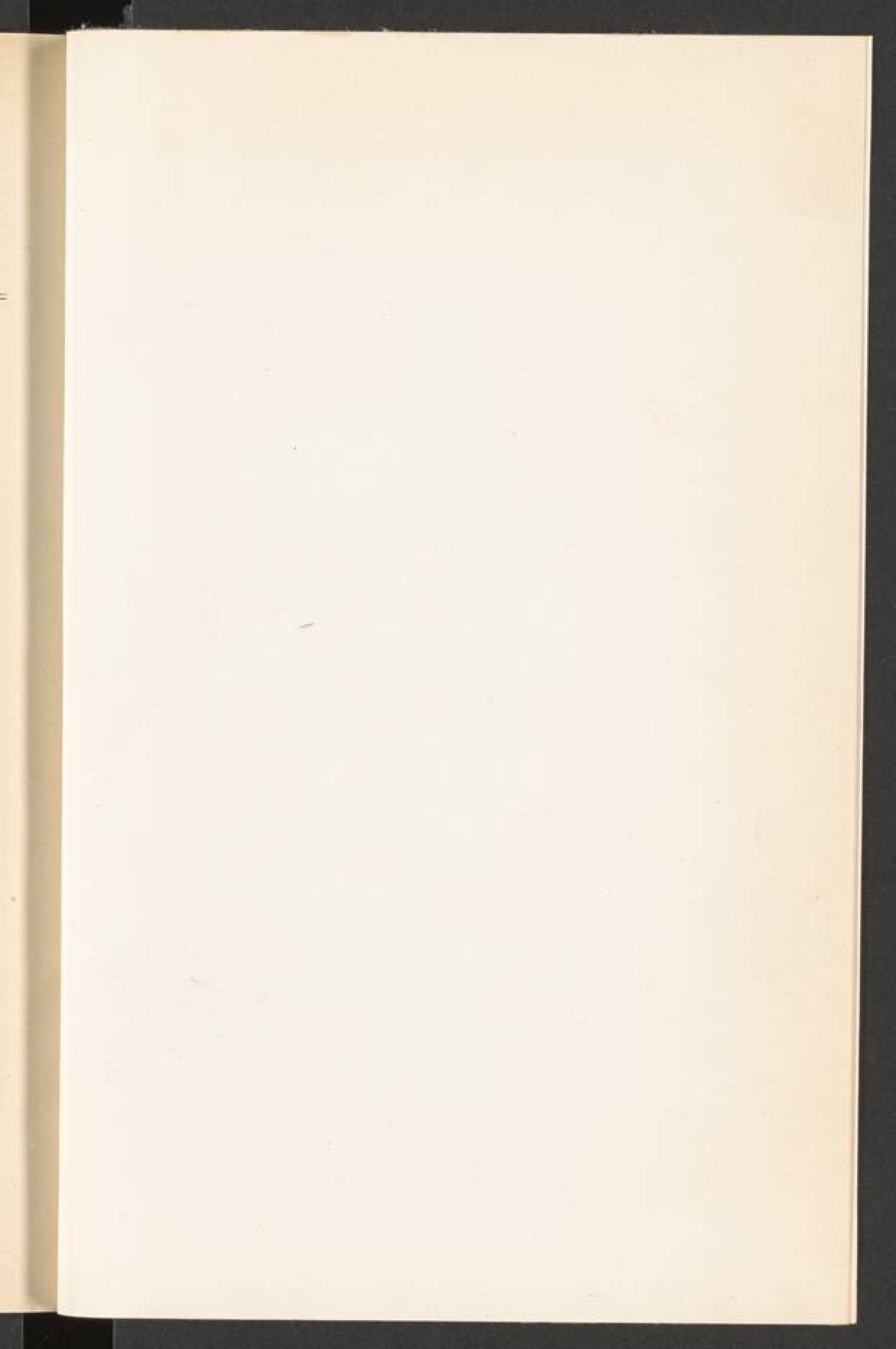
S


3 1142 00332 1125









Mez, Adam
/al-Hadārah al-Islāmīyah,

المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

الحضارة الإسلامية
في
القرن الرابع الهجري

DIE RENAISSANCE DES ISLAMS

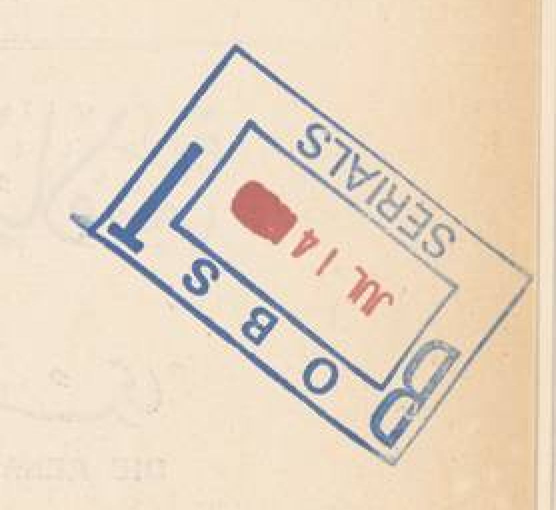
تأليف

الأستاذ آدم متز
ADAM MEZ
أستاذ اللغات الشرقية بجامعة « بال » بسويسرة

نقله إلى العربية

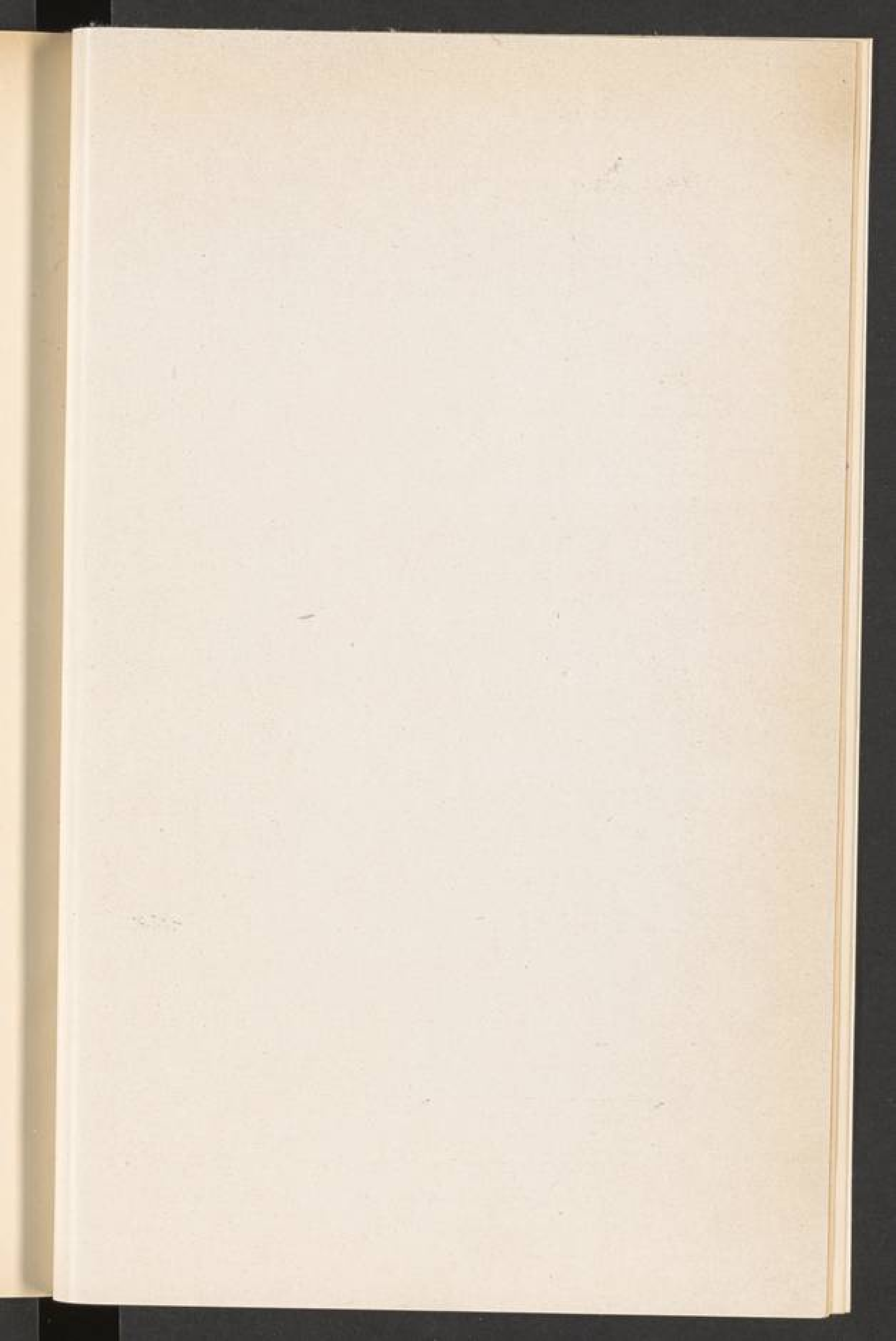
محمد عبد الهادي أبو ريدة
بكلية الآداب بالجامعة المصرية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م


SERIALS
JUL 14
O B S



صورة صاحب السمو الخليفة المعظم مولاى الحسن بن المهدى العلوى خليفة جلالة ملك
المغرب الأقصى ، وباعث النهضة العلمية ، ومؤسس المعهد الخليفى بتطوان
وبيت المغرب بمصر ، ومن آثار سموه نشر هذا الكتاب



تصدير

هذا كتاب فى الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، وهو العصر الذى بلغت فيه الحضارة والعلوم والفنون الإسلامية ذروتها .

ألفه الأستاذ « متز » باللغة الألمانية ، وقد لفت نظرى إليه فصول كانت تنشر فى مجلة (الثقافة الإسلامية) Islamic Culture التى تصدر فى حيدر أباد باللغة الإنجليزية ، وكان يقوم بترجمتها من الألمانية إلى الإنجليزية المرحوم خدابخش ، فأعجبنى منها دقة البحث وحسن الاستقصاء ، والاعتماد على المصادر الكثيرة المتنوعة اعتماداً يدعو إلى الدهش ، ويستخرج العجب ، من الصبر على البحث ، والدأب فى العثور على مادة الموضوع .

وقد أحاط المؤلف بنواحى الحضارة الإسلامية من سكان ومال وإدارة وتجارة وعلم وفن وسياسة واجتماع ، وكشف ببحثه عن نواح غامضة أخذ يعالجها فى صبر وأناة حتى جلاها ، وكانت طريقة معالجته تكاد تقتصر على جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر متعددة ، والاكتفاء بها ، من غير أن يدخل شخصيته وآراءه فى المسائل إلا فى القليل النادر .

وقد يؤخذ عليه أنه أحياناً يعسر عليه النص فيفهمه على غير وجهه ، وأحياناً يبتر النص وقد كان الإتيان به كاملا يوضح رأيه أو يخالف وجهة نظره ، كما يؤخذ عليه أنه يستدل فى بعض المسائل على رأى بنص واحد ، ولو عرضت النصوص كلها لخرج الباحث منها برأى يخالف رأيه — وأحياناً — نراه يحكم

عقيدته ونشأته واعتماده على النصوص فقط دون الروح والذوق الفنى ، والجو الإسلامى والوسط العربى ، يشرد فى رأيه ، ويخطئ فى نظره ، ولكن هذا كله لا يذهب بعظم قيمة الكتاب وفائدته للباحثين الإسلاميين ، فالكتاب يعلمنا طرق البحث العلمى ، ويقدم لنا درساً قيما فى صبر العلماء على معاناة البحث ، والاستناد إلى أكبر عدد من المصادر وغربلتها وأخذ خير ما فيها ، ويكشف لنا عن نواح من الحضارة مجهولة .

ولعل كثيراً من المآخذ التى عددناها يرجع إلى أن المؤلف قد عاجلته منيته والكتاب فى مسوداته لم يبيضها ، ولم يضعها فى شكلها الأخير .

***

رأيت الكتاب قد ترجم من الألمانية إلى الإنجليزية ثم ترجم إلى الأسبانية فقلت إن الأولى أن يترجم إلى العربية ، فأهلها هم وارثو الحضارة الإسلامية ، وهم أولى أن يطلعوا على كل ما كتب فيها .

فلما سنحت لى الفرصة لترجمته برغبة بيت المغرب فى نشر كتب قيمة فى هذا الموضوع وأمثاله ، انتدبت له الأستاذ محمد عبد الهادى أبا ريده ، كما انتدبته من قبل لترجمة كتاب الفلسفة الإسلامية للأستاذ بوور فأبلى فيه بلاء حسناً .

وعرفت أن كتابنا هذا يتطلب من مترجمه صبراً من جنس صبر المؤلف ، فكل صفحة منه تتضمن عدة مصادر ، واشترطت أن تنقل عبارات هذه المصادر بنص مؤلفها لا بمعناها ، وبعض هذه المصادر مخطوط بألمانيا وبعضها مخطوط بهولندا ، وبعضها مخطوط بفرنسا إلى غير ذلك ، فتقبل الأستاذ أبو ريده القيام بهذا الجهد كله بنفس طيبة تحب العلم ، وتصبر على الجهد ، وتستلذ العناء فى سبيل علم تنشره أو خير تقدمه ، وليس يعلم مقدار ما عانى فى ذلك إلا الله ومن

شاهده أثناء ترجمته وبحثه ، وكان من حسن حظه وحظ الكتاب وحظ القراء أن أُرسل إلى بعثة فى فرنسا ، فأتاحت له هذه فرصة طيبة للاطلاع على المصادر فى المكاتب الفرنسية ، ومكنت له من أن يسافر إلى برلين ، ويتصل بهولندا ليقوم بترجمة هذه المصادر كلها ، فله الشكر الجزيل على ما عانى ، وعلى ما قدم لقراء العربية من خير ، ولبيت المغرب الشكر على ما أنفق ، وعلى ما اتجه إليه من خدمة العلم .

أحمد أمين

كلمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يكافئ مزيدَ نعمه وجزيلَ إحسانه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذا كتاب يتناول الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، من حيث أصلها وتطوّرها ، اختاره الأستاذ الجليل أحمد أمين ، وشرفنى بإسناد ترجمته إلىّ ، ليكون جزءاً من النشاط العلمى المحمود الذى يبعثه بيت المغرب . ولقد قبلت هذه المهمة متهيّباً مُشفقاً ، بعد أن بَلَوْتُ الترجمةَ مراراً ، ولقيت منها ما لقيت .

غير أن الذى حبّب إلىّ القيام بهذا العمل ، أنه ليس فى كتب المستشرقين على كثرة تآليفهم إلا كتب قليلة جدا ، تبحث فى تاريخ الحضارة الإسلامية[1] على هذا النحو الذى سلكه مؤلف هذا الكتاب « آدم متز » المتوفى عام ١٩١٧ ميلادية . كان هذا العالم أستاذاً للغات الشرقية بجامعة بازل (Bâle) فى سويسرة ، ويدل هذا الكتاب الذى أقدمه لقراء العربية على سعة اطّلاع مؤلفه وتعمّقه فى موضوع البحث ؛ فقد تناول الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى من جميع نواحيها العقلية والمادية ، بعد أن راجع المصادر العربية وغير العربية مراجعة

(١) مثل الكتاب القديم الذى ألفه فون كريمر (A. Von Kremer) بعنوان :
Culturgeschichte des Orients unter den chalifen, Wien, 1875-9

واسعة النطاق ، حتى لتعدّ مراجعه بالمئات ؛ وقد بلغ عدد المرات التى أشار إليها فى الباب الواحد مئات أيضاً فى بعض الأحيان ؛ ومن جملة مصادره مخطوطات أربت على الأربعين موجودة فى مكاتب برلين وباريس وليدن وليبتزج وميونخ وفينا ولندن ؛ وبعض هذه المخطوطات لم يُنشر حتى الآن ، مع عظم قيمته ، كما أن المؤلف رجع إلى عدد كبير جدا من المجلات العلمية الأوربية التى تبحث فى شؤون الشرق .

غير أن الأجل أدركه وكتابه مكتوب بالآلة الكاتبة ، دون أن يتمكن من مراجعته مراجعة أخيرة تهيئه للطبع ومن غير أن يضع له مقدمة ، إلا أن قيمة هذا الكتاب كانت سبباً فى إظهاره للباحثين ، فنشره الأستاذ ريكيندورف (Reckendorf) عام ١٩٢٢ بعنوان « النهضة الإسلامية »[١]، ثم ترجمه إلى اللغة الأسبانية سلفادور فيلا (Salvador Vila) ونشره عام ١٩٣٦ ، وترجمه كذلك إلى اللغة الإنجليزية المرحوم صلاح الدين خدا بُخش الهندى الذى كان أستاذاً بجامعة كلكتا ، ومات قبل أن يتم الترجمة ، فأتمها الأستاذ مرجوليوث بجامعة أكسفورد ، ونشرت كاملة سنة ١٩٣٦ .

هذه الظروف فى مجموعها جعلت الترجمة شاقة كل المشقة ، لأن المراجع تُذكر بحيث لا يسهل الرجوع إليها ، فقد يُذكر الكتاب أحياناً من غير ذكر مؤلفه ولا ذكر المكان الذى يرجع الباحث إليه للمقارنة ، أو قد يُذكر المؤلف دون ذكر كتابه ، وفى كلتا الحالتين كان يندر أن يُذكر زمان الطبع أو مكانه أو رقم الكتاب فى المكتبة التى هو فيها إن كان مخطوطاً . لذلك كان لا بد لى من البحث عن هذه المصادر فى فهارس المكاتب الأوربية للمطبوعات والمخطوطات ومراجعة ذلك . وقد استطعت أن أحصل على المواضع التى أشار إليها المؤلف فى

(١) Heidelberg 1922, Carl Winters Universitaetsbuchhandlung.

المخطوطات ، وذلك بطلب تصويرها من مختلف مكاتب أوروبا ، كما راجعت بعضها بنفسى فى باريس وبرلين أثناء العام الماضى .

كما استطعت بعد مراجعة الأصول العربيـة أن أصحح أخطاء كثيرة فى النصوص أحياناً وفى المراجع فى أغلب الأحيان ، كما أنى زدت المراجع إيضاحا يسهّل الرجوعَ إليهـا ، وبقيت أشياء يسيرة جدا وضعت علامة استفهام إلى جانبها ليحاول معالجتها من شاء . وكذلك وسّعت بعض النصوص وبيّنت مناسبتها ، لتكون مفهومة للقارئ العربى ومشبعة لحاجته ، وذكرت أسماء الأعلام كاملة ، وعلّقت تعليقات قليلة جدا يتطلبها المقام .

على أنى راجعت كل شىء تقريباً على الأصول التى ذكرها المؤلف مراجعة دقيقة طلباً للدقة والضبط ، وراعيت فيما يتعلق بالمراجع العربيـة أن يكون الأسلوب متمشياً مع الأصل العربى الذى أشار إليه المؤلف ، لتكون بين يدى القارئ حضارة القرن الرابع بلغة القرن الرابع ولغة رجاله ومؤلفيه .

وإذا كان القارئ يرى فى بعض الأحيان ما يشبه التفكك فى العرض ، فمرجع ذلك إلى أن الكتاب كتاب علمى يُعنى بضبط الوقائع وإحصائها والاستنباط منها .

وقد ترجمت القسم الأول من هذا الكتاب وعرضته على الأستاذ أحمد أمين فتفضل بقراءته من أوله إلى آخره قراءة دقيقة استنفدت كثيراً من وقته الثمين ، وأبدى ملاحظات قيمة كان لهـا أكبر الفضل فى إخراج هذا الكتاب على هذا النمط .

ولا يفوتنى أن أعبر عن شكرى العظيم للأستاذ بول كراوس المدرس بكلية الآداب لمعاونتى فى فهم كثير من النقط الغامضة فى الأصل الألمانى .

لقد كان أستاذنا الجليل أحمد أمين موفقاً كل التوفيق فى اختيار هذا

الكتاب للترجمة ، لكي ينشره بيت المغرب فى جملة النشرات القيمة التى يخدم بها الثقافة العربية . وأرجو أن أكون قد وفقت أنا أيضاً فى القيام بهذا العمل على الوجه الذى يحقق النفع ، مع علمى بأن كل جهد فهو دون الكمال .

وإنى لأرجو أن أتمكن من ترجمة القسم الثانى وإكماله بالفهارس اللازمة للكتاب ، وإضافة ثَبْتٍ للمراجع خدمةً للقارئ .

كما أرجو أن يسد هذا الكتاب فراغا كبيراً فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، وأن يحرك همم الباحثين إلى العناية بتاريخ هذه الحضارة وما تستحقه من جهود .

والله ولى التوفيق وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

محمد عبد الهادى أبو ريدة

بكلية الآداب وعضو بعثة جامعة فؤاد الأول بباريس

أول المحرم سنة ١٣٥٩
٩ فبراير سنة ١٩٤٠

فهرس الكتاب

الموضوع | الصفحة

1

الفصل الأول

المملكة الإسلامية

فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) عادت المملكة الإسلامية إلى ما كانت عليه قبل الفتح العربى ؛ وقامت فيها دول صغيرة منفصل بعضها عن بعض ، كما كان الحال دائماً فى تاريخ الشرق ، إذا استثنينا فترات قصيرة. وقد تمّ هذا الانقسام حوالى سنة ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م.

وشرع المؤرخون يبيّنون الأجزاء التى آلت إليها المملكة كأنهم يصفّون حسابها ، وهم يعتمدون فى ذلك على مصدرٍ واحد ، كما يدلّ عليه ترتيبهم لهذه الأجزاء : تغلّب كل رئيس على ناحيته ، وانفرد بها ، فصارت فارس والرىّ وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بُوَيه ، وكرمان فى يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مُضر فى أيدى بنى حمدان ، وأصبحت مصر والشام فى يد محمد بن طُغْج ، والمغرب وإفريقيـة فى يد الفاطميين ، والأندلس فى يد عبد الرحمن الناصر ، وخراسان فى يد نصر بن أحمد ، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريديين ، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، ولم يبق فى يد الخليفة إلا بغداد وأعمالها [1]. ويشبّه

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه ج ٥ ص ٥٥٣ — ٥٥٤ ؛ تاريخ ابن الأثير ، الطبعة الأوروبية ج ٨ ص ٢٤١ — ٢٤٢ ؛ تاريخ أبى الفدا تحت سنة ٣٢٤ هـ (ج ٢ ص ٣٩٨ من الطبعة الأوروبيـة) ؛ المنتظم فى تاريخ الأمم لابن الجوزى مخطوط رقم ٩٤٣٦ بالمكتبة الأهلية ببرلين ص ٥٨ ا ؛ الجزء الرابع من كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين أيضاً رقم ٩٤٩١ ص ١٥٤ ب — ١٥٥ ا .

المسعودى فى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م فِعلَ أصحاب الأطراف ، وتغلُّبَ كل واحد منهم على الصقع الذى هو فيه بفعل ملوك الطوائف بعد موت الإسكندر[١] .

على أن شبحاً لسيادة الخليفة ببغـداد ظلّ وَهْماً ماثلا فى الأذهان ؛ فالمسعودى نفســه يتـكلم عن « عمل » أمير المؤمنين ، وينقل عن الفزارى أنه « من فرغانه وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ ، ومن باب الأبواب إلى جدّة ستمائة فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ثلاثمائة فرسخ ، ومن مكة إلى جدّة اثنان وثلاثون ميلا »[٢] . وكان أصحاب الأطراف أو ملوك الطوائف يعترفون للخيلفة بالسيادة ، ويقدّمون له الدعاء فى المساجد ، ويشترون منه ألقابهم ، ويرسلون إليه الهدايا فى كل عام ، فمن ذلك أنه لما تمّ لعضد الدولة ابن بُوَيْه فتحُ كرمان فى سـنة ٣٥٧ هـ ، أُنْفِذ إليه من الحضرة ببغداد عهدُ الخليفة وخِلعُهُ والعقدُ على أعمال كرمان كلها[٣] . وكان مظهر سلطان الخليفة منصبَهُ الجليل فحسب ، وهو يشبه فى ذلك قيصراً من قياصرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى ألمانيا ، يحكم الأمة الألمانية وليس له عليها إلا سلطان قليل . ولـكن معنى الخلافة لم يَفْقِدْ ، رغم هذا ، ما كان له من القوة والسلطان ، حتى إن بنى أمية فى الأندلس لم يتخذوا لأنفسهم لقب الخليفـة أو التسمية بأمير المؤمنين ، بل كانوا يسمون أنفسهم « بنى الخلائف » . ثم جاء الفاطميون فـكانوا أول من خرج على هذه القاعدة ، فلم يكتفوا بأن يكونوا أمراء ذوى سلطة دنيوية فقط ، بل أرادوا أن يكونوا الخلفاء الحقيقيين للنبى (عليه السلام) ،

(١) مروج الذهب للمسعودى ، الطبعة الأوروبية ج ١ ص ٣٠٦ ، ج ٢ ص ٧٣ والصفحات التالية .

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٣٢٣ .

فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان فى سنة ٢٩٧ هـ — ٩٠٩ م[١].
ثم أسرعت قيمة هذا اللقب إلى الهبوط حتى إن حاكم سجلماسة ، جنوبى جبال أطلس ، وكان حاكما سُنِّيا صغيراً ، سمّى نفسه بأمير المؤمنين فى سنة ٣٤٢ هـ — ٩٥٣ م ، وهو اللقب الذى كان من قبل يبعث فى النفس رهبةً عظيمة[٢].

ولما علم عبد الرحمن بالأندلس أن العلويين بإفريقية تلقّبوا بأمير المؤمنين اتخذ لنفسه أيضاً لقب الخلافة ، وتسمّى بأمير المؤمنين فى سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١م[٣].

ولم يكن من شأن هذا الانقسام وتعدد أمراء المؤمنين أن يؤدى إلى ضيق فى معنى الإسلام أو فى الوطن الإسلامى ، بل صارت كل هذه الأقاليم تؤلف مملكة واحدة ، سُميت مملكة الإسلام — وهو الاصطلاح الذى لم يستعمله المسعودى — تمييزاً لها عن مملكة الكفر ، وقامت وحدة إسلامية لا تتقيد بالحدود السياسية الجديدة . وهذا عكس ما نشأ عن اتحاد الإمبراطورية الألمانية فى القرن التاسع عشر[٤].

يعتبر المقدسى أن مملكة الإسلام تمتد من كاشغر فى أقصى المشرق إلى

---

(١) كتاب العيون ص ٧٠ أ نقلا عن ابن الجزار المؤرخ المغربى المتوفى عام ٣٩٥ هـ ١٠٠٤ م .

(٢) كتاب المُغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبى عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، طبعة الجزائر عام ١٨٥٧ ص ١٥١ .

(٣) أبو الفدا تحت عام ٣٥٠ هـ ، نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٤) ربما يقصد المؤلف أن حركة الوحدة الألمانية فى القرن التاسع عشر كان غرضها الوحدة ، ولكنها اقتصرت على بعض الألمان ، فلم تشمل النمسا وغيرها ، وترك أهل هذه البلاد كأنهم أجانب ، وكانوا يعاملون فى ألمانيا معاملة الأجانب . وهذا خلاف ما نشأ عن انقسام الدولة الإسلامية كما سيأتى . على أن كلام المؤلف ينطبق على الوحدة الألمانية فى القرن التاسع عشر ؛ أما اليوم فى عهد هتلر فقد اتجهت فكرة الوحدة الألمانية إلى إنشاء ما يسمى ألمانيا الكبرى على أساس الجنس واللغة ، وقد ضمت النمسا وغيرها وبقيت أقليات صغيرة كان ضمها سببا للحرب القائمة . (المترجم)

السوس الأقصى فى المغرب ، وأنها تُقْطَع فى نحو عشرة أشهر [١] . أما عند ابن حوقل فحدود مملكة الإسلام هى : شرقيها أرض الهند و بحر فارس ، وغربيها مملكة السودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسى ، وشماليها بلاد الروم وما يتصل بها من الأرمن واللاّن والران والخزر والبُلغار والصقالبة والترك والصين ، وجنو بيها بحر فارس [٢] .

وكان المسلم يستطيع أن يسافر داخل حدود هذه المملكة فى ظل دينه وتحت كنفه ، وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذى يعبده ، ويصلُّون كما يصلى ، وكذلك يجد شريعة واحدة وعُرْفا وعاداتٍ واحدة . وكان يوجد فى هذه المملكة الإسلامية قانون عملى يضمن للمسلم حق المواطن ، بحيث يكون آمناً على حريته الشخصية أن يمسَّها أحدٌ ، وبحيث لا يستطيع أن يسترقَّه أحد على أى صورة من الصور [٣] . وقد طوّف ناصر خِسرو فى هذه البلاد كلها فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، دون أن يلاقى من المضايقات ما كان يلاقيه الألمانى الذى كان يسافر فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر بعد المسيح عليه السلام .

وكان خلفاء الفاطميين على أشد منافسة لبنى العباس ، فكان يُخطب لهم فى اليمن والشام زيادة على إفريقية ومصر ، وكان لمذهبهم « دعاة منبثون فى كل صقع وناحية » [٤] ؛ وتدلنا هذه الحكاية الصغيرة على أن الخليفة الفاطمى كان يُنسب له فعلُ كل شىء : كان على صدر زبزب للسلطان عضد الدولة صورة لسبع من الفضة ، فسُرق ، وعجب الناس كيف كان هذا ، مع هيبة عضد الدولة

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ١٨٧٧ ص ٦٤ .
(٢) المسالك والممالك ، طبعة ليدن ١٨٧٢ ص ١٠ — ١١ .
(٣) لا يقول بغير هذا القول إلا بعض شرار الفرق كالقرامطة .
(٤) كتاب الفهرست لابن النديم ، الطبعة الأوروبية ص ١٨٩ .

المفرطة ، وكونه شديد المعاقبة على أقل جناية ، ثم قُلبت الأرض فى البحث عن السارق ، فلم يوقف له على خبر ، فقيل عند ذلك إن صاحب مصر دسّ من فعل هذا[١] . وفى عام ٤٠١ هـ بلغ من جراءة قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل أنه خطب للحاكم بأمر الله فى أعماله كلها ، وهى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ، وذلك تحت سمع العباسيين وبصرهم ، حتى أرسل الخليفة القادر إلى بهاء الدولة فسيّر إليه جيشاً ، فبعث قرواشُ يعتذر ، وقطع الخطبةَ للعلويين ، وأعادها للقادر[٢] . وكان الخليفة فى بغداد يجد بعض العزاء عما ضاع من سلطانه حين يرى مثلا أن السلطان محمود صاحب غزنة ، وهو الأمير الذى أخذ نجمه فى الصعود ، يُظهر له احتراما عظيما ، ويوقفه على انتصاراته ، ويشكو إليه ما يجد ، ففى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢م) مثلا أرسل الحاكم بأمر الله إلى السلطان محمود كتابا يدعوه فيه إلى طاعته ، فبعث محمود بالكتاب إلى الخليفة القادر بعد أن خرّقه وبصق فى وسطه[٣] .

وكان النزاع على أشد ما يكون فيما يتعلق بمكة والمدينة من بين الأراضى المقدسة ، لأن امتلاكهما أصبح له شأن أكبر من ذى قبل ، ذلك أنه لم توجد من قبل مناسبة للبحث فى علامة الخليفة الحقيقى ؛ أما الآن فقد ظهرت من ثنايا النزاع حول هذا المنصب نظرية جديدة هى أن أمير المؤمنين الحقيقى هو من كان مَلِكا للحرمين[٤] . وهذه هى النظرية التى يُستند إليها اليوم فى إثبات حق العثمانيين فى الخلافة[٥] .

(١) المنتظم ص ١١٨ أ .
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٦ — ١٥٧ ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبعة (W. Popper) بكلفورنيا ص ١٠٧ .
(٣) نفس المصدر ص ١١٤ .
(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٢ .
(٥) والآن قد تغير هذا الموقف بعد إلغاء العثمانيين للخلافة منذ عام ١٩٢٤ (المترجم).

وكان العلويون فى هذا النزاع على الأراضى المقدسة هم الخصم الثالث الذى يأتى آخراً فيفوز بالغنيمة ، وكان الحسنيّون منهم يتمتعون دائما حول المدينة بمال وجاه عظيم ، ولذلك استطاعوا أن يفتحوا مكة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، دون أن يعترض عليهم الطرفان الآخران ، وهما العباسيون والفاطميون . ونرى فى أواخر هذا القرن فى البلاد المقدسة الحالة التى نراها اليوم . فالمدينة هى مركز الحركة السياسى — وقد كانت العاصمة السياسية قديما — ومنها يسير التيار السياسى إلى مكة ، وكذلك نجد الأشراف سادة للحرمين[١] .

وفى هذا العصر نجد مملكة الإسلام تعود من الناحية الجغرافية إلى حدودها الأولى ، وتفقد ممتلكاتها فى الغرب ، وكان البحر الأبيض المتوسط بعد عصر شرلمان قد أصبح بحراً عربيا ؛ واستطاع العباسيون منذ أوائل القرن الرابع أن يحافظوا على حدودهم الغربية من اعتداء البوزنطيين ، وكانت أخبار الانتصارات تقرأ من أعلى المنابر ببغداد . وفى عام ٢٩٣ هـ — ٩٠٤ م أخذ قرصان المسلمين مدينة سالونيق ، ثانية مدن الدولة البوزنطية ، وهى مدينة كبيرة محصّنة بأسوار وحصون وأبراج ، وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً[٢] .

غير أن زحف الروم بدأ سنة ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م باستيلائهم على مدينة ملطيّة[٣] . وفى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م وافت جيوش الروم إلى ديار بكر ، و بلغوا قرب نصيبين ، وطلبوا من أهل الرُّها أن يدفعوا إليهم المنديل الذى كان المسيح عليه السلام مسح به وجهه ، وصارت صورة وجهه فيه ، وذلك فى مقابل إطلاق

---

(١) Snouck-Hurgronje, Mekka, 1, 95. ، وقد تغير الموقف اليوم فى الحجاز تغيراً كبيراً (المترجم) .

(٢) Joannes Carmeniata, Corpus script. historiae byzant., Bonnae, S. 491, 589. وكان هذا المؤلف إذ ذاك من بين الأسرى .

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٩ .

عدد من أسرى المسلمين ، وكوتب الخليفةُ المتّقى فى ذلك ، فاستحضر الوجوه من أهل مملكته لأخذ رأيهم ، وقام جدال عظيم بينهم ، فذكر البعض أن هذا المنديل منذ الدهر الطويل فى كنيسة الرُّها ، لم يلتمسه ملكٌ من ملوك الروم ، وأن فى دفعه إليهم غضاضةً على الإسلام ، لأن المسلمين أحق بمنديل عيسى عليه السلام ، وفيه صورته . فقال على بن عيسى ، وهو الوزير المُسِنّ إذ ذاك : إن خلاص المسلمين من الأسر ، وإخراجهم من دار الكفر ، مع ما يقاسونه من الضنك والضرّ أوجب وأحق ، ووافقه جماعة ممن حضر على قوله ، وسُلِّم المنديل إلى الروم ، فحملوه إلى القسطنطينية ، وخرج البطريرك وكبار رجال الدولة لاستقباله ، ومشى أهل الدولة بأجمعهم بين يديه بالشمع الكثير ، وحُمل إلى الكنيسة العظمى أجْيا صوفيا ، ومنها إلى البلاط[1] .

ويشكو المسعودى من « ضعف الإسلام فى هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج ، وعدم الجهاد ، وانقطاع السبيل ، وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس وتغلُّبه على الصقع الذى هو فيه ، كفعل ملوك الطوائف بعد مضىّ الإسكندر ... ولم يزل الإسلام مستظهراً إلى هذا الوقت ، فتداعت دعائمه ، ووهى أُسُّه ، وهى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، فى خلافة أبى إسحاق إبراهيم المتقى لله أمير المؤمنين ، والله المستعان على ما نحن فيه »[2] .

أما الإمبراطورية البوزنطية فقد أسعدها الحظ فى هذا القرن بثلاثة قواد ذوى كفاية نادرة ، تعاقبوا على عرشها ، وهم : نقفور فوكاس (Nikephoros

---

(١) تاريخ سعيد بن البطريق ، يليه تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى مخطوط رقم ٢٩١ بالمكتبة الأهلية بباريس ص ١٨٥ ا — ب ، على أن المؤلف يشير أحيانا إلى نسخة مطبوعة لعلها التى ذكرها بروكلمان فى ملحق كتابه : تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ٢٢٨ من طبعة ليدن ١٩٣٧ . وقد وحّدت الإشارة فجعلتها كلها بحسب مخطوط باريس لصعوبة الحصول على النسخة المطبوعة . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٣ والتى تليها .

Phokas) ، وزيمسكيس (Zimiskes) ، وباسيليوس (Basilios) . وقد مكث آخرهم وأكفؤهم على رأسها خمساً وخمسين سنة . وفى سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م فتح نقفور جزيرة أقريطيش بعد حصار دام ثمانية أشهر [١] ، وكانت هذه الجزيرة أكبر عش للقرصان المسلمين . وبعد خمس سنين سقطت قبرص فى يد الروم ، فلم تعد للمسلمين السيادة المطلقة التى كانت لهم فى البحر الأبيض المتوسط. وفى سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م ورد نقفور حلب ، وفى سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥م فتحت مدينة المصيصة [٢] ، وأخيراً وقعت طرسوس ، مع ما كان لأهلها من شجاعة ، وكانت أكبر حصن للإسلام فى وجه المغيرين عليه ، وقد أخذها الروم بعد أن عظُم بها الغلاء والوباء حتى بلغ الأمر بالناس إلى أكل الميْتة . وفى عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٨ م فتح نقفور حماة وحمصا ، وأخذ من حمص رأس القديس يوحنا المعمدانى ، وكذلك فتح مدينة اللاذقية . وفى الشتاء التالى سقطت مدينة أنطاكية بعد أن كان يُخيَّل للناس أنها لن تُغْلَب [٣] .

ولما أغار الروم فى سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م على الرُّها ونواحيها ، وساروا فى ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين ودخلوا ديار بكر ، فغنموا واستباحوا وقتلوا وسبوا وخرّبوا البلاد ، قصد بغدادَ من نجا من أهل تلك البلاد مُسْتَنْفِرِين ، واجتمع معهم أهل بغداد فى الجوامع ، وأصابهم جميعاً غضب اليائسين ، فكسّروا المنابر ومنعوا الخُطَبَ ، وقصدوا دار الخليفة فحاولوا الهجوم عليه ، واقتلعوا بعض شبابيك دار الخلافة ، وخاطبوا الخليفة بالتعنيف ، فرماهم الغلمان بالنشاب من

5

---

(١) يحيى بن سعيد ص ٩٢ ب .
(٢) نفس المصدر ص ٩٤ ب .
(٣) نفس المصدر ص ٩٥ ب ، Michael Syrus, S. 551 .

الرواشن (١) . وقد اجتمع من استنفار العامة للغُزاة جمعٌ عظيم من العامة والأجلاد يبلغ زهاء ستين ألفا ، فطلب عزّ الدولة بختيار بن بويه من الخليفة المطيع لله أن يبعث له مالا يُخرجه للغُزاة فامتنع الخليفة بحجة أن الأموال لا تُجبى إليه ، فلا تلزمه النفقة على الغزاة ، وهدّد بالاعتزال ، وتردّدت الرسائل بينه وبين بختيار ، حتى بلغ الأمر التهديد فبذل المطيع أربعمائة ألف درهم ، واحتاج فى ذلك إلى بيع ثيابه وأنقاض داره من ساج ورصاص ، وشاع بين الحجّاج « أن الخليفة قد صودر » . ثم تحزّب الغُزاة إلى سنّيين وشيعة ، ووثب بعضهم على بعض ، وأعرضوا عن ذكر الروم جانباً ، ولما قبض بختيارُ المال صرفه فى مصالحه ، وبطل حديث الغُزاة (٢) .

وفى عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م فُتحت بعلبك وبيروت ، وأُخذت من بيروت صورة المسيح التى تنسب إليها الخوارق ، ونقلت إلى الكنيسة التى أسسها زيمسكيس فى قصر البرنز بالقسطنطينية . أما أهل دمشق فقد اضطروا إلى أن يفتدوا أنفسهم بدفع ستين ألف دينار ، يحملونها للروم فى كل عام (٣) .

أما فى جنوب المملكة الإسلامية فقد حافظ المسلمون على الحدود التى كانت للرومان قديماً ، وصدّوا هجمات النوبة . ويحدثنا المسعودى وهو بمصر فى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م أن النوبة كانوا قد صولحوا منذ ولاية عبد الله بن سعد على رءوس من السّبى معلومة ، وأن هذا السبى صار سنّة جارية فى كل سنة إلى عهده ،

(١) يحيى بن سعيد ص ١٠٠ ب — ١٠١ ا ، والمنتظم ص ١٠٤ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٥٤ — ٤٥٥ ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى طبعة ليدن ١٨٥٥ ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ويحيى بن سعيد ص ١٠٠ ب — ١٠١ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ، وأبو المحاسن فى نفس المصدر ج ٢ ص ٤٣٦ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٠٢ ب ، Jean Ebersolt, Le grand palais de Costantinople, Paris, 1910, p. 22

ويُدعى هذا السبْى بأرض مصر والنوبة بالبَقْط ، ويقبضه نائب أمير مصر المقيم ببلاد أسوان[١] . وفى عام ٣٤٥هـ — ٩٥٦م سار عسكر مصر وفتحوا مدينة أبريم ، وهى آخر حصون النوبة مما يلى مصر[٢] . وفى أقصى الجنوب الغربى دخلت فى الإسلام مدينة أودغشت ، وهى المدينة التجارية الكبرى فى غرب الصحراء الإفريقية ، فصارت هذه المدينة أقصى نقطة للإمبراطورية الإسلامية من ناحية وسط إفريقية[٣] .

على أنه إذا كان سلطان الإسلام ينحسر عن بلاد فى الغرب ، فقد كان يقابل ذلك تقدُّمُه المستمر فى الشرق . ففى عام ٣١٣هـ — ٩٢٥م فتحت بلوخستان وكانت حتى ذلك الحين على الوثنية[٤] . وفى سنة ٣٤٩هـ — ٩٦٠م أسلم من الأتراك نحوٌ من مائتى ألف خركاة[٥] وعلى حين أنه فى أواخر القرن الثالث الهجرى كانت أسبيجاب[٦] آخر مدينة للمسلمين مما يلى الترك ، فإن

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) يحي بن سعيد ص ٩١ ب ؛ وكتاب الخطط للمقريزى طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) وقد ذكر المهلبي الذى كتب فى عام ٣٧٠ هـ . أن ملك كوكو بالسودان يظاهر رعيته بالإسلام ، وأكثرهم يظاهر به (معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٣٢٩ من الطبعة الأوروبية) ، ولكن البكرى وابن سعيد قالا فيما بعد إنهم وثنيون (انظر J. Marquart, (Beninsammlung, S. XCVII.

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٩ .

(٥) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٠ ، وكتاب العيون ص ٢٦٩ ا .

(٦) كتاب البلدان لليعقوبى طبعة ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٢٩٥ . وقد قال أحد الفرس المتأخرين إن أسبيجاب هى مدينة صيرم التى تقع على مسافة سبعة عشر كيلومترا شرق كُنْسِكَنت ، وهذا يتفق مع تعيين ابن خرداذبة لمكانها . وقد وافق على هذا أيضاً ليفى (Levi : (Archaeological Journey to Turkestan, p. 35 ، وجرينار (Grenard : JA, 1900, t. 15, (S. 27, Anm. 4 ، ولكن هذا غير محقق لأن السمعانى (المتوفى عام ٥٦٢ هـ — ١١٦٧ م) وكان يعرف آسيا الوسطى جيدا يتكلم عن أسبيجاب باعتبارها مدينة كبرى (انظر كتاب تقويم البلدان لأبى الفدا طبعة باريس ١٨٤٠ ص ٤٩٤) ، ويصرح ياقوت فى معجم البلدان (ج ١ =

6

دخول بغراخان فى سلك أمراء المسلمين جعل حدود المملكة الإسلامية تمتد إلى حوض نهر التاريم . ويعتبر المقدسى أن مملكة الإسـلام تنتهى حدودها إلى كاشغر[١] . وفى عام ٣٩٧ هـ — ١٠٠٦ م كان أهل بلاد خُتَنْ مسلمين[٢] . وفى ذلك الوقت شمّر السلطان محمود بن سبكتكين ، صاحب غزنة ، وأخضع بلاداً واسعة من بلاد الهند لسلطان الإسلام ، وكانت علامةُ الثقة عنـد ملوك الهند أنهم يقطعون أصابعهم ، « وكان عند السلطان محمود من أصابع من هادنه الـكثير »[٣] .

ولا نريد أن نتعرض هنا للبحث فيما إذا كان انقسام دولة بنى العباس دليلا من دلائل التدهور ، إذا نظرنا فى هذه المسألة بمنظار هـذا العصر الذى نعيش فيه ، والذى يحكم فى مثل هذه الأحوال على أساس الـكمّ وعلى أساس ما يسمونه بالوحدة ، على أننا نستطيع أن نقول إن الإمبراطوريات العالمية الـكبرى ترتـكز دائمـا إما على شخص زعيم عبقرى ، وإما بنوع خاص على وجود طبقة من أهل الخشونة والقوة الوحشية ، ووجود هذه الإمبراطوريات على كلتا الحالتين وجود غير طبيعى . ولسنا نجد فى مصر على عهد الأخشيد وكافور والفاطميين ما يدل على تأخرها ، بل هى قد كانت منيعة الجانب ، وافرة العدة ، عظيمة الخيرات ؛ وكذلك يشهد الرّحالون بمناقب السامانيين وعدلهم وشريف أعمالهم ، وما كان لمملـكتهم من عظمة ومَنَعَة[٤] . أما بغـداد فهى التى قد

= ص ٢٥٠) بأن أسبيجاب خربها التتر عام ٦١٦ هـ — ١٢١٩ م ، ولـكن الرحالة تشاو تشنج (Caucung) يحكى أنه فى نوفبر سنة ١٢٢١ م نزل بمدينة تسمى ساى — لان ، (انظر : (Bretschneider, Mediaeval Researches. I, S. 74).

(١) المقدسى ص ٦٤ .

(٢) J. Marquart, Guwainis Bericht über die Bekehrung der Uiguren, SBBA, 1912, S. 496.

(٣) المنتظم ص ١٨١ أ — ب .

(٤) ابن حوقل ص ٣٤١ والصفحات التالية .

تنكّرت لها الأيام ، وذلك منذ عام ٣١٥ هـ — ٩٢٧ م حين أرهَجها العيّارون ، وعاثوا فيها فساداً ، وأعملوا فيها النهب[١] لأول مرة ، ثم صار أمرهم يتفاقم كلما ضعفت الحكومة ، وكانت أسوأ أيامها السنوات التى أفلت فيها الزمام من يد الحكومة فيما بين مقتل بجكم ودخول بنى بويه ، أى ما بين عامى ٣٢٩ هـ و٣٣٤ هـ = ٩٤٠ م — ٩٤٥ م . وكأنما كان سقوط رأس القبة الخضراء التى فى قصر المنصور بمدينة السلام عام ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م إرهاصاً بأفول نجم بنى العباس ، وكانت تلك القبة « تاج بغداد وعَلَم البلد » ، وكان ليلة سقوطها مطرٌ عظيم ورعد و برق شديد[٢] . وفى سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م استطاع ابن حمدى ، وهو لص ظهر ببغداد على رأس جماعة من أصحابه ، أن ينتهب أموال أهل بغداد ، وكان قد أعيي السلطان أمرُه ، وخلع عليه ابنُ شيرزاد ، ووافقه على أن يصحّح فى كل شهر خمسة عشر ألف دينار مما يسرقه هو وأصحابه ، فكان يستوفيها ويأخذ البراءات وروزات الجهبذ بما يؤديه أولا فأولا .

وكان ابن شيرزاد فى ذلك الوقت كاتباً للقائد التركى المسمى توزون ، فكان أمرُ الحكومة فى يديه ، ومضى على الناس فى أيام ابن حمدى وقتٌ تحارسوا فيه بالبوقات فى الليل ، وامتنع عليهم النوم خوفا من كبسات هذا اللص وأصحابه[٣] . وخلت المنازل ببغداد من أهلها ، وصاروا يطلبون من يسكن الدار بأجرة يُعطاها ليحفظها ، وأُغلقت عدة حمامات وتعطلت أسواق ومساجد[٤] ، وأُضيف إلى هذا ما كان بين السنّيّين والشيعة من نزاع قديم ، فكانوا يُلقون النار

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٦ .
(٢) المنتظم ص ٦٧ ا وكتاب العيون ص ١٩١ ب .
(٣) كتاب العيون ص ٢٠٦ ب .
(٤) المنتظم ص ٧٢ ا .

بعضهم على بعض دائما . وفى سنة ٣٦١ هـ — ٩٧١ م قامت بالكرخ فتنة ، فأرسل الوزير حاجبه لقتال العامّة ، وكان شديد العصبية للسنّة ، فاضطر إلى إلقاء النار فى أماكن كثيرة ليقضى على الفتنة ، فاحترق الكرخ حريقاً عظيما ، وكان عدة من احترق فيه سبعة عشر ألف إنسان ، وثلاثمائة دكان ، وثلاثة وثلاثين مسجداً ، ومن الأموال مالا يُحصى . وبدأ الناس ينتقلون من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى ، ولا يزال هذا الجانب إلى اليوم أعمر وأكثر سكاناً[٢] . وفى عام ٣٣٢هـ — ٩٧٢ م تولى ابن شيرزاد القيادة بعد موت توزون ، فأخذ فى المصادرات ، وقسَّط على العمال والكتاب والتجار وسائر الناس ببغداد مالا لأرزاق الجند ، وكثرت الضرائب حتى تهارب الناس من بغداد وفسد الأمن ، وكثرت كبسات اللصوص ، حتى إنهم دخلوا دار أحد القضاة ، فتسلق حائطاً لينجو منه ، فوقع ومات[٢] .

وفى هذا العصر يصف المقدسى بغداد فيقول إنها « كانت أحسن شىء للمسلمين ، وأجلّ بلد ، وفوق ما وصفنا ، حتى ضعُف أمر الخلافة ، فاختلّت ، وخفّ أهلها ، فأما المدينة فخراب ، والجامع فيها يُعمر فى الجُمَع ، ثم يتخللها بعد ذلك الخراب . . . وهى فى كل يوم إلى ورا ، وأخشى أنها تعود كسامرا ، مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان »[٣] . ويذكر الصابى عن جماعة من الناس أنهم فى عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠١ م شاهدوا صينيّة الكرخ فيما بين طرفى الحذائين والبزازين ، والفواخت والعصافر تمشى فى أرضها انتصافَ النهار ، وفى الوقت الذى جرت العادة بازدحام الناس فيه بهذا المكان ، وذلك لأن البلد

(١) يحيى بن سعيد ص ١٠٠ ب — ١٠١ أ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٦٢ .
(٢) كتاب العيون ص ٢٢٩ ب — ٢٣٠ أ .
(٣) المقدسى ص ١٢٠ .

كان قد خربَ ، وانتقل أهله عنه[١] . ولأجل هـذا نجد المقدسى يشيد بذكر مدينة الفسطاط بمصر ، ويقول إنها « ناسخ بغداد ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ، وأجلّ من مدينة السلام »[٢] . ولقد ظلت عاصمة مصر منذ ذلك الحين أكبر مدن الإسلام .

---

(٣) كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء لأبي الحسن الهلال بن المحسّن بن إبراهيم الصابى ، طبعة أمدروز ببيروت سنة ١٩٠٤ ، ص ٤٣٩ .

(٤) المقدسى ص ١٩٧ .

الفصل الثاني

الخلفاء

لما ثَقُلت العلة على الخليفة المكتفي في عام ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م كان الوزير أبو أحمد العباس بن الحسن راكباً من داره يوماً ومعه ، كما جرت العادة ، أحد الكُتّاب الأربعة الذين يتولون الدواوين ، فشاوره فيمن يُرشَّح للخلافة بعد المكتفي ، وكان الوزير يميل إلى ابن المعتز ، فأجابه الكاتب ، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات الذي صار وزيراً فيما بعد ، أنه يجب ألا يولَّى في هذا الأمر من عرف دار هذا ونعمة هذا و بستان هذا ، ومن لقي الناس ولقوه ، وعرف الأمور ، وحنّكته التجارب ، فقال الوزير : صدقتَ والله ياأبا الحسن ، فمن نقلّد ؟ فأشار ابن الفرات بتقليد جعفر بن المعتضد (الخليفة المقتدر) ، « فإنه صبيّ لا يدري أين هو ، وعامة سروره أن يُصرَف من المكتب » ، فمالت نفس الوزير إلى ذلك وعمل على تقليد المقتدر ، وكان صبيا في الثالثة عشرة[1] .

ونظراً لأن المقتدر كان صغيراً فقد كان انتخابه للخلافة انتخاباً غيرَ شرعيّ ، ولقد ذُبح أحد القضاة ، لأنه أطاع ضميره حين قالوا له : تبايع للمقتدر ، فقال : هو صبيّ ، ولا تجوز المبايعة له[2] .

ولكن الجماعة المتآمرين أخطأوا التقدير ، فإن أمّ المقتدر ، وهي أمُّ ولد رومية ، قبضت على زمام الأمر هي وأولياؤها بيد القوة والحزم ، فكانت تولّى

(١) كتاب العيون س ٥٩ ب ، وكتاب الوزراء س ١١٤ — ١١٦ .

(٢) صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعيد القرطبي ، طبعة دي غوى ، ليدن ١٨٩٧ س ٢٨ .

وتغزل ، وحالت بين القوم و بين انتهاب ما فى بيت المال . ومما يدل على قوة عزيمتها و بعد نظرها طريقتها فى العناية بمراقبة ما كان يقرؤه أبناؤها : يحدثنا الصولى أنه كان يوماً عند الراضى ، يقرأ عليه شيئاً من شعر بشّار ، و بين يدى الراضى كتبُ لغة وكتب أخبار ، إذ جاء خدم من خدم السيدة جدته ، وهى شغب أم المقتدر ، فأخذوا جميع ما بين أيديهما من الكتب فجعلوه فى منديل أبيض كان معهم ومضوا ، فوجم الراضى واغتاظ ، فسكّن منه أستاذُه ، وأفهمه أنهم أرادوا أن يمتحنوا الكتب ، ولما مضت ساعتان أو نحو ذلك ردّوا الكتب بحالها ، فقال لهم الراضى : قولوا لمن أمركم بهذا : قد رأيت هذه الكتب ، وإنما هى حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار وكتب العلماء ، ومن كمّله الله بالنظر فى مثلها ، وينفعه بها ، وليست من كتبكم التى تبالغون فيها مثل عجائب البحر وحديث سندباد والسنّور والفأر ؛ فخاف الصولى أن يؤدّى الخدم قوله ، فيقال : من كان عنده ؟ فيذكرونه ، ويلحقه من ذلك مكروه ، فقام إلى الخدم فسألهم ألاّ يعيدوا قولَه ، فقالوا : والله ما نحفظه ، فكيف نعيده ؟ [(١)] وقد لبث المقتدر على عرش الخلافة زهاء خمسة وعشرين عاماً ، تحت جناحى أمّه ، وقد خُلع فى أثناء هذه المدة مرتين ، فكان يثور عليه بعض قواده ويزيلونه عن سرير ملكه يوماً أو يومين ، ثم يعود إليه ، ولم يخرج فى جيش ليقاتل إلا مرة واحدة ، وقد قُتل فيها ، وذلك أن قواده طلبوا منه أن يخرج معهم لمحاربة مؤنس ، فأبى ، وما زالوا به حتى خرج كارهاً ، وقد جهِدت به أمّه ألا يخرج ، وكشفت عن ثدييها ، وبكت ، ولكن غلب القضاء ، فخرج وعليه البُردة النبوية التى يتوارثها الخلفاء ، ووافى أصحابُ مؤنس ، فضربه رجلٌ منهم من خلفه ضربة سقط منها إلى

---

(١) كتاب الأوراق للصولى ، مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٨٣٦ ص ٨ — ٩ .

الأرض ، فأضجعه وذبحه بالسيف ، وسُلبت ثيابه والبردة فيها حتى سراويله ، وترك مكشوف العورة إلى أن مرّ به رجلٌ من الأكَرَة ، فستر عورته بحشيش . وكان المقتدر رَبْع القامة ، إلى القصر أقرب ، دُرّىّ اللون ، صغير العينين ، أحور ، حسن الوجه واللحية أصهبهما [١] ، وكل ما يحكى عنه يدل على الهدوء وحب الخير وسلامة الصدر : كان الوزير أبو الحسن على بن عيسى يُطلِق فى كل شهر فى جملة نفقات المطبخ لثمن المسك نحو ثلاثمائة دينار ، وكان يوماً عند الخليفة فدار بينهما الحديث ، وعلم الوزير من سياق الكلام أن الخليفة لا يأكل طعاماً فيه مسك ، ولا يُطرح له من المسك إلا اليسير فى الخشكنانج ، ثم نهض الوزير ومشى للخروج ، فأمر المقتدر بالله بردّه ، وقال له : أظنك تنصرف الساعةَ ، وتفتتح نظرك باحتضار المتولى للمطبخ ومواقفته على ما جرى بيننا فى أمر المسك ، وتُسقطه ، فقال : كذلك هو يا أمير المؤمنين ، فضحك الخليفة وقال : أحب ألا تفعل ذلك ، فلعل هذه الدنانير تنصرف فى أقوات ونفقات قوم ، ولا أريد قطعَها عنهم [٢] ، وكان المقتدر كثير الشراب [٣] .

ثم انتُخب أخوه القاهرُ خليفةً بعده ، وكان القوم قد اتعظوا بحكم المقتدر ، فعيّنوا القاهر ، وقالوا : هو كهل ، ولا أُمَّ له ، فنرجو أن تستقيم أمورنا معه [٤] . وكان القاهر أيضاً مربوعاً ، حسن الجسم ، أبيض ، تعلوه حمرة ، أعين ، وافر اللحية

(١) التنبيه والإشراف للمسعودى طبعة دى غوى سنة ١٨٩٤ ، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ومسكويه ج ٥ ص ٣٧٩ ، وعريب ص ١٧٦ ، والصفحات التالية ، وكتاب العيون ص ١٣٠ ا .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبى ، انظر المقدمة الإنجليزية التى كتبها أمدروز لكتاب الوزراء المتقدم ص ١١ .

(٤) عريب ص ١٨١ .

ألثغ[١] . وفى سنة ٣١٧ هـ — ٩٢٩م قامت ثورة قصد منها خلعُ المقتدر وتنصيب أخيه القاهر مكانه ، فأُخمدت ، وحُمل القاهر إلى أخيه فاستدناه ، وجعل يُهدِّئ من روعه ، ويلتمس له العذر . ويُبرِّئه من اثم المؤامرة ، وهو يقول : نفسى نفسى ، الله الله يا أمير المؤمنين ! يرجو أخاه أن يُبقى على حياته[٢] . وكان القاهر أهوج ، شديد الإقدام على سفك الدماء ، محبا للمال ، قبيح السياسة ، قليل الرغبة فى اصطناع الرجال ، غير مفكر فى عواقب الأمور ، وكان مولعاً بالشراب ، لا يكاد يصحو من السكر ، وكان يسمع الغناء ، ومع ذلك حرّم على الناس الخمر والقيان[٣] ، ولكنه وُفِّق إلى القضاء على مؤنس القائد رغم ما كان لمؤنس هذا من سلطان عظيم ، كما أنه وفّر كثيراً من المال ، ولما طُلب منه أن يشهد على نفسه بالخلع أبى أن يُحِلّ الطالبين من بيعته ، فخُلع ، وسُملت عيناه ، ولم يُسمَل قبله أحدٌ من الخلفاء وملوك الإسلام[٤] . وسَمْل الأعين هذا عادة أخذها المسلمون عن البوزنطيين . ثم عاش القاهر بعد خلعه سبعة عشر عاماً فى دار الخلافة ، حتى نقله المستكفى منها ، وكان قد بلغ به الضُرّ والفقر إلى أن كان مُلْتفًّا بقطن جُبّة ، وفى رجله قبقاب خشب[٥] . وقد خرج فى يوم جمعة إلى جامع المنصور وغطى وجهه ، ووقف فعرّف الناس نفسه ، وسألهم أن يتصدّقوا عليه ، فقام إليه أحد الهاشميين فأعطاه ألف درهم وردّه إلى داره .

ولما عُيِّن الراضى ابن أخى القاهر خليفة كان له من العمر خمسة وعشرون سنة . وكان أسمر ، أعين ، دون الأقنى ، مسنون الوجه ، خفيف العارضين واللحية ،

---

(١) التنبيه للمسعودى ص ٣٨٨ ، وكتاب العيون ص ١٤٢ ب .

(٢) كتاب العيون ص ١٢٤ ب .

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٢٤ التنبيه ص ٣٨٨ ، عريب ١٨٥ .

(٤) التنبيه ص ٣٨٨ .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

دحداحا نحيفا (١) وكان محبا للشعر والإنشاد ، ومن أحسن الناس علما بالشعر ونقداً له ، كما ينقده العلماء ، وكان من أطبع ملوك بنى العباس فى الشعر ومن أكثرهم قولا له ، وقد ترك لنا من ذلك ديوانا مكتوبا . وكان مولعا بجمع البلّور حتى يقول الصولى : وما رأيت البلّور عند ملك أكثر منه عند الراضى ، ولا عمل ملك منه ما عمل ، ولا بذل فى أثمانه ما بذل ، حتى اجتمع له من آلته ما لم يجتمع لملك قط (٢) . وقد أُولع بهدم القصور فى دار الخلافة وبناء غيرها أو تصييرها بساتين (٣) . وكان الراضى سمحا ، عظيم العطاء ، واسع النفس ، ينفق ما وجد ، ويحكى أنه دخل عليه جماعة من الجلساء ، وهو يهدم شيئا ويبنى شيئا ، وكان جالسا على آجرّة حبال الصناع ، فأمرهم بالجلوس فى حضرته ، فأخذ كل واحد منهم آجُرّة فجلس عليها ، فلما قاموا أمر أن توزن آجُرّة كل واحد منهم ويُدفع إليه وزنُها دراهم أو دنانير (٤) . وكان ابن الأنبارى يتردّد إلى أولاد الراضى ، ويُحكى عنه أنه مضى يوما إلى سوق النخّاسين ، وجارية تُعرَض حسنةٌ كاملة الوصف ، فوقعت فى قلبه ، ثم مضى إلى دار أمير المؤمنين الراضى فقال له : أين كنت فعرّفه ، فأمر بشراء الجارية له ، وحملها إلى منزله ، فلما جاء إليه وجدها هناك (٥) . ولم يجد أصحاب الراضى فيه من العيب إلا أنه كان يؤثر لذته وشهوته على رأيه ، وأنه كان ، رغم مرضه ، لا يحتمى ، وإذا وصف له أطباؤه شيئا لا يستعمله ، وإذا أكل الشىء الضارّ لم يُعلمهم (٦) ، ومات وهو فى الثانية والثلاثين

---

(١) كتاب العيون ص ١٨٤ ب ، والتنبيه للمسعودى ص ٣٨٨ .
(٢) الأوراق للصولى ص ٢٧ .
(٣) المنتظم ص ٥١ ا .
(٤) نفس المصدر ص ٥١ ا — ب نقلا عن الصولى .
(٥) المنتظم ص ٦٥ ب .
(٦) الأوراق للصولى ص ٥٥ ، وكتاب العيون ص ١٨٢ ب نقلا عن ذكاء مولى =

من العمر[١] ، وفى آخر علته أخذ فى قضاء ديونه ، وتقدّم بعمل المُغْتَسَل والتابوت ، واختار لنفسه ثيابا لكفنه ، وعزلها فى سفط ، وكتب رقعة فيها : هذه جهاز الآخرة[٢] . ولكن عهده لم يَسْلَمَ من سفك الدماء ، فقد احتال على الوزير ابن مقلة بعد تركه الوزارة حتى قبض عليه وسجنه ، وقبض على جماعة من أهله وأقاربه ممن سعى فى تقليد الأمر لنفسه وبايعه الناس عليه ، فمنهم من قتله ، ومنهم من ضربه وسجنه ، فمات فى سجنه ، ومنهم من استتر طول مدته[٣] .

ثم ارتقى عرشَ الخلافة بعده أخوه المتّقى ، وهو فى السادسة والعشرين من العمر ، وكان رَبْعَةً ، درّىّ اللون ، حسن الوجه ، أبيض ، أشهل ، مستدير العينين ، مقرون الحاجبين ، قصير الأنف ، فى شعره شُقْرَةٌ وجُعودة[٤] . ولم يشرب النبيذ قط ، وكان يتعبّد ويصوم ، ولم يتخذ جلساء له ، وكان يقول : المصحف نديمى ولا أريد جليسا غيره[٥] ، ولكنه كان رجلا لم يفارقه البؤس ، فلم يزل فيه إلى أن مات ، ومن ذلك أنه لما أريد أن يُعْذَر له ، وهو صغير ، عُمل له كل شىء حسن ، فكان فيما أعِدّ له عشرُ وصائف لِلمذَبّات وكيزان الماء ، وأُمر بأن ينظّفوهن ويزيّنوهن ، فأُدخلوا قبل أن يُعذر له بليلة الحمام ، فسقط عليهن ، فما أفلتت منهن واحدة ، فكان هو يُخْتَن وأولئك يُدفنَّ ، ويقال إنه منذ نشأ ما جُعل برسمه خادم لحضانته إلا مات ، فكان الخدم إذا عُرضت خدمته عليهم

= الراضى ، وذلك من طريق الفرغانى الذى كان ذكاء يحكى له بعض الحكايات . انظر مثلا ص ٢١٥ ا — ٢١٥ ب .

(١) كتاب العيون ص ١٨٤ ا .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٣ ا

(٣) نفس المصدر ١٦١ ب ، ١٨٤ ب — ١٨٥ ا ، وكتاب الأوراق ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٤) كتاب العيون ص ٢٢١ ا ، وكتاب التنبيه ص ٣٩٧ ، والمنتظم ص ٦٦ ب .

(٥) المنتظم ص ٦٦ ب .

استعفوا ، وقد ركب مع ابن رائق يوما فى رحبة الجسر ، فاجتمع الناس يدعون له ، وازدحموا للنظر إليه ، فانقطع الكرسى وسقطوا إلى دجلة ، وهى زائدة ، فهلك فى ذلك اليوم عالم عظيم من الأولياء والنساء والصبيان [١] . وظل البؤس حليفاً له بعد ارتقائه العرش ، فهو أول خليفة ترك « مدينة السلام » خوفاً وطلباً للنجاة ، ولحق بالحمدانيين ، وظل ينتقل معهم فى الجزيرة ، وهم يُهزمون مرة بعد أخرى ، وقد أشار عليه الأخشيد محمد بن طُغْج ، بعد أن كتب إليه يستقدمه ، بأن يسير معه إلى مصر والشام ، ويكون بين يديه ، فلم يفعل [٢] . وقد اطمأنَّ إلى مواثيق القائد التركى توزون ، وأمِن جانبه بعد أن استوثق منه مرة بعد أخرى ، ولكن توزون غدر به لأجل ستمائة ألف دينار أخذها من أحد طالبى عرش الخلافة ، فقبض عليه وخلعه ، وأمر باحضار الجارية الشيرازية حُسن ، فتولت سَمْلَه بيد غلامها السندى ، وعاش المتقى بعد خلعه أربعا وعشرين سنة ومات بداره [٣] .

ثم خلفه المستكفى بعد أن تآمر عليه مع توزون ، وسفرت بينهما حُسْن الجارية الشيرازية ، فارتقى المستكفى عرش الخلافة بعار هذه المؤامرة . وكانت أمه أم ولد رومية تسمى غُصْن [٤] ، وكان أبيض اللون ، صغير الفم ، حسن الوجه والجسم ، بدينا ، أعين ، طويل الأنف ، وافر اللحية ، رَبْعة ، إلى الطول أقرب ، وقد وخطه الشيب [٥] ، ونادرا ما كانت تقرّ عينه بمنصبه ، وهو بين امرأة جشعة رفعته بدسائسها إلى منصب الخلافة ، وبين الترك الذين أصبحوا سادة بغداد . وأخيرا جاء بنو بُوَيْه فكان أول ما طلبه أحمد بن بويه من المستكفى أن يستكتب

(١) كتاب العيون ص ٢٢٢ ا — ب .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ ، ٣١٢ — ٣١٣ .
(٣) كتاب العيون ص ٢٢٠ ب ، ويحيى بن سعيد ص ٨٥ ب — ٨٦ ا .
(٤) كتاب العيون ص ٢٢٣ ، وكتاب التنبيه ص ٣٩٨ .
(٥) كتاب العيون ص ٢٣٩ ب ، والتنبيه للمسعودى ص ٣٩٩ .

ابنَ شيرزاد ، وكان المستكفى قد حلف ألا يتصرّف ابنُ شيرزاد فى أيامه ودولته ، ولما ألحّ عليه ابنُ بويه أجابه إلى ما طلب على كُرْهٍ منه ، قال ذكاء مولى الراضى : وكنت حاضراً ، فأجابه المستكفى على كُرْهٍ منه ، ورأيت عينيه وقد تغرغرتا بالدموع ، لعِظَم ما ورد عليه من سؤال ابن بويه [١] . ولما جاءوا إليه ليخلعوه رضى أن يَخلع نفسه ، ولكنه شرط عليهم ألا يقطعوا شيئا من أعضائه [٢] . غير أن المطيع أخا المتقى ، وهو الذى خلف المستكفى ، أمر أن يُسْمَل انتقاما لأخيه ، وطلب من يَسْمِله ، فلم يُقْدِم على ذلك أحد إلا خادم صقلبى كان المستكفى قد استخدمه ، ثم وَجِد عليه فى بعض أوقاته فضربه مائتى سوط ، وحبسه ، فكان هذا الخادم حَنِقا عليه ، فقال للمطيع : أنا أكحله ، وقام بهذه المهمة [٣] .

أما الخلفاء المتأخرون فلم يكن لهم عمل بالفعل فى إدارة الدولة ، فطال لذلك حكمهم ، فأما المطيع فإنه خلع نفسه غير مُسْتَكْره ، وترك ولاية الخلافة لابنه الطائع ، وذلك أن المطيع كان قد ناله فالجٌ قديماً ، وكان يَسْتُره ، فظهر ، وتعذرت عليه الحركة ، وثَقُل لسانه ، فترك ولاية الخلافة لابنه [٤] ، ثم خُلع الطائع بعد ثمان عشرة سنة من حكمه ، وقُبض عليه ، واعتقل عند الخليفة القادر مُكرّماً ، حتى مات بعد اثنتى عشرة سنة [٥] ، ولا نعرف كثيراً عن هؤلاء الخلفاء ، فأما المطيع فكانت أمه أم ولد صقلبية ، وكانت أشهر منه ، وتعرف بالصَفّارة ، لأنها كانت تأخذ من ورق السوسن وغيره الشىء اليسير ، وتجعله فى فمها ، وتصفر به صفيراً لم يُسمع بمثله ، تحكى به كل طائر أو غيره [٦] .

---

(١) كتاب العيون ص ٢٣٢ ب .
(٢) نفس المصدر ص ٢٣٨ ب .
(٣) نفس المصدر ص ٢٣٩ ا — ب .
(٤) المنتظم ص ١٠٦ ا .
(٥) نفس المصدر ص ١٣٠ ا — ب ، ١٤٩ ا .
(٦) كتاب العيون ص ٢٤١ ا .

وأما الطائع فكانت عليه ملامح أهل الجنس الشمالى ، فقد كان أبيض أشقر ، حسن الجسم ، شديد القوة ، ويُحكى أنه كان فى دار الخلافة أيل عظيم يقتل بقرنه الدوابّ ، ولا يتمكن أحد من مقاومته ، فاحتال الطائع حتى أمسك قرنيه بيديه فلم يقدر أن يخلّصهما منه ، واستدعى النجار ، فركّب المنشارَ عليهما ، ولما بقيا على يسير قطعهما بيديه[١] . وكان القادر من أهل الستر والديانة وإدامة التهجد بالليل وكثرة البرّ والصدقات ، وكان يأخذ ثلثى الطعام الذى يُهَيَّأ لإفطاره ويقسمه بين جامعين كبيرين[٢] . وكان يخضب لحيته الطويلة الكثّة ، ويلبس زىّ العوامّ ، ويقصد الأماكن المعروفة بالبركة مثل قبر معروف الكرخى ، وتربة ابن بشار ، وكان يتخفّى ويغيّر زيّه ، ويخرج ليتعرف أحوال رعيته ، وكان صحيح الاعتقاد ، ويحكى أنه صنّف كتاباً فى الأصول على مذهب أصحاب الحديث ، وكان هذا الكتاب يُقرأ كلّ جمعة فى حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدى ، ويحضر الناسُ سماعَه[٣] .

هذه صورة لبعض خلفاء بنى العباس أيام إدبار دولتهم ، وهى تخالف صورة خلفاء الفاطميين الذين أخذ نجمهم إذ ذاك فى الارتفاع . يدّعى الفاطميون أن الإمامة أو الأفضلية صفة خاصة تنتقل من الوالد إلى الولد ، فكفاهم ذلك من أول الأمر مؤونة التنازع على عرش الخلافة ، ويضاف إلى هذا هدوء السياسة الحازمة وطمأنينتها فى عهدهم ، فمن أمثلة ذلك أن والى الشام كتب مرة إلى المعزّ لدين الله (٣٤١ — ٣٦٥ هـ = ٩٥٢ — ٩٧٥ م) مباشرةً وتخطّى من دونه ، فمنع الخليفة من ذلك ، وأعاد الكتاب إلى الوالى من غير أن تُفَضّ أختامُه . وكان العزيز

(١) كتاب المنتظم ١٠٦ أ .
(٢) نفس المصدر ص ١٣٢ ب .
(٣) نفس المصدر ص ١٣٢ أ ، وطبقات السبكى ، طبعة القاهرة ، ج ٣ ص ٢ .

(٣٦٥ — ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ — ٩٩٦ م) أعظم هؤلاء الخلفاء ، وكان أسمر ، طويلا ، أصهب الشعر ، أزرق العينين كبيرهما ، عريض المنكبين عارفاً بالخيل والجوهر[1] ، وكان صياداً جريئاً ماهراً ، وقد ضرب أول مثل للفروسية العربية بما تنطوى عليه من العفو وكِبَر القلب ، وهى التى أثَّرت فيما بعد تأثيراً كبيراً فى الغرب ، فقد حدث أن أحد القواد الأتراك خرج على طاعة جوهر عام ٣٦٥ هـ — ٩٧٥ م ، وهزم جوهراً ، فالتجأ هذا إلى عسقلان ، فأدركه التركى وحاصره مدة طويلة حتى طلب الصلح ، فأجابه ، وعلّق التركى سيفاً مجرّداً على باب حصن عسقلان ، وخرج جوهر وأصحابه من تحت السيف ، ثم دخلوا إلى مصر ، فلم يرض العزيز بالصلح ، وسار بنفسه لمحاربة التركى ، فهزمه وأسره ، واستنقذه من بين يدى آسريه ، بعد أن كاد يموت ضرباً ولكماً ، وأمّنه على نفسه ، ودفع إليه خاتمه ، واستسقى التركى ماء فأمر العزيز بإحضار قدح شراب جلاَّب ، فلما أُتى بالقدح توقّف التركى عن الشرب خوفاً من أن يكون فى القدح سمٌ قاتل ، وتبيَّن العزيز ذلك ، فأخذ القدح وشرب منه ، ثم أعطاه ليشرب ، وأفرد له خيمة ، وتقدّم بأن يُحمل إليه جميعُ ما يحتاج إليه ، وحمله على دوابّه ، وأمره بالركوب على مركبه ، وسأله عن أناس ممن يأنَس بهم ، فالتمس إحضار قوم من أصحابه ، فأُتى إليه بهم من بين الأسارى ، ولما رجع العزيز إلى مصر تقدم إلى وجوه دولته وقواده وأمرائه بإكرام التركى وإجلاله[2] .

وأخيراً جاء الحاكم بأمر الله ، وهو الشخصية النادرة المتناقضة ، كان الحاكم رجلا غريباً فى أطواره ، فمن ذلك أنه أقام سنين يجلس فى الشمع ليلا ونهاراً ، ثمّ عنّ له أن يجلس فى الظلمة ، فجلس فيها مدة[3] . وكان أحياناً يواصل الركوب

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٨١ .
(٢) يحيى بن سعيد ص ١٠٤ ا — ب .
(٣) ابن تغرى بردى طبعة كلفورنيا ص ٦٢ — ٦٣ .

ليلا ونهاراً من غير فتور ولا سكون ، وكان يركب فى نفر من خاصته ليلا ، فتقدّم أصحابُ الأعمال بمصر إلى التجار أن يوقدوا القناديل على حوانيتهم ودورهم ، وأن يبتاعوا بالليل ، فصارت الشوارع والأسواق فى الليل بمنزلة النهار فى العمارة[١] . وتقدّم بقتل سائر ما فى مصر من الكلاب إلا كلاب الصيد ، لأنها كانت تنبح بالليل إذا عبر الشوارع[٢] ، ولما اعتلّ وضعُف عن الركوب اتُّخذت له مِحَفّة يجلس فيها ويستلق عليها ، ويحملها أربعة من رجاله ، ثم يدور الليل والنهار[٣] ، وفى مثل هذه الأحوال كان يأخذ الرقاع والمظالم بشرط ألا يُكتب فيها إلا سطرٌ واحد على وجه واحد ، ويأمر صاحبَ الرقعة أن يأتى له من على يمينه ، وكان يأمرهم بالمصير إلى مكان يعيّنه لهم فى اليوم التالى ، وكان يضع توقيعاته وعطاياه فى كمّه ، ويعطيها لهم يداً بيد . وكان الحاكم ينفق ما استطاع ، ويجزل العطاء لرعيته ، « وأظهر من العدل ما لم يُسمع بمثله ، ولعمرى إن أهل مملكته لا يزالون فى أيامه آمنين على أموالهم غير مطمئنين على نفوسهم ، ولم تمتدّ يده قط إلى أخذ مال أحد ، بل كان له جودٌ عظيم وعطايا جزيلة »[٤] أما رؤساء دولته فلم يكن أحد منهم آمناً على نفسه ، فكان يفاجىء أعزّ أصحابه ، ويثب عليه وثوب المجنون ، فمن أمثلة ذلك أنه قرّب عيناً الخادم الأسود ، ثم نقَم عليه ، فقطع يده اليمنى ، ثم اختص به بعد ذلك أعظم اختصاص ، ولقبه قائد القواد ، وأستاذ الأستاذين ، وكنّاه وقدّمه على سائر أهل دولته ، وكثر ميله إليه وشغفه به ، وبعد مدة تنكّر له ، وقطع لسانه ، ثم أعقب ذلك بالزيادة فى

18

(١) يحيى بن سعيد ص ١١٥ ا .
(٢) نفس المصدر ص ١١٦ ا .
(٣) نفس المصدر ص ١٢٧ ا — ب .
(٤) يحيى بن سعيد ص ١٢٣ ا .

عطاياه والإنعام عليه [١] ، وسنتكلم فى غير هـذا المقام عن مثل هذا التصرف الجنونى فى معاملته لليهود والنصارى ، وعن زهده ورغبته فى الورع ، ذلك أنه فى آخر الأمر ربّى شعره حتى طال على أكتافه ، وامتنع من تقصيصه ، ومن تقليم أظافره ، وغيّر الثياب الصوف البيضاء بملابس سوداء ، واستبدل بالعمامة الزرقاء عمامةً سوداء ، وصار يلبس الكسوة الواحدة المدة الطويلة إلى أن تتلبّد بما ينالها ويتداولها من العرق الدائم ، ويعلوها من الغبار المتّصل ، وواصل تدوير الصحارى والفيافى ؛ وقصد جبل المقطم حيث كان ينفرد بنفسه ، حتى إن العالم المسيحى يحيى بن سعيد يقول إن حاله صارت غير بعيدة من حال بختنصر ملك بابل الذى صارت البرارى مأوى له كالوحوش ، وزادت أظافيره ، فأشبهت مخاليب العقاب ، وطال شعره كالأسد جزعاً على إبادته هيكل الربّ الأورشليمى ، وكذلك أصاب يحيى حين شخّص مرض الحاكم بأنه صِنْف من سوء المزاج اليابس المُمْرِض فى دماغه ، أحدث له ضرباً من ضروب الماليخوليا وفساد الفكر ، فاحتاج فى مداواته منه إلى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به [٢] .

---

(١) نفس المصدر ص ١٢٤ ا .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٢٧ ب — ١٢٨ ا .

الفصل الثالث

الأمراء

بهذا الاسم كان يُسمّى ولاةُ البلاد — وكذلك أبناء بيت الخلافة — إلا كافوراً بمصر ، فإنه امتنع من التسمّى بالإمارة ، ورأى أن يجرى على رسمه فى المخاطبة بالأستاذيّة[1] . أما لقب « أمير الأمراء » فى بلاط الخلافة فلا شأن له بولاية الحكم من حيث أصلُه ، فهو لا يعدو أن يكون لقباً لأكبر رجل بيده الأمر ، كما أن « وزير الوزراء » لقبٌ لأكبر الوزراء ، وقد كان مؤنس القائد صاحب الجيش يحمل لقب أمير الأمراء ، وإن لم يكن يشعر فى نفسه بأنه يلى حكم ولاية ما .

ولم يكن لأمراء المملكة الإسلامية علامةٌ تميّزهم من الجهة الرسمية ، فكان يُدْعى لهم فى كل جهة مع الدعاء لحاكمها ، وذلك بعد الدعاء للخليفة . أما فى العراق فقط حيث كان أمير المؤمنين هو الذى يدير أمورها بنفسه من غير والٍ فكان لا يُذكر أحد مع الخليفة فى الخطبة ، لأن ذلك كان يُشعر بشئ من الانتقاص لمنصب الخليفة ، وقد حدث أن أسندت الحجبة ورئاسة الجيش لمحمد بن ياقوت فى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م ، فأدخل يده فى تدبير كل شىء ونظر فيما ينظر فيه الوزير ، وطالب أصحاب الدواوين بحضور مجلسه ، وألّا يقبلوا توقيعاً فى سائر الأحوال إلا بعد أن يوقّع فيه بخطه ، واضطر الوزير إلى أن يحضر مجلسه ، وصار

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٩٥ ا . كان لقب الأستاذ فى المشرق لقباً للوزراء فكان ابن العميد يلقب بذلك (مسكويه ج ٦ ص ٢١٩ — ٢٢٠) ، وكان يلقب به غير ابن العميد (ابن تغرى بردى طبعة كليفورنيا ص ٣٤) واليوم يطلق هذا الاسم فى القاهرة على الحوذى .

كالمتعطل ملازماً لمنزله لا يعمل شيئاً[١] ، ولكن لما دعا الأئمة له فى الجانب الشرقى والغربى ببغداد بعد دعائهم للخليفة الراضى وقرّظوه أنكر الراضى ذلك ، وأمر أن يقلّد مكانَ الأئمة جميعاً أئمةٌ من بنى العباس[٢] . غير أن الراضى اضطر فى العام التالى أن يرضى بذكر ابن رائق بعده فى الخطبة ، ومعنى هذا أنه اعترف بأمير دونه فى العراق[٣] .

وكان بنو حمدان ، من بين سائر أمراء البلاد أسوأ من يمثل خصال البدو . ومن أمثلة طباعهم البدوية أنه لما التقى علىّ بن عبد الله بن حمدان مع المتقى وابن رائق فى الموصل نزل المتقى دار ابن فهد الموصلى ، ونزل ابن رائق فى دار بالقرب منه ، أما ابن حمدان فإنه نزل بدير الأعلى فى خيمة أقامها . وكان علىّ هذا قد أنس بابن رائق ، وكان يدعوه للشراب ، فكان إذا عمل الشراب فيه وصف نفسه بالشهامة والرجولة وازدرى بنى حمدان وقال لعلىّ : وأى شىء تَسْوون أنتم ، وأى يوم كان لكم ، وهل أنتم إلا أعراب ؟[٤] وسنتكلم فى غير هذا المقام عن سوء سيرة الحمدانيين فى الحكم ونهبهم أموال الرعية وأملاكهم ، وجورهم على الزراع

(١) مسكويه ج ٥ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٢) الأوراق للصولى ص ٨٣ .

(٣) كان لقب السلطان لا يطلق فى ذلك الوقت إلا على الخليفة ، وكان يقال دار السلطان ببغداد أى دار الخليفة ، أما ما يقوله ابن خلدون (كتاب العبر طبعة بولاق ج ٣ ص ٤٢٠) من أن معز الدولة ملك بغداد واختص باسم السلطان فهو غير صحيح . ويقول أبو المحاسن المؤلف المصرى المتأخر (النجوم الزاهرة ، ليدن ج ٢ ص ٢٥٢) إن فرعون لقب ملك مصر قديماً والسلطان لقبهم حديثاً ، وكذلك يرى الظاهرى (من علماء القرن التاسع الهجرى) أن الحاكم الوحيد الذى يسمى السلطان بحق هو حاكم مصر . وهذا يتفق مع ماجرى عليه الأوروبيون فى العصور الوسطى من استعمال كلمة سلطان دائماً فيما يتعلق بمصر . ويظهر أن الحكام المتأخرين ببغداد لم تكن تقام لهم الدعوة بعد الخليفة فى الصلاة ، حتى أكرم عضد الدولة بهذا الشرف عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٩ م ، وهو ما اختص به « دون من مضى من الملوك على قديم الأيام وحديثها » (مسكويه ج ٦ ص ٤٩٩ — ٥٠٠) .

(٤) كتاب العيون ص ١٩٣ ب — ١٩٤ أ .

وعداوتهم للعمارة وللأشجار ، وتخريبهم ، ونقضهم الدائم للعهود التى يقطعونها ، ومن أمثلة غدرهم أن الحسين بن حمدان ، وهو رأس أسرتهم ، قتل العباسَ بن الحسن الوزير فى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٨ م ، وهو راكب يوماً إلى بستانه ، وذلك أنه أعرضه وعلاه بالسيف فقتله[١] ، وكذلك فعل ناصرُ الدولة أبو محمد بن حمدان بابن رائق ، فقتله وهو ضيفٌ عنده فى خيمته قتلَ غدر وخيانة[٢] . وكان النزاع وعدم رعاية حقوق الطاعة سائدَيْن فى بيت بنى حمدان ، ولا سيّما فى فرعهم بالجزيرة[٣] . وكذلك كان الحال فى فرعهم بالشام حيث قتل أبو المعالى بنُ سيف الدولة بن حمدان خالَه أبا فراس ، فقد لحقه وقتله رغم استئمانه ، ثم أخذ رأسه وترك جثته فى البرّيّة[٤] . ولم يظهر أحد من الحمدانيين بشىء من الفروسية 15 والأعمال العظيمة إلا سيف الدولة . على أننا نلاحظ أنه كان فى حربه مع الروم يقع دائماً فى فخاخهم ، ولذلك يقول أبو الفدا : « وكان سيف الدولة مُعْجَباً بنفسه ، يحب أن يستبدّ ، ولا يشاور أحداً ، لئلا يُقال إنه أصاب برأى غيره »[٥] . وكثيراً ما هزمه القائدان التركيان توزون وبجكم .

وكذلك يرجع أصل البريديين إلى الدولة الإسلامية الأولى ، فقد كانوا حكاماً للعراق منذ زمان طويل ، وكانوا فى أول أمرهم كتّاباً أصحاب درار يع[٦] أكثر مما كانوا قوّاداً . ومع هذا فقد خاضوا غمار كثير من المواقع ، وقاتلوا

---

(١) نفس المصدر ص ١٦١ ا — ب .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٦٠ — ٦١ وكتاب العيون ص ١٩٨ ا — ب .
(٣) انظر مثلا مسكويه ج ٦ ص ٢٢٤ لترى ما كان يقع بين ناصر الدولة وبين أولاده .
(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٣٤ ، وانظر ما حكاه ابن خلكان نقلا عن ثابت بن سنان (الوفيات طبعة مصر ١٢٩٩ هـ ج ١ ص ١٥٩) وانظر Dvorak: Abû Firâs, Leiden, 1895, S. 114 ff.
(٥) تاريخ أبى الفدا ج ٢ ص ٤٦٨ تحت عام ٣٤٩ هـ .
(٦) مسكويه ج ٥ ص ٥٦٥ .

قتال البواسل ، ولكنهم من قصر النظر والجشع لم ينزلوا لبنى حمدان عن شىء .
وقد بدأ عهد الفساد الحقيقى ببغداد عام ٣٣٠ ﻫ — ٩٤١ م ، وهو العام الذى فتح فيه البريدى بغداد وفرّ فيه الخليفة إلى الموصل ؛ وذلك أن البريدى ظلم الناس ظلمَه المعروف ، وافتتح الخراج فى آزار وخبط أصحاب الأراضى ، وخبط أهل الذمة ، ووظّف على كل كرّ من الحنطة سبعين درهما ، وأخذ جزءاً من مال التجار غصباً [١] . وفرّ آخر البريديين إلى القرامطة فى جنوب جزيرة العرب ، ولكنه بعد ذلك كتب إلى معز الدولة يلتمس الأمان ليصير إلى حضرته ، فأعطاه من التوثقة ما أحب ، فوافاه وقبّل الأرض بين يديه ، وأكرمه معزُّ الدولة ، وأقطعه الضياع ، ورسمه بمنادمته [٢] .

ولو أننا قارنا بين هؤلاء الأمراء الذين يقترن حكمهم بالنهب و بين القواد الذين جاءوا من الشمال وأقاموا ملكهم فى داخل بلاد الإسلام ، لوجدنا أن هؤلاء الأخيرين أحسن سيرة فى الحكم وأشبه بآباء لرعيتهم . ومنهم السامانيون الذين أرادوا أن ينشئوا بينهم و بين الفرس نسبا ، وأن يُرجعوا أصلهم لملوك بنى ساسان ، وقد بلغوا أوج عزتهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى حيث كانت بلاد ما وراء النهر والجبل و إيران كلها إلى كرمان تحت سلطانهم ، بل كان فى داخل حدود دولتهم الكبيرة ولاياتٌ تكاد تكون مستقلة ، مثل بلاد سجستان التى كان يحكمها بنو الصفّار ، وهؤلاء و إن كانوا يخطبون لصاحب بخارى فلم يكن له عليهم إلا حملُ أموال وهدايا ، بل اضطر السامانيون نظرا لسعة أرجاء دولتهم إلى إنشاء ما يشبه منصب « نائب الملك » ، فكانوا هم مثلا يقيمون فى بخارى على حين أن صاحب جيشهم كان يقيم فى نيسابور التى جعلها الطاهريون

(١) مسكويه ج ٦ س ٥٨ ، وكتاب العيون س ١٩٣ ا .
(٢) مسكويه ج ٦ س ١٥٤ ، وكتاب العيون س ٢٤٧ ب .

16

قصبة خراسان . أما عن حكمهم فالمقدسى يمتدح سيرتهم فى الحكم ، ويقول إنهم من أحسن الملوك سيرة ونظرا وإجلالا للعلم وأهله ، فقد كان من رسومهم مثلا أنهم لا يكلّفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم ، ويذكر المقدسى أن فى أمثال الناس : لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليبست ، ويقول : ألا ترى إلى عضد الدولة وتجبُّره وتمكُّنه ، وكمال دولته ، وقوة أمره ، قد فُتحت له البلاد طوْعاً ، وملك ما ملك ، فلما تعرّض لآل سامان وطلب خراسان أهلكه الله ، وشتّت جمعه ، وفرّق جيوشه ، ومكّن أعداءه من ممالكه ، فتباً لمن عاند آل سامان[١] ولعل هذا الإطراء من جانب المقدسى كان لأسباب شخصية ، فالحقيقة أن الديلم أخذوا من السامانيين إيران كلها ، وإن كان ذلك لم يتمّ لهم إلا بعد نضال طويل ، حتى كان سبكتكين قائد معز الدولة ببغداد يضطر إلى الإسراع للرى فى كل عام تقريبا لمعاونة أخى معز الدولة فى محاربته للسامانيين ، ولم يمض أكثر من عشرين سنة على مبالغة المقدسى فى مدح آل سامان حتى اجتاح الترك دولتَهم من الشمال والجنوب ، وقُتل آخر ملوكهم هاربا . على أن ملوك السامانيين كانوا دائما يظهرون ولاءهم للخليفة فى بغداد وتعلُّقَهم به ، وكانوا دائما يبعثون إليه الهدايا ، بل نجد أحمد بن إسماعيل يرسل فى سنة ٣٠١ هـ — ٩١٣م إلى الخليفة ببغداد شيخا يستحمد إليه ما فعله من ردّ غارة الترك على المسلمين وقَتْلَه كثيرا منهم ، ويخطب إليه شرطة بغداد ، بعد أن خلا منصب صاحب الشرطة بوفاة من كان يشغله من بنى طاهر[٢] ، وكذلك نجد نصراً السامانى يرسل للخليفة عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م هدية كبيرة ، ومعها رأس أحد ثوّار الديلم ، فكان نصرا قد رضى أن يضع نفسه فى موضع والٍ من ولاة الخليفة[٣] .

---

(١) مقدسى ص ٣٣٧ — ٣٣٩ . (٢) عريب ص ٤٣ .

(٣) كتاب العيون ص ١٩١ ب .

وكان المستقبل للشعوب التى تسكن جبال الألب الآسيوية فى شمال فارس، والتى كانت حتى ذلك الحين بمثابة قواد مدّخرين لوقت يظهرون فيه . وقد استطاعوا أن يخضعوا لحكمهم بلاداً أوسع كثيراً من البلاد التى أخضعها نظراؤهم الذين يسكنون جبال الإلب الأوربية حين بلغوا ذروة قوتهم ، وكان القائد مرداويج الديلمى أكبرَ من استرعى نظر المؤرخين من بين قواد الجبل الذين حكموا إيران الغربية بعد موت يوسف بن أبى الساج . ولم يكن الإسلام عميقاً فى قلب هـذا القائد ، فقد فعل بأبناء المسلمين وبناتهم فعلَ الكفار ، فأعمل فيهم السَّبْىَ ، حتى قيـل إنه تملَّكَ من الغلمان والجوارى فى قول المقلّ خمسين ألفاً ، وفى قول المُكْثِر مائة ألف ، وأعمل السيف والنار فى أهل همذان كأنهم كافرون[١] حتى إن أهل فارس شغبوا فى سنة ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م أمام دار الخليفـة ببغداد واعترضوا على فرض الحـكومة للضرائب فى حين أنها لا تقف إلى جانب المسلمين لتحميهم . وبعث مرداويج بقائد من قواده إلى مدينة الدينور ، فدخلها بالسيف ، وقتل من أهلها آلافاً كثيرة ، «فخرج إليه فى مستورى أهل البلد وصوفيتهـا وزهادها رجلٌ يقال له ابن مشاد ، وبيـده مصحف قد نشره فقال للقائد : اتق الله ، وارفع السيف عن هؤلاء المسلمين ، فلا ذنب لهم ، ولا جناية يستحقون بها ما قد نزل بهم ، فأمر بأخذ المصحف من يده ، فضُرب به وجهُه ، ثم أمر به فذُبح»[٢] .

كان مرداويج رجلاً متفائلاً عريض الآمال والمشروعات ، فقد زعم أنه يردّ دولة العجم ويبطل العرب[٣] ، وسأل عن تيجان الفرس وهيئتها ، فمُثّلت له ، فاختار صفة تاج كسرى ، فعُمِل له تاجٌ من الذهب جُمعت فيه أنواع الجواهر ،

(١) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٣ وما بعدها .
(٢) نفس المصدر ج ٩ ص ٢٤ — ٢٥ .
(٣) الأوراق للصولى ص ٨١ ، ومسكويه ج ٥ ص ٤٨٨ .

وضُرب له سريرٌ من الذهب قد رُصِّع بالجواهر ، فجلس عليه ، وجعل عليه منصة عظيمة ، وجعل أمامه سريراً من الفضة عليه فرش مبسوط ، ودون ذلك كراسٍ مذهَّبة ليرتِّب أصحاب الأقدار مراتبهم فى الإجلاس ، وكان ينوى قصد بغداد وتشعيث الدولة ، وكتب إلى عامل له أن يُعِدّ له إيوان كسرى منزلا ، ويعمره كهيئته قبل الإسلام . وقد طاف به بعض شياطين الدهاة فزخرفوا له صورة ملك سيظهر ، وتجبى له كنوز الأرض ، فمال إلى ذلك ، وأظهر أنه ذلك الملك الذى يملك الأرض ، فأراد أن يسير إلى مدينة السلام ويقبض على الخليفة ، ويولّى أصحابه مدن الإسلام بأسرها فى شرق الأرض وغربها ، مما فى يد ولد العباس وغيرهم ؛ واسترسل فى مثل هذا الخيال[1] . وكان جنوده يخشون سطوته وغدره وكبرياءه ، ولما حضرت ليلة الوقود فى أصفهان (انظر فصل الأعياد) جُمعت الأحطاب من الجبال والنواحى البعيدة ، وأُعدت الشموع العظام ، وعُمل بمجلسه الخاص تماثيل وأساطين كبيرة من الشمع ، وحُشد على رءوس الجبال واليفاعات ما لم تجرِ العادة بمثله ، فلما خرج وطاف بذلك استحقره كله واستصغره ، « قال وذلك لأجل سعة الصحراء ، ولأن البصر إذا امتد فى فضاء واسع ثم انقلب عنه إلى هذه الأشياء المصنوعة استحقرها ، وإنْ كانت عظيمة » ، واغتاظ وسكت ودخل إلى خيمته واضطجع والتفّ بكسائه ، وحوّل وجهه إلى خلاف الباب لئلا يكلمه أحد . ولم يجسر القواد والأمراء على مخاطبته ، ثم أقنعه الوزير بعد كدّ أن يظهر للناس ، فركب كارهاً متحاملا بعد لجاج وإباء ، فطاف مغضباً مغتاظاً ، وانصرف إلى موضعه ، ولزم حالته الأولى[2] .

---

(١) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٧ — ٢٩ ومسكويه ج ٥ ص ٤٨٩ — ٤٩٠ .
(٢) مسكويه ج ٥ ص ٣٧٩ — ٤٨٢ .

وكان له أربعة آلاف من المماليك الأتراك[١] إلى جانب خمسين ألفا من الديلم ، وقد استخلص من هؤلاء الأتراك نفرا اختص بهم ، فوَجِد الديلم من ذلك[٢] ، ورغم أنه كان يؤثر الغلمان الأتراك فقد اتفق يوما أن شَغَبت دوابُّهم ، وارتفعت أصواتها وأصوات من يزجرها ، فانتبه مرداويج مذعورا على هـذه الأصوات الهائلة المنكرة ، فأمر أن تُحَطّ السروج عن الدواب ، وتُجْعَل على ظهور الغلمان الأتراك مع جميع آلتها ، وأن يقودوا الدوابَّ بأنفسهم من أرسانها إلى الإصطبلات ، وكانت الصورة قبيحة ، وقد حَقِد عليه الغلمان لذلك ، ثم اتفقوا على الفتك به ، فهجموا عليه وهو فى الحمّام وقتلوه[٣] . وقد استطاع أخوه وشمكير وابنه قابوس أن يحتفظا بإمارة صغيرة فى أقصى الشمال من إيران ، ثم آل ميراثهم إلى بنى بُوَيْه ، وهم قواد مرتزقة من بلاد الجبل بفارس .

كان بنو بُوَيْه بعيدين عن الثقافة العربية ، حتى إن معز الدولة لما جاء إلى بغداد ، ومَلَكها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى[٤] ، وقد رفع بنو بويه أنفسهم بالدهاء والمكر والمهارة الجندية ، وكانوا لا يترددون ولا يخجلون من ترك خدمة قائد إلى خدمة آخر يدفع لهم أكثر من الأول ، فمن ذلك أنه لما هُزم ماكان بن كاكى الديلمى ، وكان معه أبو الحسن على بن بويه وأخوه أبو على الحسن ، استأذناه فى الانحياز إلى مرداويج ، وقالا لما كان : « الأصلحُ لك مفارقتُنا إياك ، لتخفّ عنك مؤونتنا ، ويقع كَلُّنا على غيرك ، فإذا تمكّنت عاودناك » ، فأذن لهما[٥] ، وكان من أكبر الصفات التى ظهرت فيها

(١) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٦ ، ٢٨ .
(٢) الأوراق للصولى ص ٨٠ — ٨١ .
(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٨٢ — ٤٨٥ .
(٤) تاريخ الهمذانى مخطوط رقم ١٤٦٩ بباريس ص ١٠٠ ب والمقدمة الإنجليزية لكتاب الوزراء ص ٧ .
(٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٣٥ .

مقدرة بنى بويه أنهم كانوا يستطيعون جمعَ المال من كل وجه، وأن يدّخروه حتى يكون بين أيديهم المال دائماً ، وقد ساعدهم الحظ فى ذلك بأمور هى من عجيب الاتفاقات ، فيُحكى مثلا أن علىّ بن بويه لما دخل شيراز اجتمع أصحابه وطالبوه بالمال . ولم يكن معه ما يرضيهم ، فأشرف أمره على الانحلال ، واشتغل قلبه واغتمّ غما شديداً ، فبينما هو مستلقٍ على ظهره ، وقد خلا للفكر والتدبير إذ رأى حيّة قد خرجت من سقف المجلس الذى كان فيه من موضع ودخلت موضعاً آخر ، وخاف أن تسقط عليه ، وهو نائم ، فأمر الفراشين بإخراجها ، فوجدوا السقف يفضى إلى غرفة بين سقفين ، فأمرهم بفتحها ، فوجدوا فيها عدة صناديق من المال وغيره ، فأنفق ذلك فى رجاله بعد أن أشفى أمره على الانحلال (١) .

18

وكان السبب فى ارتفاع علىّ بن بويه سماحته وشجاعته وسعة صدره وحسن سياسته ؛ فمن ذلك أنه كان فى الرىّ وشمكير وأبو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالعميد ، ولم يزل علىّ بن بويه بأبى عبد الله هذا يلاطفه بالهدايا ، حتى غمره بالبرّ ، فكتم كتابا من مرداويج إلى وشمكير بمنع علىّ من الخروج ، وأمرّ لعلىّ بالخروج ، ففاز بالولاية . ولما وصل إلى الكرج أحسن إلى الرجال ، ولاطف عامل البلد ، فكان يكتب بشكره وضبطه الناحية ؛ واتفق أن افتتح قلاعا كانت فى أيدى الخُرّمِيّة فى تلك الأطراف ، ووقع بين أصحابها خلاف ، فانحاز بعضهم إليه ، وأطلعه على ذخائر جليلة أخذها وصرفها كلها فى استمالة الرجال واستعطاف القلوب ، ولاطف قواد مرداويج ، وأفضل عليهم ، حتى أوجبوا طاعته ، وكان ذا فضل يتسامع به الناس فيميلون إليه (٢) . فلا عجب إذن أن يسهل عليه الانتصار على جيش الخليفة حتى استولى على جنوب إيران .

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٢) نفس المصدر ج ٥ ص ٤٣٦ — ٤٣٩ .

وكان بنو بويه إلى جانب هـذا يحسنون معاملة الأسرى ، ويعفون عنهم ، ويؤمّنونهم من جميع ما يكرهون ، حتى يطمئنوا إليهم ، على حين كان أعداؤهم يعدّون للأسرى قيوداً و برانس ليشهروهم بها ، ولقد ظفر علىّ بن بويه بأعداء له معهم هذه الآلات ، فعدل عن العقاب إلى العفو ، وابتعد عن الطغيان[1] .

كان ركن الدولة صاحب الرى « لا يستجيب إلى عمارة نواحيه ، خوفا من إخراج درهم واحد من الخزانة ، ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت »[2] .

وقد جمع عضد الدولة بما كان فيـه من حرص ثروة هائلة ، وكذلك ترك فخرُ الدولة (المتوفى عام ٣٨٧هـ—٩٩٧م) فى العصور الأخيرة ، التى لم تكن عصور الغنى العظيم ، مالا كثيراً ؛ فقد ذكر ابن الصابى أنه خلّف ٢٨٤و٢٨٧٥ ديناراً ومن الورق والنقد والفضـة ٧٩٠و٨٦٠و١٠٠ درهما ، ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبـلّور والسلاح وضروب المتاع شيئاً كثيراً ، وكان شحيحاً حتى كانت مفاتيح خزائنه فى الكيس الحديد مسمّراً بالمسامير لا يفارقه[3] .

وكذلك يقول ابن الجوزى إن بهاء الدولة جمع من الأموال ما لم يجمعه أحد من بنى بويه ، وكان يبخل بالدرهم الواحد ويؤثر المصادرات[4] .

والصفة الثانيـة الكبرى مما اتصف به بنو بُوَيْه التضافر الوثيق والطاعة التامة ، وذلك فى أجيالهم الأولى على الأقل ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الصفات العظيمة التى توفرت لعـلى بن بويه الذى لقب فيما بعد بعماد الدولة ، وهو الذى يرجع إليه الفضل فيما بلغـه بيت بنى بويه من قوة وعزة . ومن أمثلة طاعتهم والتزامهم النظام أن معز الدولة ، وهو أصغر الإخوة الثلاثة ، وكان حا كما على

(١) مسكويه ج ٥ س ٤٤٤ — ٤٤٥ .
(٢) مسكويه ج ٨ س ٣٥٧ .
(٣) ابن تغرى بردى طبعة كاليفورنيا س ٨٢ — ٨٣ .
(٤) المنتظم س١٥٩ ب .

العراق إذ ذاك ، لما لقى أخاه عماد الدولة بأرّجان عام ٣٦٣ هـ قبّل الأرض بين يديه ؛ وكان يقف قائما عنده ، فيأمره بالجلوس فلا يفعل[١] . ولما مات الأخ الأكبر انتقلت الرياسة إلى أخيه الثانى ركن الدولة فى الرىّ ، فكان معز الدولة لا يخالف له أمراً ، وكان ركن الدولة يأمره بإنفاذ الجيوش فيفعل[٢] . ولما أيقن معز الدولة بالتلف وصّى ابنه ، وهو على سرير الموت ، بطاعة ركن الدولة ، واستشارته فى كل ما يعرض له من مهمّ ، وكذلك ابن عمه عضد الدولة لأنه أسنّ منه وأقوم بالسياسة[٣] .

19

ولما أراد عضد الدولة هذا أن يأخذ العراق من يد ابن عمه معز الدولة بعد ما أظهر من عدم الكفاية ، وسمع أبوه حال أولاد أخيه من القبض عليهم : رمى بنفسه عن سريره ، وأقبل يتمرّغ ويُزْبد ، ويمتنع من الأكل والشرب أياما ، ومرض من ذلك مرضاً لم يستقلّ منه باقى حياته ، وكان يقول : إنى أرى أخى معز الدولة متمثلا إزائى يعض على أنامله ، ويقول : يا أخى هكذا ضمنت لى أن تخلفنى فى أهلى وولدى ! وقد غضب والد عضد الدولة على ابنه ، وأمره أن يخرج من بغداد ويسلمها لأبناء عمه ، فخرج منها طاعة لأبيه ، بعد أن كان قد أقام بها ، واتخذ لنفسه بها داراً[٤] .

أما عماد الدولة فلم يكن رجلا يمثل خصال السيد الحاكم ، بل كان أشبه بتاجر مخادع ، وكانت له مواهب الأكرة الأذكياء العمليين ؛ فمن ذلك أنه تقلد من الخليفة الراضى أعمال فارس على أن يحمل له فى كل سنة بعد جميع المؤن

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٥٣ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٦٦ .
(٣) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٨ .
(٤) مسكويه ج ٦ ص ٤٤٤ — ٤٤٦ .

والنفقات مائة ألف ألف درهم ؛ فأرسل إليه الوزير ابن مقلة بالخِلَع واللواء ، ورسم للرسول ألا يسلم اللواء والخِلَع إلا بعد تسليم المال الذى استقر عليه الاتفاق . فلما قرب الرسول من البلد تلقاه على بن بويه على بُعد ، وسار معه وطالبه أن يسلِّم إليه اللواء والخِلَع ، فعرّفه ما رسمه له الوزير ، فخاشنه على بن بويه ، وأرهبه حتى سلَّم إليه الخِلَع ، فلبسها ودخل بها شيراز وبين يديه اللواء ، وأقام الرسول مدة يطالب بالمال ، فلم يدفع علىّ إليه شيئاً ، حتى اعتلّ الرسول ومات بشيراز[١] .

وأما ركن الدولة فقد كان حليما ، واسع الكرم ، حسن السياسة لرعاياه وجنده ، رءوفا بهم ، بعيد الهمة ، يتحرَّج من الظلم ، ويمنع أصحابه منه ، وقد أثنى المؤرخون على عدله وكرمه[٢] .

ومن أمثلة ذلك أن إبراهيم السلاّر انهزم من بين يدى عدوّ له ، وورد حضرة ركن الدولة « بدابّته وسوطه » ، فأكرمه ركن الدولة ، وبالغ فى إعطائه ، وحمل له من كل صنف يكون عند الملوك ، وكان المؤرّخ ابن مسكويه حاضراً بالرىّ ، فركب للنظر إلى الهدايا المحمولة إلى إبراهيم ، وكانت كثيرة لم يرَ ابن مسكويه مثلها[٣] ؛ وقد اقترح الأستاذ ابن العميد وزير ركن الدولة ، بعد ما رأى سوء تدبير إبراهيم واشتغاله بالنساء واللعب والسكر الدائم ، وبعد أن شاهد طمع الناس فيه ، أن يدبّر ركنُ الدولة الناحيةَ لنفسه ، حتى لا يضيع سعيه فى إرجاعها لصاحبها ، ويعوض إبراهيمَ بشىء آخر حتى يجلس آمناً فارغ البال ، ويشتغل بما يؤثره من صحبة المغنين والمساخر ، « فأبى عليه ركن الدولة وفكّر فى شىء يفكر فيه مثله من أصحاب الهمم الكبار وقال : يتحدث الناس أنى افتتحت البلاد لرجل

(١) كتاب العيون س ١٤٧ ا ب .
(٢) ابن الأثير ج ٨ س ٤٩٣ .
(٣) مسكويه ج ٦ س ٢٨٠ — ٢٨١ ، و Amedroz, Der Islam, III, 335.

لجأ إلىّ ثم طمعت فيه ! »[1] . ولقد قاسى ابن العميد الكثير فى خدمته ؛ وكان ابن العميد وزيرا جيّد التدبير عليما بصناعة الملك و إصلاح ما فسد من أموره ، ولكن ركن الدولة كان مغلوباً على أمره لا يرى النظر فى العواقب ، ولا يستمع إلى آراء ابن العميد مع جودتها ، حتى إن ابن مسكويه يذكر ضعف ركن الدولة وفساد الأحوال فى حكومته ، ويذكر كفاية ابن العميد وحسن تدبيره ثم يقول : فما حيلة وزيره ومدبِّره ! ، « وكان ركن الدولة مع فضله على أقرانه من الديلم على طريقة الجند المتغلّبين ، ينعم بما يتعجّل له ، ولا يرى النظر فى عواقب أمره وعواقب أمور رعيته » ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ، وكان يوسّع عليهم فى الإقطاعات ، وكانوا يتواعدون من الليل إلى مواضع غامضة يجتمعون فيها ، وربما خرجوا إلى الصحراء ، واجتمعوا على ظهور دوابّهم وثنوا أرجلهم على أعناقها بقدر ما يدبرون الرأى فى وجه الحيلة ، فإذا تم لهم تدبير يومهم فهو عيدهم ونشاطهم . وكان ركن الدولة يرى أن دولته مقرونة بدولة الأكراد ، فكان لذلك لا يمنعهم من العبث ، ولا يطلق يدَ حُماة الأطراف فى قصدهم ، « ويرضى أن يقال له قُطعت القافلة ، وسيقت المواشى فيقول : لأن هؤلاء أيضاً ، يعنى الأكراد ، يحتاجون إلى القوت »[2] .

وكان الأمير معز الدولة ، أمير العراق ، حديداً سريع الغضب بذىء اللسان ، يُكثر سبّ وزرائه والمحتشمين من حشمه ، وكان يلحق المهلبىَّ من فحشه وشتمه ما لا صبر لأحد عليه ؛ بل كان يضربه بالمقرعة[3] . ولكن معز الدولة كان خوّاراً فى أمراضه ، فكان كلما اشتدت عليه العلّة ، وأيقن بالتلف (كان مريضاً

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ، و Amedroz: Der Islam, III, 336

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٥٤ — ٣٥٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ١٩٢ — ١٩٣ ، ١٩٤ .

بامتناع البول وبرمل فى مثانته) بكى وندب على نفسه على عادة الديلم[١] . وكان أيضاً سريع الدمعة ، وكاد ينهزم فى إحدى المواقع ، فبكى بين أيدى غلمانه ، ثم سألهم أن يجتمعوا ، ويحملوا على العدو ، وهو فى أولهم ، فإما أن يظفر وإما أن يكون أول من يُقتل[٢] . وكان لا يعرف للخليفة قدرَه ، فقد وثب عليه ، وهو تحت سلطانه ، وثبة الجندى الغليظ القلب . ولما مات وزيره أبو محمد المهلبى بعد أن ولى الوزارة له ثلاث عشرة سنة قبض معز الدولة أموالَه وذخائرَه ، وأخذ أهله وأصحابه وحواشيه ، حتى ملاحه ومن خدمه يوماً واحداً ، فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه[٣] . وبنى لنفسه داراً جديدة فى شمال بغداد ، فكان جملة ما خرج عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ولم يتردد فى أن يصادر بسبب ذلك جماعة من أصحابه[٤] ، وكان لا يأبه كثيراً لحقوق رعيته ، فاضطر إلى خبط الناس واستخراج الأموال من غير وجوهها ، وأقطع قواده وخواصه وأتراكه ضياع السلطان وغيرها ، وكان يسامح الوزراء المقْطعين ، ويقبل منهم الرشى ، واتسع الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ، ثم يردّوها ، ويعتاضوا عنها بما يختارون ، ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح . ورقّت أحوال الرعية ، فمن هاربٍ جالٍ ، إلى مظلوم صابر ، إلى مستريح لتسليم ضيعته إلى المُقطَع ليأمن شرّه وبوائقه ، وقلّ حَفْلُ الناظرين فى الأعمال تعويلا على أخذ ما صفا ، وترك ما كدر ، والرجوع على السلطان بالمطالبة ، وفوّض معز الدولة تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه من خواص الديلم ، فاتخذوها مسكناً وطُعْمَة ، والتحف عليهم

---

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١٠ ، ٢٤١ .
(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١٧ .
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٥ .
(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٨ ، ومسكويه ج ٦ ص ١٩٣ ، ويقول ابن الجوزى (المنتظم ص ٩٠ أ) إن معز الدولة أنفق على البناء إلى أن مات مائة ألف ألف دينار .

المتصرفون الخونة ، فبطلت العمارة ، وخربت البلاد ، واعتاض العمال عما يذهب من أموالهم بالمصادرة والحيف على الرعية ، وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان[1] . ولكن معز الدولة كان يُعنى بسدّ البثوق فى سدود الأنهار ، حتى خرج بنفسه مرة لسد بثق بادوريا ، وحمل التراب بنفسه فى طرف قبائه ، ففعل جميع العسكر مثل فعله ، وكذلك خرج إلى النهروانات فسد بثقها ، فعمرت هذه الأجزاء بعد خرابها ، وعمّ الرخاء ، حتى مالت العامة ببغداد إلى أيام معز الدولة وأحبوه[2] .

أما ابنه بُختيار الملقب بعزّ الدولة فقد وُهب قوةً جسدية عظيمة ، وكان شجاعاً ، و بلغ من قوته أنه كان يمسك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك[3] . ولكنه فيما عدا ذلك فشل فشلا يُرثى له ، « وكان يحب أن يقضى أوقاته فى الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة والفتاخ ؛ فإذا وقفت أموره قبض على وزيره واستبدل به »[4] ، ويقول بعض أصحابه إنه كان من ملذاته دفاترُ عزيزة يضنّ بها ، وجوارٍ صوانع لا يسمح بهن ، وخيلٌ عراب كان يستأثر بها ، ويحب أن يشتريها من البادية[5] ، وقد اتفق مرة أن اسرَ له فى موقعة بالأهواز غلامٌ تركى ، فجُنّ عليه جنوناً ، وتسلى عن كل شىء خرج عن يده إلا عنه ، « وامتنع عن الطعام والشراب وانقطع إلى النحيب والشهيق والعويل . . . وتضجّر بالجيش ، وتبرّم بحضورهم ، واطّرح التدبير ... ثم إذا وصل إليه وزيره وقوّاده وكتابه وخواصه فى المهمّ قطعهم عن

21

(١) مسكويه ج ٦ ص ١٣٥ — ١٣٨ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢١٨ — ٢١٩ .
(٣) ابن تغرى بردى طبعة كاليفورنيا ص ١٩ .
(٤) مسكويه ج ٦ ص ٣٨٦ — ٣٨٩ .
(٥) نفس المصدر ج ٦ ص ٤١٩ .

ذلك بالشكوى بما حلّ به والبوْح بما فى نفسه ، وتقضّت أوقاته ومجالسه بهـذا الخطب الجليل عنده ... نخفّ ميزانه عند الناس ، وسقط من عيونهم »[١] .

وكان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) دون سائر أعضاء أسرته هو الذى يمثل السيد الحاكم تمثيلا حقيقيا ، وقد خضعت لسلطانه ، فى آخر أمره ، البلادُ الممتدة من بحر الخزر إلى كرمان وعمان ، فلا بدع أن يُلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة فى الإسلام[٢] ، بعد أن كان هذا اللقب يشعر من قبل بالتجرؤ على مقام الألوهيـة ، وقد ظل هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك بنى بُوَيْه[٣] فكان أيضاً إحياء لرسوم الشرق القديمة .

كان عضد الدولة يحمل طابعَ أهل الشمال ، فكان أزرق العينين ، أشقر ، أصهب الشعر[٤] . وكان الوزير ابن بقيَّة يسميه أبا بكر الغُددى تشبيهاً له برجل أشقر أزرق أعمش يسمى أبا بكر كان يبيع الغدد برسم السنانير ببغداد[٥] . وكان عضد الدولة رجلا قاسياً ، وقد بلغه عن الوزير ابن بقية أمور ساءته ، فطلب من بختيار بن معز الدولة أن يسلّمه إليه ، فسلّمه إليه مسمولا ، فطرحه عضد الدولة إلى الفِيَلة ، وأُضريت عليه ، فقتلته شر قتلة ، وهذه العقوبة هى الأولى من نوعها فى الإسلام[٦] ، وقد بلغ من هيبته وخوف عماله منه أن الوزير المطهّر بن عبد الله خرج من مدينة السلام لطلب أحد الخارجين على عضد الدولة ، فالتاث على المطهّر

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٤٦٩ — ٤٧٠ .

(٢) المنتظم ص ١١٩ ب .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٨٨ ، وكتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (وهو معجم الأدباء) لياقوت طبعة مرجليوث ج ٢ ص ١٢٠ .

(٤) الإرشاد ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة أوربا ١٨٣٩ ، ترجمة ابن بقية رقم ٧٠٩ ، نقلا عن عيون السير للهمذانى .

(٦) مسكويه ج ٦ ص ٤٧٧ ، ٤٨١ .

الأمر ، وخاف تغيُّر عضد الدولة عليه فقتل نفسه [١] ، ولكن عضد الدولة كان أيضاً قاسياً على نفسه ، فيُحكى أن جارية كانت له شغلت قلبه بميله إليها عن تدبير المملكة ، فأمر بتغريقها [٢] ، وكان يُعنى بمعرفة الأخبار وسرعة وصولها شأن كل من يريد أن يحكم دولة كبيرة حكما صحيحاً ؛ فكان يسأل عن الأخبار الواردة ، فإن تأخرت عن وقتها قامت قيامته ، وسأل عن سبب التعويق ، فإن كان من غير عذر أنزل البلايا على أصحاب الأخبار . وكانت الأخبار تصل من شيراز إلى بغداد فى سبعة أيام ، أى أنها تقطع كل يوم ما يزيد على مائة وخمسين كيلومتراً [٣] .

وقد وسّع نطاق الجاسوسية ، « وكان يبحث عن أشراف الملوك ، وينقّب عن سرائرهم ، وكانت أخبار الدنيا عنده ، حتى لو تكلم إنسان بمصر رقى إليه ذلك ، حتى إن رجلا بمصر ذكره بكلمة ، فاحتال حتى جاء به ووبخه عليها ، ثم ردّه ، فكان الناس يحترزون فى كلامهم وأفعالهم من نسائهم وغلمانهم » [٤] . وقد طهّر السبل من اللصوص ، ومحا أثر العابثين الذين كانوا يقطعون الطريق . ويحكى أنه دسّ على

(١) نفس المصدر ص ٥٠١ — ٥١٤ . على أنه قد نُسب إلى عضد الدولة أشياء كثيرة من الظلم لم يفعلها حقيقة ، فيحكى ابن تغرى بردى (طبعة كاليفورنيا ص ١٥ — ١٦) أنه خطب الأميرة جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان فامتنعت عليه فاغتاظ من ذلك ، وحين وقعت فى يده استولى على أموالها ، ولم يدع لها شيئاً إلى أن احتاجت وافتقرت . وفى رواية أحدث عهداً أنه ما زال يعسف بها فى المطالبة حتى عرّاها وهتكها ، ثم ألزمها ، إما أن تصحح ما عليها من المال ، وإما أن تختلف إلى دار القحاب فتكتسب فيها ما تؤديه من المال المفروض عليها ، ولما ضاق بها الأمر ، وأشرفت على الفضيحة انتهزت غفلة الموكلين بها وغرّقت نفسها فى نهر الدجلة (مطالع البدور للغزولى ، طبعة مصر ١٣٠٠ هـ ج ٢ ص ٤٨) . والحقيقة أن جميلة فرت مع أخيها أبى تغلب عدو عضد الدولة ، فلما مات اعتقلها عضد الدولة فى بعض الحجر فى داره مع جواريه ونسائه (مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧) .

(٢) المنتظم ص ١٢٠ أ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر ص ١١٩ ب — ١٢٠ أ .

اللصوص فى إحدى القوافل بغلا يحمل حلوى شيبت بالسم ، فأكلوا منها فهلكوا ، وكانت هذه مكيدة عجيبة [١] . وأعاد النظام إلى صحراء جزيرة العرب وإلى صحراء كرمان وكانت أشهر بمخاوفها ، حتى رُفعت الجباية عن قوافل الحج ، وزال ما كان يجرى عليها من القبائح وضروب العسف ، وأقام للحجاج السواقى فى الطريق واحتفر لهم الآبار ، واستفاض الينابيع وأدار السور على مدينة الرسول [٢] ، وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها ، وكانت مختلة قد أُحرق بعضها ، وخرب البعض ، وابتدأ بالمساجد الجامعة ، وكانت فى نهاية الخراب ، وهدم ما كان مستهدما من بنيانها ، وأعاد بناءها ، وألزم أرباب العقارات بالعمارة ، فمن قصرت يده عن ذلك اقترض من بيت المال ، وأمر من كانت له دار على الشط من الأولياء والحاشية أن يجتهد فى عمارتها وتحسينها . وكان الناس قد استطابوا هدم المنازل وبيع أنقاضها ، فأبطل هذه السنّة وأعاد عمارة بستان عرصة دار العباس ابن الحسين وغيره ، فامتلأت الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة « بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح الجيف والأقذار » ، وجُلبت إليها الغروسُ من فارس وسائر البلاد وكانت الأنهار التى ببغداد قد دُفنت مجاريها وعفت رسومها ، ونشأ جيل من الناس لايعرفها ، فأمر بحفر عمداتها ورواضعها ، وقد كانت على الأنهار قناطر قد تهدّمت وأُهمل أمرها ، « فلم تكن تخلو من أن يجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيسقطون ، فبُنيت كلها جديدة وثيقة ، وعُملت عملا محكما ، وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد فانه كان لايجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه ، لاسيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحُم الناس عليه ، فاختيرت له السفن الكبار المتقنة ، وعُرّض حتى صار كالشوارع الفسيحة وحُصّن بالدارابزينات . . . وأعيد

(١) كتاب الأذكياء لابن الجوزى ص ٣٨ الباب الحادى عشر نقلا عن تاريخ الهمذانى
(٢) المنتظم ص ١١٩ ا — ب .

كثير من قناطر أفواه الأنهار »[١] وحوّل من البادية قوما فأسكنهم فارس وكرمان فزرعوا وعمروا البرية[٢] ، ومع هذا فلم تكن العراق مركز الدولة ، بل كان مركز الدولة فى فارس حيث كان يقيم قاضى القضاة أيضاً ، ويستخلف له أربعة خلفاء على أرباع بغداد[٣] . وكان عضد الدولة كثير الغضّ من أهل بغداد والازدراء لهم ، حتى قال : ما وقعت عينى فى هذا البلد على أحد يستحق اسم الفضل أو أن يسمى برجل غير نفسين ، فلما تأملت وجدتهما ليسا من أهل بغداد ، وأصلهما من الكوفة[٤] ، وعمل سوقا للبزازين ، ووقف عليه وقوفا كثيرة[٥] . وكان ينقل إلى بلاده ما لا يوجد بها من الأصناف ؛ فمما نقله إلى كرمان حب النيل[٦] ، وبنى بشيراز داراً عظيمة تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة[٧] ، ووسّع الدار الكبيرة التى كانت للقائد سبكتكين ببغداد ، والتى تركها بعد وفاته ، وأجرى إلى بستانه الماء فى مجرى عالٍ يخترق الصحراء والأرباض ، واستخدم الفيلة فى نقض هذه الدور ، ورمْى حيطانها وفى دَكّ الأرض ، وكان أول من استعمل الفيول فى القتال[٨] ، وكان عازما على القيام بمشروعات بناء غير ما تقدم فمات قبل ذلك[٩] . وكانت عادته أن يباكر دخول الحمام ، فإذا خرج وصلى الفجر دخل إليه خواصّه ، فإذا ترجّل النهار سأل عن الأخبار الواردة ، ثم يتغدّى ، والطبيب قائم ، وهو يسأله

23

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ — ٥١٠ .

(٢) المنتظم ص ١١٩ ب .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٢ .

(٤) ملحق أخبار القضاة طبعة (Guest) ، ليدن ١٩١٢ ص ٥٧٤ .

(٥) المنتظم ص ١١٩ب .

(٦) نفس المصدر ، ومسكويه ص ٥٠٨ .

(٧) المقدسى ص ٤٤٩ .

(٨) مسكويه ج ٦ ص ٤٦٤ .

(٩) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى طبعة سلمون (Salmon) ص ٥٦ وما يليها .

عن منافع الأطعمة ومضارها . ثم ينام إلى الظهر ، فإذا انتبه صلى الظهر وخرج إلى مجلس النَّدَماء والراحة وسماع الغناء إلى أن يمضى من الليل صدر ثم يأوى إلى فراشه [١] . وكان قد تعلَّم على أحسن المعلمين ، وكان يفتخر بمعلميه [٢] وكان يحب العلم والعلماء ، ويجرى الجرايات على الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسّابين والأطباء والحُسّاب والمهندسين [٣] . وسنتكلم عن مكتبته وترتيبها وإعدادها فى غير هذا المكان (انظر الفصل الخاص بالعلماء) . على أن عضد الدولة كان يتشاغل بالعلم ويتفرّغ للأدب فى أيام دولته ، وقد وُجد له فى تذكرة : إذا فرغنا من حل إقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، وإذا فرغنا من كتاب أبى على النحوى تصدقت بخمسين ألف درهم ، وكان يحب الشعر ويعطى الشعراء ، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء [٤] وكان يقول الشعر وينشده ، ويحكم على معانيه بعد التقدير له [٥] . وقد ذكر له الثعالبى شعراً عربيا ينسب إليه ، وهو لا يعدو أن يكون كلاما موزونا رديئا [٦] . ولكن هذا كله لم يمنع عضد الدولة من إساءة معاملة الصابى مع أنه كان سيد الكتاب فى ذلك العصر . وقد أفرد عضد الدولة فى داره لأهل الخصوص والحكماء والفلاسفة موضعاً يقترب من مجلسه ، فكانوا يجتمعون فيه للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة . وأمر بإدرار الأرزاق على قوّام المساجد والمؤذنين والأئمة والقراء فيها ، وإقامة الجرايات لمن يأوى إليها من الغرباء والضعفاء [٧] . وبنى مارستانا كبيراً ببغداد

---

(١) المنتظم ص ١٢٠ أ .
(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى طبعة ليبزج سنة ١٣٢٠ هـ — ١٩٠٣ م ص ٢٢٦ .
(٣) المنتظم ص ١٢٠ أ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨ .
(٤) يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر للثعالبى طبعة دمشق ج ٢ ص ٢ ، والمنتظم ص ١٢٠ أ
(٥) الإرشاد ج ٨ ص ٢٨٦ وكتاب الأذكياء لابن الجوزى ص ٣٨ .
(٦) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣ وما بعدها .
(٧) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ ، ٥١٠ — ٥١١ .

24 وقد وُجد فى تذكرة له : وكل ابن يولد لنا كما نحب نتصدق بعشرة آلاف درهم ، فإن كان من فلانة فبخمسين ألف درهم ، وكل بنت فبخمسة آلاف فإن كان منها فبثلاثين ألفا[١] ، وتجاوزت صدقاته أهل الملّة إلى أهل الذمّة ، فأذن للوزير نصر ابن هارون فى عمارة البيع والديرة ، وإطلاق الأموال لفقراء أهل الذمة[٢] .

غير أن عضد الدولة لم يكن أبا لرعيته ، بل ظل الحاكم الأجنبى عنهم ، وهو كالراعى الذى يحسن العناية بغنمه لينتفع منها بأكبر نصيب ، وفى آخر أيامه أحدث رسوماً جائرة ، وزاد الرسوم القديمة ، وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق[٣] . وفى آخر عمره كان دخله فى السنة ثلاثمائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم ، فأراد أن يبلغ به ثلاثمائة وستين ألف ألف ، ليكون دخله كل يوم ألف ألف درهم ، « وكان مع صدقاته وإيصاله ينظر فى الدينار ويناقش فى القيراط »[٤] .

والحكم الأخير الذى انتهى إليه مسكويه فى كلامه عن عضد الدولة أنه قال : « فلولا خلال كانت فى عضد الدولة يسيرة ، لا أستحسن ذكرها ، مع كثرة فضائله لبلغ من الدنيا مُناه ورجوت له من الآخرة رضاه ، والله ينفعه بما قدّمه من العمل الصالح ، ويغفر له ما وراء ذلك »[٥] .

وتتجلى مواهب عضد الدولة السياسية فى اختياره لولاته : فقد ولّى على الجبل وهمذان والدينور ونهاوند وأسد اباد وغيرها بدر بن حسنويه الكردى (المتوفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م) ، « وقد قامت هيبته بالشجاعة والعدل والسياسة

---

(١) المنتظم ص ١٢٠ ا .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨ .
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦ .
(٤) المنتظم ص ١٢٠ ب
(٥) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ وهذا المؤرخ كان ممن عرف عضد الدولة وخدمه بنفسه .

وكثرة الصدقة ... وكانت جراياته وصدقاته متصلة على الفقهاء والأشراف والقضاة والشهود والأيتام والضعفاء ، وكان يصرف كل سنة ألف دينار إلى عشرين رجلا يحجون عن والدته وعن عضد الدولة . وكان يتصدق كل جمعة بعشرة آلاف درهم على الضعفاء والأرامل ، ويصرف كل سنة ثلاثة آلاف دينار إلى الأساكفة والحذائين بين همذان و بغداد ليقيموا المنقطعين من الحاج بالأحذية . وكان يصرف إلى تكفين الموتى كل شهر عشرين ألف درهم ، وعمَّر القناطر ، واستحدث فى أعماله ثلاثة آلاف مسجد وخان للغرباء ، ولم يمرّ بماء جارٍ إلا بنى عنده قرية ، وكان ينفذ كل سنة فى الصدقات على أهل الحرمين وحفظ الطرق ومصالحها مائة ألف دينار ، وكان ينفق على عمارة المصانع وتنقية الآبار وجمع العلوفة فى الطريق ، ويعطى سكان المنازل رسوماً لقيامهم ، وعمل إلى الحرمين والكوفة و بغداد ما يُفرق على الأشراف والفقهاء والقراء والفقراء وأهل البيوتات [١] .

وقد تخرّج على يدى عضد الدولة القائدُ أمير الجيوش (المتوفى عام ٤٠١ هـ — ١٠١٠ م) ، وهو الذى ولاّه بهاء الدولة تدبير العراق لإعادة النظام إليها ، فقدم بغداد عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م ، والفتن قائمة ، فقتل وصلب وغرّق ، حتى بلغ من هيبته أنه أعطى غلاماً له صينية فضة فيها دنانير ، وأمره أن يأخذها على رأسه ويسير من أول بغداد إلى آخرها علّ أحداً يعترضه ، فعاد وقد انتصف الليل دون أن يعترضه أحد [٢] .

ولم يُخرج بيت بنى بويه بعد عضد الدولة جيلا يصلح للحكم ، واضمحلت فى أواخر الأمر مواردهم المالية ، واختلت المملكة أيام جلال الدولة ، وقُطعت عنه

(١) المنتظم ص ١٦١ ب .
(٢) المنتظم ص ١٥٦ ب وابن تغرى بردى طبعة كليفورنيا ص ١١١ .

المادة حتى أخرج ثيابه وآلاته وباعها فى الأسواق ، وخلت داره من حاجب وفراش و بواب ، وصار أكثر الأبواب مغلقاً ، وانقطع ضَرْبُ الطبل له فى أكثر الأيام لانقطاع الطبّالين[1] .

وأما أمراء الترك فيمثلهم بجكم والإخشيد ، وكل منهما جندى ماهر وحاكم قدير ، وإن كان مظهرهما الخارجى لم يكن بشىء .

أما بجكم ففيه خصال قائد الجند المرتزقة كلها ، فقد انتقل من خدمة ما كان الديلمى إلى خدمة مرداويج ، و بعد قتل مرداويج — ويقال إنه كانت لبجكم يدٌ فى قتله — ذهب مع مئات قليلة من الترك والفرس إلى ابن رائق ، وظل غلمان مرداويج تحت إمرة بجكم[2] ، ولم يكن عددهم عظيما ؛ فيقول مسكويه إنهم كانوا ثلاثمائة غلام استأمنوا إليه[3] ، ثم تقدم ابن رائق إلى بجكم بأن يكاتب كل من بالجبل من الأتراك والديلم بالمصير إليه ، فكاتبهم وصار إليه عِدَّةٌ وافرة منهم[4] . ثم استقلَّ بجكم بدوره السياسى الخاص ، فأزال اسم ابن رائق عن أعلامه وترك الانتساب إليه[5] ، وحاربه حتى أخرجه من بغداد ، وصار هو أميراً على العراق ، وكان معه فى ذلك الوقت سبعمائة من الترك وخمسمائة من العجم[6] . وكان الخليفة الراضى يحب بجكم أكثر من حبه لابن رائق ، وقد خلع عليه خِلع المنادمة ، وجعله أمير الأمراء[7] . و بعد موت الراضى طمع بجكم فى جماعة من

---

(١) المنتظم ص ١٨٤ ب .

(٢) كتاب العيون ص ١٤٨ ا — ب .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ ، وفى كتاب العيون ص ١٥٥ ب أنهم كانوا مائتين وتسعين غلاما .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٨ ، وكتاب العيون ١٤٨ ا — ب .

(٥) كتاب العيون ص ١٦٣ ا .

(٦) كتاب العيون ص ١٦٤ ا .

(٧) الأوراق للصولى ص ٥٣ — ٥٥ ، وكتاب العيون ص ١٦٧ ا .

ندمائه ، وظن أنه ينتفع مع عجمته بآدابهم ، فلما نظر لم يجد منهم من يفهّمه ما ينتفع به إلا الطبيب سنان بن ثابت ، فوصله وأكرمه ، وطلب منه أن يداويه من غلبة الغضب والغيظ ، وإذا عرف له عيباً ألا يحتشم من ذكره له ، ثم يرشده إلى علاجه ليزول عنه[١] .

وكان بجكم ذا شجاعة نادرة ، فقد لقى عشرة آلاف من عسكر البريدى بأتمّ عدة وأكمل سلاح ولم يكن معه إلا مائتان وتسعون من الأتراك ، فهزم عسكر البريدى ، وفى إحدى المواقع طرح بجكم نفسه مع جماعة من الأتراك ، فى ديالى ، وسبحوا وعبروا إلى الأرض التى عليها العدو وذلك أمام عينه ، وعبر الديلم فى الطيارات وبعضهم عبر سباحة ، وقاتل العدو ، وهو يظن أنه منه فى أمان ، حتى هزموا وانصرفوا بين يديه[٢] ، وخرج ابن رائق من بغداد ، ولم يتشفّ بجكم منه ، فلما كان مع الراضى فى سرّ من رأى ، وورد الخبر بخروج ابن رائق إلى باب الأنبار استأذن بجكم الخليفة فى أن يعبر من سُرّ من رأى إلى هيت مجتازاً الصحراء ليأخذ على ابن رائق الطريق فلا يفوته ، فلم يأذن له الراضى وقال : هذا لا يصح ، لأنه رجل قد أمّنته ، وإذا فعلنا ذلك بعد الأمان كان قبيحا[٣] . وقد غلب بجكم هذا سيفَ الدولة صاحب الانتصارات المشهورة على الروم كلما نزل سيف الدولة لمحاربته .

ولما جاء بجكم إلى بغداد حمل معه كثيراً من ضروب الغلظة التى اقترنت بحياته الجندية ، وعندما دخل واسط طالب أهلها بالمال واشتدّ فى تعذيبهم حتى كان يضع على بطن الرجل منهم طستا فيه جمر ، فنبّه البعض إلى أنه يفعل

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٦ والصفحات التالية .
(٢) كتاب العيون ص ١٥٥ ا — ب .
(٣) نفس المصدر ص ١٧٦ ا .

ما كان يفعله مرداويج بأهل الجبل ، وذكّره بأنه فى بغداد ودار الخلافة لا الرىّ وأصبهان ، ولا تحتمل بغداد هـذه الأخلاق[١] . وقد أبغض أهل بغداد بجكم لقبح سيرته ، فلما ظهر ابن رائق سُرُّوا به ، وأظهروا ما فى أنفسهم من بغض بجكم ، فكان العيّارون والصبيان يهزأون ببجكم ورجاله ، ويقولون : بجكم حلقوا نصف سباله ، فإذا رأوا تركيا عليه قلنسوة صاحوا به : قلنسوة طيرى ليس أميرنا بجكم[٢] .

على أن بجكم كان أميراً محبا لعمارة البلاد ، حتى إنه رأى قصور الأكاسرة الخربة فى المدائن فعمّر مواضع كبيرة فى تلك الناحية وأنشأها ، وأجرى إليها الأنهار ، وغرس بها غروساً[٣] . وكان يدفن أمواله فى الصحراء ويأخذ معه رجالا ليعاونوه ، فيطبق عليهم الصناديق ، ويحملهم على بغال إلى جوف الصحراء ، وبعد أن يدفن المال يطبق عليهم الصناديق ويعود بهم فلا يدرون إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين جاءوا . وكان هو يتخذ لنفسه علامات يهتدى بها[٤] . وأصل هذا التصرف راجع إلى بساطة بجكم وتخبُّطه فيما يجهله من الأمور غير العسكرية .

أما محمد بن طغج فأصله من أولاد ملوك فرغانة ، وكان جده قد جاء من التركستان فى عهد الخليفة المعتصم ، وكان هذا الخليفة أوّل من جلب الكثير من الجنود الأتراك واستخدمهم ، أما أبوه فقد ارتقى حتى صار واليًا على دمشق ، ولكنه عُزل وسجن هو وابنه محمد فذاق هذا الأخير من الحياة حلوها ومرها ، وخدم ابن طغج قواداً كثيرين ، حتى إنه كان مرة بازياراً لعامل الشام يخرج معه للصيد ويحمل له الجوارح ؛ وقد أتيحت له فرصة لإظهار شجاعته عند حاكم مصر ،

(١) مسكويه ج ٥ ص ٥٧٠ ، وانظر أواخر الفصل الخاص بالمالية فيما يأتى .
(٢) كتاب العيون ص ١٧٥ ب .
(٣) نفس المصدر ص ١٨٠ أ .
(٤) مسكويه ج ٦ ص ٣٩ — ٤١ ، وانظر أيضاً الفصل الخاص بالمالية .

مما رفعه إلى منصب والى مصر ، ثم صار أميرها المستقل ، وامتد حكمه أخيراً على بلاد تساوى فى المساحة أكبر رقعة حكمها ملوك الفراعنة ، فكانت له مصر والشام واليمن ومكة والمدينة وغيرها [١] ، فلا عجب إذاً أن نرى الخليفة المستكفى يكتب إلى الإخشيد ويعرض عليه إمارة بغداد بعد موت توزون ، ويضمن له القيام بالأمر فلا ينشط لذلك ، وكان الإخشيد أزرق بطينا [٢] . وكان شديد القوة لايقدر أن يجرّ قوسَه غيرُه ، ولكنه كان قد ثار به طرف من سوداء مرة ، فكان يعتاده فيخلط [٣] ، وقد حسن حال مصر على يديه ، وعنى بالنظام فيها ، وأمر بضرب الدينار الإخشيدى على عيار كامل ، وصلحت النقود فى عهده بعد فسادها [٤] . وكان جيشه أعظم جيوش عصره فلما استدعاه المتقى واقترب من الرقّة والرافقة أشرف أهلهما على السواحل والأسوار ونظروا من عظم العسكر وحسن عدته مالم يشاهدوا مثله [٥] .

27

وقد التقت فى الإخشيد خصلتان : السذاجة وحب التملك ، فكان اجتماعهما طريفا ، وقد بدأ بمصادرة جميع العمال الأغنياء أصدقاء كانوا أم أعداء ، وأخذ أموالهم فى هدوء من جانبه وبرود ، وكثير منهم كان يستحق هذا . وقد اشتهرت عنه محبته للعنبر ، فكان أكثر مايُهدى إليه ، وكان إذا جاءت الأوقات التى يُهدى إليه فيها أخرج من خزائنه العنبر وباعه إلى التجار فيشتريه الذين يهدونه إليه فيحصل له الثمن الوافر ، ثم يعود العنبر إليه [٦] ، وتحكى عنه حكايات تدل على

---

(١) انظر ترجمة محمد بن طغج فى كتاب وفيات الأعيان ج ٣ ص ٥٤ — ٥٥ وكتاب المُغْرِب فى حلى المغرب لابن سعيد طبعة ليدن ١٨٩٨ من ص ٤ إلى ص ٢٠ .

(٢) كتاب المغرب لابن سعيد ص ٣٩ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦ — ١٧ .

(٤) كتاب العيون ص ٢٠٩ ب .

(٥) نفس المصدر ص ٢١٣ ب .

(٦) المغرب لابن سعيد ص ٣٥ — ٣٦ .

أنه كان لا يأنف أن يأخذ ما يعجبه إذا وجده عند أحد من أصحابه[١].

ولكن كان الغالب على الإخشيد الحياء ورقة الوجه ، وكان إذا صادر أحداً لم يعذّبه ولم يضربه ، ولم يضيّق عليه ، ولم يرَه حتى تنتهى المصادرة ، وكان رسمه ألا يتعرض للحرم[٢] ، وكان يحب الصالحين ويكرمهم ويركب إليهم ويطلب دعاءهم . يقول ابن سعيد[٣] : « وحدثنى مسلم بن عبد الله الحسينى قال : وصفت للأخشيد رجلا صالحا بالقرافة يعرف بابن المسيَّب ، فركب معى إليه وسأله الدعاء ثم انصرف ، فقال لى : تعال أريك أنا أيضاً رجلا صالحا ، فمضيت معه إلى أبى سليمان بن يونس ، فرأيت شيخا أديباً جالسا على حصر سامان مُبَطَّن ، فقام فتلقى الإخشيد وأقعده على الحصير ، ثم قال له يا أبا سهل : إقرأ علىّ فإن الريح آذتنى الساعة فى الصحراء ، فأدخل يده تحت الحصير فأخرج منه منديلا نظيفا مطويا فعطاه على يده وقرأ عليه » ، وكان الإخشيد يحب قراءة القرآن ويبكى عند سماعها[٤].

وقد وقع له مرة أمر عجيب ، وذلك أن رجلا من أهل العراق صعد فوق زمزم بمكة وصاح : معاشر الناس ! أنا رجل غريب ، ورأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول لى : سر إلى مصر ، والق محمد بن طغج ، وقل له عنى يطلق محمد ابن على المادراى ، فقد أضرّ بولدى . ثم سارت القافلة إلى مصر وسار الرجل ووصل إلى مصر وبلغ الإخشيدَ خَبَرُه ، فأحضره وقال له إيش رأيت ؟ فأخبره فقال : كم أنفقت فى مسيرك إلى مصر قال : مائة دينار فقال : هذه مائة دينار من عندى ،

28

(١) انظر الفصل الخاص بالأخلاق والعادات .
(٢) المغرب لابن سعيد ص ١٥ ، ٣٧ .
(٣) المغرب ص ٣٤ — ٣٥ ، ص ٣٩ .
(٤) نفس المصدر ص ٣٧ .

وعُدْ إلى مكة ، ونَمْ فى الموضع الذى رأيت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رأيته فقل لرسول الله : قد بلّغت رسالتك إلى محمد بن طغج فقال : بقى لى عنده كذا وكذا ، وذكر شيئاً كثيراً ، فإذا دفعه إلىّ أطلقته ، فقال له الرجل : ليس فى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هزل ، وأنا أخرج إلى المدينة وأنفق من مالى وأسير إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأقف بين يديه يقظان بغير منام ، وأقول : يارسول الله ، أديت رسالتك إلى محمد بن طغج فقال لى كذا وكذا ، وقام الرجل فأمسكه وقال : حصلنا فى الجد ، إنما ظننا بك ظنا ، والآن فما تبرح حتى أطلقه ، فأرسل إليه الإخشيد من توسّط فى أمره وأطلقه[1] .

وفى سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢م ورد الخبر من دمياط إلى مصر بأن رجلا أقطع اليد قديماً ممن قد أُخذ مع قوم اتهموا بقطع الطريق غاب عن البلد زمانا ثم عاد ويده صحيحة . وقد ادّعى أنها كانت مقطوعة وأنها كانت عند أهله ، وقال إنه كان فى مسجد يتعبد فيه وأن يده عادت صحيحة ، فافتتن الناس به وكثر القول فيه ، فوجّه الإخشيد من أحضره إلى داره ، وسأله عن قصّته فقال : رأيت فى النوم كأن سقف المسجد قد انفتح ونزل إلىّ منه ثلاثة أنفس : النبى وجبريل وعلىٌّ عليهم السلام ، فسألت النبى صلى الله عليه وسلم رَدّ يدى فَرَدّها إلىّ ، وانتبهتُ وقد عادت . وورد من دمياط كتاب بأن جماعة من المستورين رأوه مقطوع اليد ، فأوصله الإخشيد إليه وأكبره ، واستعظم قدرة الله تعالى فيه ، ثم قيل إن هذا دلس وكذب وزالت الفتنة والله أعلم[2] .

---

(١) المغرب لابن سعيد س ٣٥ .
(٢) كتاب العيون س ٢٠٩ ب — ٢١٠ ا .

الفصل الرابع

اليهود والنصارى

إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية و بين أوروبا التى كانت كلها على المسيحية فى العصور الوسطى وجودُ عدد كبير من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين ، وأولئك هم أهل الذّمة الذين كان وجودهم من أول الامر حائلا بين شعوب الإسلام و بين تكوين وحدة سياسية . وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة ، واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم و بين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق فلم يرضوا بالاندماج فى المسلمين ، وقد حرص اليهود والنصارى على أن تظل « دار الإسلام » دائماً غير تامة التكوين ، حتى إن المسلمين ظلوا دائماً يشعرون أنهم أجانب منتصرون لا أهل وطن ، وحتى إن الفكرة الإقطاعية لم تمت ، بل كان وجود النصارى بين المسلمين سبباً لظهور مبادئ التسامح التى ينادى بها المصلحون المحدثون . ولكن الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق أوجدت من أول الأمر نوعاً من التسامح الذى لم يكن معروفا فى أوروبا فى العصور الوسطى ، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان ، أى دراسة الملل والنحل على اختلافها ، والإقبالُ على هذا العلم بشغف عظيم .

وكان تغيير الدين لا يجوز إلا إذا كان دخولا فى الإسلام ، فكانت الطوائف الدينية منفصلة بعضها عن بعض تمام الانفصال ، وكان المسلم إذا ارتدّ عن الإسلام

عوقب بالقتل ، كما أن قانون الدولة البوزنطية كان يقضى بقتل المسيحى إذا هو غيّر دينه[1] .

ولم يكن يقع تزاوج بين المسلمين وغير المسلمين ، وذلك لأن القانون المسيحى لم يكن يجيز للمرأة النصرانية أن تتزوج بغير نصرانى ، لئلا تنتقل هى وأولادها إلى

---

(١) ولا بد أن يكون قد سبق هذا التشريع محاولات إلى الارتداد عن الإسلام ، وقد حدث فى أوائل عهد الفاطميين أنه : « رفع إلى محمد بن النعمان القاضى (٣٤٥ هـ — ٣٨٩ هـ) أن نصرانيا أسلم ، ثم ارتد وقد جاوز الثمانين ، فاستتيب فأبى ، فأنهى أمره إلى العزيز ، فسلمه لوالى الشرطة ، وأرسل إلى القاضى أن يرسل أربعة من الشهود ليستتيبوه ؛ فإن تاب ضمن له عنه مائة دينار ، وإن أصر فليقتل ، فعرض عليه الإسلام فأبى فقتل ، ثم أمر بتغريقه فى النيل » (ملحق أخبار القضاة للكندى طبعة Guest ، ليدن ١٩١٢ ص٥٩٣) ، وقد حدث فى بلدة سروج بالعراق فى القرن الثالث الهجرى أن رجلا من المتشددين فى الإسلام عذب نصارى ارتدوا بعد إسلامهم بصروف العذاب ليعيدهم إلى الإسلام ؛ فأمر به القاضى فضرب وسجن (Michael Syrus, s. 535) ، ويقول أبو العلاء (المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م) :

قد أسلم الرجل النصران مرتغباً … وليس ذلك من حب لإسلام

أو شاء تزويج مثل الظبي معلمةٍ … للناظرين بأسوار وعلاّم

(اللزوميات طبعة بمباى ص ٢٥٠)

ومن كبار رجال الدين المسيحيين من دخل الإسلام ، فصبّ عليه مؤرخو الكنيسة لعنتهم ففى أواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) اتهم رئيس الأساقفة النسطوريين بمدينة مرو باللواط اتهاما علنيا فاعتنق الإسلام ، وكان يحط من شأن المسيحيين لدى البلاط (Barherbraeus Chron. eccles. III, 171 ff.) ، وحوالى عام ٣٦٠ هـ — ٩٧٠ م اعتنق أسقف أذربيجان الإسلام بعد أن قبض عليه يزنى بامرأة مسلمة (نفس المصدر ص ٢٤٧) ، وفى سنة ٤٠٧ هـ — ١٠١٦ م هدد رئيس أساقفة مدينة تكريت بالخلع بسبب ارتكابه للزنا ، فدخل الإسلام وتسمى بأبى مسلم ، وتزوج كثيرا من النساء ، ويحكى المؤرخون المسيحيون مسرورين أنه لم ينل من التشريف عند الخلفاء ما كان يناله وهو رئيس لأبناء دينه ، وأنه فى آخر حياته كان يعيش من التكفف (Elias Nisibenus, S, 226, Barherbr. Chron. eccles. III, 287 ff) وكذلك فى الأندلس خلع أحد الأساقفة الكبار ، وهو صموئيل أسقف مدينة البيرا Elvira لسوء سيرته فاعتنق الإسلام ، (Graf Baudissin, Eulogius Und alvar, 1872, S. 162) ولقد تمثل أبو العيناء بمثل فريد فى بابه فى القرن الثالث الهجرى ، وذلك أنه استأذن يوما على الوزير صاعد بن مخلد ، فقال له الحاجب : الوزير مشغول ، فانتظر ، فلما أبطأ إذنه قال للحاجب : ما صنع الوزير قال : يصلى ، قال : صدقت ، لكل جديد لذة ، يعيّره بأنه حديث عهد بالإسلام (مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٢٢ — ١٢٣) .

غير المذهب ، ولا يجوز للنصرانى بحسب القانون المسيحى أن يتزوج بغير نصرانية إلا رجاء إدخالها وأولادها فى النصرانية[١] .

أما زواج المسيحى من مسلمة فكان مستحيلا . على أنه كان فى الدولة الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانها الخاص ، فكان لا يجوز للمسيحى أن يتهوّد ، ولا لليهودى أن يتنصّر ، ولا يكون تغيير الدين إلا إذا كان ذلك دخولا فى الإسلام ، ولم يكن النصرانىُّ يرث اليهودىَّ ولا العكس ، كما لم يكن اليهودىُّ أو النصرانىُّ يرث المسلمَ ولا المسلم غير المسلم يهوديا كان أو نصرانيا[٢] . وقد أصدر الخليفة المقتدر فى سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م كتاباً فى المواريث أمر فيه بأن « تردّ تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته » ، على حين أن تركة المسلم تُرَدّ إلى بيت المال[٣] .

وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى صدر منشور كُتب للصابئين عن أمير المؤمنين ، أمر فيه ، إلى جانب صيانتهم وحراستهم والذبّ عن حريمهم ورفع الظلم عنهم ونحو ذلك ، بالتخلية بينهم و بين مواريثهم ، وتَرْك مداخلتهم ومشاركتهم فيها ، لأن أمير المؤمنين يرى فى مواريث الصائبين وغيرهم من المخالفين رأى رسول

---

(١) Sachau : Syriche Rechtsbücher, II, S. 75, 170, 192 .

(٢) كتاب الخراج وصنعة الكتاب لقدامه بن جعفر ، مخطوط رقم ٥٩٠٧ بالمكتبة الأهلية بباريس ص ١٣ ب ، حيث ورد فى عهد لقاض بولاية الحكم ألا يورث أهل ملتين .

(٣) كتاب الوزراء ، ص ٢٤٨ ، ويظهر أن الحال كانت قبل عهد المقتدر فيما يتعلق بالمسلمين أن تؤخذ تركة من لا وارث له إلى بيت المال ، وكذلك ما يفضل عن السهام المفروضة فى القرآن ، إن لم يكن للمتوفى عصبة تحوز باقى ميراثه ، وكان لذلك عمال يسمون عمال المواريث ، وقد اشتطوا حتى شكى منهم الناس . والمفهوم من نص كتاب المقتدر أنه أمر بصرف عمال المواريث فى سائر النواحى ، وأمر برد ما يفضل من السهام المفروضة على أصحاب السهام من القربة ويجعل تركة من يتوفى ولا عصبة له لذوى رحمه إن لم يكن له وارث سواهم ، وهذا رأى عمر وعلى وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم . على أن الكتاب لم يتعرض لتركة المسلم الذى يموت ولا يكون له وارث ولا رحم (المترجم) .

الله صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول فى الأثر الثابت عنه : «لا يتوارث أهل ملّتين»[١] .

وفى أثناء القرن الرابع الهجرى اعترُف للمجوس أنهم أهل ذمّة ، إلى جانب اليهود والنصارى ، وكان لهم ، كاليهود والنصارى ، رئيسٌ يمثلهم فى قصر الخلافة وعند الحكومة ، ولكن كان بين هذه الطوائف الثلاث فروق ، فأما اليهود فإنهم استطاعوا أن يستنقذوا مركزهم السياسى من خلال الاتحاد المفكك الذى كان للإمبراطورية البابلية رغم ما تعرضوا له من مخاطر وتقلُّبات ، وأما المجوس فهم بقية لعدوّ باسل مستقل لم يتمّ التغلب عليه فى مواطنه البعيدة المنال . أما النصارى فقد كانوا من قبل يخضعون لحكم الساسانيين على ما يشبه حال أهل الذمة ، وكانت الظروف التى عاشوا فيها أقسى عليهم من غيرهم ، وأقل حفظاً لمصالحهم من اليهود أو من شعوب الولايات التى أُخذت من الروم[٢] ، «وكانت الرياسة فى المجوس واليهود وراثية ، وكان يلقب رؤساؤهم بلقب المُلْك ، وكانوا يدفعون الضرائب لرؤسائهم خلافاً لما كان الحال عليه بالنسبة للنصارى»[٣] ، وقد قال بطريرك اليعاقبة فى مجلس له مع الخليفة : إن رؤساء المجوس واليهود حكام دنيويون ، وإنه هو رئيس روحى ، ولا يستطيع إلا فرض العقوبة الروحية كأن يحكم بإزالة القسس والأساقفة عن مناصبهم أو بمنع العلمانيين من حضور البيعة[٤] .

وصار الجاثليقُ النسطورى ، رئيس المسيحيين الشرقيين ، بعد أن انتقل مركز الدولة الإسلامية إلى الشرق ، هو الرئيس الأكبر للنصرانية ، وكان يُكتب للجاثليق

(١) رسائل الصابى مخطوط رقم ٧٦٦ بمكتبة ليدن بهولنده ص ٢١١ ا — ب .

(٢) Nöldeke : Tabariübersetzung, S. 68. Anm.

(٣) Michael Syrus, ed. Chabot, S. 519. ، وكان أهل الذمة فى الموصل يدفع كل واحد منهم ديناراً ، وكان نصف ما يحصل من اليهود يعطى لرئيسهم ونصفه الآخر للحكومة (R. Petahja, S. 275)

(٤) Dionys. von Tellmachre, ed. Chabot, 148; Barherbraeus, Chronicon ecclesiasticum, ed. Abbeloos et Lamy, 1,372.

عهدٌ كما يُكتب لكبار العمال والمتصرّفين ، وقد ورَدَ فى نسخة عهد الجاثليق عام ٥٣٣ هـ — ١١٣٩م[1] ، « ولما أُنهِيَتْ حالك إلى أمير المؤمنين ، وأنك أمثل أهل ملتك طريقة ، وأقربهم إلى الصلاح مذهباً ... وحضر جماعةٌ من النصارى الذين يُرجع إليهم فى استعلام سيرة أمثالك ... فاتفقوا باجتماع من آرائهم وأهوائهم على اختيارك لرياستهم ومراعاة شؤونهم وتدبير وقوفهم والتسوية فى عدل الوساطة بينهم قويهم وضعيفهم وسألوا أيضاً نَصْبَك عليهم بالإذن الذى به تثبت قواعده... وبرز الإذن الإمامى الأشرف لازالت أوامره معضودة بالتوفيق بترتيبك جاثليقا لنسطورى النصارى بمدينة السلام ومن تضمنته ديار الإسلام وزعيما لهم ومن عداهم من الروم واليعاقبة والملَكِيَّة فى جميع البلاد وكل حاضر فى هذه الطوائف وبادٍ وانفرادك عن كافة أهل ملتك بتقمّص أهبة الجثلقة المتعارفة فى أماكن صلواتكم ومجامع عباداتكم غيرَ مشارك فى هـذا لإنسان ولا مفسح فى التحلّى به لمطران أو أسقف أو شماس[2] حطّاً لهم رتبتك ووقوفا بهم دون محلك ، وإن ولج أحد فى باب المجادلة ..... وأبى النزول على حكمك .... كانت العقوبة به حائقة حتى تعتدل قناته .... وأمر بحملك على مقتضى الأمثلة الإماميـة فى حق من تقدمك من الجثالقـة .... والحياطة لك ولأهل ملتك فى الأنفس والأموال والحراسة المكافة بصلاح الأحوال واتباع العادة المستمرة فى موارات أمواتكم وحماية بيعكم ودياراتكم .... وأن يقْتَصَرَ فى استيفاء الجزية على تناولها من العقلاء

---

(١) نقلا عن تذكرة ابن حمدون التى نشرها أمدروز Amedroz, JRAS, 1908, 467 ff.

(٢) كانت علامة الجاثليق كما يقول الجاحظ برطلّة وعصا (ولعل البرطلة آتية من الكلمة اليونانية hyperbole — انظر البيان والتبيين طبعة مصر ١٣١١هـ ج ٢ ص ٧٦ . على أنه يحكى عن أحد أصحاب الضياع المسلمين فى القرن الثالث الهجرى أنه كان يطوف على ضياعه وعلى رأسه برطلة خوص ، انظر كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى ؛ الطبعة الأوروبيـة (نشرها Friedrich Schwally) عام ١٩٠٠ — ١٩٠١ ص ٥٦٦ .

والواجدين من رجالكم[١] دون النساء ومن لم يبلغ الحلم من أطفالكم ، ويكون استيفاؤها نوبة واحدة فى كل سنة من غير عدول فى قبضها عن قبضة الشرع المستحسَنة ، وفَسَّح (هكذا فى النص) فى أن يتوسط طوائف النصارى فى محاكاتها فيأخذ النصَف من القوى للمستضعف » .

وكذلك كان يُكتب لبطريق اليعاقبة عهد فكان لابد له أن يذهب إلى قصر الخلافة عند تنصيب كل خليفة جديد[٢] . ولكن الخليفة منعه حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م من أن يتخذ بغداد مقرا له[٣] . وكان للنصارى النوبيين دون سائر النصارى مركز خاص ممتاز فى المملكة الإسلامية ، فكانوا يدفعون الضرائب لملكهم ، وكان للضرائب عامل من قبله فى بلاد الإسلام ، وقد حدث أن واحداً منهم اعتنق الإسلام وكان ابن ملك النوبة ببغداد زائراً فأمر باعتقاله وغلّه بالقيود[٤] .

ولا يتكلم المؤرخون المسلمون كثيراً عن رئيس اليهود ، ويقول مؤرخو اليهود إنه عانى فى القرن الرابع أياما شديدة[٥] . وقد تكلم عنه بنيامين (Benjamin von Tudela) و بتاحيا (Petachjâ von Regensburg) فى القرن السادس الهجرى .
وقد كان انقسام الإسلام إلى خلافة ببغداد وأخرى بالقاهرة مما أثّر فى تنظيم المجتمع

(١) إن تخمين أمدروز لا ضرورة له ، فان الجاثليق لم يكن يقبض الجزية بل الذى كان يقبضها عامل الخراج .

(٢) Michael Syrus, S. 519.

(٣) Barherbraeus, Chron. eccles. III, 275, Anm. 1.

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨٤ ، و Michael Syrus, S. 532.

(٥) H. Graetz, Geschichte der Juden, V, 4. Aufl. S.276 ff. وفيما يتعلق بالمراجع العربية التى تكلمت عن رأس الجالوت انظر : Goldziher : Revue des étudesjuives, VIII, 121 ff ، وقد نقل جولدزيهر عن مؤلف عربى مجهول : والجالوت رئيسهم ، ويزعم عامتهم أنه لا يرأس (حتى يكون طويل الباع) حتى تكون أنامل يديه تبلغ ركبتيه . انظر أيضاً مفاتيح العلوم لأبى عبدالله الخوارزمى طبعة ليدن ١٨٩٥ ص ٣٥ .

اليهودى ، ولذلك نجد ببغداد رأس الجالوت الذى لقبه المسلمون بسيدنا ، ولكن كلمته كانت لا تسرى إلا شرقى الفرات[١] ، ونجد فى القاهرة رئيسا آخر يُلقَّب سارهستاريم (أى أمير الأمراء) وكان يعيِّن أحبارَ اليهود فى الشام ومصر أى فى حدود مملكة الفاطميين[٢] . ولابد أن يكون الفاطميون قد تكلّفوا إيجاد هذه الطائفة الخاصة من الأمراء (ناجيد = أمير) بالقاهرة رغبة منهم فى معارضة كل ما هو بغدادى ، فعندنا من القرن الثانى عشر الميلادى ، أى بعد سقوط دولة الفاطميين مباشرة ، كتابٌ لرئيس الطائفة اليهودية بمصر موجّه إلى بغداد يشكو فيه من إمام غير مقبول أُرسل من بغداد[٣] ، ويقدر ربّى بنيامين (وهو رحالة سافر عام ١١٦٥ م) اليهود الذين فى المملكة الإسلامية — بعد صرف النظر عن المغرب — بنحو ثلاثمائة ألف يهودى ، على حين أن ربّى بتاحيا — وقد سافر بعد صاحبه بعشرين عاما — يقدر أن عدد اليهود فى العراق وحدها يبلغ ستمائة ألف[٤] . ولا تنطبق هذه الأرقام على الشام فى القرن الرابع الهجرى لأن السياسة التى جرى عليها قواد الصليبيين إزاء اليهود كادت تفنى الطائفة الإسرائيلية ؛ ويقدّر بنيامين عدد سكان الحى الخاص باليهود فى القدس بأربعة أنفس[٥] ولم يجد بتاحيا هناك إلا شخصا واحداً . ويقول بايلومارسيليوس جورجيوس (Bailo Marsilius Georgius) فى خبر يرجع تاريخه إلى أكتوبر ١٢٤٣ م إنه لم يكن فى الحى الخاص بالبندقيين فى صور إلا تسعة من شبان اليهود[٦] . أما بنيامين

---

(١) Benjamin, S.61 . وعند بتاحيا أن أمره نافذ فى دمشق وعكا .

(٢) Benjamin, S. 98.

(٣) Mitteil. Samml. Erzh. Rainer, V, 130.

(٤) Petachja, S. 289.

(٥) ويذكر أن عددهم مائتان ، وذلك فى مخطوط واحد .

(٦) Tafel und Thomas, Urkunden zur älteren handels-und Staatsgeschichte der Republik Venedig, Wien, 1856, II, S. 359.

فيقول إنه كان يسكن بدمشق ثلاثة آلاف يهودى تحت حكم المسلمين — وعند بتاحيا عشرة آلاف — وفى حلب خمسة آلاف يهودى . أما على نهرى دجلة والفرات فكان اليهود مجتمعين بكثرة كما كانوا بألمانيا فى ذلك الوقت على نهرى الرين والموزل . وقد كانوا كثيرين على نهر دجلة بنوع خاص ؛ يقول ربّى بتاحيا[١] : « وثَمّ يهودٌ فى جميع المدن والقرى التى بين نينوى ودجلة » ، وفى جزيرة ابن عمر أربعة آلاف ، وفى الموصل سبعة آلاف (وعند بتاحيا ستة آلاف) ، وفى مدينة حربة بأقصى الشمال فى العراق خمسة عشر ألفا ، وفى عكبرى وواسط عشرة آلاف ، ولكن من العجيب أنه لم يكن يوجد ببغداد إلا ألف يهودى[٢] ، وكانت المدن التى بها يهود كثيرون على الفرات هى مدينة الحلّة ، وكان بها عشرة آلاف ، والكوفة ، وكان بها سبعة آلاف ، والبصرة وكان بها ألفان ، وفى أوائل القرن الرابع الهجرى كان اليهود هم أكثر أهل مدينتى سورا ونهر ملك من بين أجزاء العراق الأخرى[٣] . وكلما تقدمنا شرقا زاد عدد اليهود ، فكان بهمذان ثلاثون ألفا ، وبأصفهان خمسة عشر ألفا ، وبشيراز عشرة آلاف ، وبغزنه ثمانون ألفا ، وبسمرقند ثلاثون ألفا[٤] . ويقول المقدسى فى القرن الرابع الهجرى ما يؤيد هذا فيذكر أن بخراسان يهوداً كثيرين ونصارى قليلين[٥] ، وأن بالجبل يهوداً أكثر من النصارى[٦] ، وكان بالمشرق أيضاً المدينتان الوحيدتان اللتان أطلق عليهما

---

(١) ص ٢٧٩ .

(٢) Benjamin s. 19.، وكذلك Petachja, S. 280 . ويقال إن بها اليوم أكثر من أربعين ألف يهودى ، لهم إحدى وعشرون بيعة ، انظر كتاب Obermeyer, Modernes Judentum, Wien, 1907, S. 23. وفى الطبعة الأخيرة لكتاب بنيامين أربعون ألفاً ، وهذا لا يتفق مع ما يقوله بتاحيا ، ولا مع ما كان يتحصل من الجزية (انظر ص ٩) .

(٣) أخبار الحكماء للقفطى الطبعة الأوروبية ص ١٩٤ .

(٤) هذه الأرقام تقريبية لأن بنيامين لم يزر المشرق ، ويقال إنه كان فى مدينة خيبر وهى مدينة صغيرة بجزيرة العرب ، خمسون ألفاً من اليهود ، وهذا عجيب .

(٥) المقدسى ص ٣٢٣ .

(٦) نفس المصدر ص ٣٩٤ .

اسم اليهودية : إحداهما قرب أصفهان والأخرى شرقى مرو . وكذلك وجد المقدسى إقليم خوزستان «قليل النصارى غير كثير اليهود والمجوس» (ص ٤١٤) ، وكذلك فى فارس وجد «المجوس أكثر من اليهود ، وبه نصارى قليل» (ص ٤٣٩)[١] وكذلك الحال فى جزيرة العرب ، فاليهود أكثر من النصارى (مقدسى ص ٩٥) ، وهم الغالب على مدينة قُرْح ، ثانية مدن الحجاز عمارةً وتجارة (مقدسى ص ٨٣ — ٨٤) . أما مصر فالأرقام التى ذكرها بنيامين أقل مما تقدم بكثير[٢] : فكان بالقاهرة سبعة آلاف وبالإسكندرية ثلاثة آلاف ، وبمدن الدلتا نحو ثلاثة آلاف وثَمَّ ستمائة فى المدن التجارية بالصعيد .

أما عدد النصارى فلا يمكن تعيينه إلا تعيينا تقريبا ناقصا جدا ، وفى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان عدد الذين دفعوا الجزية خمسمائة ألف إنسان[٣] ومعنى هذا أن أهل الذمة بلغوا خمسمائة ألف منهم اليهود[٤] ، ويدل إحصاء سكان مصر فى القرن الثانى الهجرى على أنه كان بها خمسة ملايين من القبط يدفعون الجزية[٥] ، وهذا يدل على أنه كان بمصر زهاء خمسة عشر مليوناً من النصارى الأقباط[٦] ، وبلغ مقدار الجزية ببغداد فى أول القرن الثالث الهجرى

---

(١) ويقول أحد مؤلفى القرن الرابع عشر الميلادى إن مدينة أبرقوة بفارس تمتاز بأن أبناء اليهود فيها لا يعيشون أكثر من أربعين يوماً ، انظر Hamdallah mustwfi von G. Le Strange, 1903, S. 65.

(٢) وهو يتفق مع المقدسى حيث يقول (ص ٢٠٢) «ويهود قليل» . ويقال : إن اليهود كانوا فى العصور القديمة يؤلفون أكثر من ثمن السكان (Caro, Wirtschaftsgeschichte der Juden, I, 27).

(٣) كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه طبعة ليدن ص ١٤ .

(٤) ولكن يجب أن يراعى أن الجزية لم تكن تؤخذ من جميع أهل الذمة . (المترجم)

(٥) Führer durch die Samml. Rainer.

(٦) يبلغ سكان مصر بحسب إحصاء ١٩٠٧ اثنى عشر مليوناً ، والآن (١٩٣٩) يزيدون على ستة عشر مليوناً . (المترجم)

مائة ألف وثلاثين ألف درهم [١] ، وفى أوائل القرن الرابع بلغت مائة وستين ألف درهم [٢] ، ويدل هذان الرقمان على أنه كان ببغداد نحوٌ من خمسة عشر ألفا من أهل الذمة يدفعون الجزية ويجب أن نسقط منهم ألف يهودى . ونستطيع أن نقول بشىء من اليقين إنه كان ببغداد ما بين أربعين وخمسين ألف نصرانى . والمدينتان الوحيدتان فيما بين الفرات ودجلة اللتان يقول ابن حوقل إن أكثر أهلهما نصارى هما الرُّها وتكريت ، ويقول عن تكريت إنها مدينة قديمة البناء ، وتجمع سائر فرق النصارى ، وبها من البيع والأديرة القديمة التى تقارب عهد عيسى عليه السلام والحواريين ، لم تتغير أبنيتها وثاقة وجَلَداً [٣] .

أما المجوس فكانوا كثيرين بالعراق [٤] وأكثر ما كانوا فى جنوب فارس . وفى سنة ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م وقعت فتنة عظيمة بينهم وبين عامة شيراز من المسلمين ، ونُهبت فى هذه الفتنة دور المجوس ، وضُربوا ، فسمع عضد الدولة الخبر وجمع كل من له أثرٌ فى ذلك وبالغ فى تأديبهم وزجرهم [٥] ، ولكن شيراز كانت مدينة هادئة فى العادة ، وقد عجب المقدسى من أنه لم يَرَ فيها على مجوسى غياراً يميّزه ، ومن أن الأسواق تُزيَّن فى أعياد الكفار ، وفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م مات أحد كبار الصوفية ، فمشى فى جنازته المسلمون واليهود والنصارى . وكانت تقع فى المفازة التى بشرق فارس مدينة القرينين ، وأهلها مجوس ، وكسبهم من كرى حميرهم ، يضربون عليها إلى الآفاق [٦] .

---

(١) ابن خرداذبه ص ١٢٠ ، ويقول قدامة بن جعفر فى كتاب الخراج (طبعة ليدن ص ٢٥١) إن جزية أهل الذمة بلغت مائتى ألف درهم عام ٢٠٤ هـ .

(٢) Kremer : Einnahmbudget der Abbasiden, DWA, 36, S. 313

(٣) ابن حوقل ص ١٥٦ .

(٤) المقدسى ص ١٢٦ .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٢٢ .

(٦) كتاب الخراج وصنعة الكتاب لقدامة بن جعفر طبعة ليدن ١٨٨٩ ص ٢٠٩ .

35

أما الصابئة فكان آخر عهد ازدهر أمرهم فيه أواخر القرن الثانى ، فى عهد الخليفة الأمين ، فى ذلك العصر « عاد شأن الوثنية بحرّان إلى الظهور ، وَقِيدَتْ الثيران فى جميع الشوارع مزيّنة بغالى الثياب والورود والرياحين وبالأجراس على قرونها ، وسار خلفها الرجال بالمزامير »[1] وفى حوالى عام ٣٢٠ هـ استفتى الخليفة القاهر أبا سعيد الأصطخرى محتسب بغداد فى الصابئين ، فأفتاه بقتلهم لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود والنصارى ويعبدون الكواكب ؛ فعزم الخليفة على ذلك حتى جمعوا من بينهم مالاً كثيراً فكفّ عنهم[2] . وقد صدر حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى منشور كُتب للصابئين المقيمين بحرّان والرقة وديار مضر أمر فيه الخليفة بصيانتهم وحراستهم[3] ولكنهم انقرضوا حوالى عام ٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م ، حتى إن ابن حزم يقول إنهم فى جميع الأرض لا يبلغون أربعين نفساً[4] .

ولم يكن فى التشريع الإسلامى ما يُغلق دون أهل الذمّة أىّ باب من أبواب الأعمال ، وكان قدمهم راسخاً فى الصنائع التى تَدرّ الأرباح الوافرة ، فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع وأطباء[5] ؛ بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة فى الشام مثلا يهوداً ، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى[6] . وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة ، وكان رؤساء اليهود جهابذتهم عنده[7] . وكان أصغر دافعى الضرائب هم اليهود

36

(١) Michael Syrus, S. 497.

(٢) طبقات السبكى ج ٢ ص ١٩٣ .

(٣) رسائل الصابى مخطوط رقم ٧٦٦ بمكتبة ليدن ص ٢١١ ا — ب .

(٤) كتاب الفصل لابن حزم ج ١ ص ١١٥ طبعة مصر عام ١٣١٧ هـ .

(٥) كتاب الخراج لأبى يوسف القاضى ، طبعة بولاق ص ٦٩ .

(٦) المقدسى ص ١٨٣ .

(٧) وفى عام ٢١٠ هـ — ٨٢٥ م مثلا ، قام الطبيب جبريل وزميله ميخائيل باختيار الجاثليق النسطورى (Barhebraeus, Chron. eccles., III, 187) ، ويقول أبو نواس =

الخيّاطون والصبّاغون والأساكفة والخرّازون ومن إليهم[(١)] . وقد وجد بنيامين (ص ٣٥) فى القدس فى القرن الثانى عشر الميلادى أن اليهود يحتكرون صنعة الصباغة ، وكذلك الاثنى عشر يهوديا الذين وجدهم فى بيت لحم ؛ فقد كانوا جميعاً صبّاغين (ص ٤٠) لأن اليهودى ولو كان واحداً فى بلد فإنه يشتغل بهذه الصناعة (بنيامين ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٩) .

أما حياة الذمىّ فإنها عند أبى حنيفة وابن حنبل تكافئ حياةَ المسلم ، ودِيَتُه دِيَةُ المسلم ؛ وهـذه مسألة خطيرة جدا من حيث المبدإ . أما عند مالك فدية اليهودى أو النصرانى نصف دية المسلم ، وعند الشافعى ثلثها ؛ أما المجوسى فديته جزء من خمسة عشر جزءاً من دية المسلم . ومما كان يستحق التأديب ، لا الحدّ ،

= (ديوانه طبعة القاهرة سنة ١٨٩٨ ص ٣٥٦) :

سألت أخى أبا عيسى — وجبريل له عقـل
فقلت : الراح تعجبنى — فقال : كثيرها قتل
فقلت له : فقـدّر لى — فقال ، وقوله فصل
رأيت طبائع الإنسا — ن أربعة هى الأصل
فأربعة لأربعـة — لكل طبيعة رطل

ويقول شاعر نيسابورى فى الفصد :

لما رأيت الجسم ذا اعتلال — ودبّت الآلام فى أوصالى
دعوت شيخاً من بنى الجوالى — بطريق عم جاثليق خال
فسلّ سيفاً ليس للقتال — ومرهفاً ليس من الصوالى

(إلى آخر القصيدة ، انظر يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣٠٦) .

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٦٩ ؛ والمقدسى ص ١٨٣ ؛ وقد جاء فى كتاب حكاية أبى القاسم البغدادى تأليف محمد بن على بن المطهر الأزدى طبعة متز بهيد لبرج سنة ١٩٠٢ ص ٤٢ : " كأنها نعل كنباتى تصر من دكان ابن عذره اليهودى" . وفى كتاب ذكر أخبار أصفهان لأبى نعيم (مخطوط رقم ٥٦٨ بمكتبة ليدن ص ١١١ أ) ، (ولهذا الكتاب نسخة مطبوعة نشرها الدكتور سفين ديدرنغ Dr. Sven Dedering بليدن سنة ١٩٣١) : وسكنتها اليهود مقبلين على صناعاتهم القذرة كالحجامة والقصارة والقصابة .

عند فقهاء المسلمين أن يقال للمسلم يا يهودى أو يا نصرانى أو ما جرى هذا المجرى [١]

ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل فى شعائر أهل الذمة الدينية ، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم [٢] ، وفى حالة انقطاع المطر كانت الحكومة تأمر بعمل مواكب « يسير فيها النصارى ، وعلى رأسهم الأسقف واليهود ومعهم النافخون فى الأبواق » [٣] ، وكذلك ازدهرت الأديرة فى هدوء ، فمن ذلك الدير المسمى دير قُنَّى ، وهذا الدير كان « يقع على مسافة ستة عشر فرسخاً من بغداد ، منحدراً فى الجانب الشرقى ، بينه وبين دجلة ميل ونصف ، وهو دير حسن نزِهٌ عامر ، وفيه مائة قلاَّية لرهبانه والمتبتّلين فيه ، لكل راهب قلاَّية ، وهم يتباعون هذه القلالى بينهم من ألف دينار إلى مائتى دينار إلى خمسين ديناراً [٤] ، وحول كل قلاية بستان فيه من جميع الثمار والنخل والزيتون ، وتُباع غلّته من مائتى دينار إلى خمسين ديناراً ، وعليه سور عظيم يحيط به ، وفى وسطه نهرٌ جارٍ ؛ وعيده الذى تجتمع الناس إليه عيد الصليب » [٥] .

---

(١) كتاب الخراج ليحيي بن آدم القرشى طبعة ليدن ١٨٩٥ ص ٥٥ . حكى أن رجلا من المسلمين قتل رجلا من أهل الكتاب فرفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أحق من وفى بذمته ، ثم أمر به فقتل ، وعن عبد الله بن مسعود قال : من كان له عهد أو ذمة فديته دية المسلم . انظر أيضاً كتاب الخراج لقدامة مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص ٢٩ ب ، وانظر Sachau : Muhammedanisches Recht, 1897, S. 787. ، وفى بلاد الغال بفرنسا مثلا كانت دية الفرنجى الحر تعادل دية الرومانى مرتين .

(٢) لم يكن يجوز للنصارى من حيث المبدإ أن يحملوا فى مواكبهم رايات أو صلباناً أو مشاعل ، أو يخرجوا بسلاح (كتاب الخراج لأبى يوسف طبعة بولاق سنة ١٣٠٢ هـ ص ٨٠ وما بعدها) ، ولكن هذا لم يكن ينفذ عمليا . راجع أيضاً الفصل الخاص بالأعياد .

(٣) Dionys. von Tellmachre, S. 176 .

(٤) وحوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م كان الرجل يبتاع لابنه قلاية فى الدير إذا أحب الرهبنة ومال إليها (الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٤) .

(٥) كتاب الديارات للشابشتى مخطوط رقم ٨٣٢١ بمكتبة برلين ص ١١٥ ب — ١١٦ ا ، ولهذا المخطوط صورة شمسية بدار الكتب المصرية ، انظر أيضاً Streck, S. 284 ، ومن أراد معرفة حياة الرهبان فى العراق حتى القرن الثالث الهجرى فلينظر Budge : Book of Governors I, S. CXLCII ff.

وكان أكبر الأديرة بمصر الدير المعروف بدير أنطانيوس ، وبينه وبين النيل ثلاثة أيام فى البرّية ، وهو يقع شرقى إطفيح من قبلى مصر وهو على جبل عالٍ ، وله بمصر وقوفات وأملاك عدة ، وعليه حصن دائر ، وداخل الحصن بستان كبير ، وفيه نخيل مثمر ، وأشجار تفاح وكمثرى ورمان وغيرُ ذلك ، وأرضه مزروعة بالبقول ، وله ثلاثة عيون ماء تجرى دائما ويسقى منها البستان ؛ ومن جملة البستان فدان وسدس كرم عنب ؛ وقيل إن عِدّة نخيله ألف رأس نخل ، وبه جوسق كبير وقلالٍ للرهبان مطلة على البستان ، وله بإطفيح أيضاً أملاك وبساتين ؛ وليس مثله فى سائر الديارات التى يسكنها رهبان المصريين[١] .

على أن الكنيسة الرسمية فى الدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت فى معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها فى التفكير أبعد مما ذهب إليه الإسلام بالنسبة لأهل الذمة ؛ فلما أعاد الإمبراطور نقفور افتتاح بلاد الشام كان مما وعد به أهل الشام وأمّنهم به أن يحميهم من مضايقة كنيسة الدولة ، ولكنه رغم هذا الأمان ، لم يألُ جهداً فى مضايقة اليعقوبيين ، فاضطرهم مثلا إلى الخروج من أنطاكية ؛ ولذلك نجد مؤرخى اليعقوبيين يصفون البطارقة الذين عينتهم الدولة فى أنطاكية بأنهم أضلّ من فرعون ، وأشد كفراً بالله من بختنصّر ، ولما أعيد فتح ملطيّة أُخذ بطريرك اليعاقبة وسبعة من كبار أساقفتهم إلى القسطنطينية وسُجنوا هناك ، ووضع الملكانيون أيديهم على الكنيسة الكبرى بملطية[٢] ؛ فأما البطريرك فإنه مات منفيّا على حدود بلغاريا ، وكذلك مات أحد أصحابه فى السجن ،

(١) تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى طبعة أكسفورد سنة ١٨٩٤ ص ١٠٤ ا — ب ، ولما كانت قوانين الرهبنة بمصر تحتم الفقر فى طالبيها فان أديرة مصر كانت تنشأ على نظام يخالف نظام أديرة الشام كل المخالفة .

(٢) Michael Syrus, S. 556 ff .

ورُجم الثالث أمام باب قصر الإمبراطور ، ورجع ثلاثة عن المذهب اليعقوبى ، وأُعيد تعميدهم ؛ ولكنهم لم يجدوا السكينة التى يرجونها ، وصاروا موضع السخرية كأنهم شياطين . وأخيراً لم يستطع رؤساء الكنيسة السورية أن يقيموا فى مقرّ بطريقهم بعد دخول المذهب الملكانى ، « وبعد أن أعيدت أنطاكية إلى المسيحية » ، كما يقول الملكانيون ، فاضطروا إلى الانتقال إلى آمد طلباً لتسامح أكثر فى بلاد الكفار[١] . ولقد منعت الكنيسة الرسمية نصارى أرمينية من استعمال النواقيس[٢] ؛ وكثيرا ما كان رجال الشرطة المسلمون يتدخلون بين الفرق النصرانية لمنعهم من المشاجرات ، حتى عيّن حاكم أنطاكية فى القرن الثالث الهجرى رجلا يتقاضى ثلاثين دينارا من النصارى فى الشهر ، وكان مقرّه قرب المذبح ، وعمله أن يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضاً[٣] . وفى سنة ٣٢٢ هـ مات أسقف تِنّيس ، وكان بينه و بين البطريرك وحشة ؛ فلما مات انقسم أهل مصر وأهل تنيس حزبين : أحدهم مع البطريرك والآخر عليه ، « وقام لكل حزب من الحزبين غرض فى نصرة هواه حتى كان الأب لا يكلم ابنه ولا المرأة تخاطب بعلها » ؛ وكان كل فريق يستعين بالسلطان على الآخر ، حتى خرج جماعة من النافرين عن البطريرك ، وذهبوا إلى الإخشيد محمد بن طغج ، فوجّه معهم من ختم الكنيسة الجامعة التى كان الأسقف نازلا بها ومنع الصلاة فيها وقبض على الأسقف والبطريرك[٤] . وفى سنة ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م أراد الخليفة المأمون

---

(١) Barhebraeus chron. eccles., I, 432 ff. . ولعله يقصد بالكفار المسلمين .

(٢) انظر Schlumberger : Epopée Byzantine S. 168 ، وهكذا فعلت الكنيسة الإنجليزية مع الكاثوليك حتى القرن التاسع عشر ، وكما لا تزال أسبانيا وصقلية تفعلان حتى اليوم مع البروتستانت .

(٣) Michael Syrus, S. 536 .

(٤) يحيى بن سعيد ص ٨٣ ب .

أن يصدر كتابا لأهل الذمة يضمن لهم حرية الاعتقاد وحرية تدبير كنائسهم ، بحيث يكون لكل فريق منهم ، مهما كانت عقيدتهم ، ولو كانوا عشرة أنفس ، أن يختاروا بطريقهم ، ويُعترف له بذلك ؛ ولكن رؤساء الكنائس هاجوا وأحدثوا شغبا فعدل المأمون عن إصدار الكتاب (١) .

أما فيما يتعلق ببناء الكنائس فلم تكن الدولة الساسانية تسير على خطة ثابتة فى ذلك ، فكانت تسمح ببنائها أحيانا ؛ على حين أن القانون الرومانى فى العهد الأخير كان يحرّم على اليهود أن ينشئوا كنائس جديدة لهم ، ولا يسمح لهم إلا بإصلاح ما تهدّم منها (٢) . أما فى الإسلام فنجد سياسة الدولة تجمع بين تسامح الفرس وتعصب الرومان ، فكان يُسمح للنصارى أحيانا ببناء كنائس جديدة ، وأحيانا كانوا يُمنعون حتى من إصلاح الكنائس القديمة (٣) ؛ ففيما بين عامى ١٦٩ و ١٧١ هـ = ٧٨٥ — ٧٨٧ م هدم على بن سليمان والى مصر من قبل الرشيد الكنائس المُحْدَثة بمصر ، وبُذِل له خمسون ألف دينار ليترك الهدم فامتنع ، ثم جاء بعده والٍ آخر فأذن للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها على بن سليمان فبُنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ، وقالا : هو من عمارة البلاد ، واحتجّا بأن عامة الكنائس التى بمصر لم تُبْنَ إلا فى الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين (٤) . وفى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ثار المسلمون فهدموا كنيسة بناها النصارى فى تنيس فأعان السلطانُ النصارى حتى بنوا الكنيسة (٥) . وفى سنة ٣٢٦ هـ — ٩٣٨ م

---

(١) Michael Syrus, 517.

(٢) Sachau, Von den rechtlichen Verhältnissen der Christen im Sasanidenreiche, Mitteil. des Sem. für Orientalische Sprachen, X, 2, S. 78 f.

(٣) يجد القارئ كثيراً من الآراء فى هذه المسألة عند Gottheil, Dhimmis and Moslems in Egypte., S. 353 ff.

(٤) كتاب تاريخ مصر وولاتها للكندى طبعة ليدن سنة ١٩١٢ ص ١٣١ .

(٥) يحي بن سعيد ص ٨١ أ .

انهدمت قطعة من كنيسة أبى شنودة بمصر، فبذل النصارى للإخشيد مالا ليطلق عمارتها فقال : خذوا فتوى الفقهاء ، فأما ابن الحدّاد فأفتى بالا تُعمّر ، وأفتى بذلك أصحاب مالك ؛ وأفتى محمد بن على بأن لهم أن يرمّوها ويعمروها ، واشتهر ذلك عنه ، فحملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله ، فاستتر وندم على فُتياه . وشغبت الرعية وأغلقت الدروب وأحاطت بالكنيسة ، فأرسل الإخشيد عسكرا كبيراً فزحفت عليهم الرعية ورموهم بالحجارة ، فدعا الإخشيد بأبى بكر بن الحدّاد الفقيه ، وقال له : إركب إلى الكنيسة ، فإن كانت تبقى فاتركها على حالها ، وإن كانت مَخوفة فاهدمها إلى لعنة الله . . . . فأخذ ابن الحداد معه مهندساً فدخلها وأخذ بيده شمعة فطاف بها وعاد إلى أبى بكر وقال له : تبقى هكذا خمس عشرة سنة ، ثم يسقط منها موضع ، ثم تقيم إلى تمام أربعين ويسقط جميعها ، فانصرف أبو بكر إلى الإخشيد وعرّفه فتركها ولم يعمرها ، وكان أمرها كما قال المهندس ، فعمرت سنة ست وستين قبل تمام أربعين سنة ، ولو تركت لسقطت[1] .

وكان أهل الذمة يُعاملون فى مارستانات بغداد معاملة المسلمين . ولكن حدث وباء فى أوائل القرن الرابع ، فوقّع الوزير على بن عيسى إلى سنان بن ثابت طبيب الخليفة ، وهو الذى كان يتولى المعالجة وإعطاء الأدوية للمرضى خارج بغداد بأن يعالج المسلمين قبل أهل الذمة[2] .

وكان موتى المسلمين وأهل الذمة يدفنون كلٌ على حدة ، ولكن يحكى أنه فى عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م جاء إلى تكريت سيل كبير ، فغرق منها أربعمائة دار وغرّق خلقاً كثيرا من الناس ، ودُفن المسلمون والنصارى مجتمعين لا يعرف

---

(١) كتاب المغرب لابن سعيد ص ٣٢ — ٣٣ ، وملحق أخبار الولاة والقضاة للكندى ص ٥٥٤ — ٥٥٥ .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٩٤ من الطبعة الأوروبية .

بعضهم من بعض[١] .

ولم يكن يوجد فى المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها ، وإن آثر أهلُ كل دين أن يعيشوا متقاربين . وكانت الأديرة المسيحية منتشرة فى كل أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية .

ولما كان الشرع الإسلامى خاصا بالمسلمين فقد خلّت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم . والذى نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كَنَسِيّة ، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضا ، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون . ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات التى تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به . على أنه كان يجوز للذمّى أن يلجأ للمحاكم الإسلامية ، ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا ، ولذلك ألّف الجاثليق تيموتيوس (Timotheus) حوالى عام ٢٠٠ هـ كتاباً فى الأحكام القضائية المسيحية « لكى يقطع كلّ عذر يتعلّل به النصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية »[٢] ؛ وفى الفصلين الثانى عشر والثالث عشر من هذا الكتاب فرض تيموتيوس على من يذهب طائعاً إلى المحاكم الإسلامية أن يتوب ويتصدّق ، ويقوم على المسح والرماد[٣] . ثم جاء خليفته فقرّر أن النصارى إذا خرجوا إلى الأحكام البرّانية فإنهم يؤدّبون على قدر جرمهم ، ويمنعون من البيعة إلى حين[٤] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٤ .

(٢) Sachau : Syrische Rechtsbücher, II, 57 .

(٣) نفس المصدر ص ٦٧ ، ١٩١ .

(٤) نفس المصدر ص ١٦٩ ، ٢٠٤ .

وفى عام ١٢٠ هـ — ٧٣٨ م ولى قضاء مصر خيرُ بن نعيم ، فكان يقضى فى المسجد بين المسلمين ، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج ، فيقضى بين النصارى[١] . ثم خصص القضاة للنصارى يوماً يحضرون فيه إلى منازل القضاة ليحكموا بينهم ، حتى جاء القاضى محمد بن مسروق الذى ولى قضاء مصر عام ١٧٧ هـ فكان أول من أدخل النصارى فى المسجد ليحكم بينهم[٢] . وعلى أى حال فإن بعض فقهاء الإسلام أجازوا تقليد الذمّى القضاء بين أهل دينه ، وهذا وإن كان العرف به جارياً فهو تقليد زعامة ورياسة وليس بتقليد حكم وقضاء ، وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له ، وإذا امتنعوا من التحاكم إليه لم يُجبَروا على ذلك ، فإذا رجعوا إلى قاضى الإسلام فإنه يقضى بينهم بحكم الإسلام ، لأنه يكون عليهم أنفذ ولهم ألزم[٣] .

ولا نجد فيما انتهى إلينا من القوانين التى وضعتها البطارقة سوى عقوبات نَسية ، فمنها التوبيخ أمام الناس ، والقيام على المسح والرماد أمام البيعة ، ودفع كفارة مالية للبيعة ، والمنع من حضورها ، ومن التمتع برسوم المباركة الدينية عند الموت ومن الدفن على الطريقة النصرانية[٤] . ومن أمثلة العقوبة أن النصرانى الذى يضرب آخر يُمنَع من البيعة ومن رسوم المباركة من القسيس شهرين ، ويقف كل يوم أحد على المسح والرماد ، وعليه أن يتصدّق على الفقراء بحسب قدرته[٥] .

---

(١) كتاب الولاة والقضاة للكندى ص ٣٥١ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٩٠ .

(٣) كتاب الأحكام السلطانية لأبى الحسن الماوردى طبعة بن (Bonn) بألمانيا ص ١٠٨ — ١٠٩ ، وهكذا جاء أيضاً فى نسخة عهد لقاض بولاية القضاء كتبت بعد عام ٣١٦ هـ — ٩٢٨ م . انظر قدامة بن جعفر مخطوط باريس ص ١٣ ب .

(٤) Sachau : Syrische Rechtsbücher II, S. VI .

(٥) نفس المصدر ص ٦٨ والتى تليها .

أما فى الأندلس فعنــدنا من المصادر الموثوق بها أن النصارى كانوا يحلون خصوماتهم بأنفسهم ، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضى إلا فى مسائل القتل ، فكانوا يقدمون المتهم إليــه ويعرضون أدلتهم فإذا قال القاضى : حسن ، قُتل المجرم (١) . ويقول ربّى بتاحيا إن رؤساء اليهود فى الموصل كانوا هم الذين يعاقبون مرءوسيهم حتى ولو كان أحد طرفى الخصومة مسلماً ؛ وكان بالموصل سجن يسجن فيه اليهود (٢) .

وأكبر المساوئ التى كانت تؤثر أثراً عميقاً فى نفوس أهل الذمة أن شهادتهم لم تكن تقبل أمام القضاء ، كأنهم عبيد . وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا تقبل شهادتهم على أهل دينهم ، وذهب البعض مذهباً آخر (٣) . أما المحاكم النصرانية فإنها كانت تقبل شهادة المسلم على النصرانى على كره منها لذلك . على أنها كانت تحتّم أن يكون الشاهد تقيا يخاف الله غير مطعون فى ذمته ، وهــذه هى الشروط التى كان القاضى المسلم يحتم توفرَها فى الشاهد (٤) .

وكان أهل الذمة بحكم ما نالوه من تسامح المسلمين ودخولهم فى ذمتهم وحمايتهم يدفعون الجزية ، كل واحد منهم بحسب قدرته ؛ وكانوا ثلاث طبقات ، تدفع الدنيا منها اثنى عشر درهما والوسطى أربعة وعشرين والعليا ثمانية وأربعين درهما فى السنة ، أو ديناراً أو دينارين أو ثلاثة فى البلاد التى عملتها الذهب ، وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة للدفاع الوطنى ، فكان لا يدفعها إلا الرجل

---

(١) Graf Baudissin : Eulogius und Alvar, S. 13 .

(٢) Petachja, 275 .

(٣) Sachau, muhammedanisches Recht, S. 739 . وكان القاضى محمد بن مسروق الذى ولى القضاء عام ١٧٧ هـ يقبل شهادة النصارى واليهود بعضهم على بعض ، ويسأل عن عدالتهم فى أهل دينهم ، وفى عهــد لقاض بولاية القضاء أن يقبل شهادة بعض أهل الملل على بعض ، انظر الـكندى ص ٣٥١ وقدامة مخطوط باريس ص ١٣ ب .

(٤) Sachau : Syrische Rechtsbücher, II, 107 .

القادر على حمل السلاح، ولا يدفعها ذوو العاهات ولا المترهّبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار[١]. ويحكى ابن خرداذبه[٢] أن الروم كانوا يأخذون من اليهود والمجوس ديناراً فى السنة، وكذلك فرض النصارى على المسلمين الجزية لما فتحوا بلادهم[٣]. على أن غالبية دافعى الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى، حتى أن بنيامين يقول: «إن اليهود فى كل بلاد الإسلام يدفعون ديناراً واحداً»[٤] وكذلك يقول بتاحيا: «إن اليهود فى العراق لا يدفعون شيئاً للخليفة، وإنما يدفع الواحد منهم فى كل عام ديناراً واحداً لرأس الجالوت»[٥]. ويحكى بَيْلو مرسيليوس جورجيوس (Bailo Marsilius Georgius) فى اكتوبر سنة ١٢٤٣م وهو فى مدينة صور أن «كل يهودى متى بلغ الخامسة عشرة يدفع فى كل عام ديناراً بوزنطيا لعاملنا، وذلك فى عيد القديسين»[٦].

وقد ظلت الجزية بوجه عام عند المقدار الذى فرضته الشريعة، وإنما كانت تتغير تغيرا يسيرا بحسب تغير العملة. وكانت الحكومة فى مصر فى أول القرن الثالث الهجرى تكتفى بأخذ نصف دينار، ولكن فى سنة ٣٩٠هـ — ١٠٠٠م اضطر البطريرك جورجيوس المصرى أن يدفع دينارا ونصف دينار، بعد أن كان

---

(١) يذكر بنيامين (ص ٧٧) ومرسيليوس (انظر ما يلى) أنه كان يُعفى منها من تقل سنه عن خمس عشرة سنة. وفى الدولة الفارسية كان لا يدفعها إلا من بلغ العشرين انظر Nöldeke, Tabariübers., S. 247.

(٢) المسالك والممالك ص ١١١.

(٣) ابن حوقل ص ١٢٧. ولما أخذ باسيل الإمبراطور مدينة حلب عام ٣٥٩هـ — ٩٧٠م تقرر الأمر بين الروم وبين أهل حلب على أمور منها أن يُدفع دينار عن كل رجل حالم — يحيى بن سعيد ص ٩٨ ب.

(٤) Benjamin, 77، وقارن ماحكاه الرحالة الصينى عن الجزية عند الفرس: Nöldeke: Tabariübersetzung, 246, Anm. 2.

(٥) Petachja, 288, 275.

(٦) Tafel und Thomas: Urkunden ....., II, 359.

يدفع دينارا واحدا[١] ، وكذلك يخبرنا البطريرك ديونيسيوس ، وكان بمصر زائرا ، حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م عن مدينة تنيس المشهورة بصناعة النسيج فيقول « ومع أن مدينة تنيس عامرة بالسكان كثيرة الكنائس ، فإنى لم أرَ من البؤس فى بلد أكثر من بؤس أهلها ، وقد سألتهم عن مصدر هـذا البؤس فأجابونى : إن مدينتنا مُحَاطة بالماء فلا نستطيع زرعا ولا تربية ماشية ، والماء الذى نشربه يُجلب لنا من بعيد ، ونشترى الجرة منه بأربعة دراهم ، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه ، ونُعطى على ذلك نصف درهم فى اليوم من تجار الأقمشة ، ومع أن أجرتنا لا تكفى لإطعام كلابنا فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير ، وفى ذلك نُضرب ونُسجن ونُلزم بإعطاء أبنائنا وبناتنا رهائن ، فيُلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار ، ولو ولدت عندهم امرأة أو بنت طفلا فإنهم يأخذون قَسَمَنا بألا نطالب به ، وقد يحدث أن تحل ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء » . فأجابهم البطريرك أنه بحسب قانون العراق عليهم متى طُلبت منهم الجزية أن يدفع الغنى منهم ثمانية وأربعين درهما والمتوسط أربعة وعشرين والفقير اثنى عشر درهما[٢] . وكانت الجزية تؤخذ مقسّطة على ستة أجزاء أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة[٣] أو اثنين[٤] : وقد فرضت

---

(١) Mitteil. aus der Sammlungen Rainer II/III, S. 176 f .

(٢) Michael Syrus, S. 516 ، وقد صار يفرض على الخنازير بالشام فيا بعد ضرائب خاصة على النصارى ، فيحدثنا بايلو البندق وهو يصور أنه حتى ذلك الحين يجب على كل من أراد أن يذبح خنزيراً أو يشترى خنزيراً أن يدفع للسلطان أربعة دنانير ، وقد ألغى البندقيون ذلك انظر : Tafel und Tromas, Urkunden, II, 360. .

(٣) كما كان الحال فى الإمبراطورية الفارسية (Nöldeke, Tabariüber. S. 342) وانظر ما قاله كرباجك Karabacek فى Sammel. Rainer II/III, 176 f ، وكذلك أيضاً ما حكاه ديونيسيوس Dionysius, ed. Chabot, S. 61 .

(٤) Mitteil. II/III, 163.

فى أول الأمر بالعراق فى كل شهر[١] ، وذلك لأن عمال المسلمين كانوا يتقاضون منها مرتباتهم فى كل شهر ، وكذلك كان الحال فى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى[٢] . ولكن فى عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م صدر أمر الخليفة الطائع بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة فى المحرم من كل سنة بحسب منازلهم ، وألا تؤخذ من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذى سن عالية ولا ذى عاهة بادية ، ولا من فقير معدم ، ولا من راهب متبتل[٣] . وكانت العادة جارية بإعطاء براءة لمن يدفع الجزية ، وفى العصور السيئة كانت تعلق على رقبة أهل الذمة علامة البراءة ، وتُختم أيديهم[٤] .

وهذه العادة قديمة ترجع إلى عصر الأشوريين الذين كانوا يعلقون فى رقاب العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوبا عليها اسم العبد واسم سيده[٥] . وكان اليهود فى عهد التلمود يعلمون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب[٦] . وفى عام ٥٠٠ بعد الميلاد كان حاكم مدينة الرُّها يعلق إلى رقبة الفقراء الذين يأخذون رطل خبز كل يوم قطعة من الرصاص مختومة[٧] . على أن الفقهاء القدماء مثل أبى يوسف

---

(١) كتاب الخراج ليحي بن آدم ص ٥٦ .

(٢) Leovigildus, De habitu clericorum (Esp. sagr. XI) : vectigal, quod omni lunari mense pro Christi nomine solvere cogimur. Eulogius Memoriale I, 247 : quod lunariter solvimus cum eravi moerore tributum.

انظر Graf Baudissin, Eulogius und Alvar S. 10.

(٣) رسائل الصابى طبعة مدينة بعبدا (بلبنان) سنة ١٨٩٨ ص ١١٢ ، انظر أيضاً عهد الجاثليق الذى تقدمت صورته .

(٤) فمثلا فى أواخر العهد الأموى فى مصر وُسمت أيدى الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه ، وجعل على كل نصرانى وسماً صورة أسد على أيديهم ، انظر الخطط للمقريزى طبعة بولاق ج ٢ ص ٤٩٢ — ٤٩٣ .

(٥) مجلة المشرق المجلد الخامس ص ٦٥١ .

(٦) Krauss : Talmudische Archaeologie, II, S. 89.

(٧) Josua Stylites, ed. Wright, § 42. ، وكذلك فى مدينة استراسبرج فى =

ويحيى بن آدم لم يقولوا شيئا فى هذا الباب ، ويظهر أن هذا الأمر نادرا ما كان يقع ، ويقول ديونيسيوس إنه كان من التجارب المؤلمة لحصر أهل الذمة ومعرفة عددهم « أن يُرسل مع عمال الضرائب ختّامون يختمون كل واحد باسم بلده واسم قريته ، فكانوا يطبعون على يده اليمنى اسم البلد وعلى اليسرى اسم العراق ، ويعلّقون على رقبة كل رجل حلقتين على إحداها اسم البلد وعلى الأخرى اسم القسم ، وكانوا يأخذون درهما عن كل ثلاثة أشخاص (بصفة ضريبة ختم) ، وكانوا يقيدون اسم الشخص وأوصاف جسمه ومسكنه . وكان ينشأ عن هذا اضطراب كبير ؛ لأنه كان يؤدى إلى القبض على كثير من الغُرَباء فيذكرون أسماء مساكن لهم فتقيّد ، ولا تكون لهم هذه المساكن فى الحقيقة . ولو أن هذا النظام اتُّبع إلى آخر ما يؤدى إليه لأحدث من الفساد أكثر من كل ما تقدمه من الأنظمة ، وإذا وجد العامل أن ما لديه من عمل لا يكفيه فإنه يذهب إلى أى جهة تصادفه ، ويقبض على الغادين والرائحين ، وقد يطوف بالمكان الواحد أكثر من عشرين مرة ، ولا يهدأ له بال حتى يصل إلى تقييد جميع السكان بحيث لا يفلت منهم أحد ؛ وهكذا وقع ما قاله النبى دانيال والقديس يوحنا . كل الناس طُبعوا بطابع هذا الحيوان على أيديهم وصدورهم وظهورهم[1] » . ومن الواضح أن البطريرك ديونيسيوس لا يتكلم هنا عن الختم والعلامات باعتبارها شيئا عاديا . على أن شاعرا بصريا من العصر العباسى الأول يقول :

ختم الحبُّ لهـــا فى عنق   موضعَ الخاتم من أهل الذمم[2]

= القرن الرابع عشر الميلادى كان يحمل فقراء البلد علامة ظاهرة (Brucker, Strassburger Zunft-und Polizeiverordnungen, S. 6 f.) . وفى القرن التاســع كان النساء المثبتات فى ديوان الزوانى بالصين واللاتى يدفعن ضريبة البغاء ، يحملن خاتما من النحاس مطبوعا بخاتم الملك ويعلقنه فى أعناقهن . (انظر Renaud, Relation des Voyages, S. 69.) .

(١) Dionys. v. Tellmachre, ed Chabot, S. 148 f.

(٢) الأغانى ج ٣ س ٢٦ ، وهذا البيت لبشار بن برد .

وقد حكى الجاحظ عن أحد الثقات الذين يعتمد عليهم أن من تمام آلة الخمّار أن يكون ذمّيا مختوم العنق[١]. وقد وُجدت حول مدينة همذان علامة من هذا النوع يرجع تاريخها إلى السنة الأولى من القرن الرابع[٢]. وعندنا نص صريح على أنه كانت تكتب لأهل الذمة فى الربع الأول من القرن الرابع براءة مختومة عند أدائهم للجزية[٣]. ولم يكن المترهّبون المسيحيون يُعفون من الجزية إلا إذا كانوا مساكين يُتَصَدَّق عليهم كباقى المساكين[٤]؛ وهذا من حيث المبدإ العام والوجهة النظرية؛ ذلك أنه فى مصر عام ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م «أُخذ الرهبان والأساقفة بأداء الجزية، فأُخذت الجزية منهم، ومن الضعفاء والمساكين ومن جميع الديارات بأسفل مصر والصعيد، ومن رهبان طورسيناء، وسافر قوم من الرهبان إلى العراق واستغاثوا بالمقتدر فكتب لهم ألا تؤخذ الجزية من الرهبان ولا من الأساقفة ... وأن يجرى أمرهم على ما كانوا عليه»[٥]. على أنه فى عام ١٦٦٤ م كان يُعفى من الجزية بمصر «جميعُ الأوروبيين والرهبان المتبتلين من المسيحيين والبطريرك وجميع الأتراك (أى المسلمين)»[٦]. ولم يكن أخذ الجزية أرحم من غيرها من الضرائب، وإن كانت الشريعة الإسلامية قد أمرت بعدم القسوة فى تحصيلها، فقد نُهى فى الإسلام عن اتباع الأساليب القديمة القاسية، من تعذيب، أو تكليف أصحابها ما لا يطيقون، أو إقامتهم فى الشمس وصب الزيت على رؤوسهم ونحو ذلك؛ وإنما أجاز الفقهاء حبس أهل الذمة حتى يؤدوها[٧].

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٤١. انظر ما يلى.

(٢) Mitteil. aus der samml. Rainer II/III, S. 176.

(٣) المروج للمسعودى ج ٩ ص ١٤ — ١٥.

(٤) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٠.

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٨١ ا.

(٦) M. Wanslebs : Beschreibung von Aegypten, s. 57

(٧) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧١.

وقد وُجدت فى بلاد الإسلام من أول الأمر تعليمات خاصة باللباس ، فقد أمر هارون الرشيد عام ١٩١ هـ — ٨٠٧ م بأن يُؤخذ أهلُ الذمة فى مدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم ، فأُخذوا بأن يجعلوا فى أوساطهم الزنّارات مثل الخيط ، وبأن تكون قلانسهم مضرّبة ، وأن يجعلوا شراك نعالهم مَثْنِيّة ، وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب ، وتُمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ، ولا يركبن يهودى ولا نصرانى على سرج ، بل على أكاف [1] . وكان اليهود فى القرن الثانى يلبسون براطيل طويلة شبّهها بعض الشعراء بالأميال الطوال أو بالمقاعيد على رؤوس القرود [2] . وكان النصارى فى ذلك الوقت يلبسون البرانس ، ولكن لما صارت القلانس الطوال عند المسلمين لباساً قديماً لبسها النصارى وبقيت خاصة بهم [3] . أما اللون فلم يصلنا فى التعليمات القديمة أن أحدا أُلزم باتخاذ لون معين ، ويظهر أن هذه المسألة تُركت للعادات المحلية ؛ ويصف الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م) عادة العراقيين فيقول : « من تمام آلة الخمّار أن يكون ذمّيا ، ويكون اسمه آذين أو مازبادا أو أزدانقاذا أو ميشا أو شلوما ، ويكون أرقط الثياب مختوم العنق » [4] . وقد حدث فى عهد هارون الرشيد أن ولى القضاء محمد بن مسروق ، فتحامل على أهل مصر ، فأساءوا عليه الذكر والثناء ، ودعوا عليه فى المسجد الجامع ، فوقف على باب

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٧١٣ ، كتاب الخراج ص ٧٥ .

(٢) الكندى ص ٤٢٤ ، وكان لباس الرأس عند اليهود يسمى بمصر بُرطُلّة ، وكانت هذه فى المشرق جزءا من أهبة الجاثليق . وفى سنة ١٥٣ هـ ألزم المنصور رعيته بلبس القلانس الطوال فشبهها أبو دلامة بدنان اليهود . (كتاب الأوائل لعلى دده مخطوط برلين ٩٣٧٢ ص ٥٨ أ) .

(٣) انظر هامش مفيد العلوم طبعة مصر ١٣١٠ ص ٢٠٠ .

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ٤١ .

المقصورة غير خائف ، وقال بأعلى صوته : « أين أصحاب الأكسية العسلية ؟ أين بنو البغايا ؟ لم لا يتكلم متكلِّمهم بما شاء حتى يرى ويسمع ؟ فما تكلم أحد بكلمة »[١] ، وقد صدر أمر المتوكل فى عام ٢٣٥ هـ — ٨٤٩ م بأخذ النصارى وأهل الذمة بلبس هذه الطيالسة العسلية ، ومن أراد لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين فليجعل عليها زِرَّيْن ، وكذلك أُمروا بأن يجعلوا على ما ظهر من لباس مماليكهم رقعتين ، لونهما يخالف لون الثوب الظاهر ، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره ، والأخرى خلف ظهره ، وأن تكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونها عسليا ، وكذلك أمر بمنع مماليكهم من لبس المناطق وأمرهم بلبس الزنانير ، وبأن يُجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين[٢] ، وفى عام ٢٣٩ هـ — ٨٥٣ م أمر المتوكل أن يقتصر أهل الذمة فى مراكبهم على البغال والحمر ، دون الخيل والبراذين[٣] .

على أن هذه الأوامر المضحكة لم تمر إلا قليلا ، وكان أهل الذمة يأبون الخضوع لها بشجاعة ، وفى سنة ٢٧٢ هـ — ٨٨٥ م ثار عامة بغداد على النصارى لأنهم خالفوا وركبوا الخيل ، وهُدمت فى هذا الشغب كنيسة كليل يشو[٤] ،

(١) الكندى ص ٣٩٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٨٩ وما بعدها . انظر المقريزى (الخطط) ج ٢ ص ٤٩٤ حيث يقول : على دراريعهم بدلا من على ذراريهم . (أبو المحاسن ج ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥) . وكان للصابئة أيضا لباس ذو لون خاص (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٥) . وقد حدث لأول مرة فى الغرب عام ١٢١٥م فى مؤتمر لاتيران أن طلب إيجاد علامة خاصة لليهود ، ولعل هذا أتى من معرفة الغربيين بأنظمة الشرق .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٤١٩ ، ويحكى بنيامين (ص ٢٤) أن اليهود كانوا يمنعون فى القرن الثانى عشر الميلادى من ركوب الخيل بالقسطنطينية .

(٤) Elias Nisibenus, S. 188. ، ويحكى الطبرى تهديم العامة للبيع فى حوادث سنة ٢٧٢ هـ .

وكذلك نجد الشاعر ابن المعتز يشكو حوالى عام ٢٩٠ ﻫ من مغالاة النصارى فى البغال والسروج ، ومن تحكُّمهم فى المسلمين ، ويعتبر هذا من علامات المسيخ الدجّال[١] . وقبل أول القرن الرابع بأربع سنين عادت القوانين الخاصة باللباس إلى الظهور ، وشُدِّد فى أمرها ، ثم لم نسمع عن مثلها شيئاً فى القرن الرابع كله ، فقد نامت ولم تظهر إلا عند ما قوى أمر أهل السنّة فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، حيث عادت بشكل جدىّ . وفى عام ٤٢٩ﻫ—١٠٣٧م صدر توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة ملابس يُعرفون بها عند المشاهدة ، واستدعى لذلك جاثليق النصارى ، ورأس جالوت اليهود فى جمع حافل من الأشراف والوجوه فقالوا السمع والطاعة[٢] .

وظهر فى هذا العصر لأول مرة منعُ أهل الذمة من تعلية بيوتهم على أبنية المسلمين ؛ فإن ملكوا بيوتاً عالية أُقِرّوا عليها ، ومُنعوا من الإشراف منها على المسلمين وأهل الذمة[٣] . وأول من ذكر هذا فيما أعلم هو أبو الحسن الماوردى المتوفى عام ٤٥٠ ﻫ — ١٠٥٨ م . وقد سرت هذه الفكرة بعد ذلك إلى الغرب ، فنجد البابا انوسنت الثالث يشكو من أن اليهود بنوا فى مدينة سِنْس كنيسة لهم تعلو كنيسة مسيحية مجاورة لها[٤] .

ولم يكن الاستهزاء والبغضاء بين الأديان أقل منه بين الأجناس ؛ ومن أمثلة ذلك أن اليهود وُصفوا بأنهم أنتن خلق الله فِناء[٥] ، وكذلك وُصف النصارى

---

(١) ديوان ابن المعتز طبعة مصر ١٨٩١ ج ٢ ص ٩ ، قارن النجوم الزاهرة طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

(٢) المنتظم ص ١٩٢ ب .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٤٢٨ . وقد بين الماوردى أن الأصل فى ذلك المنع من الإشراف على منازل الناس .

(٤) انظر Caro, I, 296.

(٥) انظر مثلا أدب الكاتب لابن قتيبة طبعة مصر ١٣٠٠ ﻫ ص ٢٦ .

بشدة السكر وخصوصاً غداة عيد الفصح[١] وبأن راهباتهم وشمامستهم ضعفاء الفضيلة . وكذلك يُرمى الصابئةُ بأن بينهم من المعاداة ما لا يكون بين غيرهم ، وأن بعضهم يسعى فى بعض ، ويقبّح عليه ما وجد إلى ذلك سبيلا[٢] . وكان المسلمون المُثقّفون يعلمون حقا أن المسيحية قد حثّت على المحبة ورقة القلب أكثر مما حثت على ذلك جميع الديانات ؛ ولكنهم كانوا يرون أن النصارى قلّما يعملون بذلك ، يقول الجاحظ : « وكلُّ خِصاء فى الدنيا فإنما أصلُه من قِبَل الروم . ومن العجب أنهم نصارى ، وهم يدّعون من الرحمة والرأفة ورقة القلب والكبد ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف ، وحَسْبُك بالخِصاء مُثْلَةً ، وحَسْبُك بصنيع الخاصى قسوةً »[٣] وكذلك تكلّم البيرونى فى صدد كلامه عن العقوبات والكفارة عند الهنود عن فلسفة نبيلة بينهم فهو يقول : « مثال الحال فيهم على شبيه بحال النصرانية ، فإنها مبنيّة على الخير وكفّ الشر ، من ترك القتل أصلا ، ورمى القميص خلف غاصب الرداء ، وتمكين لاطم الخدّ من الخدّ الأخرى ، والدعاء للعدو بالخير ، والصلوات عليه ؛ وهى لعمرى سيرة فاضلة ، ولكن أهل الدنيا ليسوا بفلاسفة كلهم ؛ وإنما أكثرهم جُهّال ضُلّال ، لا يُقَوّمهم غيرُ السيف والسوط ، ومذ تنصّر قسطنطينوس المظفر لم يسترح كلاهما من الحركة فبغيرهما لا تَتِمُّ السياسة »[٤] .

ومن الأمور التى نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرّفين غير المسلمين فى الدولة الإسلامية ، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين فى بلاد الإسلام[٥] ،

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٩٧ حيث يتمثل شاعر بسكر النصارى فى هذا اليوم .
(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ٣٩٨ من الطبعة الأوروبية .
(٣) كتاب الحيوان طبعة مصر ١٩٠٧ ص ٥٦ .
(٤) كتاب تحقيق ما للهند من مقولة طبعة سخاو ص ٢٨٠ .
(٥) فيما يتعلق بالشام انظر المقدسى ص ١٨٣ ، وفيما يتعلق بمصر انظر يحيى بن سعيد ص ١٢٢ .

والشكوى من تحكيم أهل الذمة فى أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة[١] ، ويحكى عن عمر بن الخطاب أنه لما عرف أن لأبى موسى الأشعرى كاتباً نصرانيا ضرب فخذه ، وقال : ألا اتَّخَذْتَ رجلا حنيفاً ! وكان عُمر أيضاً يأبى أن يتّخذ الكتاب من النصارى أو اليهود[٢] . وقد قُلّد ديوانَ جيش المسلمين لرجل نصرانى مرتين فى أثناء القرن الثالث فوُجّه اللومُ للوزير ، لأنه «جعل أنصار الدين وحُماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره»[٣] . وكان المتصرّفون النصارى واليهود يقسمون اليمين شأنهم شأن المسلمين ، وقد جاءت فى كتاب ديوان الإنشاء الذى أُلّف عام ٨٤٠هـ — ١٤٣٦م صيغة اليمين الذى كان يقسمه اليهود فى ذلك العهد ، وذُكر أيضاً أن أول من استحدث هذه الأيمان لأهل اليهودية الفضل بن الربيع وزير الرشيد أحدثها له كاتب عنده ، ومنها استُنْبِطَت هذه الألفاظ[٤] .

وكانت الحركاتُ التى يُقصد بها مقاومةُ النصارى موجَّهة أولا إلى محاربة تسلُّط أهل الذمة على المسلمين ؛ وسيطرةُ أهل الذمة شىء لا يحتمله المسلم الحق . وفى عام سنة ٢٣٥ هـ — ٨٤٩م أمر الخليفة المتوكل ألا يُستعان بأهل الذمة فى الدواوين وأعمال السلطان التى تجرى أحكامهم فيها على المسلمين[٥] ؛ فمن ذلك أنه أمر بعزل النصارى عن مقياس النيل[٦] ، ولكن هذا الخليفة نفسه بنى ، بعد

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة جوتنجن سنة ١٨٩٩ ص ٩٩ .

(٢) نفس المصدر المتقدم ص ٦٢ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٩٥ .

(٤) كتاب ديوان الإنشاء ، مخطوط باريس رقم ٤٤٣٩ ص ١٣٠٣ — ١٣٠٤ ، وانظر Fagnan, Rev. Et. juives, 1910 s. 229 .

(٥) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٨٩ — ١٣٩٠ .

(٦) الولاة للكندى ص ٢٠٣ .

ذلك بعشر سنين ، قَصْرَه المسمى بالجعفرى ، وأجرى إليه نهراً وصيّر النفقة عليه إلى دُلَيْل بن يعقوب النصرانى[1] ، وفى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩م كان النصارى قد علا أمرهم وغلبوا على الكتّاب ، فأمر المقتدر بما أمر به المتوكل من رفضهم واطّراحهم عن الخدمة[2] ، وفى هذه السنة نفسها أمر المقتدر ألا يستخدم أحد من اليهود والنصارى إلا فى الطب والجَهْبَذَة[3] ، ولكن أمْر المقتدر كان ضعيف الأثر إلى درجة مضحكة ؛ فقد كان وزيره أبو الحسن على بن الفرات يدعو أربعة من النصارى إلى طعامه كل يوم ، وكانوا فى جملة الكتاب التسعة الذين اختص بهم[4] . وكان الكتاب المسيحيون منتشرين فى كل مكان حتى إن محمد بن عبد الله بن طاهر فى القرن الثالث اتخذ له قهرماناً نصرانيا[5] . ولما أراد المقتدر أن يستوزر الحسين بن القاسم عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م راسله فى أن يجتهد فى إصلاح أعدائه ، فابتدأ ببنى رائق ، فكان يمضى إلى كاتبهم النصرانى ويضمن له الضمانات ، ثم فعل ذلك بأصطفن بن يعقوب كاتب مؤنس ، وقال له : إن تَقَلَّدْتُ الوزارة فأنتَ قلدتنيها ، وكذلك فعل بغير هؤلاء من كتاب النصارى[6] . وكان الحسين بن القاسم يسعى دهره فى طلب الوزارة ؛ وكان يتقرّب إلى النصارى الكتّاب بأن يقول لهم : « إن أهلى منكم

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٤٣٨ .

(٢) عريب ص ٣٠ .

(٣) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ ، وكان النصارى فى مصر مثلا يُستخدمون كثيرا فى أعمال الجهبذة كما تدل على ذلك أوراق البردى ، وفى عام ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م كان أحدهم يطبع البراءات بختمه الذى عليه الصليب . (انظر Karabacek, Mitteilungen II/III s. 168.)

(٤) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٥) كتاب الديارات مخطوط برلين المتقدم ص ٥١ ا .

(٦) مسكويه ج ٥ ص ٣٥٢ .

وأجدادى من كبارکم ، وإن صليباً سقط من يد عبيد الله بن سليمان جدى فى أيام المعتضد ، فلما رآه الناس قال : هذا شىء تتبرك به عجائزنا ، فتجعله فى ثيابنا من حيث لا نعلم » تقرُّباً إليهم بهذا وشِبْهه [١] .

ولقد كان تقدير هذا الوزير صحيحا ، ففى عهد المقتدر نفسه وهو الذى أراد اطّراح النصارى عن المناصب العامة تقلّد هذا الرجل الذى كان يتقرّب إلى النصارى ويتملّقهم منصبَ الوزارة . وإلى جانب ما ذكرنا نجد أنه كان رئيس المتآمرين على مؤنس المظفر مفلحا الأسود الخادم ، وكان الأمر كله ، كما يقول عريب ، لهذا الخادم ولكاتبه النصرانى بشر بن عبد الله ، وكان بشر هذا مجبوبا [٢] . وفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م مات أصطفن بن يعقوب النصرانى صاحب بيت مال الخاصة [٣] . وكذلك ابتدأ على بن بويه بأن اتخذ كاتباً نصرانيا من أهل الرىّ [٤] . ولما خرج الوزير عز الدولة إلى البصرة عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٧ م استخلف أبا العلاء صاعد بن ثابت النصرانى بالحضرة [٥] . وكذلك كان للخليفة الطائع (٣٦٣ — ٣٨١ هـ = ٩٧٣ — ٩٩١ م) كاتب نصرانى [٦] . وفى النصف الثانى من القرن الرابع اتخذ كل من عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) فى بغداد والخليفة العزيز بالقاهرة وزيراً نصرانيا . وقد استأذن نصر بن هارون وزير عضد الدولة سيِّدَه فى عمارة البيع والديرة ، وفى إطلاق المال لفقراء النصارى ، فأذن له [٧] .

(١) عريب س ١٦٤ .
(٢) عريب س ١١١ — ١١٢ .
(٣) الأوراق للصولى س ٩٦ .
(٤) مسكويه ج ٥ س ٤٦٤ — ٤٦٥ .
(٥) مسكويه ج ٦ س ٣١٠ .
(٦) ديوان ابن الحجاج ج ١٠ س ١٨ .
(٧) مسكويه ج ٦ س ٥١١ وابن الأثير ج ٨ س ٥١٨ .

وقد أفتى بعض فقهاء الإسلام الكبار بأنه يجوز أن يكون وزير التنفيذ لا وزير التفويض من أهل الذمة[١] . وقد ولى المأمون على مدينة بوره بمصر عاملا مسيحيا، فكان إذا جاء يوم الجمعة لبس السواد وتقلد بالسيف والمِنْطقة ، وركب برذونا وقدّامه أصحابُه ، فإذا وافى باب المسجد وقف ودخل خليفته ، وكان مسلماً يصلى بالناس ، ويخطب للخليفة ثم يخرج إليه[٢] . وكان لخمارويه وزير نصرانى فاجتاز يوما راكبا فتعرض له بُنان الحمّال الصوفى وأنزله عن دابته ، وقال له : لا تركب الخيل ، فأمر خمارويه أن يُؤخذ بنانُ هذا ويُطرح بين يدى سبع ، فطرح وبقى ليلته ، فلما جاء الصباح وجدوا بُنَانًا قاعدا مستقبلا للقبلة ، والسبعُ بين يديه[٣] . وفى عام ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م تُوفّى القاضى محمد بن النعمان ، فوُجد عليه مالٌ من أموال اليتامى وغيرهم ، فأُرسل كاتب نصرانى يسمى فهداً ، فاحتاط على القاضى وشرع فى تغريم الشهود الذين كان القاضى أودع عندهم الأموال ، وألزم ابن القاضى ببيع ما خلّفه أبوه للوفاء بالودائع[٤] .

ومن العجيب أنه على الرغم من هذا الوضع الذى لم يكن طبيعيا لا نجد المؤرّخين حتى المسيحيين منهم يذكرون إلا قليلا من المشاغبات بين المسلمين وأهل الذمّة فى القرن الرابع الهجرى ، وسأقصّها كما ذكروها : فى سنة ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م ثار المسلمون بدمشق وهدموا كنيسة كبيرة ، وأخذوا منها زهاء مائتى

---

(١) وزير التنفيذ لايباشر الحكم ولا يقلد العمال ولا يدبّر الجيش ؛ أما وزير التفويض فهو الذى يفوض السلطانُ إليه تدبيرَ المملكة برأيه ، وهو يشارك السلطان فى حكمه ، وليس وزير التنفيذ إلا سفيرا بين السلطان والرعية . انظر كتاب العقد الفريد لأبى سالم محمد بن طلحة المتوفى عام ٦٥٢ هـ ص ١٤٧ من طبعة مصر . (المترجم)

(٢) يحيى بن سعيد ص ٧٤ ب .

(٣) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

(٤) القضاة للكندى ص ٥٩٥ ، ٥٩٧ .

ألف دينار من صلبان ذهب وفضة وكؤوس وصوانٍ ونحوها ، ونهبوا دياراتٍ كثيرة ، وكذلك ثاروا بالرملة فهدموا كنيستين للمَلَكِيَّة وهدموا كنيسة قيسارية ، فرفع النصارى الأمر إلى المقتدر فوقّع لهم ببنيان هذه الكنائس[١] . وكذلك ثار المسلمون بعسقلان فهدموا كنيسة كبيرة ، ونهبوا ما فيها ، وأحرقوها ، وعاضد اليهودُ المسلمين فى هدمها ، وكان اليهود يُشعلون النارَ فى الحطب ويجرونه بالبَكَر إلى أعلى السقوف حتى يحرقوها وينحل رصاصها فتقع العُمُد ، وقد خرج أسقف عسقلان إلى مدينة السلام متوسّلًا لردّها فلم ينجح له سعى[٢] . وفى سنة ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م ثار المسلمون فى بيت المقدس ونهبوا بعض الكنائس[٣] . وفى سنة ٣٨١ هـ — ٩٩١ م استهزأ رجلان من المسلمين بمنجم مسيحى لأنه لم يكن يحمل علامات النصارى فشكا ذلك إلى رئيسه فسجنهما فشعثت بعد ذلك كنيستان ، وقد هدّأ الجاثليق هذه القصة بعد هدايا كثيرة[٤] . ثم هاج المسلمون بعد ذلك ، لأنهم وجدوا رأس خنزير فى أحد المساجد وظنوا أن النصارى هم الذين رموه[٥] . وفى عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م ثار العامة بالنصارى فى مدينة السلام لمقتل أحد المسلمين ، ونهبوا بيعة وأحرقوها فسقطت على جماعة من المسلمين رجالا وصبيانا ونساء وكان الأمر عظيما[٦] . وفى عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م توفيت بنت أبى نوح الأهوازى الطبيب زوجة أبى نصر بن إسرائيل كاتب المناصح أبى الهيجاء ، فأُخرجت جنازتها نهاراً ، ومعها الطبول والنوائح والزمور والرهبان والصلبان

---

(١) يحيي بن سعيد ص ٨١ أ ، والخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٩١ .

(٢) يحيي بن سعيد ص ٨٤ أ — ب .

(٣) نفس المصدر ص ٨٢ أ .

(٤) Barhebraeus Chron. eccles. III, 259

(٥) نفس المصدر .

(٦) نفس المصدر ص ٢٦٢ وما يليها ، كتاب الوزراء ص ٤٤٣ ، والمنتظم لابن الجوزى ص ١٤٧ ب .

والشموع ، فقام رجل من الهاشميين فأنكر ذلك ، ورَجَم الجنازة فوثب أحدُ الغلمان بالهاشمى فضربه بدبوس على رأسه فشَجَّه فسال دمه ، وهرب النصارى بالجنازة إلى بيعة باب الروم فتبعهم المسلمون ، ونهبوا البيعة وأكثرَ دور النصارى المجاورة لها ، وثارت الفتنة بين غلمان أبى الهيجاء و بين العامة ، ورُفعت المصاحف فى الأسواق ، وغُلِّقت أبواب الجوامع ، وقصد الناس إلى دار الخليفة على سبيل الاستنفار ، فطلب الخليفة الكاتبَ من المناصح فامتنع فغاظ الخليفةَ امتناعُه ، وتقدّم بإصلاح الطيار للخروج عن البلد ، وجمع الهاشميين إلى داره ، واجتمعت العوام فى يوم الجمعة وقصدوا دار المناصح فدفع غلمانه رجلا ذُكر أنه علوى فزادت الشناعة ، وامتنع الناس من صلاة الجمعة وظفرت العامة بقوم من النصارى ، فقتلوهم وترددت الرسائل بين الخليفة و بين المناصح إلى أن بذلَ الكاتبَ النصرانى إلى دار الخلافة فكفَّ العامة عند ذلك ، ثم أُفرج عن الكاتب بعد قليل[١] . وهذه الحوادث قليلة جدا بالقياس إلى بلاد المشرق كلها على سعتها . أما فى مصر فكانت العلاقات بين المسلمين والنصارى متوتِّرة ؛ فقد كان فى مصر كنيسة متحدة أمام الإسلام ، وكان بها شعب له لغته الخاصة وشخصيته أمام العرب ، ولم يبدأْ القبط فى ترك لغتهم القبطية إلا حوالى أواخر القرن الرابع[٢] . وفى القرنين الأوّلين للهجرة

---

(١) المنتظم ص ١٥٩ ا .

(٢) ولعل أحسن ما يشهد بهذا أن المقدسى ، وقد كان بمصر فى أواخر القرن الرابع ، يقول عن أهل مصر : إن ذمتهم يتحدثون بالقبطية (ص ٢٠٣) ، على حين أن أسقف أشمون بمصر يقول فى كتابه سير البطاركة الذى ألفه بعد عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م بقليل : إنه استعان ببعض المسيحيين الأكفاء على نقل ماوجده من أخبار البطاركة بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم العربى « الذى هو الآن معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى من أكثرهم » . (كتاب سير البطاركة لساويرس بن المقفع طبعة بيروت ١٩٠٤ ص ٦) . على أن الشعر القبطى الشعبي الذى عرفناه من القرن العاشر الميلادى هو شعر دينى خالص كما رأيت ذلك من ترجمة العالمين A. Erman و H. Junker لهذا الشعر .

لم تنقطع ثورات القبط ؛ بل تتابعت حتى أُخمدت آخرها عام ٢١٦ هـ — ٨٣١ م .
وفى ذلك الوقت كان كل أهل الطبقة الوسطى بمصر نصارى ، وكان بين العرب والقبط من قلة التفاهم ما كان بين اليونان والمصريين من قبل ، وذلك على الرغم من أن الأقباط قد أدخلوا منذ أول الأمر فى الحديث أحاديث يوصى فيها النبى بالأقباط خيرا ، ومن هـذه الأحاديث ما يبين بكل جراءة الدور الذى يقوم به الكتّاب النصارى فى الدولة الإسلامية ، ففى حديث ذكروه : « وهم (القبط) أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم ، قالوا : كيف يكونون أعوانا على ديننا يا رسول الله ؟ قال : يكفونكم أعمال الدنيا ، وتتفرغون للعبادة »[1] ؛ ولقد قام الأقباط بهذا الدور خير قيام حتى إن أكثر الفتن التى وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر نشأت عن تجبُّر المتصرفين الأقباط ، ولما جاءت انتصارات الروم على المسلمين حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى كان لها صداها فى مصر ، فلما ورد الخبر بأن الروم دخلوا الشام عام ٣٤٩هـ — ٩٦٠م وقتلوا وخرّبوا ، هاج المسلمون على النصارى ، ووقعت صيحة فى الجامع العتيق بعد صلاة الجمعة ، فهاج الرعاع ونهبوا كنيستين[2] . ولما غزا الإمبراطور نقفور جزيرة أقريطيش فى العام التالى ووصل خبرُ ذلك إلى مصر ثار المسلمون وقصدوا كنيسة ميخائيل التى للمَلَكيّة بقصر الشمع فشعثوها وخربوها ، وظلت مغلقة مدة طويلة وأبوابها مطمورة بالتراب[3] .

وقد أظهر خلفاء الفاطميين الأولون لأهل الذمة تسامحاً نَعْجَب له ، إذ لا يُنتظر ذلك من قوم مثلهم ، لهم مذهب خاص انفردوا به ، وخالفوا به جمهور

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٤ — ٢٥ ، وكتاب تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ص ٢٨ ب نقلا عن كتاب فضائل مصر .
(٢) يحيى بن سعيد ص ٩٢ أ .
(٣) نفس المصدر ص ٩٢ ب .

المسلمين ، فقد كان للخلفاء الفاطميين أطباء من اليهود ، ولم يحتج هؤلاء الأطباء إلى تغيير دينهم [١] ، وعظم نفوذهم حتى صار لا يعمل شيء فى بلاط المعز إلا بمعونة اليهود ، وعرف ذلك الوزيرُ الداهيةُ ابنُ كلّس الذى كان يهوديا فأسلم ، وصار يتحيز إلى إخوانه فى الدين من قبل [٢] . وكانت النزعة العقلية فى مذهب الإسماعيلية واعتقادهم بإمكان إقامة الدليل عليه مما مهّد للمناقشة العلنية بين المسلمين والنصارى لأول مرة فى تاريخ الإسلام [٣] . وفى عهد العزيز بالله زاد بلاط الخليفة فى إكرام النصارى ، وذلك أنه كان للعزيز أصهارٌ مسيحيون منهم أرستس خال السيدة ابنة العزيز بالله ، وقد صُيِّر بطريركا على بيت المقدس ، وصُيِّر أخوه أرمانيوس مطراناً على القاهرة ومصر ، وكان لهما جميعاً محلٌّ لطيف عند العزيز وتقدُّمٌ فى مملكته [٤] . فلا عجب بعد هذا أن نجد الشاعر الحسن بن بشر الدمشقى يقول تعريضاً بهذه الحالة :

تنصّرْ فالتنصرُ دين حق ... عليــه زماننا هذا يدلُّ
وقُلْ بثلاثة عزُّوا وجلّوا ... وعَطِّل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أبٌ وهذا الـ ... ـعزيز ابن وروح القدس فضل

ولما شكا الفضل إلى العزيز أمر هذا الشاعر وطلب معاقبته امتعض منه إلا أنه قال : أعف عنه ، فعفا عنه . ثم دخل الوزير على العزيز وشكا إليه أيضاً فقبض على الشاعر ثم أطلقه [٥] . ثم إن هـذا الخليفة نفسه استوزر بعد ذلك

---

(١) Graetz : Gesch. der Juden V, 4. Aufl. S. 266

(٢) De Goeje : Z D M G, 52, S. 77 نقلا عن ابن الجوزى (مخطوط Bodl. Uri. 679 Jahr 380) .

(٣) Guyard, Grand Maître des Assassins, S. 14

(٤) يحيى بن سعيد ص ١٠٨ ا .

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٢ .

عيسى بن نسطورس النصرانى ، واستناب بالشام يهوديا اسمه منشا ، فاعتزّ بهما النصارى واليهود ، وآذوا المسلمين ، فكتب أهل مصر رقعة وجعلوها فى يد صورة عملوها من الورق ، وأقعدوا الصورة فى طريق العزيز والرقعة بيدها ، وفيها : بالذى أعزّ اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذلّ المسلمين بك إلّا كشفتَ ظلامتى ، فلما رآها العزيز علم ما أُريد ، فقبض على الرجلين وصادرهما[1]. وفى عهد هذا الوزير النصرانى وقعت فتنة بين المسيحيين والمسلمين وذلك أنه لما خرج الإمبراطور باسيليوس إلى الشام لفتحها فى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م برز العزيز فى سائر جيوشه وأظهر العزم على غزو بلاد الروم ، وأمر عيسى بن نسطورس بإنشاء أسطول يسير معه ، فلما تمّ إعداده وقعت فيه نار فى اليوم الذى عزم فيه العزيز على السير ، واتهم الرعيةُ تجّارَ الروم الواردين بالبضائع إلى مصر بأحراقه ، فثار العامة وقتلوا منهم مائة وستين رجلا ، ثم تحوّلوا عن الروم إلى نهب كنائس النصارى ، وجُرح فى هذا الشغب أسقفُ النسطوريين جراحات مات فيها . وقد أعاد الوزيرُ النظام إلى نصابه واعتقل ثلاثة وستين من النهّابة ، وأمر العزيز بإطلاق ثلثهم وضرب ثلثهم وقتل ثلثهم ، وذلك بأن كتب رقاعاً على بعضها : تُضرَب ، وعلى بعضها : تُقتَل ، وعلى بعضها : تُطلَق ، وأمر كل واحد من النهّابة أن يأخذ رقعة منها بعد أن وُضعت تحت إزار ، فكان يُعمل به بحسب مايخرج فى يده[2]. وفى عام ٣٩٣ هـ — ١٠٠٣ م بدأت علامات العاصفة التى أثارها تعصب الخليفة الحاكم بأمر الله[3]. ولما رأى العامة أن العنان قد أُرسل

(١) نفس المصدر ص ٨١ — ٨٢ .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١١٢ ب — ١١٣ ا ، ويحكى المقريزى (الخطط ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩٦) هذا باختصار ولكنه يزيد على ذلك أنه طيف بمن أُطلق ، وفى عنق كل واحد رأسُ رجل ممن قتل من الروم . ولا نجد مثلا آخر لهذه العقوبة فى القرن الرابع .

(٣) أوسع تاريخ للحاكم هو ماحكاه دى ساسى (De Sacy : Exposé de la religion =

لهم ، بدأوا يهدمون الكنائس و بنى الخليفة مكانها مساجد ، منها الجامع الأزهر المشهور ، ثم أعاد الحاكم قوانين اللباس القديمة على أشد صورها ، فألزم النصارى أن يعلّقوا فى أعناقهم صُلبانًا من الخشب ، ومُنعت مواكبهم العامة ، وحُظِر عليهم ضرب النواقيس ، وأمر ألا يظهر صليبٌ ولا تقع عليه عينٌ ، فنُزِعت الصُلبان من الكنائس وطُمست آثارُها من ظاهر البيع والكنائس . وأتلفت الكنائس الكبرى مثل كنيسة القبر بالقدس ودير القصير الكبير المبنى على سفح جبال المقطم ، وقد انتهك المسلمون حرمة المقبرة الكبرى فى هذا الدير ، ولكن الحاكم لم يُرِدْ ذلك ، وقد أمر بمنعه بمجرد علمه به . ورغم هذا كله استوزر الحاكم منصور بن سعدون النصرانى ، واتخذ لنفسه أطباء نصارى طول هذه المدة . وقد تقدم بإثبات أسماء سائر المسلمين المتعطلين والمتصرفين من الكتاب الذين يصلحون للخدمة فى دواوينه ليستعيض بهم عن النصارى .

« وكان سائر كتابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصارى إلا نفراً يسيراً من الكتاب » ، ثم كثرت الشناعات السيئة فى النصارى ، فاجتمع سائر من بمصر من الكتاب والعمال والأطباء وغيرهم من أساقفتهم وكهنتهم وتوجهوا إلى قصره فى يوم الخميس ثانى عشر ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، وكشفوا عن رؤوسهم من باب القاهرة ، ومشوا حُفاةً باكين مستغيثين إليه يسألونه العفو والصفح ، ولم يزالوا فى طريقهم يقبّلون التراب إلى أن وصلوا إلى قصره ، وهم على تلك الحال ، فأنفذ إليهم أحدَ أصحابه ، وأخذ منهم رقعة كانوا قد كتبوها يلتمسون فيها عفوه عنهم ، ثم عاد الرسول إليهم وردّ عليهم ردًّا جميلا ، ووعدهم بما اطمأنت

= des Druses, CCLXXVIII ff) ، ولكن دى ساسى لم يرجع إلى تاريخ يحيى بن سعيد معاصر الحاكم وهو الذى أكمل تاريخ يحيى بن البطريق ، وهو مؤرخ ثقة معتدل . ومن هذا الكتاب خاصة نستطيع معرفة الحوادث بحسب ترتيبها التاريخى لأول مرة ، أما ما كتبه المؤرخون المعاصرون الآخرون مثل الأسقف سيفروس (Severus) فهو أشبه بقصص الأتقياء .

له قلوبهم ، فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر أُمروا بتعظيم الصلبان التى فى رقابهم ، وأن يجعلوا طولها ذراعاً ملكيا فى عرض مثلها ، وأن يكون سُمكها إصبعاً . وأمر اليهود أن يعلّقوا فى أعناقهم أيضاً أُكَرَ خشب من خمسة أرطال إشارة إلى رأس العجل الذى عبدوه سالفاً ، وتهدد النصارى ، وكثر الإرجاف بهم فأسلم كثير من شيوخ الكتاب والمتصرّفين ، وتبعهم خلقٌ من عوام النصارى ، وتلاحقوا فلم يبق منهم إلا نفر يسير ، ولم تزل الطرقات أياماً عدة لا يُرى فيها نصرانى . على أن كثيراً ممن أسلموا إنما تظاهروا بالإسلام تَظاهُراً ، ومنهم محسن بن بدوس الذى قتل عام ٤١٥ هـ — ١٠٢٤ م وهو يلى بيت المال إذ ذاك ، فقد قيل إنه لما قُتل وجد أغلف لأنه كان نصرانيا ، وكان قد ظاهر عند إسلامه أنه أحضر الخاتن وختنه ، ولم يكن من ذلك شىء[1] .

أما اليهود فإنهم تمسكوا بدينهم ولم يُسلم منهم إلا نفر يسير ، وكذلك النصارى الذين فى بقية البلاد ، فلم يُسلم منهم فى بقية أعمال المملكة ، إلا قليل ، وهُدمت ألوف كثيرة من الكنائس والأديرة واسْتُخرِج من المتولّين أمرها من النصارى فى كل بلدة مادُفع إلى الفَعَلَة الذين قاموا بهدمها ، وأُتى على جميع أديرة المملكة إلا الدير القديم المجاور للإسكندرية والدويرة القريبة منه ، لأن بعض قبائل العرب دافعوا عنهما لمنافع لهم فيهما . وأوعز بهدم دير طور سيناء ، وأقطعه الحاكم لرجل توجه إليه ، فكان من حكمة المترهّب فيه أنه أحسن لقاء الرجل وسلّمه جميع آلات الدير ، وتلطّف فى إفهامه أن هدمه يصعب عليه وعلى غيره لحصانته ووثاقة بنيانه ، وأنه يحتاج فى هدمه إلى نفقات تفوق ما يحصل له منه ، فترك الرجل التعرض له . ولكن الحاكم لم يستمر على هذا الاضطهاد ، فلما وصلت إلى أنفه

(١) انظر حكاية المسبّحى (المتوفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م) التى ذكرها بكر
C. H. Becker, Beiträge Zur Geschichte Aegyptens, I, S. 61.

54

رائحة المذهب الدرزى الذى كان قد ظهر حديثاً ومال إليه وأراد أن يُقوِّيه على رغم معارضة المتمسكين بأصول الإسلام الأولى لم يعد لديانات أهل الذمة ما كان لها من أثر فى نفسه ؛ ففى عام ٤١٠ هـ — ١٠١٩ م رُفع إليه عدة مرات أن النصارى يجتمعون فى بيوتهم ويقدّسون ويصلون ويحضر معهم جماعة من الذين أسلموا فيشار كونهم فى أخذ القربان ، فلم ينكر ذلك وأعرض عن كلام الساعين. وفى هذا العام نفسه أعاد جميع الأوقاف المقبوضة التى كانت برسم دير طور سيناء ، كما أذن بعمارة دير القصير وأطلق ما كان برسمه من الأوقاف [١] .

وفى عهد الخليفة الظاهر الذى جاء بعد الحاكم عاد كل شىء إلى ما كان عليه ، فعاد النصارى إلى التظاهر بأعيادهم وخروج الباغوث إلى كنائسهم التى فى ظاهر المدينة والقاهرة ، والخليفة بمصر يحضر لمشاهدة اجتماعاتهم ويتقدم بصياناتهم [٢] . وخففوا الغيار الذى كان عليهم ، ولم يبق من ذكر عهد الخليفة المجنون إلا لباسُ زِنّار أو عمامة سوداء ، وهى التى يلبسها المسيحيون منذ ذلك الحين [٣] .

وقد ولى الوزارة بالقاهرة منذ عام ٤٣٦ هـ إلى ٤٣٩ هـ = ١٠٤٤ إلى ١٠٤٧ م أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى ، وكان يهوديا فأسلم ، وكان يدبر الدولة معه أبو سعد التسترى اليهودى .

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٢١ ب — ١٢٣ ، ص ١٣١ ا — ١٣١ ب .
(٢) انظر الفصل الخاص بالأعياد .
(٣) يحيى بن سعيد ص ١٣٣ ب ، كانت الأوامر الخاصة باللباس لا تزال تتكرر بين حين وآخر ، فمن ذلك أن السلطان الناصر بن قلاوون فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أمر أن يلبس النصارى العمائمَ الزرق ، واليهودُ العمائم الصفر ، والسامرة العمائم الحمر (كتاب الأوائل لعلى دده ، مخطوط برلين المتقدم الذكر ص ٥٩ ا) ، ولا يزال السامرة بفلسطين يلبسون العمائم الحمر إلى اليوم .

ولذلك قال الشاعر المصرى الحسن بن خاقان :

55

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزُّ فيهم والمال عندهمو ومنهم المستشار والملك
ياأهل مصر إنى نصحت لكم تهوّدوا ، قد تهوّد الفلك[1]

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١١٧ .

الفصل الخامس

الشيعة

لما جاء القرن الرابع الهجرى كان حزب الخوارج قد فقد ما كان له من شأن ، بعد أن كان أقدم حزب يناوئ الخلافة الرسمية ، وأصبح الخوارج مفرّقين فى وسط المملكة الإسلامية ، يؤلفون جماعاتٍ صغيرة لها مذهبها الخاص ؛ وكان لهم خروج وحروب بديار ربيعة وعمان وغيرها فى أوائل القرن الرابع[1] ؛ ولم تكن لهم قوة وصولة إلا فى الأطراف : فى بلاد سجستان ونواحى هراة[2] ، وكذلك فى الغرب ، حيث دخل فيهم البربر المقيمون على شاطئ مضيق جبل طارق[3] . وقد واصل الشيعةُ المهدية ، القرامطة والفاطميون ، ما كان قد بدأه الخوارج من مكافحة الخلافة ، وكان هذا علامة من العلامات التى تنذر بنهاية الأصول الإسلامية الأولى ، ذلك أنه من أكبر ما تمتاز به الحركة العقلية فى القرن الرابع الهجرى ظهورَ مذهب الشيعة يحمل بين ثناياه الكثير من الأفكار الشرقية القديمة ، ويجعلها مكان بعض الأفكار الإسلامية .

ولقد أبانت لنا مباحث قلها وزن بصورة أدنى إلى الصواب أن مذهب الشيعة

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٣٢٠ .

(٢) مقدسى ص ٣٢٣ .

(٣) Goldziher, ZDMG, 41, S. 31 ff. ، وكانوا إباضية نكارية ؛ أما فى المشرق فكانوا على مذهب الصفرية المتطرفين . ويقول ابن حزم (الفصل ج ٤ ص ١٩٠) : إن فرق الخوارج كلها قد بادت ولم يبق على عهده إلا الأباضية والصفرية . وفى أيامنا هذه لم يبق من الخوارج جماعةٌ مهمة إلا عرب عمان ومن تأثر بهم فى إفريقية الشمالية .

ليس — كما كان يعتقد البعض — ردّ فعل من جانب العقل الإيرانى يخالف الإسلام [١] . ومما يؤيد أبحاث قلها وزن التوزيعُ الجغرافى للشيعة فى القرن الرابع ، وقد ألمع الخوارزمى فى أواخر القرن الرابع إلى أن العراق هو الموطن الأول للتشيّع [٢] . وكانت الكوفة ، وبها قبر علىّ (رضى الله عنه) ، أكبر مركز للشيعة حتى ذلك العهد ، وكان يقال : « من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ (بالكوفة) وليقل رحم الله عثمان بن عفان » [٣] . وفى غضون القرن الرابع امتد مذهب الشيعة إلى البصرة ، وهى المنافس القديم للكوفة والتى كان يقال عنها فى القرن الثالث : « أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلا القليل ، وأما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها علىّ وشيعته » [٤] وفى البصرة اضطر أبو بكر الصولى (المتوفى عام ٣٣٠ هـ — ٩٤٢ م) أن يستتر حتى مات لأنه روى خبراً فى علىّ (رضى الله عنه) فطلبته الخاصة والعامة لتقتله [٥] . وفى القرن الخامس الهجرى كان فى البصرة مالا يقل عن ثلاثة عشر مكانا تتصل بذكرى علىّ [٦] وكان يقدسها الشيعة . بل كان يوجد فى المسجد الكبير فى ذلك الوقت أثر من آثار علىّ يُعرض للناس ، وهو قطعة من الخشب طولها ثلاثون ذراعا وعرضها خمسة أشبار وسمكها أربعة أصابع يقال إن عليا جاء بها من الهند [٧] .

56

---

(١) راجع كتاب Julius Wellhausen, Die religiös-politischen Oppositions-parteien im alten Islam, Berlin, 1901, S. 91.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمى طبعة القسطنطينية عام ١٢٩٧ ص ٤٩ .

(٣) تاريخ بغداد مخطوط رقم ٢١٢٨ بمكتبة باريس الأهلية ص ١٤ ب ، ويقول المقدسى (ص ١٢٦) : إن أهل الكوفة شيعة إلا الكناسة فإنها سنّية .

(٤) ثلاث رسائل لأبى عثمان الجاحظ طبعة فان فلوتن بليدن ١٩٠٣ ص ٩ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ١٥٠ .

(٦) ناصر خسرو ص ٨٧ .

(٧) نفس المصدر .

وكانت الشام منذ أول الأمر تربة غير صالحة لدعوة العلويين ، ويحكى أن أبا عبد الرحمن النسائى (٢١٥ — ٣٠٣ هـ) دخل دمشق ، وكان يتشيع ، فسُئل عن معاوية وما رُوى من فضائله فقال : أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضَّل ؟ وفى رواية أنه قال : ما أعرف له فضيلة إلا لا أشبع الله له بطنا ، فما زالوا يدفعونه حتى أخرجوه من المسجد ، وداسوه ثم داسوه ، ثم حُمل إلى الرملة ، فمات وهو منقول بسبب ذلك الدوس[١] . وكان أهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة[٢] ، ولا أدرى كيف كان ذلك . ورغم قيام الدولة الفاطمية نلاحظ أن حزب الشيعة لم يتقدم إلا قليلا ، وإذا كان ناصر خسرو قد وجد أهل طرابلس فى عام ٤٢٨ هـ — ١٠٣٧ م شيعة[٣] ، فقد جاء ذلك من أن بنى عمار ، وهم إحدى الأسرات الصغيرة الكثيرة على الأطراف ، كانوا هناك على مذهب الشيعة ، ويظهر أنهم عملوا بمقتضى القاعدة السيئة التى تجعل للأمير الحق فى فرض المذهب الذى يريده[٤] ، وهى قاعدة لم يناد بها أحد فى الإسلام فضلا عن أن تُطَبَّق تطبيقا شرعيا . وكانت جزيرة العرب شيعة كلها عدا المدن الكبرى مثل مكة وتهامة وصنعاء وقُرح ، وكان للشيعة غلبة فى بعض المدن أيضا مثل عمان وهجر وصعدة[٥] . وفى بلاد خوزستان التى تلى العراق كان نصف الأهواز وهى القصبة ، على مذهب الشيعة[٦] ، أما فى فارس فكان الشيعة كثيرين على السواحل التى

---

(١) الوفيات لابن خلكان طبعة فستنفلد ١٨٣٥ ج ١ س ٣٧ ، انظر أيضا طبقات السبكى ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) المقدسى ص ١٧٩ .

(٣) ناصر خسرو ص ٤٢ .

(٤) cujus regio ejus religio ، وهذا ما تم الاتفاق عليه بين الأمراء الألمان والإمبراطور فى آخر القرن السادس عشر ، وهو أن يكون لكل أمير الحق فى أن يفرض على أهل إمارته المذهب الذى يراه .

(٥) مقدسى ص ٩٦ .

(٦) نفس المصدر ص ٤١٥ .

تتصل اتصالا وثيقا بالعراق وخصوصا بالعرب المتشيعين[١] . أما فى جميع المشرق فكانت الغلبة لأهل السنة ، إلا أهل قمّ فإنهم كانوا « شيعة غالية ، قد تركوا الجماعات ، وعطّلوا الجامع إلى أن ألزمهم ركن الدولة عمارته ولزومه »[٢] . والسبب فى تفرّد أهل قمّ بذلك أن هذه المدينة قد احتلها من قبل أصحاب ابن الأشعث ، وكان رئيسهم قد أدب ابنه فى الكوفة وكان غلو أهل قمّ موضع كثير من النوادر « ..... ومن ظريف ما يحكى أنه وُلّى عليهم والٍ ، وكان سنّيًا متشدّدا ، فبلغه عنهم أنهم لبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر ، فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم : بلغنى أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنكم لبغضكم إياهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم ، وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئونى برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ، ويثبت عندى أنه اسمه ، لأفعلنّ بكم ولأصنعنّ فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم ، واجتهدوا ، فلم يروا إلا رجلا صعلوكا حافياً عارياً أحول أقبح خلق الله منظراً اسمه أبو بكر ، لأن أباه كان غريباً استوطنها فسمّاه بذلك ، فجاءوا به ، فشتمهم ، وقال : جئتمونى بأقبح خلق الله تتنادرون علىّ وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ما شئت ، فإن هواء قمّ لا يجىء منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا ، فغلبه الضحك وعفا عنهم .... »[٣] .

وكان فى قمّ فرقة من الغُلاة وهم الغُرابية ، ومذهبهم أن المال كله للبنت ،

---

(١) نفس المصدر ص ٤٣٩ .

(٢) المقدسى ص ٣٩٥ ، وقد تمثل أحد الشعراء بذكر نساء قمّ الشيعيات :

فكأنها شيعية قمّية وكأن سيدنا الوزير إمامى

(يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٣٥) ، وكان للشيعة إلى جانب ذلك غلبة فى مدينة الرقّة إحدى المدن الصغرى بقوهستان (مقدسى ص ٣٢٣) ، وقد كان عند رجل جبة وهبها له أحد كبار الشيعة فاشتراها أهل قمّ بثلاثين ألف درهم (الأغانى ج ١٨ ص ٤٣) .

(٣) كتاب معجم البلدان لياقوت الرومى طبع ليبتزج سنة ١٨٦٩ م ج ٤ ص ١٧٦ .

فلما ولى عليهم قاضٍ حكم للبنت بالنصف هدّدوه بالقتل ، « وهم قوم من شرار الروافض يذهبون إلى هـذه المقالة لأجل فاطمة رضى الله عنها »[١] . وفى عام ٢٠١ هـ — ٨١٦ م دفنت فى قُمّ السيدة فاطمة ابنة الإمام الثامن الرضا ، لأن قمّ كانت فى ذلك الوقت أحب مكان يدفن الفرس فيه موتاهم بعد مشهد . أما أصفهان فقد كان فى أهلها بَلَهٌ وغُلُوٌ فى معاوية على عهد المقدسى ويحكى المقدسى أنه وُصف له رجلٌ بالزهد والتعبُّد فقصده ليسائله فرآه يقول إن معاوية نبىٌّ مُرْسَل ، فلما أنكر المقدسى عليه ذلك أصبح يشنّع عليـه ، ولولا أن القافلة أدركته لبطشوا به[٢] . وكانت أصفهان تخالف قمّ كل المخالفة ، ففى عام ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م وقعت بها فتنة كبيرة نشأت عن اختلاف المذاهب ، وكان سبب ذلك أنه قيل عن رجل قُمّى إنه سبّ بعض الصحابة فثار أهل أصفهان ، واجتمع خلق لايحصون كثرة ، ووقع بينهم قتلى ، ونهب أهلُ أصفهان أموالَ التجار من أهل قمّ[٣] . وفى أواخر القرن الرابع الهجرى نجد الهمذانى يقول إن خراب نيسابور واضطرابهـا وما نزل بأهلها من بلاء ، وكذلك ما نزل بقهستان حتى صارت مَا كَلَةَ الغُصَص ونُجْعَةَ الأكدار ، كل ذلك لفشوّ مقالة الشيعة فيهما ، ويحكى الهمذانى عن صاحب له رجع من هراة ذكر أنه سمع فى السوق صبيا يُنْشِد : أن محمداً وعليا لعنا تيما (منها أبو بكر) وعديًا (منها عمر)[٤] ، وفى ذلك العصر لم يكن قد تمّ لمذهب الشيعة افتتاح البلاد التى يملكها اليوم ، ولـكنه كان سائراً فى أحسن طريق يوصله إلى ذلك ، بل كان الاضطهاد مما يساعد هذا المذهب على الانتشار .

58

(١) طبقات السبكى ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) المقدسى ص ٣٩٩ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٨٨ .

(٤) رسائل الهمذانى ص ٤٢٤ — ٤٢٥ ، وابن حوقل ص ٢٦٨ .

أما من حيث العقيدة والمذهب فإن الشيعة هم ورثة المعتزلة ؛ ولا بد أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لاءم أغراض الشيعة . ولم يكن للشيعة فى القرن الرابع مذهب كلامى خاص بهم ، فنجد مثلا أن عضد الدولة ، وهو من الأمراء المتشيّعين ، يعمل على مذهب المعتزلة [١] . ولم يكن هناك مذهب شيعى إلا للفاطميين ويصرّح المقدسى بأنهم يوافقون المعتزلة فى أكثر الأصول [٢] . وعلى العكس من هذا نجد الشيعة الزيدية يرتقون بسند مذهب المعتزلة حتى ينتهى إلى على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ويقولون إن واصلا أخذ عن محمد بن على بن أبى طالب ، وإن محمداً أخذ عن أبيه [٣] . « والزيدية يوافقون المعتزلة فى أصولهم كلها إلا فى مسألة الإمامة » [٤] . ويدل على العلاقة الوثيقة بين المعتزلة والشيعة ، أن الخليفة القادر جمع بينهما حينما نهى فى عام ٤٠٨ هـ — ١٠١٧ م عن الكلام والمناظرة فى الاعتزال والرفض (أى مذهب الشيعة) والمقالات المخالفة للإسلام [٥] . ثم إن الطريقة التى سار عليها ابن بابويه القمّى أكبر علماء الشيعة فى القرن الرابع الهجرى فى كتابه المسمى كتاب العلل تذكرنا بطريقة علماء المعتزلة الذين كانوا يبحثون عن علل كل شىء . وكان فى مذهب الشيعة ، كما كان فى مذهب المعتزلة ، مكان لكل ألوان الزندقة ، فنجد ابن معاوية منذ القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، يجمع حوله الزنادقة ، وقد قُتل أحد هؤلاء لأنه أنكر البعث ، وكان يقول إن الناس

---

(١) مقدسى ٤٣٩ .

(٢) نفس المصدر ٢٣٨ .

(٣) ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل لأحمد بن يحيى المرتضى طبعة أرنلد بحيدر اباد ١٣١٦ هـ ص ٥ .

(٤) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٥٢ .

(٥) المنتظم ص ١٦٥ ب .

كالنباتات فى ذلك(١) . وفى عام ٣٤١ هـ — ٩٥٢ م ظفر الوزير المهلّبى بقوم من التناسخيّة فيهم شاب يزعم أن روح على بن أبى طالب (رضى الله عنه) انتقلت إليه ، وفيهم امرأة تزعم أن روح فاطمة (رضى الله عنها) انتقلت إليها ، وفيهم آخر يزعم أنه جبريل فضربُوا ، فالتجأوا لأهل البيت ، فأمر معز الدولة بإطلاقهم لتشيُّع كان فيه(٢) . ومثل هذه المقالات ، وخصوصاً القول بالرجعة وبالتناسخ ، توجد فى مذاهب الغنوسطيين المسيحيين(٣) . وكثيراً ما نجد فى العراق حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م من يقول إن اللاهوتية اجتمعت فى على (رضى الله عنه) كما اجتمعت فى عيسى عليه السلام من قبل (انظر الفصل الخاص بالدين) . وكان أحد خطباء الشيعة ببغداد فى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م يدعو فى خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : وعلى أخيه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، مُكلِّم الجمجمة ، ومحيي الأموات ، البشرىّ الإلٰهى ، مُكلِّم فتية أصحاب الكهف ، وغير ذلك من الغلوّ(٤) . ومن هذا ما يروى عن المسيح عليه السلام ؛ وقد ظلت هذه الصفات عند المسلمين مما اختص به المسيح عليه السلام مدة طويلة ، وسرى كثير مما كان يقال لإثارة العواطف فى يوم جمعة الآلام عند المسيحيين إلى يوم عاشوراء . يقول القمى (المتوفى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م) : « إذا نظرت السماء حمراء كأنها دمٌ عبيط ، ورأيت الشمس على الحيطان كأنها الملاحف المُعَصْفَرة ، فاعلمى أن سيد الشهداء الحسين قد

59

(١) Wellhausen, Oppositionsparteien, S. 99.

(٢) أبو المحاسن ، طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٣٣ .

(٣) فليس من الضرورى أن نردّ الآراء المتعلقة بظهور المسيح إلى اليهود بجنوب جزيرة العرب وهم الذين يعتبرون آباء هذه المقالة (انظر مقالة Friedländer, ZA, 23, S. 24)

(٤) المنتظم ص ١٧٨ ب .

قتل »[١] . وكذلك ذهب الشيعة فى السيدة فاطمة (رضى الله عنها) إلى مايشبه صفات السيدة مريم عليها السلام ، فهى قد سُمِّيت البتول مثل مريم ، ويَرْوى الشيعةُ عن النبي عليه السلام أنه أجاب من سأله : ما البتول ؟ فقال : البتول التى لم تَرَ حُمْرَةً قط ، أى لم تَحِضْ ، فإن الحيض مكروهة فى بنات الأنبياء[٢] . وكذلك زعم الشيعة أن الحسين (رضى الله عنه) لم يُقتل ، وأنه شُبِّه للناس كعيسى بن مريم عليه السلام[٣] ، وربما تكون هناك علاقة بين لباس الشيعة وبين اللباس الأبيض الذى اتخذته الفرق الغنوسطية . وكان الشيعة أيضاً فى أول الأمر يلبسون البياض ؛ ويقول الشاعر ابن سكرة[٤] :

إن عيد أهل قُمّ   وقاشان والكرج
يتــلاقى بياضهم   بقلوب من السبج

وقال بعض رؤساء الشيعة المخالفين لما عليه جمهورهم ، وقد لبس سواداً : بيِّض قلبك والبس ما شئت[٥] . وكانت أعلام القرامطة بيضاء ، وكذلك كانت ملابس خلفاء الفاطميين وخطبائهم[٦] . أما اللون الأخضر الذى يتميز به العلويون

---

(١) كتاب العلل لابن بابويه القمى مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ١٠٠ ا ، وكان القمى يقول : عند موت الحسين تقطر السماء دما .

(٢) كتاب العلل ص ٧٧ ب .

(٣) كتاب العلل ص ٩٩ ب .

(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٥) كتاب العلل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ ص ١٣٥ ا .

(٦) يشـير المؤلف هنا إلى صفحات من كتاب العلل ومن كتاب الأوائل والأواخر لعلى دده (لهذا الكتاب ثلاث نسخ بمكتبة برلين) ، ولم أجد فى هذه الصفحات ما يقابل كلامه (المترجم) . وقد دخل المأمون بغداد من خراسان فكان لباسه هو وأصحابه وأعلامهم الخضرة (كتاب بغداد لطيفور طبعة كلر Keller ص ٢) ، وكان ينصب على أعلى النوبهار ببلخ الرماح عليها شقاق الحرير الخضر ، (مروج الذهب ج ٤ ص ٤٨) ، وربما كان هذا اللون شعار خراسان .

اليوم فإن أول من أمر باتخاذه سلطان مصر شعبان بن حسين (المتوفى عام ٧٧٨هـ — ١٣٧٦م)[١].

وربما يكون الشيء الوحيد الجديد فى مذهب الشيعة فى هذا العصر أنهم يرفعون سند كل الأخبار والآثار إلى علىّ وأهل بيته . وقد صادف هذا الصنيع أشد استنكار من علماء أهل السنّة[٢] ، وفى سنة ٣٠٠هـ — ٩١٢م روى رجل حديثاً وسنده بالسبط والصادق حتى انتهى إلى علىّ بن أبى طالب ، ونُقل ذلك إلى مجلس فيه ابن راهويه الفقيه ، وكان متّهماً بالنّصب ، فقال : ما هذا الإسناد ؟[٣] . وكان وضْع الأخبار من جانب الشيعة وخصومهم فى هذا الباب من الأمور التى جروا عليها من قديم ، وكانوا لا يجدون فى ذلك حرجاً . ويُذكر أن ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية كان يتشيّع ، ويقدّم عليا على عثمان ، وكان يدخل فى كتابه أشعاراً للشيعة . ويُروى أيضاً أن عوانة بن الحكم (المتوفى عام ١٤٧هـ — ٧٦٤م) كان يضع أخباراً لبنى أمية ، وعامة أخبار المدائنى مأخوذة عنه[٤] ، وإذا كان أحد الشعراء حوالى عام ٣٠٠هـ — ٩١٢م ينسب أساطير الشيعة لقلة معرفتهم بالأخبار[٥] فإن المقدسى يحكى لنا أنه كان يوما بجامع واسط ، وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس ، فدنا منه ، فإذا هو يروى

60

---

(١) ابن الجوزى مخطوط برلين ص ١٣٥ ا ، ولكن لا مقابل لذلك فى هذه الصفحة فى مخطوط رقم 9436 بمكتبة برلين . (المترجم)

(٢) انظر مثلا ناصر خسرو ص ٤٨ ، وأبا المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٤) الإرشاد (معجم الأدباء) ج ٦ ص ٩٤ ، ٤٠٠ و Goldziher : "Kultur der Gegenwart" .

(٥) هو الشاعر الملقب بالخبز أرزى حيث يقول :

من غابت الأخبار عنه ودينه دين الإمامة قال بالأوهام

انظر مروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٤ .

حديثاً بسنده عن النبي عليه السلام : إن الله يُدْنى معاوية يوم القيامة فيُجْلِسه إلى جنْبه ، ويغلّفه بيده ، ثم يجلوه على الناس كالعروس ، فقال له المقدسى : بماذا ؟ قال : بمحاربته علياً ، فقال له المقدسى : كذبت يا ضالّ ، فقال : خذوا هذا الرافضى ، فأقبل الناس عليه فعرفه بعض الكتبة ودفعهم عنه[١] . وكذلك حكى المقدسى أنه كاد يُبطش به لأنه أنكر على رجل من عُبّاد أصفهان قولَه إن معاوية نبيٌّ مرسل[٢] . على أن عليّا لم يصبح موضع النزاع ، ومضى الوقت الذى نجد فيه خليفة عباسيا مثل المتوكل (٢٢٣ — ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ — ٨٦١ م) شديد البغض لعلى ولأهل بيته ، حتى كان من جملة ندمائه رجل يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع ويرقص ويقول : قد أقبل الأصلع البطين أمير المؤمنين ، يعنى عليّا رضى الله عنه ، والمتوكل يشرب ويضحك[٣] . وكان أهل السنة فى الجملة يذكرون عليا بالإجلال ، ولم يكونوا قط أعداء له[٤] . فالهمذانى (المتوفى عام ٣٩٨ هـ — ١٠٠٨ م) مثلا قد شنّع على الشيعة ، وردّ على طعن الخوارزمى فى عمر[٥] ، وقد ألف مرثية للحسين وتحدّث عن مقتله وصُنْع بنى أمية بأبناء النبى[٦] ، وكان أشد ما يؤلم نفوس أهل السنة ما أولع به الشيعة من سبّ الصحابة الأولين ، وفى سنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م توفى ببغداد أحد علماء أهل السنة الأكابر ، وكان ديّنًا حسن الاعتقاد ، واجتاز يوما بالكرخ ،

---

(١) المقدسى ص ١٢٦ ، وكان من أثر هذا النزاع فى أمر على ومعاوية أن معاوية صار له شأن دينى ، ويحكى المسعودى (المروج ج ٥ ص ١٤) أن قبر معاوية بالباب الصغير بدمشق ، وهو يُزار إلى هذا الوقت « وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وعليه بيت مبنى يفتح كل يوم اثنين وخميس » .

(٢) المقدسى ص ٣٩٩ والمنتظم س ٦٠ ب .

(٣) أبو الفدا تحت عام ٢٣٦ (ج ٢ ص ١٨٨) .

(٤) W. Sarasin : Das Bild Alis bei den Historikern der Sunnah.

(٥) الديوان : باريس ص ٩٠ وما يليها .

(٦) رسائل الهمذانى طبعة بيروت ١٨٩٠ ص ٥٨ وما يليها .

فسمع سبّ بعض الصحابة ، فجعل على نفسه ألا يمشى فى الكرخ ، وكان يسكن باب الشام فلم يعبر قنطرة الصراة حتى مات[1] ، وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم على ؛ بل يُجعل سببُ العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر[2] ، وفى عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م كتب عامة الشيعة بأمر معز الدولة على المساجد ما هذه صورته : لعن الله معاوية بن أبى سفيان ، ولعن من غصب فاطمة فدكا ، ومن منع الحسن أن يدفن عند قبر جده ، ومن نفى أباذر ... فلما جاء الصباح محاه بعض الناس ، فأشار الوزير المهلبى على معز الدولة أن يكتب موضع المحو : لعن الله الظالمين لآل رسول الله ، ولا يذكر أحداً إلا معاوية ، ففعل ذلك[3] .

وقد لجأ كثير من العلويين إلى مصر التى لم تكن تربطها بعرش الخلافة ببغداد رابطة الطاعة التامة . وفى سنة ٢٣٦ هـ — ٨٥٠ م كان المتوكل قد حبس الطالبيين فى سُرَّ من رأى[4] ، وورد كتابه إلى والى مصر بإخراج الأشراف العلويين وإعطاء الرجل منهم ثلاثين دينار والمرأة خمسة عشر ديناراً ، فقدموا العراق ، ثم أُمروا بالخروج إلى المدينة[5] ، ولكن كثيراً من العلويين استطاعوا أن يفلتوا من هذا النظام ، وسرعان ما ثاروا وبايعوا واحداً منهم ، فورد كتاب المنتصر إلى والى مصر بألا يقبّل علوى ضيعة ، ولا يركب فرساً ، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين أحد الطالبيين وبين أحد من سائر الناس خصومة فليُقْبَلْ

---

(١) المنتظم ص ١٥٨ ا .

(٢) المنتظم مثلا ص ٢٩ ب .

(٣) أبو الفدا ج ٢ ص ٤٧٨ تحت عام ٣٥١ هـ .

(٤) الأغانى ج ١٩ ص ١٤١ .

(٥) كتاب الولاة والقضاة للكندى طبعة Guest ، ليدن ص ١٩٨ .

قولُ خصم الطالبي فيه ولا يطالب ذلك الخصم ببيّنة[١] . فلا عجب إذن أن نرى مصر تشهد حوالى عام ٢٥٠ هـ ثورة للعلويين بعد أخرى ، وفى القرن الرابع الهجرى بدأت فتن المغرب تستولى على مصر ، فوحّد ذلك بين أغراض العلويين السياسية و بين أغراض الشيعة .

وقد بلغت الفتنة فى يوم عاشوراء سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م مبلغا شديداً فى العاصمة ، فنشب القتالُ بين الجند السنّيين من السودان والترك و بين الشيعة ، وكان الجنود يسألون من يجدونه : من خالك ؟ فإن لم يقل معاوية ضربوه[٢] . وطاف أحد السودان المتهيجين بالطرقات وهو يصيح : معاوية خال على ، فتابعه العامة ، وأصبحت هذه هى صيحة أهل السنة بمصر حين يريدون قتال الشيعة . وقد حافظت الحكومة على النظام بقدر استطاعتها . وفى عام ٣٥٣هـ — ٩٦٤م ضُرب أحد كبار الشيعة ، وحُبس حتى مات فى السجن . وقام على قبره قتال بين الجند و بين أصحابه .

ولما دخل جوهر مصر وصارت الحكومة شيعية كانت العامة عند أقل إشارة لهم يصيحون صيحة السنة على الشيعة من نحو : معاوية خال علىّ . فنى سنة ٣٦١ هـ — ٩٧٢ م قُبض على عجوز عمياء تنشد فى الطريق ، وحُبست ، ففزع جماعة من الرعية ، ونادوا بذكر الصحابة وصاحوا : معاوية خال المؤمنين وخال على ، فبعث جوهرُ ونادى فى الجامع العتيق : أقلّوا القول ودعوا الفُضول ، فإننا حبسنا العجوز صيانة لها ، فلا ينطقن أحد إلا حلت به العقوبة الموجعة ، ثم أطلقت

---

(١) نفس المصدر ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٢) يظهر أن هذه العبارة أصبحت العلامة التى يعرف بها السنّى ، ومن النوادر أن نفطويه (المتوفى عام ٣٢٣ هـ) حكى عن بعض الشيعة أنه قيل له : معاوية خالك ؟ فقال : لا أدرى ، أمى نصرانية والأمر إليه (الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣١٣) .

العجوز[١] . بل يحكى أيضا أنه فى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م شغب جماعة من الصيارفة السنّيين وصاحوا : معاوية خال على بن أبى طالب[٢] ، هذا مع أن الصيارفة أهدأ العناصر السياسية .

على أن حكومة الفاطميين كانت تتوخّى جانب الحكمة فى الجملة ، ولم تكن حكومة متعصّبة ؛ ولكنها جعلت أحسن المناصب فى القضاء والفقه للشيعة وحدهم . وقد بلغ من تسامحها أنها لم تمنع العامة فى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م من الاحتفال بعيد اتخذه أهل السنة ، بعد عيد الغدير عند الشيعة ، مضاهاة للشيعة ونكاية لهم ، وهو اليوم الذى دخل فيه رسول الله عليه السلام الغار هو وأبو بكر الصديق ، وبالغوا فى هذا اليوم فى السرور وإظهار الزينة ونصب القباب وإيقاد النيران[٣] .

وقد شذ الخليفة الحاكم فى هـذا أيضا ، ففى عام ٣٩٣ هـ — ١٠٠٢ م أمر نائبُ دمشق من قبل الحاكم برجل مغربى ، فضُرب وطيف به على حمار ، ونودى عليه : هذا جزاء من أحب أبا بكر وعمر ، ثم أمر به فضُربت عنقه[٤] . وفى عام ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م . بلغ تعصّب الحاكم للمذهب أقصى حد ، فكان من الأشياء الكثيرة التى أمر بها أن يُكتب على الجوامع والمساجد والحيطان والدروب لعنُ أبى بكر وعثمان ومعاوية وغيرهم من الصحابة ، وكذلك سائر خلفاء بنى العباس ، وعَظُم ذلك على أهل السنة[٥] . وفى عام ٣٩٦ هـ — ١٠٠٥ م أمر بمنع الناس

---

(١) كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء للمقريزى طبعة القدس ١٩٠٨ ص ٨٧ .

(٢) الخطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٤) أبو المحاسن طبعة كلفورنيا ص ٩١ (عام ٣٩٣ هـ) ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٢٦ . ويقول ابن الأثير إنه أخرج عن المدينة فقط ، ولم يقتل .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١١٦ أ ، وفى هذه السنة نفسها وصلت قافلة الحج فأراد العامة حملهم على سب السلف ، فأبوا ، فحل بهم مكروه شديد . (خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٤٢) .

فى يوم عاشوراء من الخروج للنوح والبكاء على الحسين فى الشوارع ، لأن العامة كانوا يمدون أيديهم إلى أمتعة الباعة ، فرفعوا ذلك إلى الحاكم ، فأمر بمنعهم من المرور فى الشوارع ، وأن يختص النوح والنشيد بالصحراء [١] . وفى عام ٣٩٩هـ — ١٠٠٩ م عاد الحاكم إلى الأمر بألا يُسب أحدٌ من السلف الذين كان أمر بسبهم ، وهذه هى عادته من الأمر بالشىء ثم الأمر بتركه [٢] .

على أن مذهب الشيعة لم يستطع أن يجذب إليه الناس ، فيحدثنا المقدسى أنه لم يجد الشيعة إلا فى أعلى القصبة ، وكذلك أهل صندفا [٣] . وكانت فى الغرب على الحدود بين الجزائر وتونس توجد أيضا مدينـة نفطة ، وجميع أهلها شيعة ، وكانت تسمى الكوفة الصغرى [٤] . على أنه بعـد التدهور السياسى للفاطميين سرعان مارجعت موجة هذا التقدم حتى لم يبق له أثر .

وكانت بغداد هى العاصمة بمعنى الكلمة الحقيق ، وآية ذلك أن جميع الحركات الروحية فى مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواجها فى بغـداد ، وكان بها لجميع المذاهب أنصار . ولـكن أكبر حزبين كانا بها فى القرن الرابع الهجرى هما الحزبان المتشدّدان فى التمسك بمذهبهما وهما : الحنابلة والشيعة [٥] ، وكان أنصار الشيعة يسكنون بنوع خاص حول سوق الـكرخ ، ولم يتعدّوا الجسر الـكبير ويحتلّوا باب الطاق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى [٦] . ولم يستطيعوا التعدى إلى القسم

---

(١) الخطط للمقريزى ج ٢ ص٤٣٢ ، وملحق استيفاء أخبار الولاة والقضاة للكندى ص ٦٠٠ .

(٢) يحي بن سعيد ص ١١٩ أ .

(٣) المقدسى ص ٢٠٢ .

(٤) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكرى طبعة الجزائر ١٨٥٧ ص ٧٥ .

(٥) المقدسى ص ١٢٦ . ويقول المقدسى (ص ٣٧) إن الحنابلة ينكرون النصب (يعنى تنصيب على وهذا ما يجعل الشيعة يكرهونهم) .

(٦) كتاب الوزراء ص ٣٧١ .

الغربى لأن الهاشميين كانوا يكوّنون عصبة قوية هناك ، ولا سيما حول باب البصرة ، وكانوا من أشد أعداء الشيعة[١] . على أن ياقوتا وجد أن أهل محلة باب البصرة — بين كرخ بغداد والقبلة — كلهم سنّية حنابلة ، وأن عن يسار الكرخ وفى جنوبها سنّية . أما الكرخ فأهلها كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيهم سنّى ألبتة[٢] وإلى جانب ما تقدم كان باب الشعير غربى شاطئ دجله من أكبر مراكز أهل السنة[٣] . ورغم ماقام به المتوكل من تشديد فى اضطهاد الشيعة فى القرن الثالث الهجرى ، نلاحظ أن قوتهم كانت عظيمة حتى إن الخليفة المعتضد عزم فى عام ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م على لعن معاوية على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب فى ذلك وصلت إلينا صورته ، فخوّفه الوزير من اضطراب العامة فقال المعتضد : إن اضطربت العامة وضعت فيها السيف ، فقال له الوزير : فما تصنع بالطالبيين الذين هم فى كل ناحية يخرجون ويميل إليهم كثير من الناس لقرابتهم من الرسول ، وفى هذا الكتاب إطراؤهم وإذا سمع الناس كانوا إليهم أميل[٥] ؟ ويذكر المؤرخون لأول مرة عام ٣١٣ هـ — ٩٢٥ م أن الشيعة البغداديين يجتمعون فى مسجد براثا ، فعلم الخليفة بأن قوما منهم يجتمعون فيه لسبّ الصحابة ، فأمر بكبسه فى يوم جمعة وقت الصلاة ، فوُجد فيه ثلاثون إنسانا يصلّون ، فقُبض عليهم وفُتّشوا ، فوُجد معهم خواتم من طين أبيض عليها اسم الإمام ، كما كان يفعل دعاة الفاطميين مع من ينتسب إليهم . وقد استصدر الخليفة فتوى بهدم المسجد حتى سُوّى بالأرض ، وعفى رسمه ، ووُصل بالمقبرة التى تليه[٥] . وفى سنة ٣٢١هـ — ٩٣٣م

64

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٤٦ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان تحت كلمة كرخ بغداد (ج ٤ ص ٢٥٥) .
(٣) كتاب الوزراء ص ٤٨٣ .
(٤) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٦٤ — ٢١٧٨ .
(٥) المنتظم ص ٢٩ ب ، ٦٧ أ . وكان ببغداد طائفة من المكدين يدعون أنهم شيعة ويعملون السبح والألواح من الطين ، ويزعمون أنها من قبر الحسين بن على رضى الله عنهما =

همّ علی بن يلبق ، وهو من القواد الترك ، مرة أخرى بأن يلعن معاوية وابنه يزيد على المنابر ، فاضطربت العامة ، وكان البربهارى رئيس الحنابلة يثير الفتن هو وأصحابه[١] . وفى عام ٣٢٣ ﻫ — ٩٣٥ م نودى فى جانبى بغداد ، بألاّ يجتمع من الحنابلة نفسان فى موضع واحد ، وكان ذلك لكثرة تشرّطهم على الناس وإيقاعهم الفتن المتّصلة ، وخرج توقيع الخليفة الراضى بكتاب بيّن فيه أخطاء الحنابلة وتوعّدهم بالعقاب ، وقد وصلت إلينا صورة هذا الكتاب[٢] ، فهو يتهمهم بالطعن على خيار الأمة وبنسبة شيعة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكفر ، وإرصادهم بالمكاره فى الطرقات والمحالّ ، وإنكار زيارة قبور الأئمة صلوات الله عليهم ، والتشنيع على زوّارها بالابتداع ، وأن الحنابلة ، مع إنكارهم لذلك ، يتلفّقون ويجتمعون لقصد رجل من العوامّ ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله صلى الله عليه ، ويأمرون بزيارة قبره والخشوع لدى تربته ، وفى آخر الكتاب يقسم أمير المؤمنين بالله لئن لم ينصرف الحنابلة عن مذموم مذهبهم ليوسعنهم ضربا وتشريدا وليستعملن السيف فى رقابهم والنار فى محالّهم ومنازلهم[٣] .

ثم إن بجكم أمر بإعادة بناء مسجد براثا فى عام ٣٢٨ ﻫ — ٩٤٠م ، وتوسيعه ليكون مسجداً لأهل السنة ، وكتب فى صدره اسم الراضى بالله ، ثم جاء المتقى

= فيتحفون بها الشيعة . ولا تزال أطباق الطين تباع إلى اليوم ، يشتريها الشيعة ليضعوها أمامهم عند الصلاة لكى تقع عليها جباههم كلما سجدوا .

(١) تجد هذا مفصلا عن مسكويه ج ٥ ص ٤١٣ ، ومختصرا عند ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ وعند أبى المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٩٥ — ٤٩٧ .

(٣) وقد أضيفت لهذا الكتاب فيما بعد صيغة كلامية ، فذكر أبو الفدا فى تاريخه أنه قد جاء فيه توبيخ الحنابلة باعتقاد التشبيه « وأنكم تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم على هيئته وهكذا » تاريخ أبى الفدا تحت عام ٣٢٣ ﻫ ج ٢ ص ٣٩٢ من الطبعة الأوروبية .

بالله فأمر بنصب منبر فيه كان فى مدينة المنصور معطّلا مخبوًا فى خزانة المسجد ، عليه اسم هارون الرشيد ، ونُصب هذا المنبر فى قبلة المسجد ، وافتُتِح هذا المسجد للصلاة فى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م(١) .

وكان الحمدانيون أول أسرة شيعيّة تدخلت فى أمور بغداد ، وكان هـذا التدخل مثيراً للعجب ، ذلك أن ابن حمدان على شـدة تشيّعه وميله إلى على وأهل بيته سعى فى البيعة لابن المعتز على انحرافه عن علىّ وغُلُوّه فى النّصْب(٢) . ولكن الأحوال تغيّرت لما استولى الديلم على بغداد ، وكانوا قد دخلوا فى الإسلام حديثاً على يد أحد العلويين ، فلم يكد معز الدولة يدخل بغـداد حتى قبض على الخليفة المستكفى وأنزله عن عرشه على صورة مهينة . وكان من الأسباب الظاهرة فى ذلك أن المستكفى كان قد قبض على الشافعى رئيس الشيعة(٣) . وفى سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م قامت فتنة بين العامة ببغداد ، وتعطّلت الجمعة بمساجد أهل السنّة لاتصال الفتن ، ولم تُقَمْ الجمعة إلا فى مسجد براثا الشيعى(٤) . وفى عام ٣٥١ هـ كتب معز الدولة على المساجد لعْنَ الصحابة ، فمحاه الناس أثناء الليل(٥) . وفى العام التالى أمر النـاس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء ، وهو أكبر عيد للشيعة ، وأن يظهروا الحزن ، فأُغلقت الأسواق وعطل البيع والشراء ، ولم يذبح القصابون ، ولا طبخ الهرّاسون ، ولا تُرِكَ الناس أن يستقوا الماء ، ونُصِبت القبابُ فى الأسواق ، وعُلِّقت عليها المسوح ، وخَرَجَتْ النساء مُنَشّرات الشعور مسوّدات

(١) المنتظم لابن الجوزى س ٦٧ ا ، وابن الأثير ج ٩ س ٢٧٨ ، ومسكويه ج ٦ س ٣٧ ، وهو يذكر الفراغ من المسجد والتجميع فيه من غير زيادة فى البيان .
(٢) ابن الأثير ج ٨ س ١٣ .
(٣) مسكويه ج ٦ س ١٢٣ .
(٤) المنتظم لابن الجوزى س ٨٩ ا ، وأبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ س ٣٥١ ، وابن الأثير ج ٨ س ٣٩٧ .
(٥) انظر ما تقدم .

الوجوه ، قد شققن ثيابهن ، يَدُرْن فى البلد ويَنُحْن ويَلطُمْن وجوههن على الحسين (رضى الله عنه) . وفى هذا اليوم كان يُزار قبر الحسن بكربلاء[١] .

ويصف البيرونى ما جرى عليه بنو أمية من إظهار الفرح فى يوم عاشوراء ، وما كان يظهره الشيعة من حزن ثم يقول : « ولذلك كره فيه العامّة تجديد الأوانى والثياب »[٢] . وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فى هذا العام جاء عيد الغدير (غدير خم) فاحتفل به الشيعة ببغداد ، وزعموا أنه اليوم الذى عهد فيه الرسول عليه السلام إلى علىّ بن أبى طالب واستخلفه[٣] . وفيه أظهروا السرور بأمر معز الدولة على خلاف صنيعهم فى يوم عاشوراء ، فنصبوا القباب ، وعلّقوا الثياب ، وأظهروا الزينة . وفى ليلته أُشعلت النيران بمجلس الشرطة وضُربت الدبادب والبوقات ، وفى صبيحته نحروا جملا وبكّروا إلى مقابر قريش[٤] . أما بنو أمية فكانوا قد اتخذوا يوم عاشوراء من قبل يوم سرور ، «فلبسوا فيه ماتجدّد وتزيّنوا واكتحلوا وعيّدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطيّبات ، وجرى الرسم فى العامة على ذلك أيام ملكهم ، وبقى فيهم بعد زواله عنهم » . وقد حاول أهل السنّة أن يظهروا فضل يوم عاشوراء فذكروا ما روى عن النبى عليه السلام من الحض على فعل الخير فيه[٥] . وكانوا يزعمون أن « الاكتحال فيه

---

(١) المنتظم ص ٩٣ ب وكتاب الوزراء ص ٣٧١ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣٦٤ . ولا نجد قط ذكراً لروايات أُلفت لتمجيد الشهداء كالتى نراها اليوم عادة . على أنه من العبارات التى تشبه أن يكون أصلها من قصة تمثيلية قول السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنها : « كنت أحسن من السماء وأعذب من الماء » (رسائل الخوارزمى طبعة القسطنطينية ١٢٩٧ ص ٣٧) ، وليس فى هذا دليل مقبول (المترجم) .

(٢) الآثار الباقية للبيرونى طبعة أوروبا ص ٣٢٩ .

(٣) المنتظم ص ٩٣ ب ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٧ ، وكتاب الوزراء ص ٣٧١ ، وقد أخطأ أبو المحاسن (ج ٢ ص ٤٢٧) بجعله ذلك عام ٣٦٠ هـ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ ، والمنتظم ص ٩٣ ب ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٧ .

(٥) الآثار الباقية للبيرونى ص ٣٢٩ .

مانع من الرمد فى تلك السنة »[١] ويقول القُمّى (المتوفى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦م) مشدّداً فيمن يفرح بيوم عاشوراء : « من ترك السعى فى حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة ، ومن كان يومُ عاشوراء يومَ مصيبته وحزنه و بكائه يجعل الله عز وجل يومَ القيمة فرحَه وسرورَه . . . . ومن سمّى يوم عاشوراء يوم بركة وادّخر بمنزله شيئاً لم يُبارَك له فيما ادّخر ، وحُشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد لعنهم الله إلى أسفل دَرْك من النار »[٢] . ولما زالت الدولة الفاطمية وجاء ملوك بنى أيوب اتخذوا يوم عاشوراء ، بعد أن كان يوم حزن ، يومَ سرور جَرْياً على عادة أهل الشام[٣] . ثم إن أهل السنة أرادوا أن يعملوا لأنفسهم ما يكون بإزاء يوم عاشوراء ، فجعلوا بعده بثمانية أيام يوماً نسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير ، وزاروا قبره فى مسكن كما يُزار قبر الحسين بكربلاء[٤] . وكذلك عملوا بإزاء يوم الغدير بعده بثمانية أيام يوماً ادّعوا أنه اليوم الذى دخل فيه النبى عليه السلام وأبو بكر (رضى الله عنه) فى الغار ، وعملوا فى هذا اليوم ما يعمله الشيعة فى يوم الغدير . وكان أول ما عمل أهل السنة ذلك فى يوم الجمعة لأربع بقين من ذى الحجة عام ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م[٥] . وفى هذه الأعياد لم يكن الأمر يخلو من شغب وفتن بين الفريقين ، حتى كان الحكام الأقوياء يمنعون من عملهما أحياناً[٦] . وقد حدث مرة فى فتنة بين أهل السنة

---

(١) عجائب المخلوقات للقزوينى طبعة أوروبا عام ١٨٤٩ ص ٦٨ .

(٢) كتاب العلل للقمى مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ٩٩ ب .

(٣) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٩٠ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ ، وكذلك عرف ياقوت هذه الأماكن .

(٥) المنتظم ص ١٤٣ أ — ١٤٤ ب ، وكتاب الوزراء ص ٣٧١ .

(٦) فعل ذلك أبو الحسن المعلّم عام ٣٨٢ هـ (المنتظم ص ١٣٤ أ) وعميد الجيوش عامى ٣٩٢ هـ ، ٤٠٦ هـ (كتاب الوزراء ص ٤٨٢ — ٤٨٣ ، والمنتظم ص ١٤٧ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٨٤) .

والشيعة أن الشيعة صاحوا : حاكم يا منصور ، إشارةً إلى العدو المقيم بالقاهرة ، وقد بلغ الخليفةَ ذلك فأحفظه وأنفذ الحراس الذين على بابه لمعاونة أهل السنّة ، فهزموا الشيعة ، ثم اجتمع الأشراف إلى دار الخليفة فسألوه العفو عما فعله السفهاء فعفا عنهم[١] . وفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م كان خطيب مسجد براثا ، وكان شيعيا ، يذكر مذاهب فاحشة من مذاهب الشيعة ويغلو فى علىّ ، فأمر الخليفة بالقبض عليه ، وعيّن محله خطيباً آخر فلما صعد المنبر دقّه بعَقِب سيفه على ماجرت به العادة ، والشيعة ينكرون هذا ، وقصّر فى الخطبة عما كان يفعله من تقدّمه فى ذكر على بن أبى طالب وقال : اللهم اغفر للمسلمين ، ومن زعم أن عليًا مولاه ، فرماه العامة حينئذ بالآجرّ ، فوافاه كالمطر ، وخُلع كَتِفه ، وكسِر أنفُه ، وأدمى وجهه ، وعرف الخليفة ذلك فغاظه وأحفظه ، وكتب فى الشيعة كتاباً شديداً للوزير ، وفى آخر الأمر اجتمع قوم من مشايخ أهل الكرخ ، وتوجهوا مع الشريف المرتضى إلى دار الخلافة ، فأحالوا ما جرى على سفهاء الأحداث ، وسألوا الصفح عن هذه الجناية ، وطلبوا إقامة خطيب عُملت له نسخةٌ يعتمدها فيما يخطب ، وتجنّب ما يُحْفِظ الشيعة[٢] . ومما كان له شأن فى ثورات الشيعة المفاجئة فى القرن الرابع الهجرى أن مشهديهم الكبيرين المقدّسيْن عندهم كانا بالعراق . على أن موضع قبر على كان موضع شك ؛ وقد بيّن المسعودى ذلك فى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م حيث يقول إنه قد تُنوزِع فى موضع القبر ، فذهب قوم إلى أنه دُفن فى مسجد الكوفة[٣] ؛ وقال آخرون إنه دفن فى القصر بالكوفة ، وذهب جماعة إلى أنه حُمل إلى المدينة فدُفن عند قبر فاطمة ، وقال قوم

67

---

(١) المنتظم ص ١٥٢ ب .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٨ ا — ١٧٩ ا .

(٣) انظر أيضا ابن حوقل ص ١٦٣ .

إنه حُمِلَ فى تابوت على جمل و إن الجمل تاه ، ووقع فى بلاد طيّ[١] . ثم يُقال إن أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان (المتوفى عام ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م) شَهَرَ مكاناً بمشهد علىّ كان يقال إنه قبر على بن أبى طالب ، وذلك بأن جعل عليه حصناً منيعاً ، وابتنى على القبر قُبّة عظيمة مربّعة الأركان لها باب من كل جانب ، وسترها بفاخر الستور وفرشها بثمين الحصر السامانية[٢] . ولما مرض الوزير أبو محمد بن سهلان واشتد عليه المرض نذر ، إن عوفى ، بناء سور على مشهد أمير المؤمنين علىّ ، فعوفى ، فأمر ببناء سور عليه عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م[٣] . وأول من دُفن فى هذا المشهد من العظماء فيما أعلم رجلٌ من أهل البصرة عام ٣٤٢ هـ — ٩٥٣ م[٤] . وأول من دُفن فيـه من الأمراء عضدُ الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) فحُمل إليه بعد أن كان قد دُفن بدار الملك ببغداد[٥] . وعضد الدولة هـذا هو الذى أمر بإعادة بناء مشهد الحسين بن على[٦] بعد أن كان الخليفة المتوكل قد أمر فى عام ٢٣٦ هـ — ٨٥٠ م بهدم قبره وهدم ما حوله من المنازل و بأن يُحْرَثَ ويُبْذَرَ ويُسْقَى[٧] . وكان يزعم البعض أن رأس الحسين ، « سيد الشهداء » ،

(١) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ ، ج ٥ ص ٦٨ .
(٢) ابن حوقل ص ١٦٣ .
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٤ .
(٤) نفس المصدر ج ٨ ص ٣٨٠ .
(٥) نفس المصدر ج ٩ ص ١٣ .
(٦) وكذلك بنى قبر فاطمة بقُمّ (رسائل الهمذانى ص ٤٢٥ ؟) .
(٧) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٤٠٧ ، ولابن بسّام فى المتوكل شعر قاله لما أمر بهدم القبر :

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيّها مظلوما
فلقـد أتاه بنو أبيه بمثله ... هـذا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على أن لم يكونوا شاركوا ... فى قتـله فتتبّعوه رميما

(تاريخ أبى الفدا تحت عام ٣٠٢ هـ) .

يوجد فى رباط صغير قريباً من مدينة مرو ، وذلك فى القرن الرابع الهجرى[١] .
ويقول المقريزى إن رأس الحسين حُمل من عسقلان إلى القاهرة ووصل إليها
فى عام ٥٤٨ هـ — ١١٥٣ م[٢] . ويرى ابن تيمية أن هذا باطل باتفاق أهل العلم ،
وأن أحداً من أهل العلم لم يقل إن رأس الحسين كان بعسقلان[٣] . وفى عام
٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م . توفى أبو العباس الكافى الوزير بالرىّ ؛ وكان قد وصّى
قبل موته أن يُدفن فى مشهد الحسين ، فكتب ابنه إلى العلويين أن يبيعوه
تربة بخمسمائة دينار ، فقال الشريف إذ ذاك : هذا رجل التجأ إلى جوار جدّى ،
ولا آخذ لتربته ثمناً ، وأُعطيت للرجل تربةٌ من غير أن يدفع شيئاً[٤] . ولم
يصل إلينا وصف لداخل مشهد الحسين بكربلاء قبل وصف ابن بطوطة له فى
القرن الثامن الهجرى ، أما قبل ذلك فيُذكر أن القبر كان يُغطَّى بقماش تاريز ،
وحوله شموع مُضاءة[٥] . ثم إن عميد الدولة بن بويه بنى على قبر علىّ الرضا
بطوس حصناً ومسجداً لم يكن بخراسان أحسن منه[٦] .

---

(١) المقدسى ص ٤٦ ، ٣٣٣ .
(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٢٧ .
(٣) نشرة شرينر (Schreiner, ZDMG., 53, S, 81.)
(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٦٨ .
(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٩ ، وابن تغرى بردى طبعة كليفورنيا ص ١٢٣ .
(٦) المقدسى ص ٣٣٣ .

تعليقات[1]

من أراد كلاماً موجزاً عن الشيعة فليرجع إلى كتاب : Johannes Hauri, Islam, p. 89 ff. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب جولد زيهر : Goldziher, Vorlesungen über den Islam. ؛ وهذا الكتاب مترجم إلى الإنجليزية بعنوان . Muhammed and Islam ، وإلى الفرنسية بعنوان : le Dogme et la loi de l'Islam.

يقول جولدزيهر فى صفحة ٢٢٢ من الترجمة الإنجليزية : إن من الحقائق الأولية أن مسألة الخلافة قسمت المسلمين إلى فرقتين : أهل السنّة ، والشيعة . وكان لأهل البيت فريق يعترف سرا بحقوقهم ، حتى فى عهد الخلفاء الثلاثة الأولين ، ولكن هذا الفريق لم يكن يجاهر بالخصام . وبعد عصر هؤلاء الخلفاء صار يعارض كل من حكم من غير أبناء علىّ ؛ وكانت هذه المعارضة موجّهة أول الأمر إلى الأمويين ، ثم إلى من بعدهم ممن لم تتوفر فيهم الشروط التى يوجبها الشيعة فى الإمام ؛ وهم حين يبينون وجوه النقص فى هؤلاء الحكام يقررون الحقوق الشرعية لأبناء النبى عليه السلام ممثّلة فى ذرية على وفاطمة ؛ وكما أنهم اتهموا الخلفاء الثلاثة الأولين سرا بأنهم مغتصبون ظالمون ، فكذلك عارضوا النظام السياسى فى الدولة الإسلامية سرا وجهراً فى كل العصور .

وقد أدت طبيعة هذه المعارضة إلى ظهورها فى صورة تغلب عليها الصبغة الدينية . وعلى حين أن الشيعة يرفضون تنصيب الخليفة بالطرق العادية الإنسانية ، فإنهم يقولون إن الرئيس الشرعى الوحيد من الناحية الروحية والزمنية هو الإمام

---

(١) هذه التعليقات الملحقة بالفصول هى تلخيص لتعليقات المرحوم العلاّمة خدابخش الهندى على الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب .

المعصوم الذى يعيّن تعييناً ، ويكون من أبناء النبى عليه السلام .

وفى صفحة ٢٣٠ تكلم جولدزيهر عن الفرق الأساسى بين الخليفة عند أهل السنة والإمام عند الشيعة .

أوجب أهل السنّة تنصيب خليفة مهمته تنفيذ أحكام الشريعة وفروضها ، وحماية حدود بلاد الإسلام والدفاعُ عنها ، والإشراف على تعبئة الجيوش ، وأخذُ ما فُرض على المسلمين فى أموالهم ، وتقسيم غنائم الحرب بينهم بالعدل ، وغير ذلك من المهام ، وبالاختصار فالخليفة هو ممثل السلطة القضائية والإدارية والحربية ، وهو مجرد خليفة لمن تقدمه ، ويختاره المسلمون بالطرق العادية (بالانتخاب أو بتعيين سلفه له) لسياستهم ، ولا يشترط فيه أن يكون أعلم المسلمين .

أما الإمام عند الشيعة فهو رئيس المسلمين ومعلّمهم ، بفضل ما وهبه الله من الصفات ، وبحكم وراثته للنبى عليه السلام ، وهو يحكم ويعلّم متلقياً ذلك عن الله على نحو ما كان موسى يسمع كلام الله من الشجرة ؛ فكأنه يتلقى عن الله رسالة مستمرة ؛ وهو يجمع إلى هذه المزية صفات خاصة من طور فوق طور الإنسان . ويزعم الشيعة أن وراثة الإمامة تنقّلت من آدم ، حتى انتهت إلى عبد المطلب جد النبى عليه السلام وجد على رضى الله عنه ؛ ومن عبد المطلب انقسم النور قسمين ، أحدهما انتقل إلى عبد الله والد النبى ، والآخر إلى أخيه عبد المطلب والد على ، ثم سار النور من علىّ إلى ذريته . وهذا النور الذى فى روح الإمام يجعله إمام عصره ، ويجعل له قوى روحانية تجاوز حدود القدرة الإنسانية ، وروح الإمام أنقى من أرواح سائر الناس لأنه مبرأ من بواعث الشر متحلٍّ بالفضائل الإلهية . وهذه هى صفات الامام عند المعتدلين من الشيعة ؛ أما الغلاة منهم فهم يرفعون الإمام إلى الأفق الإلهى .

وفى ص ٢٥٤ ومابعدها ينبّه جولدزيهر على أخطاء شائعة فيما يتعلق بالشيعة .

١ — يذهب البعض إلى أن الفرق بين مذهب أهل السنّة ومذهب الشيعة أن الأولين يعترفون بأن السنّة أصل من أصول العقائد والأحكام الدينية بعد القرآن ، وأن الشيعة يرفضون السنّة . يقول جولدزيهر : إن هذا خطأ جوهرى فى فهم مذهب الشيعة ، ومنشؤه اختلاف التسمية بين الفريقين ؛ فليس بين الشيعة من ينكر السنة ؛ بل هم يقرّون بالسنة التى حملها أهل البيت ، ويذهبون إلى أن خصوم الشيعة يعتمدون فى أخذ السنة على الصحابة الغاصبين . وثمّ أحاديث مشتركة بين الشيعة وأهل السنة لا تختلف إلا فى السند . والشيعة يقبلون الأحاديث التى رواها أهل السنة ، والتى تؤيد الشيعة أو على الأقل لا تعارض مذهبهم ، ومن أمثلة ذلك أن من الشيعة المتشددين من يعتمدون على أحاديث البخارى ومسلم ، ويقرؤونها أيام الجمع . ونستطيع معرفة شأن السنة عندهم من أن كثيراً من قول علىّ فى القرآن والسنة يؤخذ مما رواه الشيعة عن علىّ ؛ فاحترام السنة من مستلزمات مذهب أهل السنة والشيعة على السواء ، ومما يدل أيضاً على اعتداد الشيعة بالسّنة النبوية أنهم كتبوا الكثير فى السّنة ، ومايتعلق بها ، وأنهم وضعوا أحاديث كثيرة وأذاعوها ؛ فالشيعة لا يعارضون أهل السنة بصفتهم منكرين للسنة ؛ بل بصفة أنهم أولياء أهل البيت أو الخاصة الذين يمتازون على العامة الغارقين فى بحار العمى والضلال .

٢ — ومن الآراء الخاطئة القول بأن منشأ التشيُّع يرجع إلى مذاهب الفرس وتأثيرها فى الإسلام ؛ وهذا ناشئ عن خطأ تاريخى ؛ وقد رفضه ڤلهاوزن فى بحث له (هو : Wellhausen, Die Religiös-politischen Oppositionsparteien im Alten Islam.) . وذلك أن حركة التشيُّع نشأت على تربة عربية خالصة ، ولم تنتشر بين غير الساميين إلا بعد ظهور المختار . هذا إلى أن أصول النظرية الإمامية بما تتضمنه من النظر إلى الدولة نظراً دينيا لا دنيويا ، ومن القول بالمهدى ونحوه يمكن أن نرده إلى الأثر اليهودى والمسيحى ؛ بل إن

ما ذهب إليه الشيعة الغالية من تأليه عليّ كان أول من أتى به عبد الله بن سبأ قبل تأثير المذاهب الآرية . وكذلك التجسيم عند الشيعة ، يرجع بعضه إلى أصل عربي .

وقد ذهب إلى قول الشيعة أهلُ النظر العقلي بين العرب ، وكذلك الفرس ، وقد رحب الفرس بمعارضة الشيعة لأهل السنّة وأخذوا بمذهب الشيعة ، ثم تأثر هذا المذهب فيما بعد بما هو موروث عند الفرس من تأليه الملوك . ولكن الأصول الأولى للتشيّع لا ترجع إلى أثر أجنبي ؛ بل هي عربية في صميمها .

٣ — أن الشيعة هم أصحاب الفكر الحرّ ، خلافاً لأهل السنّة الجامدين ، وهو ماذهب إليه أخيراً البارون كرادڤو . وهذا الرأي لا يقبله من له علم بمذهب الشيعة ؛ فمن المؤكد أن تقديس عليّ هو محور الحياة الدينية عند الشيعة ، وكل ما عدا هذا فهو ثانوي المرتبة ؛ وأن الشيعة بتفضيلهم الإمام المعصوم من غير اعتماد على قوة الرأي العام ، قد نبذوا ما نراه في مذهب أهل السنة من عناصر التفكير الحر . وعلى هذا فان الخضوع لسلطان مطلق هو ما تتميز به الحياة الدينية عند الشيعة .

أما علاقة الشيعة بالمعتزلة فيقول جولدزيهر إن الصلة بينهم أمر لا سبيل إلى الشك فيه ، لما ذهب إليه أحد علماء الشيعة من أن القول بالإمام الغائب جزء من قول أصحاب التوحيد والعدل ، وهم المعتزلة . ومن الشيعة فرعُ الزيدية ، وهم أكثر من غيرهم ميلا إلى مذهب المعتزلة .

وقد أثّر مذهب المعتزلة في التشيّع إلى عصرنا ، ومن الخطأ قولُ من قال : إن مذهب المعتزلة لم يلعب دوراً كبيراً في الدين والأدب بعد انتصار الأشاعرة . ومما يثبت بطلان هذا الرأي ما انتهى إلينا من كتب كثيرة للشيعة يتجلى فيها تأثير المعتزلة ، فمن ذلك أن الشيعة يقسمون كتبهم إلى باب العدل والتوحيد .

بل نجد من كبار المعتزلة كالنظّام من قرّر من قبل أن الحجة فى قول الإمام المعصوم . وقول الشيعة بضرورة وجود إمام معصوم له اتصال بما اختص به المعتزلة من القول بوجوب هداية أساسها الحكمة والعدل الإلهيين ؛ فلا بد عند بعض المعتزلة من أن يجعل الله لكل عصر قائداً معصوماً .

وقد نقل جولدزيهر فى آخر الفصل الخاص بالزهد والتصوف من كتابه المتقدم ما ذكره الغزالى فى فيصل التفرقة من أن أساس الإيمان الاعتقاد بالأصول ؛ أما الخلاف فى فروع العقائد والعبادات ، ولو كان فيه إنكار الخلافة التى يقول بها أهل السنة ، كما فعل الشيعة ، فلا يكفى لاعتبار صاحبه زنديقاً . وقد أوصى الغزالى بإمساك اللسان عن تمزيق أعراض أهل القبلة .

الفصل السادس

الإدارة

كانت دولة الخلفاء أشبه باتحاد يتألف من ولايات كثيرة ، ويختلف وثاقة وتماسكا ؛ ولم تكن علاقة السلطة المركزية بهذه الولايات تشرف عليها دواوين إقليمية ؛ وإنما كان لكل ولاية ديوان ببغداد يدير شؤونها . وكان كل من هذه الدواوين يتألف من قسمين : أولهما الأصل ، وهو يختص بوضع الضرائب وحملها إلى بيت المال[1] ، وبمراقبة الضرائب وتقوية مواردها ، أى أن هذا القسم يختص بالإدارة ، وثانيهما الزمام[2] أو ديوان المال . ولما جاء الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢ م) ، وهو أقدر حكام القرن الثالث[3] ، ضمّ دواوين الولايات كلها ، وألّف منها ديواناً سماه ديوان الدار[4] ، له ثلاثة فروع : ديوان المشرق ؛ وديوان المغرب ؛ وديوان السواد (أى العراق) .

---

(١) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر (المتوفى عام ٣٣٧ هـ — ٩٤٨ م) ، مخطوط رقم ٥٩٠٧ بمكتبة باريس ص ٩ ب — ١٠ ا . وكلمة أصل التى وردت فى كتاب الوزراء (ص ١١) لها هذا المعنى .

(٢) انظر فى هذا Amedroz, JRAS, 1913, S. 829 ff. ، وأيضا مسكويه ج ٦ ص ٣٣٨ ، وكان يُعَيَّن على الزمام عادة رجلٌ من أصحاب المال . وكذلك كانت الدواوين الصغيرة التى تتولى إدارة ضياع نساء الخلفاء تنقسم إلى الفرعين المتقدمين ، وكان يتقلد كل واحد منهما رئيس .

(٣) جاء فى كتاب الوزراء للصابى (ص ١٨٩) أنه لم يجتمع فى زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد وأبى القاسم عبيد الله بن سليمان وأبى العباس ابن الفرات وبدْر .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٣١ ، ويسمى أيضا ديوان الدار الكبير ، نفس المصدر ص ٢٦٢ .

وكذلك وضع هذا الخليفة أزمّة هذه الدواوين كلها فى يد رئيس واحد[١] ، ثم جعل الأصول كلها فى يد رئيس واحد فى سنة ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م[٢] بحيث جاء القرن الرابع الهجرى ، وإدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين إحداهما للداخلية ، وهى ديوان الأصول ، والأخرى للمالية ، وهى ديوان الأزمّة . وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساماً كثيرة تسمى دواوين أيضاً ؛ لأنه كان لكل ناحية ديوانها . ولكن لما كان الوزير ، وهو رئيس السلطة المركزية ، هو الذى يتولى إدارة ديوان السواد بنفسه ، فإن كثيراً من دواوين الولايات ببغداد كانت تقوم مقام دواوين للدولة . ولم تصل الإدارة فى الدولة الإسلامية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة ، وأستطيع أن أذكر منها :

(١) ديوان الجيش ، وله مجلسان : أحدهما مجلس التقرير ، والثانى مجلس المقابلة . ويجرى فى الأول أمرُ استحقاقات الرجال ، ومعرفةُ أوقات أعْطِيَاتهم ، وتقديرُ أرزاقهم ؛ فأما الثانى فيختص بالنظر فى السجلات ، وتصفُّح الأسماء ، ونحو ذلك . وينقسم كل من المجلسين إلى أقسام خاصة بالعساكر ، مثل العسكر المنسوب إلى الخاصة ، والعسكر المنسوب إلى الخدمة ، وما فى النواحى من البعوث[٣] .

(٢) ديوان النفقات فى بغداد ؛ وأكبر مهامّه حاجات دار الخلافة . وكان أكثر أرض العراق مضمَّناً ، فكان على المتضمِّنين أن يقوموا بالوفاء بالنفقات . وهذا الديوان ينقسم إلى المجالس الآتية :

(ا) مجلس الجارى ، ويختص بأمر استحقاقات الحشم .

---

(١) كتاب الوزراء ص ٧٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٧١ ، ١٢٤ .

(٣) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص ١٢ ا — ب .

(ب) مجلس الأنزَالِ ، وهو الذى يقوم بمحاسبة التجار الذين يقيمون الوظائف من الخبز واللحم والحيوان ، والحلوى والفاكهة ، وغير ذلك من سائر صنوف الإقامات والأنزال .

(حـ) مجلس الكراع ، ويجرى فيه أمر علوفة الكراع وغيره ، مثل الخيل والشهارى والبراذين والبغال والحمير والإبل وغيره مما يعتلف من الطير والوحش ؛ ويجرى فيه أمر سياسة الكراع وعلاجه ، وأرزاق القُوّام والرّاضة ونحو ذلك .

(ى) مجلس البناء والمرمّة ، وهو مجلس يكْبُر ويَصْغُر على حسب الخلفاء فى الإغراق فى البناء والاكتفاء بيسيره ؛ ويجرى فيه محاسبة الذُرّاع والمهندسين وباعة الجصّ والآجرّ والنَوْرَة والأسفيداج وأصحاب الساج والنجارين والمزوّقين والمذهّبين وسائر الصناع .

(هـ) مجلس الحوادث ؛ ويجرى فيه أمر النفقات الحادثة (أى غير العادية) فى كل وجه من وجوهها .

(و) مجلس الإنشاء والتحرير .

(ز) مجلس النسخ[1] .

(٣) ديوان بيت المال ، وهو فى بغداد يشرف على ما يَرِد على بيت المال من الأموال ، وما يخرج من ذلك من وجوه النفقات والإطلاقات . ويجب أن تَمُرّ به الكتب التى فيها حملُ مال ، قبل انتهائها إلى دواوينها ، لتُثْبَتَ فيه ، وكذلك سائر الكتب النافذة إلى صاحب بيت المال من جميع الدواوين بالمطالبة بالأموال . ويكون لصاحب هذا الديوان علامة على الكتب والصكاك

(١) قدامة : نفس المصدر ص ٨ ا — ٩ ب .

والإطلاقات يتفقدها الوزير وخلفاؤه ويراعونها ويطالبون بها[١] . وفى عام ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م صـدر أمرٌ بمطالبة صاحب بيت المال ببغداد بتقديم الروزنامجات فى كل أسبوع للوزير ، ليستطيع معرفة ما حلّ وما قُبض وما بقى ، وكان الرسم إذا عُملت الخَتْمَةُ لم تُرفع إلى الديوان عن الشهر الأول إلا فى النصف من الثانى[٢] .

(٤) ديوان المصادَرين[٣] ، وكانت الوثائق التى يُدفع بمقتضاها فى هذا الديوان تُكتب على نسختين ، إحداهما للديوان والأخرى للوزير[٤] .

(٥) ديوان الرسائل ، وكان يسمى فى مصر على عهد الفاطميين ديوان الإنشاء[٥] . وكان صاحب هذا الديوان بمصر فى أوائل القرن الخامس الهجرى يتقاضى فى كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، عدا ما كان يكتبه من السجلّات والعهودات وكتب التقليدات ، فقد كان له على ذلك رسومٌ يستوفيها[٦] .

(٦) ديوان البريد ، وتأتى لصاحبه الكتب من جميع النواحى ، وهو المُنْفِذُ لها إلى مواضعها ، وهو يتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار فى جميع النواحى على الخليفة ، أو يعمل جوامع لها ، وله النظرُ فى أمر المرتَّبين فى السكك ، وتنجيز أرزاقهم ، وتقليد أصحاب الخرائط فى سائر الأمصار ، ولا غنى له ، بعد أن يكون ثقة عند الخليفة ، عن معرفة الطرق والمسالك إلى جميع

---

(١) نفس المصدر س ٩ ب — ١٠ ا .
(٢) مسكويه ج ٥ س ٢٥٦ — ٢٥٧ .
(٣) كتاب الوزراء س ٣٠٣ ، ٣٠٦ .
(٤) مسكويه ج ٥ س ٢٦١ مثلا .
(٥) كانت لفظة الإنشاء فى المشرق من الألفاظ المستعملة فى ديوان الرسائل ، وهو عمل نسخة يعملها الكاتب ، فتُعرض على صاحب الديوان ليَزيد فيها أو ينقص منها أو ينفذها على حالها (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى طبعة فان فلوتن س ٧٨ ، وكتاب الوزراء س ١٥١) .
(٦) الإرشاد لياقوت ج ١ س ٢٤٢ .

النواحى ، بحيث يجد عنده الخليفة من المعرفة ما يحتاج إليه عند إنفاذ جيش أو غيره[(١)] . وكانت معرفةُ الأخبار وإبلاغها قد بلغت درجة عظيمة من الرقى فى الدولة الإسلامية ، فقد حُكى أن الخليفة الموفَّق أراد أن يشغل قلب أحمد ابن طولون فدسّ من سرق نَعْلَه من بيت حظيَّة له لا يدخله إلا ثقاته ، ثم بعثها إليه ، فقال له الرسول : من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الذى تعرفه ، أليس هو بقادر على أخذ روحك ؟[(٢)] ، وكان صاحب البريد هو صاحب الأخبار الرسمى ، وكان له « عيون » يوافونه بكل جديد ، وهـذا ميراث أخذه العرب عن البيزنطيين ، فى عهد قسطنطين الأكبر كان لصاحب البريد أعوان يسمَّون باسم Veredarii (وهم نقلة الأخبار الذين يركبون الخيل) ، وكانوا يمدّونه بالأخبار[(٣)] . وكان بعض المتعلمين فى ذلك الوقت يعيشون من نقل الأخبار ، كما هو الحال اليوم بالنسبة لمراسلى الصحف ومندوبيها[(٤)] . وجاء فى عهد بولاية بريد ما يوجب على صاحب البريد « أن يعرف حال عمـال الخراج والضياع فيما يجرى عليه أمرهم ، ويتتبّع ذلك تتبُّعاً شافياً ، ويستشفّه استشفافاً بليغاً ، وينهيه

---

(١) كتاب الخراج لقدامة طبعة دى غوى ص ١٨٤ — ١٨٥ ، وقد كتب قدامة حوالى عام ٣١٥ هـ — ٩٢٧ م .

(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ١٨٠ .

(٣) J. Burkhardt : Die Zeit Constantins des Grossen, 3 Auf. S. 70. وكان أحد أصحاب البريد بمصر فى القرن الأول من الحكم الإسلامى يقوم رسميا بتبليغ أحوال رجال الشرطة (انظر ZA. XX, S. 196.) .

(٤) فى القرن الثالث الهجرى قُطع لسان ابن بسّام الشاعر بأن ولى البريد بجند قنسرين (مروج الذهب ج ٨ ص ٢٧١ ، والإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٢٢ وما يليها) ، وكذلك كوفئ أحد الشعراء المجيدين بأن خُيِّر فى أعمال البريد ببلاد خراسان (يتيمة الدهر ج ٤ ص ٦٢) ، وكان أبو محمد الواثق ببخارى يرجو أن يقلد أحـد أعمال البريد (يتيمة ج ٤ ص ١١٢) ، وكان صاحب بريد نيسابور يملك من الكتب ما لا يملكه أحد فى هذه المدينة ، مع كثرة علمائها . ويعتبر ابن خلدون المغربى أن صاحب البريد من بين أرباب صناعة السيف (المقدمة ج ١ ص ١٩٨ ؟) .

على حقه وصدقه ... وأن يعرف حال عمارة البلاد ، وما هى عليه من الكمال والاختلال ، ومايجرى فى أمور الرعية ، فيما يُعاملون به ، من الإنصاف والجور والرفق والعسف ، فيكتب به مشروحا ... وأن يعرف ما عليه الحكام فى حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم ... وأن يعرف حال دار الضرب وما يُضرب فيها من العيْن والوَرِق ، وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن ، ويكتب بذلك على حقه وصدقه ... وأن يوكّل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجرى فيه ، ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته ، وأن يكون ما ينهيه من الأخبار شيئاً يثق بصحته ... وأن يعرض المرتَّبين لحمل الخرائط فى عمله ، ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم ، وعدد السكك فى جميع عمله وأميالها ومواضعها ، ويوعز إلى هؤلاء المرتّبين بتعجيل الخرائط المُنفَذَة على أيديهم ، وإلى الموقّعين بإثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات الذى سبيله أن يرد السكّة فيها ؛ وأن يُفرِد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كُتُبًا بأعيانها ، فيُفردَ لأخبار القضاة وعمال المعاون والأحداث ... والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتباً ، ليجرى كل كتاب فى موضعه »[1] . ولم يكن صاحب البريد يُعنى فقط بالأخبار التى تتعلق بمهامّ سياسة الدولة ، بل كان عليه أن يبلغ كل ماعدا ذلك من طرائف الأخبار . فقد حدث فى عام ٣٠٠هـ — ٩١٢م أن ورد كتاب من صاحب البريد من بلدة الدينور يذكر فيه أن الموكّل بخبر التطواف رفع إليه يذكر أن بغلة لرجل وضعت فَلْوَةً ، ويصف اجتماعَ الناس لذلك وتعجُّبَهم لما عاينوا منه ويقول : « فوجهتُ من أحضر لى البغلة والفلوة ، فوجدت البغلة كُمْتاء خلوقية ، والفلوة سويّة الخَلْق ، تامّة الأعضاء ، مُنْسَدلة الذنب ، سبحان

(١) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مخطوط باريس ص ١٨ ب — ١٩ ب . ويرجع تاريخ هذا العهد إلى عام ٣١٥ هـ .

الملك القدوس لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب »[١] .

(٧) ديوان التوقيع ، وإليه تنتهى رقاع من يسأل شيئاً عند الخليفة ، بعد أن يراها صاحب ديوان الدار ، ويقتصّ المسألة والرقعة ، ويشرح حالَها ، وما لعله يكون جرى فيها ؛ وبعد أن يستطلع صاحبُ ديوان التوقيع رأىَ الخليفة فيها ، ويوقع عليها بخطه فى ديوان التوقيع يرسل إلى صاحب ديوان الدار بنسختها أو اقتصاص ما تضمّنت ؛ ومن ديوان الدار تُرسل إلى صاحب الديوان الذى تجرى فيه المسألة (كالخراج أو الضياع أو المال أو النفقات ... الخ)[٢] . وكان الفصل فى أمر الرقعة يُكتب على الرقعة نفسها توقيعاً من الخليفة أو كاتبه . وقد بلغت هذه التوقيعات أقصى ما يمكن أن تبلغه من الاختصار ، والبلاغة ، وإظهار ذكاء موقّعها وقدرته على حسن الفصل وإصابة الغرض . وكان البلغاء يتنافسون فى تحصيل توقيعات جعفر بن يحيى البرمكى ، الذى كان يلى ديوان التوقيع للرشيد ، ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباع كل توقيع بدينار[٣] .

(٨) ديوان الخاتم ، وبه تمر وتُثْبَت فيه الكتب التى يُحتاج إلى ختمها بخاتم أمير المؤمنين ؛ وذلك بعد أن يمرّ الكتاب على دواوين عدة وبعد المقابلة[٤] .

(٩) ديوان الفضّ ، ومنزلة هذا الديوان من الخليفة منزلة مجلس الاسكدار فى ديوان الخراج من المتولّى له ؛ لأن سبيل الكتب التى ترد من العمال فى النواحى إلى أمير المؤمنين أن يكون ابتداؤها به وخروجها إلى الدواوين منه ، بعد فضّها وأخذ جوامعها ليقرأها الخليفة ويوقع فيها بما يراه . وكان هذا الرسم جارياً فى

---

(١) عريب ص ٣٩ — ٤٠ .
(٢) كتاب الخراج لقدامة ص ١٩ ب — ٢٠ أ .
(٣) كتاب المبرج ١ ص ٢٠٦ من طبعة بولاق .
(٤) قدامة ص ٢٠ ب .

أول الأمر ، لما كان الخلفاء هم الذين يتولّون النظر فى الكتب بأنفسهم ؛ ثم آل ذلك إلى الوزير ، فصار هو المتولّى لفضّ الكتب وإخراجها إلى الدواوين ، وانتقل عملُ ديوان الفض إلى حضرة الوزير ، وصار المتولّى له كاتباً برسمه فى دار الوزير [١] .

وفى حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م قُلّد ديوان الفض وديوان الخاتم لرجل واحد ، وكان جاريهما أربعمائة دينار ودينار [٢] .

(١٠) ديوان الجَهْبَذَة ، ويجرى فيه من الأموال مالُ الكسور والكفاية والوقاية ، وما يجرى مجرى ذلك من توابع أصول الأموال ، ثم ما يزيده شرار الجهابذة من الفضول على هذه التوابع بسبب إعنات من عليه مالٌ من أهل الخراج ومن يجرى مجراهم فى النقود والصروف ، وما يرتفقون به من التقديم والتأخير عمن يتعذّر عليه الأداء فى وقت المطالبة ... فإن بعضهم لما وجد ذلك فى بعض النواحى زاد فى ضمان الجهبذة بتلك الناحية على من هو ضامن لها ، ووقع التزايُد فى هذه الوجوه بالظلم والعدوان على الرعية وسائر من يُقام لهم الجارى ، وتُطْلَق لهم النفقة ، حتى توافى مال الجهبذة إلى جملة وافرة أصل أكثرها عدوان [٣] .

(١١) ديوان البر والصدقات [٤] .

وكان أصحاب الدواوين فى أوائل القرن الرابع الهجرى على ثلاث طبقات [٥] . وكان صاحب ديوان السواد يقبض أعلى مرتّب بين أصحاب الدواوين ، وهو خمسمائة دينار فى كل شهر . وكان صاحب ديوان المشرق أو ديوان الخاصة مثلا

---

(١) نفس المصدر ص ٢١ ب — ٢٢ ا .
(٢) كتاب الوزراء ص ١٧٨ .
(٣) قدامة ص ٢٣ ا — ب .
(٤) مسكويه ج ٥ ص ٢٥٧ .
(٥) كتاب الوزراء ص ١٥٦ .

يقبض مائة دينار فى كل شهر[١] ، وفى عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢م) بلغت أرزاق أصحاب الدواوين كلها من أكابر الكتاب إلى الخُزّان والبوّابين والأعوان ، وثمن الصحف والقراطيس والكاغد أربعة آلاف وسبعمائة دينار فى الشهر ، وذلك عدا ما كان يقبضه الوزراء ، وعدا أرزاق كتاب دواوين الإعطاء وخلفائهم على مجلس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم وخُزّان بيت المال ؛ فإن هؤلاء يأخذون أرزاقهم مما يوفّرونه من أموال الساقطين وغرَم المخلّين بدوابّهم[٢] . فكانت المرتّبات التى يتقاضاها هؤلاء تتوقف على مقدار يقظتهم وعنايتهم . على أن الأرزاق كانت تطلق فى الأسبوع الأول من الشهر[٣] ؛ وفى أوائل القرن الرابع ظهر رسم جديد ، ثم صار رسماً كثيراً ما لجأ إليه الحكام ، وهو ألا يُعطى أصحاب الأرزاق أعطياتهم عن السنة كاملة ؛ ففى عام ٣١٤هـ — ٩٢٦م اقتُصر فى أرزاق معظم العمال على عشرة أشهر فى كل سنة ، وكان صغار أصحاب الأرزاق أكثرهم عرضة للغبن ، فمثلا اقتُصر فى أرزاق أصحاب البُرُد والمنْفِقين على جارى ثمانية أشهر[٤] . وكان يُستعاض عما يفقده بعض أصحاب الدواوين بتقليده دواوين أخرى ، فمثلا فى حوالى عام ٣٠٠هـ — ٩١٢م كان يتولى ديوان الأزِمّة والتوقيع وبيت المال رجل واحد[٥] .

وكان على رأس كل ولاية رجلان : الأمير والعامل ، ويسمى هذا الأخير صاحب الخراج ، لأن أكبر واجباته حمل خراج الولاية إلى خزانة الدولة ، وهو الذى يتولى الإنفاق على الولاية مما يحصل لديه من الأموال ، لأن خزانة الدولة

---

(١) نفس المصدر ص ٣١٤ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٢٠ — ٢١ .
(٣) نفس المصدر ص ٨١ .
(٤) نفس المصدر ص ٣١٤ ، ومسكويه ج ٥ ص ٢٥٧ .
(٥) كتاب الوزراء ص ٢٧ .

العامة كانت لا تتولى إلا أمر نفقات دار الخلافة والدواوين وما يتعلق ببغداد[١].
وكان الأمير يخاطَب فى المراسلة بما يخاطب به العامل ، وكانت منشورات الوزير تُرسل لكل منهما فى وقت واحد[٢]. ولكن الأمير كان يمتاز على صاحبه لأن له الصلاة بالناس ، وهذا يجعله رئيس المسلمين جميعاً فى ولايته[٣] ، وإذا تضافر الأمير والعامل استطاعا أن يفعلا بالولاية ما شاءا ، كما حدث فى عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م من أن العامل والأمير تضافرا بفارس وكرمان على قَطْع حَمْل الأموال إلى الخليفة المقتدر ببغداد مدة طويلة[٤]. ولو أن رجلا واحداً قُلِّد المنصبين معاً لأصبح كالحاكم المستقل بولايته . ونظراً لما فى اجتماع هذين المنصبين من المزية امتنع بجكم ، القائد التركى الطموح ، من المسير إلى الأهواز لتولى أمورها عام ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م إلا أن يكون له الحرب والخراج ، فأُجيب إلى ذلك[٥].
وقد كانت ولاية مصر على قسمين : والٍ للحرب والصلاة ، وآخر للخراج وتدبير الأموال ، حتى جاء ابن طولون فجمع بين الولايتين ، وكذلك فعل الأخشيد ، وكان كل منهما فى الواقع حاكما مستقلا فى مصر[٦].

ويشكو ديونيسيوس Dionysius von Tellmachre المتوفى عام ٢٢٩ هـ — ٨٤٣ م ، فى آخر كتابه فى التاريخ ، من كثرة عدد العمال ، لأنهم بهذه الكثرة يغتصبون عيش الفقير بكل الوسائل[٧] ، ففى مدينة الرقة مثلا ، وهى مدينة صغيرة على نهر الفرات كان يوجد : (١) قاض ، (٢) وكاتب سلعة يعرف بالبندار ،

(١) نفس المصدر ص ١١ والصفحات التالية .
(٢) نفس المصدر ص ١٥٦ .
(٣) المغرب لابن سعيد ص ١٥ .
(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٦٥ — ١٦٦ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٥٢ .
(٦) المغرب ص ١٥ .
(٧) Michael Syrus, S. 538.

يطالب بالخراج ووجوه المال ، (٣) وصاحب جند ، (٤) وصاحب بريد ينهى أخبار الولاية للخليفة ، (٥) ومتولٍ للضياع السلطانية (السواف) ، (٦) وصاحب معونة[١] . وكان يوجد مثل هؤلاء الولاة فى كل « عَمَل » من أعمال الدولة السامانية[٢] . وكان أكثر هذا العدد الكبير من العمال يخرجون بخروج الوزير الذى عيّنهم ، وعند ذلك يظلون متعطّلين فى شوارع بغداد ، يثيرون الفتن حتى يعود حزبهم إلى ولاية الحكم — كما كان الحال فى أسبانيا وفى الولايات المتحدة منذ عهد غير بعيد — وإلّا شغبوا فعكّروا هدوء البلاد . ويحكى أنه قدم مرة على صاحب أصفهان شيخ من الكتاب يطلب التصرُّفَ ، ويحمل كتباً من إخوان لصاحب أصفهان ببغداد يوصونه به ، فقرأ الحاكم أول كتاب ، ولم يقرأ باقى الكتب ، وضجر ، وتغيّظ ، وقال : « قد والله بُلينا بكم معاشرَ المتعطّلين ، كل يوم يصير إلينا منكم واحد يريد تصرُّفاً أو برًّا ، ولو كانت خزائن الأرض لى لكانت قد نفدت »[٣] .

وكان من دهاء عضد الدولة أنه كان يوصل إلى العمال المتعطلين مايقوم بهم ، ويحاسبهم به إذا عملوا[٤] .

وكان الأخشيد أول من رتّب الرواتب[٥] ، وقد أقرّ الفاطميون نظامه فى جملته ، وكانوا ينوون ، فيما يلوح ، أن يقسّموا حكم البلاد بين أوليائهم ، والدليل

(١) نفس المصدر ص ٥٤١ ، وكلام ميخائيل غير واضح لأن منصب صاحب المعونة كان يُضم عادة إلى صاحب الجند والحرب ، ونجد عند قدامة (مخطوط باريس ص ١٤ ب — ١٦ أ) نسخة عهد بولاية المعونة والحرب .

(٢) ابن حوقل ص ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، وكذلك كانت العراق مقسّمة إلى أربعة وعشرين طسّوجا ، وكل طسّوج اثنا عشر رستاقا ، والرستاق اثنتا عشرة قرية . (كتاب الوزراء ص ٢٥٨) .

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخى طبعة مصر ١٩٠٤ ج ٢ ص ٩ — ١٠ .

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦ .

(٥) المغرب لابن سعيد ص ٣٩ ، والخطط للمقريزى ج ١ ص ٩٩ .

على ذلك أن جوهراً وإن كان قد ترك العمال فى مناصبهم ، فإنه لم يَدَعْ عملا إلا جعل فيه مغربيًا شريكا لمن فيه[١] . ولكن لما ظهر أن هؤلاء المغاربة أكثر إتعاباً للدولة من غيرهم لم يتمّ ما كان مزمعاً من إخراج العمال القدماء ، وهم نصارى فى الغالب . أما الأرزاق فلدينا من أخبار الإدارة الفاطمية أن الوزير كان يتقاضى خمسة آلاف دينار فى كل شهر ، وهو مثل مرتب صاحبه ببغداد ؛ أما رواتب أصحاب الدواوين فكانت أقل بكثير مما فى بغداد ، فكان صاحب ديوان الإنشاء يأخذ مائة وعشرين ديناراً ، وصاحب بيت المال مائة دينار ، وأصحاب الدواوين الأخرى ما بين سبعين وثلاثين ديناراً فى كل شهر . وفى القرن الثالث الهجرى عيَّن أحدُ أصحاب ديوان الرسائل رجلا أتاه يطلب الكتابة ، وكان يعطيه فى كل شهر أربعين ديناراً ليقوم بالإجابة على الرسائل التى ترد إلى الديوان[٢] .

وعلى حين أننا لا نجد بين قواد الجيش إلا أسماء قوم غير أحرار فإن وظائف الدواوين كانت وقفاً على الأحرار ، «وكان الفرس هم شُحْنة دواوين الخلافة ... فمنهم البرامكة ، وآل ذى الرياستين ، وإلى يومنا هذا منهم المادرائيون والفريابيون »[٣] . ولما كانت الصبغة الغالبة على عمال الدواوين هى الصبغة الاقتصادية المالية ، فقد كان لا بد للواحد منهم من أن تتوفر لديه بعض خصال التاجر ، وكان الفارسى أمهر تاجر فى المملكة الإسلامية . ولا تزال الكفاية الإدارية موروثة فى الفرس إلى يومنا هذا ، فيحدثنا الخبير النمساوى الذى قام

75

(١) الاتعاظ للمقريزى ص ٧٨ .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٣٨ .
(٣) الاصطخرى ص ١٤٦ ، وذكر بعض المؤلفين أن الكتّاب خمسة : كاتب رسائل ، وكاتب خراج ، وكاتب قضاء ، وكاتب جند ، وكاتب شرطة ؛ ولكل منهم أشياء ينبغى أن يعرفها . انظر المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٤٤٨ ، وتجد التفصيل فى جمهرة الإسلام للشيرازى مخطوط رقم ٢٨٧ بمكتبة ليدن ص ١٩٩ أ وما يليها .

بتنظيم البريد فى فارس « أن كل فارسى يحس من نفسه الصلاحية لكل عمل ، وهو لا يتردّد فى أن يدخل اليوم عملا إداريا مدنيًا ، ويقوم به ، ثم يكون غداً فى منصب حربى »[١] . وهـذه من خصال الفرس القديمة ، ويحكى أنه كان لبختيار بن معز الدولة كاتب فارسى ، وكان مستولياً عليه ، ثم تحقق بالجندية ، وادعى الشجاعة ، وأعاره الناس من ذلك ما لم يكن عنده ، تَقَرُّباً إليه ، ثم عزم أخيراً على تقلّد الجيش والتسمية بالاسفهسلار ، ولـكنه اضطر إلى الفرار من بغداد عام ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م[٢] . وكان الاشتغال فى الدواوين يختلف عن عمل الفقهاء والعلماء كل الاختلاف ، فكان المشتغل بإدارة الدواوين هو ممثل الثقافة الأدبية ، وكان لا يعالج العلوم الشرعية إلا بمقدار ما يتطلبه عمله وثقافته . أما التمايز الظاهرى بينهم فكان يتجلى فى أن الكاتب يلبس دَرّاعة ، على حين أن العالم يلبس الطيلسان[٣] . ويُحكى أن الوزير العتبى أراد أن يلزم أبا عبد الله بن أبى ذُهل (المتوفى عام ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م) تَقَلُّدَ ديوان الرسائل ، فقال له : هذا قضاء القضاة بكورخراسان ، ولا يخرج عن حد العلم ؛ ولـكن ابن أبى ذهل بكى وهدّد بترك البلد حتى أعفاه الوزير من ذلك[٤] . على أن الخلفاء كانوا يأبون أن يستوزروا العلماء وأصحاب الطيالس ، وقد أُشير على الخليفة المقتدر أن يستوزر محمد بن يوسف القاضى فقال : لعمرى إنه عالم ثقة ، إلا أننى لو فعلتُ ذلك ، لافتضحت عنـد ملوك الإسلام والـكفر ؛ لأننى أكون بين أمرين : إما أن تُتَصَوَّر مملـكتى بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيَصْغُر الأمر فى نفوسهم ، أو أننى عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطيالس فأُنسب إلى سوء الاختيار[٥] .

---

(١) Aus Persien, Wien, 1882, S. 184. ، ولم يُذكر اسم مؤلف هذا الكتاب (المترجم)

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٢٦ — ٣٢٩ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٣٤ ، والمقدسى ص ٤٤٠ .

(٤) طبقات السبكى ج ٢ ص ١٦٦ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

وهذه الطائفة من الكتاب أكبر ما يميز الدولة الإسلامية عن أوروبا فى أوائل العصور الوسطى ، حيث كان لا يتولى العمل بالدواوين إلا أهل الثقافة الدينية ، ولم يكن ذلك من الخير للأسلام ، لأن العمل فى الدواوين بما ينقصه من تعمق وما يؤدى إليه من ركود عقلى كان يندر أن ينشئ عقولا تأخذ بحظ فى الحركة العقلية ، والناشئون فى الأوساط الدينية أقدر على ذلك . وكان العمل فى الدواوين ملجأ ملائماً للأدباء الذين لم ينشأوا فى الأوساط الدينية ، وهم المتعلمون الذين صاروا بعملهم فى الدواوين مجردين من البواعث الداخلية والخارجية التى تدفع العقل إلى العمل ، ولا يزال « الأفندى » الراضى عن نفسه ، بثقافته السطحية وقلة دوافعه إلى التفكير ، عقبةً فى طريق التقدم حتى يومنا هذا ، وهو أخطر على التقدم من رجل الدين الضيّق الأفق والمحدود النظر[١] .

76

وقد جاء فى خبر يُروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ما يضع القواعد الأساسية لما ينبغى أن يكون عليه العامل . فيحكى عن عمر أنه كان إذا استعمل رجلا اشترط عليه أربعاً : ألا يركب برذونا ، ولا يلبس ثوبا رقيقاً ، ولا يأكل نقيًا ، ولا يغلق بابه دون حوائج الناس ، ولا يتخذ حاجباً[٢] . ولكن المال لعب فى القرن الثالث الهجرى دوراً سيئاً فى حياة عمال الدواوين ، وكان لكل شىء ثمن يُبذل وخصوصاً لمناصب الدواوين[٣] . وكان العامل متى تقلّد المنصب حاول أن يستردّ ما خسره مستعيناً على ذلك بالخيانة ، فكان العمال مثلا يعيّنون أرزاقا لقوم لا يحضرون إلى العمل ، وأرزاقا بأسماء قوم لم يُخلقوا ، وكانوا يقيّدون

(١) وربما يقصد المؤلف أن أهل الدين بحكم ما كانوا عليه من بحث وتعمق وجدال ، أقدر على التفكير وبالتالى على الثورة والإصلاح الإدارى ، وكان هذا الإصلاح ألزم ما يكون للإدارة الإسلامية . (المترجم)

(٢) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٦٦ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٦٣ .

برسم الفقهاء والكتّاب مرتبات بأسماء الغلمان والوكلاء فى الحاشية ، وكانوا يصرفون الورق والقراطيس ثم يبيعونه فيحصل لهم منه مال (١) .

وكان عامل مصر يقبض ثلاثة آلاف دينار فى كل شهر ، وهو مبلغ كبير ؛ ولكن كان على العامل أن يسدد نفقات ديوانه ، وكان يعلم أن رزقه لا يكفى نظراً لكثرة الهدايا التى يبعث بها إلى الأمير والوزير والخليفة . وقد شكت إحدى حظايا الخليفة مرة من مماطلة بعض أصحاب الدواوين فى تسليم إقطاع وهبه لها الخليفة ، فقال لها : كان الصواب أن تبعثى إليه بثياب وألطاف ، فتستغنى عن خطابى ، ففعلت ما نصحها به ، وتمّ لها ما أرادت (٢) . ويصف ابن المعتز الولاة فى بعض شعره حيث يقول :

أفما ترى بلداً أقمتُ به ... أعلى مساكن أهله خُصُّ
وولاتُه نَبَطٌ زنادقة ... ملأى البطون وأهله خُمْصُ (٣)

وكان أهل التُقى فى ذلك الوقت يعتبرون عمال السلطان والفُسّاق فريقاً واحداً ، كما جمع العهد الجديد بين المذنبين وآخذى الضرائب الجمركية . ويحكى أنه بلغ من دين بعض أهل الورع أنه امتنع من نقش فصّ للأمير ، فزاد فى الأجرة حتى بلغت مائة دينار ، فأبى الرجل ؛ ثم جاء إليه بعد ذلك تاجر فأعطاه على نقش بعض الفصوص عشرة دراهم ، فأخذها ، وذلك اجتهاداً منه فى ألا يأخذ الحرام (٤) . وقد كان يُضرب المثل بزهد جعفر بن مبشّر ؛ وقد أضرّت به

---

(١) مسكويه ج ٥ س ٣٤٤ .
(٢) كتاب الوزراء س ١٨٢ — ١٨٤ .
(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ س ١٤ . لم تكن حوائج ابن المعتز تقضى ، ولا معاملاته تمضى عند الوزراء ، لأنه لم يكن محبوبا فى قصر الخلافة ، وقد ظل ثلاثين سنة يكاتب الوزراء فى حاجاته نظما ونثرا ، فلا يجيبونه ، وكان يحاول الوصول إليهم فلا يأذنون له (انظر كتاب الوزراء س ١١٥) .
(٤) ابن المرتضى : ذكر المعتزلة س ٦١ .

الحاجة ، حتى كان يقبل القليل من زكاة إخوانه . وقد أُعجب أحد التجار بحسن كلامه مرة ، وعرف مسكنته ، فأرسل إليه خمسمائة دينار ، فردّها فقيل له : قد عذرناك فى ردّ مال السلطان للشبهة ، وهذا تاجر مالُه من كسبه ، فلا وجه لردّك له[١] . وحكى أن بعض المتصرّفين احتبس أبا على الجبائى للطعام ، فأجابه ، فأنكر رجل ذلك عليه ، فقال له : ألست تعلم أن طعامه الذى يقدمه إلينا مما يشتريه ، وأن الغالب أنهم يشترونه لا بعين المال ، أفما تعلم أن ذلك ملكه ، وأنه مما يحلّ له تناوُله ؟[٢] . « وكان أحمد بن حرب يوما على طعام مع قوم وفدوا عليه من كبار نيسابور ووجوهها ، إذ دخل ابنه فى الغرفة سكران يغنى ويلعب ، ولم يسلّم على القوم ، ولما رأى أحمد دهشتهم سألهم : ما بكم ؟ فقالوا خجلنا من أن يدخل عليك ولدك على هذه الصورة ، فقال لهم أحمد : إنه معذور ، فقد أكلت أنا وزوجتى ليلة من طعام بعثه إلينا جارٌ لنا ، وفى هذه الليلة حُمل بهذا الغلام ، فنمنا ، ولم نصلّ ، فلما كان من اليوم التالى سألنا جارنا : من أين هذا الطعام الذى بعث به إلينا ، فعلمنا أنه من طعام وليمة عرس فى دار أحد عمال السلطان »[٣] وكان بعض الناس لا يسلم على عامل السلطان بما تجرى به العادة من قول السلام عليكم بل كان البعض يقول جادًا أو مستهزئًا : تُب من عمل السلطان . وقد تاب رجل مرة من عمل السلطان ، ثم طُلب لتقليده عملا جليلا ، فكسر التوبة فسماه الناسُ المرتدّ[٤] . ونادراً ما كان الرأى العام يعتبر قلة الأمانة فى إدارة الدواوين شيئاً يخلّ بالشرف . ويعجب المؤرخون حين يجدون أحد كبار العمال من أهل الأمانة . ومما يحكى أنه توفى فى عام ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م صاحبُ بيت

---

(١) نفس المصدر ص ٤٣ — ٤٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٦ ، ٦٠ .

(٣) كشف المحجوب للحجويرى (بالفارسية) ص ٣٦٦ .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٤ .

مال العامة ، فأراد الوزير أن يقبض أمواله ، واشتد فى المطالبة ، ولكنه لم يجد شيئاً ، لأن ذلك الرجل كان « صحيح الأمانة »[١] . وكثيراً ما كان يُترك العمال فى مناصبهم أو يُعادوا إليها بعد تركها مع الشبهة فى أمانتهم ، وذلك بعد أن يدفعوا ما يقرّر عليهم . على أن هذا لم يكن يقع دائما .

أما مصادرة العمال فإننا نعرف من مصدر جدير بالثقة أن الأخشيد ، صاحب مصر ، وكان رجلا ماليا ماهراً ، هو أول من نكب عماله وكتّابه مراراً[٢] . فهو مؤسّس نظام مصادرة العمال وفرض الأموال عليهم . وكان العامل إذا صودر وثقُل عليه عبء المصادرة تبرّع له أصحابه ، وجمعوا مالا للتخفيف عنه[٣] ، وقد صادر الحاكم بأمر الله أحد أصحاب الدواوين ، وقطع يديه عام ٤٠٤ هـ — ١٠١٣ م ، ثم أكمل بقية تصرفاته الغريبة فقلده ديوان النفقات عام ٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م ، بل قلده الوزارة عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م[٤] .

78

على أن السنّة الفاسدة التى جرى عليها حال الدواوين فى دولة الخلفاء تجلى أثرها السيء فى ظهور مرض لحق بحرفة الاشتغال فى الدواوين ، كما أن لكل حرفة مرضا ، وذلك هو التهافت الشديد على الألقاب ، والتكلف فى أساليب المكاتبات . وقد بدأ هذا فى القرن الرابع ، وبقى إلى اليوم . وفى المكاتبات الرسمية كانت تُوجَّه عناية كبيرة إلى العنوانات وتعظيم شأن المخاطَب وإلى الإسهاب فى ذلك ؛ على حين كان يُختم الخطاب ويوقع عليه فى إيجاز على خلاف عادة الأوربيين . وقد بدأ هذا منذ القرن الثالث الهجرى ، وذلك أن العادة كانت جارية فى

---

(١) عريب ص ١٢٨ .

(٢) المغرب لابن سعيد ص ٣٩ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٠٦ — ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٤) Becker, Beiträge zur Geschichte Aegyptens I, 34 ، نقلا عن المسبحى المتوفى عام ٤٢٠ هـ .

المكاتبة بين الناس بأن يُقال : من فلان إلى فلان أو من أبى فلان إلى أبى فلان ؛ ولم يكن على شىء من العنوانات دعاء ، حتى جاء الفضل بن سهل فى خلافة المأمون فكتب كتابا عنوانه : لأبى فلان أبقاه الله من أبى فلان[١] ؛ ثم استعمل الناس بعد ذلك الدعاء على عنوانات الكتب . وقد انتهت إلينا المخاطبات المختلفة التى كان الوزير يخاطب بها العمال على اختلاف درجاتهم فى القرن الرابع الهجرى . فكان يكتب إلى أمير الشام وأجنادها : أعزّك الله ومدّ فى عمرك وأتمّ نعمته عليك وإحسانه إليك ؛ وإلى الذُّرّاع والمهندسين : حفظك الله وعافاك ، وإلى أصحاب البُرُد ممن يتقلد الأعمال الجليلة : أكرمك الله ومدّ فى عمرك ، وأتمّ نعمته عليك ؛ وإلى التجار والمبتاعين للغلات إذا جمعت للواحد منهم أعمال : عافانا الله وإياك من السوء[٢] . وكان الوزراء والكبراء فى أول القرن الرابع يخاطَبون بسيدنا أو مولانا ، ويستعمل فى ذلك ضمير المخاطب المفرد . وفى عام ٣٧٤ هـ — ٩٨٤ م كان ابن سعدان الوزير يخاطب الوزير ابن عباد بالصاحب الجليل . والصاحب ابن عباد يخاطب ابن سعدان بالأستاذ مولاى ورئيسى[٣] .

ويقول أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى[٤] (المتوفى عام ٣٨٣هـ—٩٩٣م) فى هذه الألقاب :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا　　من الكُنى ومن الألقاب أبوابا
ولقّبوا رجلا لو عاش أوّلُهم　　ما كان يرضى به للحش بوّابا

(١) تاريخ سعيد بن البطريق (المتوفى عام ٣١٨ هـ — ٩٣٠ م) ص ٧٣ ب من مخطوط باريس رقم ٢٩١ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٥٣ والصفحات التالية .

(٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، طبعة كلفورنيا ص ٣٤ ، وكان عيسى بن نسطورس وزير العزيز بالله فى مصر يخاطب بسيدنا الأجلّ (يحيى بن سعيد ص ١١٢ أ) .

(٤) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٤٥ .

قلّ الدراهم فى كَفّى خليفتنا   هذا فأنفق فى الأقوام ألقابا

وفى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م لُقِّب قاضى القضاة الماوردى بلقب أقضى القضاة ؛ وجرى من بعض الفقهاء إنكارٌ لهـذه التسمية ، وقالوا : لا يجوز أن يسمّى به أحدٌ ، هذا بعد أن كتبوا خطوطهم بجواز تلقيب جلال الدولة بملك الملوك الأعظم ؛ فلم يلتفت إليهم الماوردى ، واستمر له هذا اللقب إلى أن مات ، ثم تلقب به القضاة بعده[١] .

وقد حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يلغى الألقاب ؛ فبعد أن سخا فى منح الألقاب ، على اختلاف أنواعها ، أسقطها عام ٤٠٨ هـ ١٠١٣ م ما عدا ألقاب تسعة نفر ، هم أكبر حملة الألقاب ؛ ولـكنه أعاد الألقاب بعـد قليل[٢]، على عادته الجارية من نقض وإبرام . ويقال إن أبا الحسن كاتب الخليفة القادر بالله (٣٨١ هـ — ٤٢٢ هـ = ٩٩١ — ١٠٣١ م) هو مخترع لفظ الحضرة فى المخاطبة ؛ وفى هذه المسألة الصغيرة أيضاً نجدنا حتى الآن نسير على رسم القرن الرابع . وهـذا الـكاتب هو مخترع عبارة الحضرة العالية الوزارية ، وهو أول من أخرج عبارة الحضرة المقدسـة النبوية فى الكلام عن الخليفة ، وأشرك بذلك عبارة السُدّة النبوية ، ثم كتب عن الخليفة بلفظة غريبة غير مستقيمة الدلالة وهى « الخدمة » « وتصرّف فى ذلك حتى قال : قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسُئلت الخدمة ، حتى رأيت بخط أبى الحسن بن أبى الشوارب فى ترجمة رقعـة : خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان »[٣] . وقد لقَّب الخليفةُ القائم وزيرَه (قتل عام ٤٥٠ هـ ١٠٥٨ م) بألقاب هى : رئيس الرؤساء ، وشرف الوزراء ، وجمال الورى[٤] . أما

(١) الإرشاد لياقوت ج ٥ س ٤٠٧ .
(٢) يحيى بن سعيد س ١٢٩ ا — ب .
(٣) كتاب الوزراء س ١٤٨ والصفحات التالية .
(٤) تاريخ بغداد JRAS., 1912; S. 67 .

بين القضاة فقد بقى الرسم القديم جاريا ، فكان قاضى القضاة يوقع للقضاة بما يقول فيه : أبو فلان ، فلان بن فلان القاضى أيّده الله يفعل كذا ، وإلى قضاة النواحى : فلان بن فلان الحاكم بغير كنية ولا دعاء ولا ذكر قضاء(١) .

وفى عهد المقتدر كانت تغلق الدواوين فى دار الخلافة يومى الجمعة والثلاثاء ، وقد أمر المقتدر (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ — ٨٩٢ — ٩٠٢ م) بذلك «لأن يوم الجمعة يوم صلاة ، وكان يحبّه لأن مؤدّبه كان يصرفه فيه عن مكتبه ، ولأن الناس يحتاجون فى وسط الأسبوع إلى الراحة والنظر فى أمورهم ، والتشاغل بما يخصّهم »(٢) .

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٥١ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .

الفصل السابع

الوزارة والوزراء

لما انتهى عهد الإدارة الإقطاعية ، وجاء عهد التنظيم البيروقراطي ظهر منصب الوزير في عهد الخلفاء الأولين من بني العباس . أما في عهد بني أمية فلم تكن الوزارة « مقنّنة القواعد ، ولا مقرّرة القوانين » ، وكان ذوو الآراء من مستشاري الملك يقومون مقام الوزراء ، وكان الواحد منهم يسمى كاتباً أو مُشيراً[1] .

وفي أول القرن الرابع الهجري انتُقِص اختصاصُ الوزير ، فأخذ الخليفةُ منه الضياعَ العباسية التي كانت إقطاعاً يديره الوزراء ، ويَحْصُل منه مائةُ وسبعون ألف دينار ؛ وأجرى للوزير رزقٌ ثابت قدره خمسة آلاف دينار ، ثم صارت سبعة آلاف في كل شهر[2] . على أنه كان للوزير مكان ممتاز بين سائر رجال الدواوين ؛ فكان يُعطى لكل ولد من أولاده خمسمائة دينار في كل شهر ، وهو مبلغ يساوي مرتب وزير[3] .

80

وأكبر تغيُّر يسترعى النظر في إدارة الدولة أننا نجد الوزير قد صار مُقدَّماً على جميع القواد ، مع أنه ليس إلا رئيس الكتاب ، ومع أن الدولة قامت في الأصل على أساس حربي ؛ وكان هذا الوضع الجديد إحياء لنظام التدرُّج في المناصب إلى أن تنتهي برئيس أعلى ، وهو النظام القوي الذي كان موجوداً

---

(١) كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ، الطبعة الأوربية ص ١٨٠ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ ، ومسكويه ج ٥ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٣ . أما في مصر على عهد الفاطميين ، فكان يعطى إخوة الوزير أيضاً من مائتي دينار إلى ثلاثمائة — الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٠١ .

فى تاريخ الشرق القديم . على أنه لما عاد القائد مؤنس المظفّر إلى بغداد فى عام ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م ، ركب الوزير طيّارَهْ للسلام عليه ، ولتهنئته بمقدمه ، وهذا ما لم تَجْرِ به عادة الوزير ، وما لم يفعل مثله وزير من قبل ، حتى إن الوزير لما خرج لينصرف خرج معه مؤنس إلى أن نزل فى طيّاره وقبّل يده[(١)] .

وفى أول القرن الرابع كان رسم الوزير فى لباسه هو رسم سائر العمال ؛ فكان يلبس دَرّاعةً وقميصاً ومُبَطَّنة وخُفاً[(٢)] . وكان السواد هو اللباس الرسمى[(٣)] . أما فى أيام الاحتفالات الرسميـة فكان يرتدى ثياب الموكب ، وهى قَباء وسيف بمنطقة ، ومع هذا عمامة سوداء ، وهى الجزء الذى لا ينزعه الوزير من لباسه الذى يلبسه عادة[(٤)] .

---

(١) كتاب الوزراء ص ٥٠ ، ومسكويه ج ٥ ص ٢١٤ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٥ .

(٣) انظر ما قاله الأصفهانى شعراً يذم به أبا عبد الله البريدى ، فى تاريخ الفخرى ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

(٤) كتاب الديارات للشابشتى ص ٦٦ ا . ومسكويه ج ٦ ص ٤٤ — ٤٥ ، ٤٦ ، والإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٥٦ .

وفى عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م خرج الوزير للصلاة وعليه شاشية وسيف بحمائل ، فعجب الناس من ذلك (عريب ص ١٦٥) . وقد انتهى إلينا البرنامج اليومى للوزير صاعد بن مخلد حوالى عام ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م : كان يقوم فى آخر الليل ، فلا يزال يصلى إلى طلوع الفجر ، ثم يأذن للناس فيسلمون عليه ، ثم يركب إلى دار الخليفة الموفق ، فيقيم بحضرته أربع ساعات ، ثم ينصرف إلى منزله ، فينظر فى حوائج الناس وأمور الحاضر والغائب إلى الظهر ، ثم يتغدى وينام ، ثم يجلس بالعشى فينظر فى الأعمال السلطانية إلى العشاء الآخرة ، لا يبرح أو يحصل جميع الأموال ما حمل منها ، وما أنفق ، وما بقى . ثم ينظر فى أمر ضياعه وأسبابه ، ويتقدم إلى وكلائه وخاصته بما يحتاج إليـه ، ثم يتشاغل بعد ذلك مع نديم يتشاغل بحديثه ويأنس به ، ثم ينام (الشابشتى ص ١١٨ ب) . وكان ابن العميـد وزير بنى بويه بالرىّ حوالى منتصف القرن الرابع يبكّر إلى دار الإمارة ، وكان الرسم أن يحضرها بالمشاعل والشموع قبل الصباح (الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٥٧) . وكان الوزير نظام الملك فى أواخر القرن الخامس يباكر دار السلطان ، ويعود من الديوان إذا أضحى النهار ، فيخلو بنفسه إلى وقت الظهر ، ثم يصلى ويجلس للناس ويحضر عنده الفقهاء والمحدثون (طبقات السبكى ج ٣ ص ١٤١) .

وكان الخليفة يخلع على الوزير هذه الثياب ، التى هى رسم الوزارة ، عند تقليده ، فيركب الوزير من داره إلى دار الخلافة ، وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ، ثم يعود إلى داره وهم معه . ويصف المؤرخون ذلك ، ولا يهملون أن يذكروا بعض ما كان يقع من الأمور النادرة ، فيُذكر مثلا أن بعض الوزراء أخذه البول وهو فى طريقه إلى منزله ، فنزل وهو فى خِلَع الخليفة إلى دار أحد عمال الدواوين فبال عنده وأمر له بزيادة فى رزقه [١] . وإذا وصل الوزير إلى داره حضر الناس على طبقاتهم للسلام والتهنئة . وكان الخليفة يرسل له مالا وثيابا وطيباً وطعاما وأشربة وثلجاً [٢] .

وكذلك انتهى إلينا العمل اليومى لأحد الوزراء حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ، مع الإشارة إلى أن أخلاقه وهو وزير كانت مثلها وهو صاحب ديوان ، « فكان من رسم الوزير (ابن الفرات) أن يغدو إليه الكتاب ، فيواقفهم على الأعمال ، ويسلّم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ، ويوصيه بما يريد وصاته به ، ثم يروحون إليه بما يعملونه من أعمالهم ، فيواقفهم عليها ، وعلى ما أخرجوه من الخروج وقضوه من الأمور ، ويقيمون إلى بعض من الليل ، وإذا خفّ العمل ، وقد عُرضت عليه فى أثنائه الكتبُ بالنفقات والتسبيبات والحسبانات ، نهض من مجلسه ، وانصرف الجماعة بعد قيامه » [٣] ، وفى مثل هذا المجلس كان الكتاب يجلسون أمام الوزير ، كلٌ فى مكانه ، ومعه دواته ، وكان رئيس هؤلاء الكتاب يجلس متقدماً عليهم [٤] .

---

(١) عريب ص ١٦٤ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣١ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٣٨ .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣٤٢ .

وكان الوزير يحتفظ بصورة من الوثائق المهمة ، ويضعها فى جملة سجلاته ، وكانت هذه ، متى عُزل ، تنقل إلى دار من يخلفه فى الوزارة . ولما تقلد ابن الفرات الوزارة بعد على بن عيسى عام ٣٠٤هـ — ٩١٦ م كادت هذه السجلات أن تبلغ سقف الخزانة التى كانت فيها[١] . ويُذكر أن بعض الرقاع الهامة السرّية كانت تُحفظ فى سفط خيزران يكتب عليه بخط الوزير : ما يحتفظ به من المهمات ؛ وكان السفط يُختم بختم الوزير[٢] .

وكانت دار الوزير حتى عام ٣٢٠هـ — ٩٣٢م هى الدار التى كانت قديماً لسليمان بن وهب على الشاطئ الشرقى لنهر دجلة ، والتى كانت تسمى دار المخرّم . وكان ذرعها يربو على ثلثمائة ألف ذراع . وقد أُريد تحصيل مال من هذه الدار الواسعة التى كانت تقع فى حىّ من أغلى أحياء بغداد ثمناً « فقُطِّعت وبيعت من جماعة من الناس بمال عظيم ... وصُرف ثمنها فى مال الصلة لبيعة القاهر بالله »[٣] . وأعدت للوزير دار أحد أبناء الخلفاء[٤] .

82 وكان يقف على باب دار الوزير كثيرٌ من الرجال لحراستها . وقد بلغ من كثرتهم أنه أُخذ منهم مرة ثلاثون رجلا فى وقت واحد ، وأُنفذوا فى أمر مهم[٥] . وكان فى مجلس الوزير غلمان مسلّحون يسيرون بين يدى الوجوه من الناس ، ويخرجون بين يدى الوزير دائماً ، يجرّون سيوفهم ، والناس يشاهدونهم[٦] .

(١) كتاب الوزراء ص ٢٠٨ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٥٩ ، ومسكويه ج ٥ ص ٢٣٣ .
(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤١٠ ، وفى كتاب الوزراء أن مساحتها ٣٤٦و١٧٣ ذراعاً .
(٤) مسكويه ج ٥ ص ٣٩١ .
(٥) كتاب الوزراء ص ١٢١ .
(٦) نفس المصدر ص ١١٢ .

وكان رسم الوزير ألا يذهب إلى دار الخلافة إلا فى أيام الموكب ، وكان ذلك فى يوم الاثنين والخميس فى أوائل القرن الرابع[١] ، وقد جرى الرسم أن يساير الوزيرَ إذا ركب إلى دار الخلافة واحدٌ من كتابه الأربعة الذين يتولون الديوان[٢] . وكانت للوزير فى دار الخلافة دار مفردة يجلس فيها ، والخواصّ والحواشى بين يديه ، حتى يستدعيه الخليفة . ومنذ عام ٣١٢ — ٩٢٤ م صار يجلس فى دار الحاجب متقرّبا إليه ومداريا له ، فكان هذا دليلا على تناقص منزلتـه[٣] .

وكان الوزير يجلس فى مجلس الخليفة مواليًا له بوجهه ، وهى عادة المرءوس بالنسبة إلى رئيسه . وإذا أراد الوزير أن يكتب شيئاً فى حضرة الخليفة ، فقد كان الرسم أن تُحْضَر له دواةٌ لطيفة بسلسلة فيمسكها بيده اليسرى ، ويكتب بيده اليمنى ، وقد رأى الخليفة المقتدر مرة مشقة ذلك على وزيره على بن عيسى ، وهو يكتب كتابا هاما بحضرته ، فأمر بأن يقف بعض الخدم فيمسك الدواة إلى أن يفرغ من الكتابة ، وكان على بن عيسى أول وزير أُكرِم بهذا ، ثم صار رسماً للوزراء بعده[٤] . وكان للوزير فى الأوقات التى لا يكون فيها بدار الخلافة نائبٌ يقوم فى الدار لمهمّ عساه يعرض[٥] ، وكان للوزير من بين خدم الخليفة قوم يعوّل عليهم فى مراعاة أخباره[٦] .

وكان الخليفة هو الذى يعين وزيره ، وكان فى العادة يقرّ وزير الخليفة

(١) نفس المصدر ص ٢٤١ ، ٣٥٢ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٦ — ٧ ، وكتاب العيون ص ٥٩ ب .
(٣) كتاب الوزراء ص ٢٦٨ .
(٤) كتاب الوزراء ص ٣٤٢ .
(٥) الفخرى لابن طباطبا ص ٢٩٢ ، والخطط للمقريزى ج ١ ص ١٥٦ .
(٦) كتاب الوزراء ص ٢٦٧ ، وفيما يتعلق بعصر انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٨٢ — ٨٣ .

السابق فى منصب الوزارة ، وفى عام ٣٠٠هـ — ٩١٢م أراد الخليفة أن يختار لنفسه وزيراً ، وطلب من أحد ثقاته قبول الوزارة ، فامتنع لكبر سنّه ، فأرسل إليه الخليفة أسماء رجال كثيرين ليرشح منهم من يراه أهلا للوزارة ، فكتب تحت اسم كل واحد منهم بما رآه ، وأشار بتعيين رجل كان قاضياً ، فظن الخليفة أن وزيره غشه ولم يخلص فى النصح ، ولما سُئل الخليفة فى ذلك قال : لعمرى إنه (القاضى) عالم ثقة ، إلا أننى لو فعلت ذلك لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر ، لأننى أكون بين أمرين : إما أن تُتَصَوَّر مملكتى بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيصغر الأمر فى نفوسهم ، أو أننى عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطيالس فأُنْسَب لى سوء الاختيار[1] . على أنه حوالى هذا الوقت تقلد القاضى المروزى (المتوفى عام ٣٣٤هـ — ٩٤٦م) ببخارى وزارة الأمير السامانى صاحب خراسان[2] .

وكانت الحكومة أرستقراطية فى ذلك الزمان ، حتى أدى الحال إلى ظهور جيل لكل طائفة من أصحاب المناصب ؛ فكان هناك وجوه الحضرة من أولاد الوزراء والكتاب والأمراء والأشراف ، وكان أولاد الوزراء هم الطبقة العليا بين أبناء العمال[3] . وكانت المناصب وراثية فقد ذُكر أن الوزير ابن مقلة خلفه ابنُه ، وهو فى الثامنة عشرة[4] ؛ وكذلك تولى أبو الفتح بن العميد الوزارة بعد أبيه ، وله من العمر إحدى وعشرون سنة[5] ، وقد ولى الوزارة من آل خاقان أربعة وزراء فى سبعين عاما ، وكذلك تقلّد أربعة من بنى الفرات الوزارة فى خمسين

(١) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

(٢) Flügel : Die Klassen der hanefitischen Rechtsgelehrten. S. 296.

(٣) المنتظم ص ٦٦ ا .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٢٧ .

(٥) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٥٦ .

سنة ، وكان ابن العميد وزيراً لعماد الدولة رأس أسرة بنى بويه ومؤسس ملكهم ؛ وكان ابنه وحفيده وزيرين لركن الدولة . أما بنو وهب ، وأصلهم من نصارى العراق ، فقد توارث عشرةٌ منهم أرقى مناصب الدولة ، وكان أربعة منهم وزراء[١] . وقد ولى الوزارة واحد من بنى وهب عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م ، وكان فى شبابه مبذراً مسرفاً ، وقد ضيّق عليه أصحاب المطالبات حتى أمر القاضى بالحجر عليه ، ووُضع تحت الوكالة ؛ ولذلك كان من صدق فراسة مؤنس القائد أنه خشى أن هذا الوزير سيكون سيئ التصرف فى أمور الدولة كما كان سيئ التصرف فى أمواله[٢] . ومما يزيد الأمر خطورة أن أهم عمل للوزير هو إدارة مالية البلاد ، فهو الذى يعمل الدخل والخرج ، ويفرض الضرائب أو يسقطها[٣] ويحصّل الأموال من النواحى[٤] .

وفى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م شغب الغلمان والرجالة على الوزير يطلبون الزيادة ، فمضوا إلى داره وأحرقوا بابه ، وذبحوا فى اصطبله دوابّه[٥] . وجميع الوزراء الذين استعفوا أو عُزلوا فى القرن الرابع إنما تحطمت قواهم أمام الصعوبات المالية . وفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م سمع الوزير أبو الفضل السلمى وهو فى داره ليلةً جَلَبَة الخيْل ، وعلم أن غوغاء العسكر قد اجتمعوا يؤلّبون ، ويلقون عليه الذنب فى تأخير أرزاقهم ، فدعا بالحلاق ، فحلق له رأسه ، واغتسل بماء ساخن ، ولبس الكفن ، ولم يزل ليلته يصلى ، ثم دخل الجند عليه وقتلوه ، وهو ساجد ، وكان هذا الوزير فقيها مناظراً ومحدّثاً حافظاً ، وكان يصوم الاثنين والخميس ،

---

(١) Amedroz, JRAS, 1908, S. 418. ، واليتيمة ج ٣ ص ٣٣ .

(٢) Amedroz, JRAS., S. 431.

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٥١ .

(٤) نفس المصدر ص ٧٣ وكتاب الوزراء ص ٢٣٩ .

(٥) عريب ٥٨ .

ولا يدع صلاة الليل ، وولى الوزارة للسلطان وهو على ذلك ، وكان يسأل الله الشهادة حتى وقع له ما وقع [١] .

وكانت سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م أهم سنة فى تاريخ الوزراء ، ففى هذا الوقت دخل بنو بويه بغداد ، وقام كاتبُ الأمير الذى غلب على تدبير الأمور مقامَ الوزير ، وبطل رسم الوزارة [٢] . وقد تكلم هلال الصابى فى كتابه تاريخ الوزراء عن أهم وزراء القرن الهجرى ، وهو يقسمهم إلى وزراء الدولة العباسية « وكُتّاب » الأيام الديلمية [٣] .

84

ولذلك يحكى أن جوهراً أيام فتحه لمصر توقّف فى مخاطبة أبى الفضل جعفر بن الفرات فى كتابه بالوزير ، ولم يخاطبه بذلك إلا بعد مراجعة ، وقال : ما كان وزير خليفة [٤] . أما عند الفاطميين فكان اسم الوزير غير مقبول فى أول الأمر ، وكان قاضى القضاة أجلّ أرباب الوظائف عندهم ، ولم يتخذ خلفاؤهم وزراء إلا فى عهد الخليفة الفاطمى الثانى ، العزيز بالله [٥] ، وهو الوزير ابن كلّس الذى كان يهوديا فأسلم (وتوفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) . وقد حدثنا القلقشندى فى العصور المتأخرة عن منصب قاضى القضاة وقال : « وإذا كان ثمّ وزير لا يخاطب بقاضى القضاة لأن ذلك من نعوت الوزير » [٦] ويقول المقريزى إنه بعد موت ابن كلّس لم يستوزر العزيز بالله أحداً ، وإنما

---

(١) المنتظم ص ١٧٥ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢٥ والتنبيه للمسعودى ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣ .

(٤) الاتعاظ للمقريزى ص ٧٠ .

(٥) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ٢ ص ١٢٩ نقلا عن ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ — ٩٩٨ م .

(٦) ترجمة فستنفلد لمختصر صبح الأعشى : AGGW, 1879, S. 185. ، وصبح الأعشى طبعة دار الكتب ج ٣ ص ٤٨٧ .

كان ثَمّ رجلٌ يلى الوساطة والسفارة ، واستقرّ ذلك فى جماعة كثيرة بقيّة أيام العزيز وسائر أيام الحاكم ، ثم ولى الوزارة أحمد بن على الجرجرائى فى أيام الظاهر ، وما زال الوزراء من بعده واحداً بعد واحد[١] . ولم يكن جمهور الناس يفطن لهذا التمييز بين الوزير والوسيط أو السفير ، وكذلك نجد يحيى بن سعيد مثلا حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م يستعمل فى كلامه لفظ الوزراء من غير تفرقة بين الوزير والسفير أو الوسيط .

ولم تكن مهمة الوزير إذا كان وزيراً لأحد أمراء الأطراف هى بعينها مهمة وزير الخلافة ، وقد لُقِّب الوزير الفضل بن سهل وزير المأمون من بين وزراء الدولة الأولين بلقب ذى الرياستين ، وربما كان ذلك لأنه كان خبيراً بشؤون السيف والقلم[٢] . ولكن الصفة الحربية للوزير لم تكن بارزة فى ذلك العهد ، ولم يل الوزارة قائدٌ خبير إلا الحسن بن مخلد الذى تقلّد وزارة المعتضد ، وخُلع عام ٢٧٢ هـ — ٨٨٥ م[٣] . أما عند آل سامان وآل بُوَيْه ، فقد كان الوزير يقوم بمهام الوزارة وبقيادة الجيوش فى المعارك[٤] ، بل نجد أديباً مُبرِّزاً كالصاحب

(١) الخطط للمقريزى ج ١ س ٤٣٩ .

(٢) عريب س ١٦٥ (؟) .

(٣) أغفل صاحب الفخرى (س ٢٩٨) ، ذكر ابن مخلد الذى تقلد الوزارة بين سليمان ابن وهب وإسماعيل بن بلبل (مروج الذهب ج ٨ س ٣٩ ، وفهرس تاريخ الطبرى) ، أما ما يقوله صاحب الفخرى من أن ابن بلبل « جُمع له السيف والقلم » ، فربما كان ذلك خاصا بابن مخلد الذى سقط اسمه ، وذلك لأننا لم نسمع شيئا عن أعمال ابن بلبل الحربية ، هذا إلى أن الطبرى يصرح (ج ٣ س ٢١١٠) بأن الموفق « استكتب إسماعيل بن بلبل واقتصر به على الكتابة دون غيرها .

(٤) فيما يتعلق بالسامانيين انظر مثلا كتاب : Mirchond, hist. Samanid. ed. Wilken, S. 72, 84. ، وفيما يتعلق بالصيمرى والمهلبى وزيرى معز الدولة ، انظر مسكويه ج ٦ س ٢١٤ ، وفيما يتعلق بوزراء ركن الدولة انظر نفس المصدر ج ٦ س ٢١١ ، ٣٤٣ وما يليها ، ٤٢١ ، وفيما يختص بوزراء عضد الدولة انظر نفس المصدر ج ٦ س ٤٥١ — ٤٥٢ ، ٤٨٢ . وفيما يتعلق بوزير بهاء الدولة انظر ابن الأثير ج ٩ س ١٣٧ — ١٣٨ .

ابن عباد يقود الجيوش فى أيام وزارته[١] .

ومما يدل على سقوط هيبة الوزراء ، ويدل أيضاً على فظاظة الطبع أن الأمير معز الدولة ببغداد ، وكان أميراً حديداً سريع الغضب ، ضرب وزيره أبا محمد المهلّبى ، وهو من المهالبة الذين كانوا حكاما من قديم على عهد بنى أمية ، مائة وخمسين مقرعة ، ووكّل به فى داره ؛ ولكنه لم يعزله من وزارته ؛ وشاور معزُّ الدولة من حضره ، وقال : هل يجوز أن أستنيم إلى هذا الرجل ، وقد لحقه منى هذا المكروه العظيم ؟ فقال له أحد من استشاره إن مرداويج قد ضرب وزيره أعظم من هذا الضرب ، حتى كان لا يطيق المشى ، ولا يقدر على الجلوس لما حلّ به ، ثم خلع عليه وردّه إلى أمره[٢] . ثم جاء بختيار بن معز الدولة ، وكان غير كفء للملك ، فاستوزر صاحب مطبخه[٣] فى سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م وهو الوزير ابن بَقِيّة الذى كان « يقدّم الطعام إليه ، ويحمل الغضاير بيده ، ويتّشح بمناديل الغمر ، ويذوق الألوان عند تقديمه إياها »[٤] ؛ ولكن ابن عمه وهو السلطان عضد الدولة قبض على أبى الفتح بن العميد وزير أبيه ، وكان ابن العميد قد أسرف فى الاتصال بالعدو ، فسمل عينيه وقطع أنفه[٥] . وطلب من ابن عمه ، عز الدولة بن معز الدولة ، أن يسلم له ابن بقيّة لأمور ساءته منه ، فسُلِّمَ إليه مسمولا ، فأمر عضد الدولة بأن يُشهر فى العسكر على جمل ، ثم طُرح إلى

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ وما يليها ، وابن الأثير ج ٨ ص ٣٧٥ .

(٣) جاء فى كتاب معاهد التنصيص مخطوط رقم ٤٤١٦ بمكتبة باريس ص ٣٣٧ أ : « وكان الرئيس أبو الفضل والوزير أبو الفرج دخلا الديوان لعقوبة أصحاب الوزير المهلبى عقب موته ، وأمر أن تلوث ثياب الناس بالنفط إن قربوا الباب ، وكان المهلبى قد فعل مثل هذا » .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٣٦١ — ٣٦٢ ، ٣٩٦ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٦٢ ، وكان الناس يهزءون من ابن بقية ويقولون من الغضارة إلى الوزارة — المنتظم ص ١٠٤ ب .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

الفيلة ، وأُضريت عليه ، فقتلته شرّ قتلة ، وصُلب على شاطئ دجلة[١] وقد اجتاز أحد أصدقاء هذا الوزير المنكود ، الذى ارتكب كثيراً من ضروب القسوة[٢] ، فرثاه بقصيدة طويلة جيدة منها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضمّ علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوّ قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات[٣]

86

وقد أحدث عضد الدولة فى منصب الوزارة شيئين لم يكونا قبله ، أولهما أنه اتخذ وزيرين معاً ، والثانى أن أحد هذين الوزيرين ، وهو ابن منصور نصر بن هارون ، كان نصرانيا ، وقد أبقى عضدُ الدولة نصراً على بلاد فارس وطنه ، وأخذ الوزير الثانى وهو المُطَهَّر بن عبد الله معه إلى بغداد . وكان المطهّر هذا معروفا بشراسة وخبث فى أخلاقه ، وكان سيئ الفكر ، فلما وجّهه عضد الدولة إلى البطيحة لاستئصال اللصوص منها ، والتاث عليه الأمر ، خشى انخفاض منزلته عند عضد الدولة وتغيُّره له ، وأشفق من تذرُّع أعدائه بذلك للطعن عليه وإظهار معايبه ، فاختار الموت على ذلك ، وأخذ سكيناً . فقطع بها شرايين ذراعيه جميعاً ، وسال دمه حتى مات[٤] . وكان الوزير الذى جاء بعده خليفة لنصر بن هارون الذى كان مقيما بفارس يدبّر أعمالها ، ولم يكن الوزيران على وفاق ، بل كان كل واحد يدبّر المكايد لصاحبه[٥] .

(١) مسكويه ج ٦ ص ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ويحيى بن سعيد ص ١٠٥ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥٠٧ .

(٢) انظر مثلا مسكويه ج ٦ ص ٤٥٢ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٠٧ ، وأرى أنها السافيات لا الساقيات وهو ما جاء أيضا فى نديم الأديب لأحمد سعيد البغدادى ص ١٤٣ ؛ وعند ابن تغرى بردى (طبعة كلفورنيا ص ٢٠) السانحات .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ — ٥١٤ ، ويحيى بن سعيد ص ١٠٧ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٥ .

(٥) مسكويه ج ٦ ص ٥١٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٦٦ .

ولما جاء بهاء الدولة جرى على رسم أبيه فعيّن ، وهو بشيراز ، وزيرين عام ٣٨٢ هـ — ٩٩٢ م ، وجعل أحدهما مدبّراً لأمور العراق [١] . ولما مات الصاحب ابن عباد سنة ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م ، بعد أن دبّر أمور الوزارة بفارس أحسن تدبير ، وقعت مساومةٌ شائنة حول هذا المنصب ، وذلك أن أحد الولاة أرسل يخطب الوزارة ويضمن ثمانية آلاف ألف درهم ، فبذل الوزير الذى كان فى الوزارة ، إذ ذاك ستة آلاف ألف درهم على إقراره فى الوزارة ، فأشرك السلطان فخر الدولة بينهما فى الوزارة ، وسامح كلا منهما بألفى ألف درهم من جملة ما بذل ، وجمع بينهما فى النظر ، ورتّب أمرهما على أن يجلسا فى دَسْتٍ واحد ، ويكون التوقيع لهذا يوماً والعلامة للآخر ، وكانا يتقارعان على من يخرج لقيادة الجيوش ، ثم سعت بينهما السعاة ، ودبر أحدهما للآخر فقتله [٢] .

وأخيراً صار للوزير النصرانى بالمشرق نظير فى مصر ، ففى سنة ٣٨٠هـ — ٩٩٠م قلّد الخليفة الفاطمى العزيزُ بالله وزارتَه لعيسى بن نسطورس [٣] .

على أن الوزراء لم يبرءوا من الرغبة فى الألقاب التى عظم أمرها حوالى عام ٤٠٠هـ ، والتى تدل دلالة واضحة على فساد أمور المجتمع فى ذلك العصر . وفى عام ٤١١هـ — ١٠٢٠م أكرم أميرُ بغداد وزيرَه ، فأمر بأن تضرب الدبادب أمام داره فى أوقات الصلاة ، وهو ما كان ينفرد به السلطان وحده ، وكذلك لقبه بلقب وزير الوزراء [٤] ، وسرعان ما استعمل الخليفة الحاكم (المتوفى عام ٤١١هـ — ١٠٢٠م) هذا اللقب الجديد الذى كان له أثر عظيم ، فلقّب قطبَ الدولة عليَّ بن

87

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٧ .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٧١ وما يليها .
(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٢ ا ، وكان عيسى بن نسطورس يُخاطَب بسيدنا الأجلّ .
(٤) المنتظم ص ١٦٨ ا — ب (؟) .

جعفر بن فلاح وزيرَ الوزراء ذا الرياستين الأميرَ المظفر قطب الدولة[١]. أما الهلال الصابى المؤرخ (المتوفى عام ٤٤٧هـ — ١٠٥٥م) ، فيعتبر أن مخاطبة الملوك المدبِّرين لوزرائهم بأمثال هذا اللقب هى من انقلاب الرسوم وتغيُّر حقائق الأشياء[٢]. وفى سنة ٤١٦هـ — ١٠٢٥م خلع جلال الدولة ببغداد على وزيره ولقبه عَلَمَ الدين سَعْد الدولة ، أمين الملَّة ، شرف الملك ؛ فكان هذا الوزير أول من لقب بالألقاب الكثيرة[٣]. وهذه الحالة تشبه ما عليه الشرق اليوم ، وإذا قارنا بين الوزير فى ذلك العصر بما صار يحمله من ألقاب و بين سلفه ممن لم تكن لهم ألقاب لوجدنا أنه بالنسبة لهم لم يكن له شىء من القوة والسلطان .

الوزراء فى القرن الرابع الهجرى

سنبدأ بالكلام عن علىّ بن الفرات ، وهو الذى خلف أخاه العباس فى منصب الوزارة عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م . وكان علىّ حين تقلَّد الوزارة فى الخامسة والخمسين من العمر . وكان وزيراً واسع الثروة حتى يقول الصولى : « وما سمعنا بوزير جلس فى الوزارة ، وهو يملك من العيْن والورِق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات[٤] » . وقد ظهر فى منصبه بمظهر الفخامة التامة ، فكان يُجرى على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار فى الشهر إلى خمسة دراهم ، وكان يطلق للشعراء فى كل سنة من سنى وزارته عشرين ألف درهم رَسْماً لهم ، سوى ما يصلهم به متفرّقاً ، وعند مديحهم إياه ، وكان فيمن يُدعى إلى طعامه كلَّ يوم تسعةُ كُتَّاب ، هم خاصة كُتَّابه ، وكان منهم أربعة نصارى .

---

(١) يحيى بن سعيد س ١٢٨ أ .
(٢) كتاب الوزراء س ١٥٠ .
(٣) المنتظم س ١٧٣ أ .
(٤) عريب س ٣٧ .

وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين ، وكان له فى داره مطبخان : مطبخ الخاصة ، ولا يمكن أن يحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرته ؛ ومطبخ العامة الذى يختص بما يقدم إلى الحجاب المقيمين بالدار ويفرّق منه للرّجالة والبوابين وأصاغر الكتاب وغلمان أصحاب الدواوين ، وكان يُقدّم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الغنم ، وثلاثون جديا ، ومائتا قطعة دجاجا سماناً ، وفراريج مصدَّرة ، ومائة قطعة درّاجا ، ومائتا قطعة فراخا ، وهناك خبازون يخبزون الخبز ليلا ونهاراً ، وقوم يعملون الحلواء عملا متصلا ، ودار كبيرة للشراب ، وفيها ماذيان يجعل فيه الماء المبرّد ، ويسقى منه جميع من يريد الشرب من الرّجالة والفرسان والأعوان والخُزّان ، ومن يجرى مجراهم من الأتباع والغلمان ، وكان بالدار مزمّلات فيها الماء الشديد البرد . وبرسم خزانة الشراب خدمٌ نظاف عليهم الثياب الدبيقية السرية ، وفى يد كل واحد منهم قدح فيه سكنجبين أو جُلّاب ومخوض وكوز ماء ، ومنديل من مناديل الشراب نظيف ، فلا يتركون أحداً ممن يحضر الدار من القواد والخدم السلطانيين والكتاب والعمال إلا عرضوا ذلك عليه[1] . وكانت داره مدينة بذاتها ، حتى كان بها فوجان من الخياطين[2] . وكان فى جانب الدار أدراج كثيرة لأصحاب الحوائج والمتظلّمين ، حتى لا يلتزم أحد منهم مؤونة لما يبتاعه من ذلك[3] ، ولما خُلع على هذا الوزير خِلع الوزارة زاد فى ذلك اليوم ثمن الشمع قيراطاً فى كل مَنٍّ ، وزاد سعر القراطيس لكثرة استعماله لها ، ولأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة منوية ودرج منصورى . وقد سُقى فى داره

88

(١) كتاب الوزراء ص ١٤٢ ، ٢٠١ ، ٢٤٠ ، ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩٥ .

فى ذلك اليوم والليلة أربعون ألف رطل ثلجاً[١] ، وجرى رسمه مدة وزارته أن يُعطى كلُّ من يخرج من داره عند اصفرار الشمس شمعة[٢] . وفى عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م اتخذ ابن الفرات مارستانا ببغداد ، وكان ينفق عليه مائتى دينار من ماله فى كل شهر[٣] . وكان هذا الوزير يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة ، فلقد قدِّمت إليه جرائد بأسماء من يعاديه ، ويدبّر فى زوال أمره ، فلم يفتح الصناديق التى كانت فيها ، وأحرقها وقال لمن كان حاضراً : والله لو فتحتُها وقرأتُ ما فيها لفسدت نيّاتُ الناس كلّهم علينا ، واستشعروا الخوف منا ، ومع فعلنا ما فعلناه طوينا الأمور بهذا ، فهدأت القلوب واطمأنت النفوس[٤] . ولما فسد أمره عند المقتدر وتألب عليه الجميع أشار عليه بعض المشيرين أن يقسّط على نفسه وكتّابه وعُماله ما يحمله للخليفة فيرضى عنه ، فقال : « فأى شىء أقبح بى ، مع علوّ همتى ، وكثرة نعمتى ، من أن أنشئ أصحابا وعمّالا ، يلون بولايتى ، وينكبون بنكبتى ، ويتصرّفون بتصرّفى ، ويتعطلون بعطلتى ، ثم أزيل نعمهم وأحوالهم بيدى وفى أيامى ، القتل والله أهون من ذلك »[٥] .

وحُكى أن رجلا اتصلت عُطْلَتُه ، وانقطعت مادته ، فحمل نفسه على أن زوّر كتابا من أبى الحسن بن الفرات إلى عامل مصر للوصاية به والإحسان إليه ، فارتاب العامل بالخطاب ، وارتبط الرجلَ عنده على وعد ، وأنفذ الكتاب إلى ابن الفرات ، ورأى ابن الفرات أن يستشير كُتّابه ، فأشار بعضهم بالتأديب

---

(١) نفس المصدر ص ٦٣ .

(٢) نفس المصدر ص ١٤٢ وقد أساء مترجم كتاب محمد المنسوب للثعالبي فهم بعض هذه النصوص ، انظر ZDMG VI, 50. ، وانظر أيضاً كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبي طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ م ص ١٦٩ (المترجم) .

(٣) المنتظم ص ٢٣ ب .

(٤) كتاب الوزراء ص ١١٩ ، ويحكى مثل هذا عن المأمون (الطبرى ج ٣ ص ١٠٧٤) .

(٥) كتاب الوزراء ص ٩٧ — ٩٨ .

أو بقطع إبهامه أو بكشف قصته للعامل حتى يطرده ويحرمه ، فقال ابن الفرات : « ما أبعدكم من الخيرية ! رجل توسّل بنا ، وتحمل المشقة إلى مصر فى تأميل الصلاح بجاهنا ، واستمداد صنع الله ورزقه بالانتساب إلينا ، تكون أحسن أحواله عند أجملكم محضراً تكذيبُ ظنه وتخييبُ سعيه . والله لا كان هذا أبداً » . ثم أخذ القلم ووقّع بخطه على ظهر الكتاب المزوّر يوصى به ، ويقول : إن الكتاب كتابه[١] . ولما نُكب الوزير على بن عيسى وتذلل لابن الفرات حتى قبّل يده وقام لابنه المحسّن ، وكان ابن عشر سنين ، قال ابن الفرات بعد انصراف علىّ : رأيتم تَطامُنَ علىّ بن عيسى للنكبة واستعانتَه عليها بالاستعطاف والتذلُّل ، وهذه طريقة لا أحسنها ، لأن كبدى فى المحن كأكباد الإبل ، لا جرم أنها تزداد وتتضاعف[٢] . وقد أكسبته الخدمة الطويلة خبرة بشؤون الوزارة وإدارة الدولة ، وقد استطاع أن يسيطر على حياة الدولة الاقتصادية المتشعّبة سيطرة كاملة ، حتى استحق من وجوه كثيرة أن يقول على بن عيسى لما كُذِب عليه بموت ابن الفرات : اليوم ماتت الكتابة[٣] . ومن حكمه السياسية القاسية قوله : أصل أمور السلطان مَخْرَقةٌ فإذا تمّت واستحكمت صارت سياسة ، وقوله : تَمْشِيَةُ أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها عند الصواب . وكان يقول : إذا كانت لك حاجة إلى الوزير ، فاستطعت أن تقضيها بخازن الديوان أو كاتب سرّه فافعل ولا تبلغ إليه فيها[٤] .

89

على أنه لم يتحرّج ولم يتهيّب من مدّ يده إلى خزانة الدولة ، بل أضاف هو

---

(١) نفس المصدر ص ١١٣ والمنتظم ص ١٢٨ أ — ب .
(٢) الوزراء ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٨٣ .
(٤) كتاب الوزراء ص ٦٤ ، ١١٩ .

وأخوه كثيراً من ضياع السلطان إلى أملاكهما ، وعظم دَخْلُهما ، وقد وجد أعداؤه من الطعن فيه أنه لما صودر وُجد فى ودائعه ماهو مختوم بختم أبى خراسان خازن المعتضد على بيت مال القلعة ، ووُجد عنده مالٌ أكثره محمول من بيت مال الخاصة(١) . قال أبو على بن مقلة كاتب ابن الفرات ، وقد جرى ذكر هذا الوزير : « ياقوم ! هل سمعتم بمن سرق فى عشر خطوات سبعمائة ألف دينار ؟ قلنا : كيف ذلك ؟ قال : كنت بين يدى ابن الفرات فى وزارته الأولى ، ونحن فى دار الخلافة نقَرِّر أرزاق الجيش ، ونقيم وجوه مال البيعة ونرتِّب إطلاقه ، وذلك عقيب فتنة ابن المعتز ؛ فلما فرغ مما أراده خرج وركب طيّاره ، وبلغ نهر المعلِّى ، فقال : إنا لله إنا لله ! قفوا ؛ فوقف الملّاحون ؛ فقال لى : وقِّع إلى أبى خراسان صاحب بيت المال بحمل سبعمائة ألف دينار تُضاف إلى مال البيعة ، وتُفَرَّق على الرجال ، فقلت فى نفسى : أليس قد وجّهنا وجوه المال كله ؟ ما هذه الزيادة ؟ ووقّعت بما رسمه ، وعلّم فيه بخطه ، ودفعه إلى غلام ، وقال : لا تبرح من بيت المال حتى تحمل هذا المال الساعة إلى دارى ، ثم سار ، (قال) فحُمل المال بأسره ، وسُلِّم إلى خازنه ، فعلمت أنه أُنسى أن يأخذ شيئاً لنفسه فى الوسط ، ثم ذكر أنه باب لا يتفق مثلُه سريعاً ، ويحتمل ما احتمله من هذا الاقتطاع الكثير ، فاستدرك من رأيه ما استدرك »(٢) .

وكان الوزير على بن عيسى زميل ابن الفرات من قبل ومنافسه من بعد يخالفه مخالفة تامة . وينتمى على بن عيسى إلى أسرة قديمة من الكُتّاب(٣) . قال معاصره الصولى : ولا أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبهه فى زهده وتعبُّده ،

(١) نفس المصدر ص ١٣٣ — ١٣٤ ، ١٣٩ .
(٢) نفس المصدر ص ١١٧ .
(٣) المنتظم ص ٧٦ ب .

فقد كان يصوم نهاره و يقوم ليله[١] . وكان يخرج نصف ما يرتفع له فى السنة فى أبواب البر وسبل الخير[٢] . وكان متهاونا قليل المبالاة حتى إنه لم يستطع أن يغير طبعه فى كلامه عند مخاطبة الخليفة ، وذلك على عكس ابن الفرات ، مما أحفظ الخليفة عليه[٣] . وقد طلب الأخفش اللغوى (المتوفى عام ٣١٥ هـ) من على بن عيسى أن يُجرى عليه رزقا ، ووسّط فى ذلك أبا على بن مقلة ، فانتهره على بن عيسى انتهارا شديدا فى مجلس حافل ، فشق ذلك على ابن مقلة ، وقام من مجلسه « وقد اسودّت الدنيا فى عينيه » ، ووقف الأخفش على الصورة فاغتم ، وقيل إنه قبض على قلبه فمات[٤] . وكان على بن عيسى متمسكا بالوقار ، ولا رُؤى قط متبذّلا ، ولا كان يفارق الخفّ فى أكثر أوقاته إلا إذا أوى إلى فراشه أو قعد مع حُرَمه[٥] . وكان يشتغل بالنظر فى أمور الدولة ليله ونهاره[٦] . وكان يجعل وراء كل باب مسوّرة ، ويُسْبِل عليها ستراً طويلا يغطّيها ، فإذا جلس بعد عمله الكثير فى أخريات النهار مجلساً حافلا ألصق بها ظهره لئلا يُشاهَد مستنداً تمسّكا بالوقار[٣] . وقد رأينا فيما تقدم ما أصابه من الذلة والاستكانة بعد عزله من الوزارة ، وكان لتديُّنه وورعه يلوم ابن الفرات على تقليده ديوان جيش المسلمين لرجل نصرانى[٧] . وقد تحرّج من تقليد أبنائه الأعمالَ مدة وزارته[٨] وحاول

90

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٢٦ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .
(٤) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .
(٥) كتاب الوزراء ص ٣٢٥ .
(٦) عريب ص ١٣٠ .
(٧) الوزراء ص ٩٥ ولكن يقال إنه كان له مشيرون من النصارى Barhebr. Chron. Eccles. III,241 .
(٨) كتاب الوزراء ص ٢٦٦ (؟) .

أن يتدارك العجز فى بيت المال بالاقتصاد فى الأمور الصغيرة ، فأنقص أرزاق العمال والجند ، وأسقط ما كان يفرّق على القواد والفرسان فى كل عيد ؛ وكان ذلك من شاة إلى عدة بعران ، وحاول أن يمنع من امتداد الأيدى إلى الأموال العامة . ولكن ابن الفرات شنّع عليه بقوله : يا أبا الحسن على بن عيسى ! شغلت نفسك بأخلاق المملكة والنظر فى علوفة البط والحطيطة من أرزاق الناس ، وما يجرى هذا المجرى من الصغار المستهجنات ، لَعِمَارَةُ بَيْدَرٍ واحد أصلحُ للسلطان وأَعْوَدُ عليه من توفيرك ما تقرّبت به إليه . وكان يوفر من الأشياء الصغيرة ، ويحكى أنه قضى مرة ساعة يناظر فى علوفة البط حتى إن المتولى لكيل العلوفة سأل كاتبه عن رزقه فى الشهر ، ووجد أنه يتقاضى عن الساعة عشرين دينارا ، فقال : « قد نظر الوزير فى أكثر من ساعة لتوفير مالا يبلغ ما استحقه من الرزق » .

ولكن على بن عيسى مع تقواه هذه وتدقيقه فى الأمور الصغيرة لم يَصْدُق الخليفةَ حينما راسله ليقرّ بما عنده من أموال ، فكتب يذكر أنه لا يقدر على أكثر من ثلاثة آلاف دينار ، هذا وقد وُجد له بعد ذلك عند رجل سبعة عشر ألف دينار . ولما ضيّقوا عليه استجاب أخيراً إلى دفع ثلاثمائة ألف دينار ، يُعجّل منها الثلث فى ثلاثين يوما ، ويؤدى الباقى على رسم المصادرات[1] . وكان على بن عيسى يوبخ أبا عبد الله البريدى لأنه حلف للسلطان أن استغلال ضيعته عشرة آلاف دينار ، وهو فى الحقيقة ثلاثون ألفاً ، فقال البريدى إنه اقتدى بعلى بن عيسى حيث حلف لابن الفرات أن ارتفاع ضيعته عشرون ألفاً فوُجد بعد ذلك خمسين ألفاً ، فكأنه ألقم علىَّ بن عيسى حجراً[2] . فلم يكن هذا الوزير نقى اليد تماما ، وقد فرّط فى تضمين الشام ومصر ، وترك مالا معجّلا إلى مال مؤجّل لا يدرى

(١) كتاب الوزراء ص ٢٦٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٣٥١ .
(٢) مسكويه ج ٥ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

ما يجرى فيه ، وقد واجهه خصومه بذلك فلم يستطع أن يبرر هذا التصرف [١] .

وقد ولى أبو على محمد بن عبيد الله الخاقانى الوزارة مدة سنتين ، وذلك بين وزارة ابن الفرات وعلى بن عيسى . وكان الخاقانى هذا ابن وزير ، وهو ينتمى إلى أسرة من الأشراف المتصلين بالخلافة . ويذكّرنا ما سجله التاريخ من أمره بكثير من الديمقراطيين الذين يفتحون صدورهم للعامة : كان الخاقانى متخلفًا عاميا ، إلا أنه كان خبيثًا داهيا [٢] ؛ فقد كان يوقّع بكل سؤال ، ويَعِدُ بإنفاذ كل محال ، وكان من عادته إذا سُئل حاجة أن يدق صدره بيده ويقول : نعم وكرامة ، حتى لُقّبَ « دق صدره » ، وبلغ من لين العريكة وقلة البصيرة وعدم تصور عواقب الأمور ، وعدم المنع من شىء يخاطب فيه أن انبسطت العامة عليه فضلا عن الخاصة [٣] . وقد صُوِّرت شخصيته وأحيطت بحكايات مضحكة قيلت عن غيره ، وهى تدل على قلة الأذى أحيانا وعلى سوء السريرة أحيانا أخرى ، وكانت طريقته كثرة التولية والعزل ، فكان يعين فى المنصب الواحد رجالا كثيرين واحدا بعد واحد ، ولم يكن ذلك عن قلة تقدير للمسئولية ، بل ليأخذ من كل منهم رشوة [٤] . ويحكى أنه اجتمع فى خان واحد بمدينة حلوان (بالعراق) سبعةُ أنفس ، وقد قلّد الخاقانى كلَّ واحد منهم ماه الكوفة فى عشرين يوما ؛ واجتمع بالموصل خمسة آخرون قد قلّدهم منصبا آخر ، وهناك تشاكوا مابذلوه عن تقليدهم [٥] . ويُذكر أن الخاقانى قلّد عمالةَ بادوريا فى أحد عشر شهرا أحد عشر عاملا [٦] .

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٦٣ ، ٢٧٦ .

(٤) ذكر صاحب الفخرى (ص ٣١٣) ما قاله الشعراء المعاصرون هجاء للخاقانى .

(٥) الفخرى ص ٣١٣ — ٣١٤ ، وكتاب الوزراء ص ٢٦٣ . ويذكر صاحب الفخرى أن التولية كانت للكوفة وهى الناحية التى كانت تسمى عند الفرس ماه الكوفة .

(٦) عريب ص ٣٩ .

وإذن فقد تقلّد منصبَ الوزارة فى أوائل القرن الرابع وزراء ثلاثة يختلف أحدهم عن صاحبه كل الاختلاف ، ولا يجمع بينهم إلا خصلة واحدة هى الخيانة التى بها انتهبوا خزانة الدولة .

أما حامد بن العباس[١] الذى ولى الوزارة عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م فقد كان على خلاف غيره من الوزراء ؛ لأنه لم يتخرّج فى الدواوين ، بل بدأ حياته بالاشتغال فى أمور التجارة والمال وضمان الخراج حتى عظُم شأنه ، ولما ولى الوزارة كان فى الثمانين من العمر ، واحتفظ بما كان بيده من ضمانات ، ولم يكن يعرف شيئاً من أمور الكتابة ، ولم يكن نصيبه من الوزارة إلا اللقب والخِلْعة ، وكان المدبّر للأمور على بن عيسى الذى كان وزيرا من قبل ، وقد قال ابن بسّام الشاعر مستهزئا بحامد بن العباس[٢] .

يا ابن الفرات تعزّه قد صار أمرك آيه

لما عُزلت حصلنا على وزير بدايه

وقد قيل فيهما « هذا وزير بلا سواد ، وذا سواد بلا وزير » . ولما سأل حامدُ بن العباس الخليفة المقتدر إطلاقَ على بن عيسى والإذنَ له فى استخلافه فى الدواوين لقلة خبرة حامد بالوزارة ، قال المقتدر : ما أحسب أن على بن عيسى يجيب إلى ذلك ، ويرضى بأن يكون تابعا بعد أن كان رئيسا ، فقال حامد بحضرة الناس : إنما مثل الكاتب كمثل الخياط ، يخيط ثوبا بعشر دراهم ، ويخيط ثوبا قيمته ألف دينار ؛ فضحك الناس منه واستنقصوه[٣] . ولما ناظر حامدُ بن العباس

(١) يجد القارئ ترجمة مختصرة له فى المقدمة الإنجليزية لكتاب الوزراء ص ١٨ هامش رقم ١ .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٢٥ .
(٣) كتاب العيون ص ١٩٤ أ ، ب .

ابنَ الفرات بعد عزله أفحش له فى القول فقال له ابن الفرات : ليس ما أنت فيه بيَدْرًا تقسمه ، وأكَّارا تشتمه وتحلق لحيته وتضرب به ، وعاملا تذبح دابّته وتعلق رأسها فى عنقه ، فإنما هذه الدار دار خليفة[١] . وقد أظهر من الأبّهة ما يظهره ذوو المجد الحديث لا المؤثَّل ، فكان له ألف وسبعمائة حاجب وأربعمائة مملوك يحملون السلاح لكل واحد منهم مماليك ، وكان الملاحون فى حرّاقته من الخصيان البيض وهم أغلى الخصيان ثمنا[٢] . وقد جرى بينه و بين مفلح الأسود كلام مرة فقال له حامد : « لقد هممت أن أشترى مائة خادم أسود وأسميهم مفلحا وأهبهم لغلمانى »[٣] .

92

وكان ظاهر المروءة كثير العطاء ، فيُحكى أن أحد خدم المقتدر شكا إليه فناء شعيره ، فكتب له بمائة كرّ من الشعير ، وكان ينفق على الطعام كل يوم مائتى دينار ، ولا يسمح بأن يخرج من الدار أحد من الجلّة والحاشية والعامة وغيرهم إذا حضر الطعام إلا أن يأكل حتى غلمان الناس ، وربما نُصب فى داره فى اليوم الواحد أربعون مائدة . وقد أهدى إلى المقتدر بستانا أنفق على بنائه مائة ألف دينار ، ويحكى أنه ركب يوما إلى بستان له فرأى فى طريقه دارا محترقة وشيخا يبكى ، وحوله صبيان ونساء على مثل حاله ، فلما عرف أن داره قد احترقت وأنه افتقر تألم قلبه له ، وتنغّصت عليه النزهة بسبب ذلك ، ولم تسمح له نفسه بالتوجه إلى بستانه إلا بعد أن أمر أن تُبنى الدار كما كانت ، وتوضع فيها الفرش وكل ما كان فيها ، حتى إذا عاد العشية من النزهة وجد الشيخ وعياله كما كانوا ، وقد بُنيت على أحسن مما كانت ، وأُنفق فى ذلك مال كثير[٤] . ولكن حامد بن العباس لم يتورّع من خزن الحبوب فى العراق وخوزستان وأصفهان ، بعد أن كان

(١) كتاب الوزراء ص ٩٢ ، كتاب العيون ص ١٩٥ ا .
(٢) المنتظم ص ١٢٥ ا ، ب .
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٢ .
(٤) المنتظم ص ١١٩ ا ؛ ١٢٥ ا ، ب ؛ ١٢٦ ا .

قد ضمن هذه البلاد بمال يدفعه للخليفة ، حتى ارتفعت الأسعار ، وأدّى ذلك إلى اضطراب العامة وثورتهم عليه حتى فُسخ الضمان[١] .

أما الوزير ابن مقلة (ولد فى بغـداد عام ٢٧٢ هـ — ٨٨٥ م) فقد نشأ من بيت متواضع[٢] ، وتقلّد الوزارة وهو فى الستين من العمر ، وكان ممن اشتغل بين يدى ابن الفرات وارتفع بسببه[٣] . وقد تعلم منـه الشىء الـكثير ، ومن ذلك أنه استطاع أن يجمع كثيراً من المال فى سنين قليلة . ووزر لثلاثة خلفاء فى أوائل القرن الرابع ، وبنى لنفسه دارا عظيمة فى بقعة من أحسن بقاع مدينة السلام . وكان يعتقد بالنجوم فجمع المنجمين حتى اختاروا له وقت البناية فوضع أساس الدار بين المغرب والعشاء . وكان له بستان كبير أنشأه بلا نخل ، وعمل له شبكة ابريسم ، وكانت تفرخ فيـه الطيور التى لا تفرخ إلا فى الشجر كالقمارى والدباسى والهزار والببّغ والبلابل والطواويس . وكان فيه من الغزال والبقر البدوية والنعام والإبل وحمير الوحش . وكان يحاول أن يجرب التزاوج بين الحيوان ، وبُشّر مرة بأن طائراً بحريا وقع على طائر برّى فأزوجا وباضا وأفقسا ، فأعطى من بشّره بذلك مائة دينار[٤] .

93

وكان ابن مقلة صاحب مؤامرات ، جريئاً فى ذلك ، ويتهمه المؤرخون بالإيقاع بين القاهر (٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م) وجنده ، وبأنه شحذ نياتهم ، وجمع

(١) نفس المصدر ص ١٨ ا .
(٢) كان بين جحظة الشاعر وبين ابن مقلة صداقة قبل الوزارة ، فلما استوزر استأذن عليه جحظةُ فلم يؤذن له فقال :

قل للوزير أدام الله دولته	اذكر منادمتى والخبز خشكار
إذ ليس بالباب برذون لنوبتكم	ولا حمار ولا فى الشط طيّار

(المنتظم ص ٦٤ ب)

(٣) كتاب العيون ص ٧٣ ا ، والمنتظم ص ٦٤ ا .
(٤) المنتظم ص ٦٤ ا — ب .

كلتهم على قصد القاهر والفتك به[١] . وقد سعى عند بجكم وعند الخليفة الراضى على ابن رائق الذى كان فى ذلك الحين قابضاً على زمام الأمور ببغداد ، وذلك لأن ابن رائق لما صار إليه تدبير المملكة قبض على ضياع ابن مقلة[٢] . ولكن الخليفة احتال حتى قبض عليه وسلمه لابن رائق ، وذلك على الرغم من أنه استشار المنجمين فى اختيار وقت للقاء الخليفة[٣] ، واستقر الأمر على معاقبته بقطع يده اليمنى[٤] . ومن نكد الدنيا ، كما يقول الثعالبى ، أن مثل هذه اليد النفيسة تُقطع ، لأن خط ابن مقلة كان من أحسن خطوط الدنيا ، وهو أكبر مؤسس للكتابة العربية الجديدة التى ظلت مستعملة طول القرن الرابع الهجرى[٥] . على أن ابن مقلة بدلا من أن يكتب بيده اليسرى كان يشدّ القلم على ساعده الأيمن ويكتب[٦] ؛ غير أنه ، رغم ما حلّ به ، واصل سعاياته ودسائسه غير راجع عن ذلك ، فقُطع لسانه بعد ثلاث سنين ، و بقى فى الحبس مدة طويلة حتى مات . وقد وصف المؤرخون حال هذا الرجل فى آخر أيامه ، بعد القوة وحياة الأبّهة ، فيُقال إنه كان لا يجد من يخدمه ، حتى كان يستقى الماء بنفسه من البئر ، فيجذب حبل الدلو بيده اليسرى ثم يمسكه بفيه[٧] .

ومن وزراء القرن الرابع أبو العباس الخصيبى ، وكان يواصل شرب النبيذ

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٧ — ٤٤٨ .
(٢) كتاب العيون ص ١٥٧ ب .
(٣) نفس المصدر ص ١٥٩ ب .
(٤) نفس المصدر ص ١٦١ ب ، ١٦٢ ب ، وقد وصف الطبيب ثابت بن سنان حال الذراع بعد قطعها ، انظر مسكويه ج ٥ ص ٥٨١ — ٥٨٢ .
(٥) كان فى خزانة كتب عضد الدولة بشيراز مصحف بخط أبى على بن مقلة فى ثلاثين جزءاً مجلداً — الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٤٦ ، وانظر ثمار القلوب للثعالبى ص ١٦٧ .
(٦) كتاب العيون ص ١٦٢ ب — ١٦٣ ا .
(٧) نفس المصدر ص ١٦٣ ا .

بالليل والنوم بالنهار فى أيام وزارته كلها ، وكان ينتبه مخموراً لا فضل فيه للعمل ، فيترك فضّ الكتب الواردة من عمال الخراج وقراءتها والتوقيعَ عليها وإخراجها إلى الدواوين . وكانت تُعمل له جوامع مختصرة لما يرد من الكتب المهمة ، فتُعرض عليه إذا انتبه ، فربما قرأها وربما لم يقرأها ، فيقرؤها أبو الفرج إسرائيل النصرانى ، ويوقّع فيها بحسب ما يرى (١) . وكان الخصيبى مشغولا بالشراب واللعب ، ولا يحسن شيئاً غير المصادرات (٢) .

وقد تولى الوزارة حوالى منتصف القرن الرابع أبو محمد الحسن المهلبى ، فكان وزيراً ذا كفاية عظيمة . وأصله من آل المهلّب بن أبى صفرة (٣) ، فهو إذن من سادة الإسلام الأولين . وكان وطن المهالبة بالبصرة ، حيث اتخذوا فى القرن الثالث الهجرى دوراً عظيمة عُرفت بحسنها (٤) . وكان أبو محمد المهلّبى ، قبل الوزارة ، فى شدة عظيمة ؛ وسافر مرة ، وهو على تلك الحالة ، فلقى فى سفره عنتاً شديداً ، واشتهى اللحم فلم يقدر عليه ، وأنشد فى ذلك الوقت شعراً تبرّم فيه بالحياة وتمنى أن يجد أحداً يبيع له الموت فيشتريه ، وسمعه رفيق له ، فاشترى له لحماً بدرهم ، وأطعمه ، وتفارقا . ثم تنقّلت الأحوال بالمهلّبى وتولى الوزارة ، وضاق الحال برفيقه الذى اشترى له اللحم ، وبلغه أنه تقلّد الوزارة فقصده ، وأنشده شعراً ذكّره فيه بعهده به ، فهزّت المهلبيّ أريحيةُ الكرم ، وأمر له بسبعمائة درهم وقلّده عملا يرتفق منه (٥) . وفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م ، وهو العام التاريخى المشهور

(١) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ . وكان اسم إسرائيل من أسماء النصارى التى اختصوا بها .
(٢) نفس المصدر ص ٢٤٧ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٨ .
(٤) كتاب المرواة للثعالبى مخطوط برلين رقم ٥٤٠٩ ص ١٢٩ ب .
(٥) ثمرة الأوراق للحموى على هامش محاضرات الأدباء ج ١ ص ٨٢ .

استولى المهلّبي على بغداد إلى أن وردها معز الدولة[١] . ونجد المهلبي قبل ذلك أى في عام ٣٢٦ هـ — ٩٣٨ م وكيلا لأبي زكريا السوسي ، وكان السوسي هذا من كبار رجال المال[٢] . ثم استخلفه الوزير أبو جعفر الصيمري على الأمور بمدينة السلام ، وأنابه بعد ذلك بحضرة معز الدولة ، فحسُن موقعه عند معز الدولة ومال إليه وقرّبه ، فاشتد ذلك على الصيمري ، فتطلّب للمهلبي الذنوب ، وأطلق فيه لسانَه بالوقيعة[٣] . ولما مات الوزير في سنة ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م استكتبه معز الدولة وآثره على جميع الكتّاب[٤] . ولم يُخاطب بالوزارة إلا في سنة ٣٤٥ هـ[٥] وكان الأصفهاني صاحب الأغاني منقطعاً إلى الوزير المهلّبي ، كثير المدح له ، وهو يصفه بأن له نظماً كالدر ونثراً رقيقاً وقدرة على التعبير عن المعنى الكثير باللفظ القليل[٦] ، ولكن المهلّبي كان إلى جانب هذا قائداً محنّكا ، فمن ذلك أنه هزم صاحب عمان حينما غزا البصرة وغنم منه وأسر[٧] . ولقد مات عام ٣٥٢ هـ — ٩٦٣ م ، وهو خارج لفتح عمان ، وذلك بعد أن لبث في الوزارة أكثر من ثلاث عشرة سنة كان فيها يدبر أمور أكبر ديوان في الدولة[٨] ، وكان مخلصاً في المحافظة على النظام ، فردّ رسومَ الضرائب إلى ما كانت عليه قبل ظلم البريديين[٩] وكان يؤدب العابثين ، فمن ذلك أنه قبض على حاجب قاضي القضاة وضربه

(١) مسكويه ج ٦ ص ١٢١ .
(٢) نفس المصدر ج ٥ ص ٥٧٥ .
(٣) الإرشاد لياقوت ج ٣ ص ١٨٠ .
(٤) مسكويه ج ٦ ص ١٦٥ .
(٥) نفس المصدر ص ٢١٤ .
(٦) اليتيمة ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .
(٧) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ .
(٨) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .
(٩) نفس المصدر ص ١٦٩ .

ضربَ التلف ، وكان يبلغه أن هذا الرجل عاهر « يتعرض لحُرَم الناس ممن لهن خصومة أو حاجة عند قاضى القضاة »[١] . ولكن المهلبى كان يفعل فى بعض الأحيان ما يثير سخطنا ، ومن أمثلة ذلك أنه تعقّب أحد العمال ، وأخذ فى التنقير عن أمواله وفى إرهاب غلمانه حتى ظفر بالمال الكثير ، واستعمل الدهاء والمكر والبطش فى بلوغ ذلك ، وإن كان ليس فى هذا ما يشين عند خلفاء ذلك العهد وأمرائه ، حتى إن مسكويه يذكر صنيع المهلّبى معجباً بذكائه وصدق تخمينه ورضاء معز الدولة عنه[٢] ، بل نجد المهلّبى نفسَه لم يسلم من مثل هذا المصير ؛ فلما مات قبض معز الدولة على عياله وولده ومن دخل إليه يوماً حتى الملاّحين والمُكارين الذين كانوا يخدمون حاشيته ، وصادرهم جميعاً ، وفعل بهم ما لا يُفعل إلا بعدوّ مكاشف حتى استفظع الناس ذلك واستقبحوه[٣] ، وكان المهلبى يجد من سيده أميراً قاسياً ، فكان يلحقه منه أذى كثير ، حتى لقد ضربه بالمقارع مرة مائة وخمسين مقرعة[٤] . ولم يكن على وفاق مع سبكتكين القائد التركى الذى كان أكبر ثقات معز الدولة[٥] ، ولكن المهلّبى كان له على معز الدولة سلطان فى الأمور الهامة ، فلما أراد الأمير أن يترك بغداد لم يزل المهلّبى به حتى صرفه عن رأيه ، فابتنى قصره العظيم ببغداد وبقى بها[٦] . وكان ندماء المهلبى أعيانَ الفضل وسادة ذوى العقل[٧] ، من أهل الأدب والعلوم ، وكانوا يجتمعون على كثير من الشراب والطرب . وقد تكلم مسكويه فى حديث له قصير عن

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٥٨ .
(٤) انظر ما تقدم عند الكلام عن معز الدولة فى الفصل الخاص بالأمراء .
(٥) مسكويه ج ٦ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٦) نفس المصدر ص ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٧) رسالة فى الصداقة للتوحيدى طبعة القسطنطينية ص ٣٣ .

صفات المهلبي وسخائه وآثاره، وإن لم يكن مسكويه من المتحمسين للمهلبي[1]؛ وقد حدث مرة أنه صاغ دواة ومرفعاً، وحلاهما حلية ثقيلة، وكان بعض الكتاب في ديوانه يتذاكرون سرّ حسن الدواة، وذلك على مسمع منه وغفلة منهم، فقال أحدهم ما كان أحوجني إليها لأبيعها وأنتفع بثمنها، فقال له آخر: وأي شيء يعمل الوزير؟ فأجابه: يدخل في حِرِ أمه، فلم يكن من المهلبي إلا أن أهدى الدواة ومعها عطايا أخرى للرجل الذي تمناها[2]. ويحدثنا القاضي أبو علي التنوخي معترفاً بفضل الوزير المهلبي، فيقول إنه استدعاه لصداقة كانت بينه وبين أبيه وقلده عملا، وكان أبو علي يلازم الوزير، فدخل عليه يوماً قاضي القضاة أبو السايب، وكان أبو السايب يبغض أبا علي بزيادة عداوة كانت لأبيه، وأراد الوزير أن يلقي في نفس القاضي رهبة أبي علي حتى يرهبه ويكرمه، وعلم من خلق القاضي أنه لا يجيء إلا بالرهبة، فأخذ الوزير يكلم الفتى، ويوهم قاضي القضاة أنه يساره في أمر من أمور الدولة، وأفهم أبا علي غرضه من هذه المسارة، وأنها شديدة على نفس القاضي، وقال له أن يمضي إليه في الغد ليرى ما يعامله به، فلما جاء إلى القاضي كاد يحمله على رأسه[3].

وكان أشهر الوزراء أواخر القرن الرابع ابن عباد الملقب بالصاحب[4]، (ولد عام ٣٢٦ هـ وتوفي عام ٣٨٥ هـ = ٩٣٨ — ٩٩٥ م)، وزير بني بويه بالري. وكان في بدء أمره معلماً في قرية، ثم ترقت به الحال بعد أن كان

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ١٦٦.

(٢) المنتظم ص ٩١ ب.

(٣) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٢٥٣ — ٢٥٤.

(٤) كان ابن عباد أول من لقب بالصاحب من الوزراء، ثم سمي بهذا الاسم عميد الجيوش حوالي عام ٤٠٠ هـ (ديوان الشريف الرضي طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ ص ٣٢١) وبعد ذلك لقب به «كل من ولي الوزارة حتى خرافيش زماننا حملة اللحم وأخذة المكوس» (ابن تغري بردي طبعة كلفورنيا ص ٥٦).

من صغار الكتاب إلى أن بلغ منصب الوزير المدبّر لأمور الملك ، وكان الأمير الشاب الذى استوزره والذى أنشأ له ابن عباد مملكته لا يخالفه فى أمر من الأمور ، بل حكّمه فى كل شىء وكان يجله بكل ضروب الإجلال[١] ، ولما مات الصاحب وعُمل له ما يعمل للملوك ، فحضر جنازته مخدومُه فخر الدولة وجميع أعيان المملكة ، وقد غيّروا لباسهم ، فلما خرج نعشه صاح الناس صيحة واحدة ، وقبّلوا الأرض لنعشه ، ومشى فخر الدولة أمامه ، وقعد للعزاء أياما[٢] .

وكان ابن عبّاد من الأدباء ومن المعنيين بأهل الأدب . وقد شبّهه مادحوه بهارون الرشيد ، وذلك لأنه أشبه الرشيد بأن جمع حوله أحسن أهل اللّسن ، وكانت له مراسلات مع رؤساء الأدباء بالشام وبغداد أمثال الرضى والصابى وابن الحجاج وابن سكّرة وابن نباته[٣] . وكان فهرس كتبه عشرة مجلدات ، وملك من كتب العلم خاصة ما يُحمل على أربعمائة جمل ، وذلك رغم أنه لم يكن خبيرا بالعلوم الإلهية ، وأنه كان شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد[٤] . وتُذكر له رسالة حسنة فى الطب[٥] ، ولم يكن الصاحب يقدر على عطايا الأدباء عن سعة كما يحكى عمن تقدمه من إجزال العطاء لهم ، فقد « كان لا يزيد على مائة درهم وثوب إلى خمسمائة ، وما يبلغ إلى الألف نادر ، وما يوفى على الألف بديع »[٦] .

وكان الصاحب يعجبه الخزّ خاصة ، وكان يكثر من إهدائه ، فنظر أبو القاسم

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ س ٢٧٣ والصفحات التالية .
(٢) ابن تغرى بردى طبعة كلفورنيا س ٥٧ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٣ س ٣٢ .
(٤) الإرشاد لياقوت ج ٢ س ٢٧٦ ، ٣١٥ .
(٥) اليتيمة ج ٣ س ٤٢ . وما يليها .
(٦) الإرشاد ج ٢ س ٣٠٤ ، ج ٦ س ٢٧٦ . طلب الشاعر المغربى منه خمسمائة دينار فقال له : أنقصنا واجعلها دراهم .

الزعفرانى الشاعر يوما إلى من فى دار الصاحب من الخدم والحاشية ، فوجد عليهم الخزوز الفاخرة الملوّنة ، فكتب قصيدة يطلب فيها كسوة من الخزّ قال فيها :

وحاشية الدار يمشون فى ضروب من الخز إلا أنا

« فقال الصاحب : قرأت فى أخبار معْن بن زائدة أن رجلا قال له : احملنى أيها الامير ، فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية ، ثم قال : لو علمت أن الله تعالى خلق مركوبا غير هذه لحملتك عليه ، وقد أمرنا لك من الخز بجُبَّة وقميص ودرّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب ، ولو علمنا لباسا آخر يُتَّخَذُ من الخز لأعطيناكه »[1] . غير أنه كان من عدم توفيق الصاحب أنه أغضب التوحيدى ، فأثار على نفسه الذم من أقذع الألسنة فى عصره ، على أنه قد وصلت إلينا رسالة من أبى حيان كتبها للصاحب ومدحه بها فى أول اتصاله به[2] ثم انتهت العلاقات بينهما بأن كتب أبو حيان رسالته فى ذمّ الصاحب ، وكان فيها من الإقذاع فى الثلب ما جعلها تعتبر جالبة للنحس والشؤم على من يقتنيها ، ومع هـذا فإنها من أروع آيات النثر العربى ، ومن أحسن ما كُتب فى تصوير شخصيات الناس فى القرن الرابع الهجرى .

فمن ذلك أن أبا حيّان يقول : وكان أبو الفضل بن العميد إذا رآه قال : أحسب أن عينيه رُكّبتا من زئبق ، وعنقه عُمل بلَوْلَب ، وصَـدَقَ ، فإنه كان ظريف التَثنّى والتلوّى ، شديد التفكّك والتفتّل ، كثير التعوّج والتموّج ، فى شكل المرأة المومسة والفاجرة الماجنة[3] . وعن أبى حيان أنه وصف الصاحب

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٣ — ٣٤ ، والإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٢) تجد الرسالة فى الإرشاد ج ٢ ص٢٩٨ والصفحات التالية ، والمؤلف قد فات عليه أن هذه الرسالة من ابن العميد لابن عباد (المترجم) .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

98 بأنه لا يرجع إلى التألُّه والرحمة والرقة والرأفة والرحمة ، والناس كلهم يحجمون عنه لجراءته وسلاطته واقتداره وبطشه ، شديد العقاب ، ضعيف الثواب ... مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، قريب الطيرة ، حسود حقود ، وحسده وَقْفٌ على أهل الفضل ، وحقده سارٍ إلى أهل الكفاية . . . وقد قتل خلقا ، وأهلك ناساً ، ونفى أمة ، نخوةً و بغياً ، وتجبُّرا وزهوا ؛ ومع هـذا يخدعه الصبي ويخلبه الغبي ، لأن المدخل عليه واسع والمأتى إليه سهل ، وذلك بأن يُقال له : «مولاى يتقدم بأن أُعارَ شيئاً من كلامه ورسائله منظومة ومنثورة ، فما جُبت الأرض إليه من فرغانة ومصر وتفليس إلا لأستفيد من كلامه ، وأفصح به وأتعلَّم به البلاغة ؛ لكأنما رسائل مولانا سُوَر قرآن ، وفِقَرُه آيات فرقان ، واحتجاجه من أثنائها برهان ، فسبحان من جمع العالم فى واحد ، وأبرز جميع قدرته فى شخص » .
فيلين عند ذلك ويذوب ، ويلهى عن كل مهمّ ، وينسى كل فريضة عليه ، ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورَق والورِق ، ويسهّل الإذن عليه ، والوصول إليه ، والتمكّن من مجلسه ... ثم يعمل فى أوقات كالعيد والفصل شعرا ، ويدفعه إلى أبى عيسى بن المنجم ، ويقول له : قد نحلتك هذه القصيدة ، امدحنى بها فى جملة الشعراء ، وكن الثالث من المنشدين فيفعل ذلك أبو عيسى ؛ وهو بغدادى محكّك ، قد شاخ على الخدائع وتحنّك ، وينشد ، فيقول الصاحب عند سماعه شعره فى نفسه وَوَصْفَه بلسانه ، ومَدْحَه من تحبيره :
أعِدْ يا أبا عيسى ؛ فإنك والله مُجيد ، زه يا أبا عيسى ! ؛ قد صفا ذهنك ؛ وزادت قريحتك ؛ وتنقّحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول ، حين أنشدتنا فى العيد الماضى ، مجالس تخرّج الناس ، وتَهَبُ لهم الذكاء ، وتزيدهم الفطنـة ، وتحوّل الـكودن عتيقاً ، والحمّر جواداً ؛ ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنية وعطيَّة هنيئة ، ويغايظ به الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى

لا يقرض مصراعاً ، ولا يزن بيتاً ، ولا يذوق عروضاً ... والذى غلّطه فى نفسه ، وحمله على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه أنه لم يُجَبَّهْ قط بتخطئة ، ولا قوبل بتسوئة ، لأنه نشأ على أن يقال : أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ، ولله درّه ما رأينا مثله ، من ابنُ عبدكان مضافاً إليه ؟ ومن ابن ثوابة نقيسه عليه ؟ ومن إبراهيم بن العباس الصولى ؟ من صريع الغوانى ؟ . من أشجع السلمى ، إذا سلك طريقهم ؟ قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الإسكافى فى الموازنة ، وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد فى القراءات ؛ وعلى ابن جرير فى التفسير ، وعلى أرسططاليس فى المنطق ، وعلى الكندى فى الحذق ، وعلى ابن سيرين فى العبارة ، وعلى أبى العيناء فى البديهة ، وعلى ابن أبى خالد فى الخط ، وعلى الجاحظ فى الحيوان ، وعلى ابن كعب فى الفردوس ، وعلى عيسى بن كعب فى الرواية ، وعلى الواقدى فى الحفظ ، وعلى النجار فى البدل ، وعلى ابن ثوابة فى التقفية ... ، فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوّى ويبتسم ، ويطير فرحا به ، وينقسم ، ويقول : ولا كذى ، ثمرة السبق لهم ، وقصرنا أن نلحقهم أو نقفو أثرهم ، وهو فى ذلك يتشاجى ويتحايك ، ويلوى شدقه ، ويبتلع ريقه ، ويردّ كالآخذ ، ويأخذ كالممتنع ، ويغضب فى عرض الرضى ، ويرضى فى لبوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتفاتك ويتمايل ، ويحاكى المومسات ، ويخرج فى أصحاب السماجات ، وهو مع هذا يظن أنه خافٍ على نقّاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال ، وقد أفسده أيضاً ثقةُ صاحبه به ، وتعويله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه ، دلالاً ونزقاً وعجباً واندراء على الناس وازدراء للصغار والكبار ، وجبهاً للصادر والوارد ، وفى الجملة آفاته كثيرة وذنوبه جمة ، ولكن الغنى رب غفور :

ذرينى للغنى أسعى فإنى رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم　　وإن أمسى له حسب وخير
ويقصيه الندىّ وتزدريه　　خليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال　　يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليلٌ ذنبه والذنب جمّ　　ولكن الغنى رب غفور

قال : فكيف تتمّ له الأمور مع هذه الصفات ؟ قلت : والله لو أن عجوزا بلهاء أو أمة ورهاء أقيمت مقامه لكانت الأمور على هذا السياق ؛ لأنه قد أمِن أن يقال له لِمَ فعلتَ ؟ ولِمَ لَمْ تفعل ؟ وهذا باب لا يتفق لأحد ممن خدم الملوك إلا بجدّ سعيد . ولقد نصح صاحبَه الهرويُّ فى أموال تاوية وأمور من النظر عارية فقذف بالرقعة إليه حتى عرف ما فيها ، ثم قتل الرافع حَنَقاً ، هذا وهو يدين بالوعيد ، وقال لى الثقة من أصحابه : ربما شرع فى أمر يحكم فيه بالخطأ فيقلبه جدُّه صوابا ، حتى كأنه عن وحى ، وأسرار الله فى خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفيّة ، ولو جرت الأمور على موضوع الرأى وقضية العقل لكان معلما فى مصطبة على شارع أو فى دارٍ لتانٍ ؛ فإنه يخرج الإنسان بتفقيهه وتشادقه ، واستحقاره واستكباره ، وإعادته وإبدائه ، وهذه أشكال تعجب الصبيان ولا تنفرهم عن المعلمين . ويكون مرحهم به سبباً للملازمة والحرص على التعلم والحفظ والرواية والدراسة . . . .

100

قال (أبو حيان) وكان ابن عباد يقول للإنسان إذا قدم عليه من أهل العلم : يا أخى تكلمْ واستأنس وانبسط ولا تُرَعْ ... ولا يروعك هذا الحشم والخدم ... فإن سلطان العلم فوق سلطان الولاية ... فقل ما شئت ... فلست تجد عندنا إلا الإنصاف ؛ حتى إذا استوفى ما عند ذلك الإنسان بهذه الزخارف والحيل ، وسار الرجل معه فى حدوره على مذهب الثقة ، فاجّه وضايقه ووضع يده على النكتة الفاصلة والأمر القاطع ، تنمّر له ، وتغيّر عليه ، ثم قال يا غلام : خذ بيد هذا الكلب إلى الحبس ، وضعه فيه بعد أن تَصُبَّ على كاهله وظهره وجنبيه خمسمائة

سوط وعصا فإنه معاند ضد .... وليس الخبر كالعيان ، من لم يحضر ذلك المجلس لم ير منظراً رفيعاً ورجلا رقيعاً ... وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل يشغبون ويحمقون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح[1] ... كان ابن عباد لا يسكت عما لا يعرف ؛ قال لكاتبه فى بعض الأيام بعد أن وبّخه وأطال : « بادر إلى عمل حساب بتفصيل باب باب يبين فيه أمرُ دارى ومادخل عليه أمر دخلى وخرجى ، فتفرّد الكاتب أياما وحرّر الحساب على قاعدته وأصله والرسم الذى هو معروف بين أهله ، وحمله إليه ، فأخذه من يده وأمرّ عينه فيه من غير تثبُّت أو فحص أو مسألة ، فحذف به إليه وقال : أهذا حساب ؟ أهذا كتاب ؟ أهذا تحرير ؟ أهذا تقرير ؟ أهذا تفصيل ؟ أهذا تحصيل ؟ والله لولا أنى ربّيتك فى دارى ، وشُغلت بتخريجك ليلى ونهارى ، ولك حرمة الصبى ورعاية الآباء لأطعمتك هذا الطومار ، وأحرقتك بالنفط والقار ، وأدّبت بك كل كاتب وحاسب ، وجعلتك مُثلة لكل شاهد وغائب ، أمثلى يُموّه عليه . ويُطمع فيما لديه ، وأنا خُلقت للحسابة والكتابة ؟ والله ما أنام ليلة إلا وأحصل فى نفسى ارتفاعَ العراق ، ودَخْلَ الآفاق ، أغَرّك منى أنى أجرت رسنك ، وأخفيت قبيحك وأبديت حسنك ؟ غيِّر هذا الذى رفعت ، واعرف قبل و بعد ما صنعت ، واعلم أنك من الآخرة قد رجعت ، فزِدْ فى صلاتك وصدقك ، ولا تعوّل على لحتك وصلابة حدقتك » . يقول الكاتب : « فوالله ما هالنى كلامه ولا أحاك فىّ هذيانه ؛ لأنى كنت أعلم جهله فى الحسابة ونقصه فى هذا الباب ؛ فذهبت وأفسدت وأخّرت ، وقدّمت وكابرت وتعمدت ؛ ثم رددته إليه فنظر فيه ، وضحك فى وجهى ؛ وقال : أحسنت ، بارك الله عليك ، هكذا أردت ، وهذا بعينه طلبت ، لو تغافلتُ عنك فى أول الأمر لما تيقظتَ فى

101

(١) رسالة فى الصداقة لأبى حيان ص ٣٣ طبعة القسطنطينية عام ١٣٠١ هـ .

الثانى ، فهذا كما ترى ، أعجبُ منه كيف شئت »[١] .

96 أما ابن العميد (المتوفى عام ٣٦٠ هـ — ٩٧١ م) فقد صوّره لنا ابنُ مسكويه فى تاريخه ، وكان خازنا لدار كتبه مدة طويلة ، وبقى فى نفسه لابن العميد صورة وأثر قويّان ، حتى إن التوحيدى يهزأ بابن مسكويه ويعيبه بأنه يفسد قوله بكثرة ذكره : قال المهلبى ، قال ابن العميد ، فعل ابن العميد[٢] . وقد ابتـدأ مسكويه بمدح بطله بالقدرة على الحفظ ؛ وكان لهذه المزية فى ذلك العصر قيمة أكبر مما لها اليوم ، يقول المؤرّخ : « وحدثنى غير مرة أنه كان فى حداثته يخاطر رفقاءه والأدباء الذين يعاشرهم على حفظ ألف بيت فى يوم واحـد ؛ وكان رحمه الله أثقل وزنا وأكبر قدراً من أن يتزيّد . . . . وكذلك شعره الذى جدّ فيه وهزل ؛ فإنه فى أعلى درجات الشعر .... فأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلٰهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن يدّعيها بحضرته ، إلا أن يكون مستفيدا أو قاصداً قصد التعلّم دون المذاكرة .... ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التى لا يدعيها أحد كعلوم الحيل التى يُحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة وجرّ الثقيل ومعرفة مركز الأثقال وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون وحيل فى الحروب مثل ذلك ، واتخاذ أسلحة عجيبة بسهام تنفذ أمداً بعيدا وتؤثر آثاراً عظيمة ، ومرايا 97 محرقة على مسافة بعيدة جدا ، ولُطْف كف لم يُسمع بمثله ، ومعرفة بدقائق علم التصاوير . وقد رأيته يتناول التفاحة أو ما يجرى مجراها ، فيعبث بهـا ساعة ، ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قد خطها بظفره ، لو تعمّد لها غيرُه بالآلات المعدة وفى الأيام الـكثيرة ما تأتّى له مثلُها ، فأما اضطلاعه بأمور الملك فقد دلت عليه

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٧٦ — ٢٨١ ، ٢٨٨ — ٢٨٩ — ٢٩٠ .
(٢) رسالة فى الصداقة للتوحيدى طبعة القسطنطينية ص ٣٢ .

رسائله ، ولا سيما رسالته التى يخبر فيها باضطراب أمر فارس وسوء سياسة من تقدمه لها ، وما يجب أن تُتلافى به حتى تعود إلى أحسن أحوالها ؛ « فإن هذه رسالة تُتَعلّم منها صناعة الوزارة » . . . ولما حصل بفارس علّم عضدَ الدولة وجوهَ التدابير السديدة وصناعةَ الملك التى هى « صناعة الصناعات » ؛ ولقّنه ذلك تلقينا ؛ فصادف متعلما لَقْنا ، حتى قال عضد الدولة مراراً : إن أبا الفضل بن العميد كان أستاذنا ، وكان لا يذكره فى حياته إلا الأستاذ الرئيس .

وكان ابن العميد يقود الجيوش ويحضر المعارك ، وكان أسداً فى الشجاعة لا يُصطلى بناره ، ولا يُدخل فى غباره ؛ وكان يركب العمّاريات ، ولا يستقل ظهور الدوابّ لإفراط علة النقرس وغيرها عليه . وكان قليل الكلام نزر الحديث إلا إذا سُئل ووجد من يفهم عنه . وكان لحسن عشرته وطهارة أخلاقه إذا دخل إليه أديب أو عالم متفرّد بفنّ سكت له ، وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورده عليه ؛ حتى إذا طاوله وأتت الشهور والسنون على محاضرته ، واتفق له أن يسأله عن شىء تدفّق حينئذ بحره ، وجاش خاطرُه ، وبُهت من كان عندنفسه أنه بارع فى ذلك الفن ؛ « وما أكثر من خجل عنده من المعجبين بأنفسهم ! » وكان مركزه فى غاية الصعوبة وهو بين أمير لم تكن له بين جنده هيبة إلا بالمداراة والمسامحة فى أشياء كثيرة وإطلاق الأيدى بالعبث ، ولم يكن يستجيب إلى عمارة البلاد « خوفاً من إخراج درهم واحد من الخزانة ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت » ، وبين جند الديلم الذين كانوا يطالبون بالمحالات ، ويثقلون مؤونتهم على الرعية ، ويتواعدون بالليل إلى مواضع غامضة يجتمعون فيها ؛ وربما خرجوا إلى الصحراء بقدر ما يدبرون الرأى فى وجه الحيلة وترتيب ما يريدون ، ولكن ابن العميد استطاع على الرغم من هذا أن يعيد النظام حتى استقام الأمر ، وقامت الهيبة فى صدور

الجند والرعية . ويحكى ابنُ مسكويه أنه كان يكفى ابن العميد أن يرفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار ، فترتعد الأعضاء وتضطرب ، وتسترخى المفاصل ؛ وأنه شاهد ذلك فى مواقف كثيرة . وقد استطاع أن يعرف طبائع الديلم وما فيهم من حسد وجشع ، وأنه لا يملكهم أحد إلا بترك الزينة ، وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ، وبترك التكبر عليهم ، وبالظهور فى مرتبة أوسطهم حالا . ولما رأى ابن العميد أن ابنه يحب أن يسير فى خواصّ الديلم ، ويستميل قلوبهم بالخِلع والهدايا ، ويدعوهم إلى اللعب والصيد ، ويستضيفهم فى الصحراء نهاه عن ذلك ووعظه ألا يسير معهم هذه السيرة ، ولكن النصح لم ينفع ، فتجرّع ابنُ العميد غيظَه ، وزاد ذلك فى مرضه ، حتى مات بهمذان ، وهو يقول فى مجلس خلواته : ما يهلك آلَ العميد ، ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبى يعنى ابنه ، وكان يقول فى مرضه : ما قتلنى إلا جُرَع الغيظ التى تجرّعتها منه[1] .

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٤٥ — ٣٤٧ ، ٣٥١ — ٣٥٨ .

الفصل الثامن

المسائل المالية

إن التشريع الإسلامى فى أمر الضرائب يبدو واضحاً بسيطاً فى كتب الفقه منذ عهد أبى يوسف القاضى إلى أيام الماوردى وفيما جمع من كتب الحديث ؛ ولكنه فى الواقع متشعِّب مع غزارة وصعوبة . ولو أراد الباحث أن يعرف الفروق بين النظم المالية عند المسلمين وعند غيرهم لما استطاع أن يكتفى بدراسة هذه النظم فى البلاد التى كانت تابعة للدولة الرومانية البوزنطية وللدولة الفارسية ؛ وذلك لأنه كانت هناك نظم أخرى فى الضرائب يختلف بعضها عن بعض فى الشام ومصر وشمال إفريقية قبل ظهور الإسلام ، كما كانت ثَمّ فروق بين النظم المالية فى العراق وخراسان وجنوب فارس .

ولم تكن فى الدولة الإسلامية كلها إلا الضرائب الإسلامية الخالصة وهى : ضريبة رءوس أهل الذمة من اليهود والنصارى ، والزكاة المفروضة على المسلمين . وكانت هذه تحسب على أساس الشهور شأنها شأن أجور الأرحاء والمُستغلاَّت والأرض المُقْطَعَة وسائر ما يجرى على المشاهرات . وكانت هذه الضرائب الشهرية تجرى بحسب السنة الهلالية ، وكان التقويم الهلالى يُعمل به فى الواقع فى المدن الكبيرة التى يقلّ اعتمادها على الزراعة ؛ أما فى الأرض الزراعية فلم يكن بدٌّ من أن يتمشى نظام الضرائب مع حال الزّراع وأوقات الغرس والحصاد ، أى أنه لم يكن بدٌّ من السير طبقا للسنة الشمسية [1] .

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٧٣ حيث ينقل المقريزى عن كتاب أخبار أمير المؤمنين المعتضد بالله لأبى الحسين عبد الله بن أبى طاهر .

وكانت هذه السنة الشمسية هى القبطية والشامية فى البلاد التى كانت تحت حكم الروم ، أما فى الشرق فكانت هى السنة الفارسية ، وفى فارس كان يُفتتح الخراج فى إبان النيروز[١] . وإنما آثروا ذلك من قديم الزمان ؛ لأنه وقت الانقلاب الصيفى الذى هو وقت إدراك الغلات ؛ فكان أصوب لافتتاح الخراج فيه من غيره[٢] . ثم جاء ملوك العرب فاقتدوا بملوك الفرس فى المطالبة بالخراج إبان النيروز . ولكن الفرس كانوا يكبسون السنين فى كل أربع سنين بيوم فأبطل الإسلام ذلك ، ونشأ عن عدم الكبس أن الخراج كان يفتتح قبل نضج الزرع . وبينما كان المتوكل يطوف يوماً فى متصيَّد له إذ رأى زرعاً أخضر لم يدرك بعد ولم يستحصد ، وكان المتوكل قد استؤذن فى فتح الخراج ، فقال : من أين يعطى الناس الخراج ؟ فقيل له إن الأمر جارٍ على ما أسسه ملوك الفرس من المطالبة بالخراج فى أثناء النيروز ، فوقع عزم المتوكل على تأخير النيروز سبعة عشر يوماً من حزيران ، تداركا لما فات من عدم الكبس ، ونفذت الكتب بذلك إلى الآفاق ، ثم قُتل المتوكل ، ولم يتمّ له ما دبّر ، فلما قام المعتضد احتذى ما فعله المتوكل فى تأخير النيروز غير أنه نظر من جهة غير التى نظر إليها المتوكل فأخر النيروز إلى الحادى عشر من حزيران ، ثم وضع النيروز على شهور الروم لتُكبس شهوره إذا كبست الرومُ شهورَها ، لا على سنين الفرس من الكبس بشهر فى كل مائة وعشرين سنة . ولما كان لا يمكن ترك السنة الهلالية لأسباب دينية فقد سارت السنتان الهلالية والخراجية مع اختلافهما فى الطول جنباً لجنب ، وحدث اضطراب كبير بسبب تفاضل السنين حتى صارت الجباية الخراجية فى

---

(١) وفى أقصى المشرق أعنى فى الأفغان وما وراء النهر كان الخراج يقبض على دفعتين (انظر ابن حوقل ص ٣٠٨ ، ٣٤١) .

(٢) الآثار الباقية للبيرونى ص ٢١٦ — ٢١٧ من الطبعة الأوروبية .

السنة التى تنتهى إليهـا تنسب فى التسمية إلى ما قبلها ، ولما لم يكن من الجائز كبس سنة الهلال بشهر ثالث عشر ؛ « لأنهم لو فعلوا ذلك لتزحزحت الأشهر الحرم عن مواقعها ، وانحرفت المناسك عن حقائقها ، ونقصت الجباية عن سنى الأهلة بقسط ما استرقه الـكبس منها ، فانتظروا بذلك الفضل أن تم سنة أوجب الحساب المقرّب أن تكون كل اثنتين وثلاثين ســنة شمسية ثلاثاً وثلاثين سنة هلاليـة فنقلوا المتقدمة إلى المتأخرة نقلاً لا يتجاوز الشمسية ... وقد رأى أمير المؤمنين نقل سنة خمسين وثلثمائة الخراجية إلى إحدى وخمسين وثلثمائة الهلالية ، جمعاً بينهما ، ولزوماً لتلك السنّة فيهما » . وهذا جزء من الـكتاب الذى أنشأه أبو إسحاق الصابى فى هذا الصدد[1] .

ومما اختص به نظام المسلمين الإدارى فيما يتعلق بالمال أن دواوين الخراج فى الولايات كانت تقوم مقام خزائن للدولة ، فكانت تُستوفى من مال الخراج النفقاتُ الراتبة وأعطيات الجند ، ثم يُحمل ما يتبقّى إلى بيت المال العام بمدينـة السلام[2] ؛ ولذلك فإن خزانة بغـداد كانت لا تُعنى إلا بدار الخلافة

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٧٥ — ٢٧٧ ، والآثار الباقية للبيرونى ص ٣١ — ٣٣ ، وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٤٣ ، ورسائل الصابى طبعة لبنان ص ٢١٣ — ٢١٥ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ١٩٣ — ١٩٤ ، وكتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ١ ص ٥١ ، وابن حوقل ص ١٢٨ ، ومفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٥٤ . وكذلك كان ولاة النواحى فى الدولة البوزنطية يسقطون النفقات من جملة دخل ولاياتهم . وكانت العادة فى أيام الأمويين أن الخلفاء « إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أُخذ بحقه ، وأنه فضل عن أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرّية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه » انظر كتاب أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها طبعة مجريط ١٨٦٧ ص ٢٢ — ٢٣ . وانظر أيضاً ما حكى عن ابن أبى الفياض فى كتاب سيمونيت Simonet, Historia de Los mosarabes de Espana, Madrid, 1897—1903, s. 158.

وحاجاتها وبشؤون الدواوين وبالجزء الشرقى من بغداد ، لأنه كان بحسب رسم خاص تابعاً لدار الخلافة ؛ أما الجانب الغربى ، وهو بغداد الحقيقية ، فكان جزءاً من عمالة بادوريا [١] .

وقد بيّن لنا الخوارزمى أسماء الدفاتر والمواضعات المستعملة فى الدواوين بخراسان فى القرن الرابع الهجرى [٢] ؛ فمنها :

قانون الخراج ، وهو أصله الذى يرجع إليه ، وتُبنى الجباية عليه [٣] .

الأوَراج ، ويُنقل إليه ما على إنسان إنسان ، ويُثبت فيه ما يؤديه دفعة بعد أخرى إلى أن يستوفى ما عليه .

الروزنامج ، ومعناه كتاب اليوم ، لأنه يُكتب فيه ما يجرى كل يوم من استخراج أو نفقة أو غير ذلك .

الختمة ، وهى كتاب يرفعه الجهبذ فى كل شهر بالاستخراج والجمل والنفقات والحاصل كأنه يُختم الشهر به .

الختمة الجامعة ، تعمل كل سنة كذلك .

التأريج ، لفظة فارسية ، معناها النظام ، لأنه كسواد يعمل للعقد لعدة أبواب يحتاج لعلم جملها .

العريضة ، وهى شبيهة بالتأريج ، إلا أنها تعمل لأبواب يُحتاج إلى أن يُعلم فضل ما بينها ، فينقص الأقل من الأكثر من بابين ، ويوضع ما يفضل فى باب ثالث هو الذى تعمل العريضة لأجله « مثل أن تعمل عريضة للأصل والاستخراج ،

---

(١) كتاب الوزراء ص ١١ والصفحات التالية .

(٢) مفاتيح العلوم ص ٥٤ — ٥٦ .

(٣) كانت لفظة Kanon فى العصر التالى لعصر الإمبراطور ديوقلديان هى الاصطلاح العام للضرائب العادية . انظر wilken, Griech. Ostraka, S. 378.

فنى أكثر الأحوال ينقص الاستخراج عن الأصل ، فيوضع فى السطر الأول من سطور العريضة ثلاثة أبواب ، أحدها للأصل ، والثانى للاستخراج ، والثالث لفضل ما بينهما » .

البراءة ، حجة يبذلها الجهبذ أو الخازن للمؤدّى بما يؤديه إليه .

الموافقة والجماعة ، حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ، ولا يسمى موافقة ما لم يُرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع إليه ، فإن انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سمى محاسبة .

وعندنا كذلك أبواب ميزانيـة الدولة لسنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م وهى تقوم على ميزانية عام ٣٠٣ هـ ، فكانت تقسم الميزانية العامة ، على نحو ما كانت تقسم الدفاتر فى دواوين الخراج ، إلى باب الاستخراج أو الدخل وباب النفقات ، وكذلك يقسم باب النفقات إلى النفقات الراتبة والحادثة ، وكانت الميزانية تنتهى بعجز كما هو الحال عندنا . وكانت مقادير خراج العراق وخوزستان وفارس وإيران تُذكر عينا ؛ على حين أنه حتى عام ٢٦٠ هـ — ٨٧٣ م كان يُذكر النوع إلى جانب القيمة بالذهب ، وهذا يدل على تقدم فى النظام المالى فى شرق المملكة الإسلامية . أما فيما يتعلق بالشام والعراق فكان الخراج يُحسب بالعين وبالنوع[1] (الكرّ من الشعير أو الحنطة) . وكانت سيطرة العملة وهى السيطرة التى من شأنها القضاء على سائر القيم الأخرى المتدرّجة وجَعْلُ قيمة الأشياء متوقفة على قيمتها النقدية سبباً فى زوال كثير الضرائب من الرمزية الشكلية التى تفرض لمجرد تقرير الحق فى الضريبة ؛ وهـذه الضرائب هى التى جعلت دفاتر الضرائب فى العصور الوسطى الأوربية كثيرة الأبواب ، ولا نجد من أمثلة هذه

104

(١) Kremer, Einnahmebudget der Abbasiden, S.309 ff.,323. ، كتاب الخراج لقدامة طبعة دى غوى ص ٢٣٩ ، وكتاب الوزراء ص ١٨٨ — ١٨٩ .

الضرائب إلا ما ذكر عن مدينة اسبيجاب على أقصى حدود المملكة الإسلامية شرقاً من أن خراجها أربعة دوانيق ومكنسة تبعث إلى السلطان كل عام مع الهدايا [١] .

وقد جرت العادة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م أن ترسل مع الخراج أو الهدية أشياء طريفة غريبة عن المألوف ؛ ففى عام ٢٩٩ هـ — ٩١١ م أرسل مع مال مصر تيس له ضرع يحلب اللبن ، وفى سنة ٣٠١ هـ — ٩١٣ م وصلت هدايا صاحب عُمان إلى السلطان ، وفيها ببّغة بيضاء وغزال أسود . وفى سنة ٣٠٥هـ وردت من عُمان أيضا هدايا جليلة ، فيها طائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفصح من الببغاء ، وفيها ظباء سود [٢] .

وكان الإقطاع فى المملكة الإسلامية كلها ضربا هاما من ضروب تملك الأرض ، والإقطاع فى المشرق والمغرب على السواء ميراث قديم . ويقول أبو يوسف : فأما القطائع من أرض العراق ، فكل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن فى يد أحد [٣] ، أما فى المغرب فكان الإقطاع نظاما رومانيا ، وكانت أرض الحكومة والأرض التى لا يملكها أحد تنتقل بحسب نظام الإقطاع إلى أفراد الشعب [٤] . أما الخراج الذى يجب أن يدفعه صاحب الأرض المقطَعة فكان

---

(١) المقدسى ص ٣٤٠ ، ويؤيد ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٩ من الطبعة الأوروبية) هذا الكلام حيث يقول إنه لم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلدة لاخراج عليها إلا اسبيجاب ، لأنها كانت ثغراً عظيما ، فكانت تعفى من الخراج ليصرف أهلها خراجها فى ثمن السلاح والمعونة على المقام بتلك الأرض .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ١٦ ا ، ١٩ ا ، ١٥ ب .

(٣) كتاب الخراج ص ٣٢ ، وكان ثمّ إلى جانب القطيعة مايسمى الطُعْمة ، وهى الأرض التى تدفع إلى رجل ليعمرها ويؤدى عشرها ، وتكون له مدة حياته فاذا مات ارتجعت من ورثته ، والقطيعة تبقى لعقبه من بعده — انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٦٠ .

(٤) Becker, ZA, 1905, S.301 ff.

يُحَدّد باتفاق خاص بينه و بين الحكومة ، وهو عند الفقهاء العُشْر[١] . ولم يكن أصحاب الإقطاعات أحسن حالا من غيرهم من أصحاب الضياع العاديين ، وقد حكى التنوخى فى القرن الرابع الهجرى أن الرشيد اعتلّ ، فداواه طبيبه ، فأمر بإقطاعه ما قيمته ألف ألف درهم فقال له : مالى حاجة إلى الإقطاع ؛ ولكن تهب لى ما أشترى الضياع به ، فأجاب الخليفة طلبه وأمر بمعاونته حتى ابتاع ضياعا غلتها ألف ألف درهم ، مؤثرا أن يكون جميع ما يمتلكه ضياعا لا إقطاع فيها[٢] . وكان يقع فى كثير من الأحيان خلاف بين الملاك والعمال فى بعض الأراضى ؛ فيذكر صاحب الأرض أنها قطيعة ، على حين أن عامل الخراج يذهب إلى أنها أرض خراج عادية[٣] . وكانت الأرض المقطعة تعود دائما إلى الحكومة ، وذلك بسبب مُصادرة أصحابها أو نظرا لخرابها ، وكثيراً ما يكون هذا الخراب بسبب الضرائب الباهظة . وفى القرن الثالث الهجرى غلب بنو الصفّار على فارس ، فجلا قوم من أرباب الخراج عنها لسوء المعاملة فقررت الحكومة خراجها على من بقى ، وسُمى

---

(١) كتاب الخراج لقدامة مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص٩٠ ب — ١٩١ : وأرضو العشر ستة أضرب :

١ — الأرضون التى أسلم عليها أهلها ، وهى فى أيديهم مثل اليمن والمدينة والطائف .

٢ — ما يستحييه المسلمون من الأرض الموات التى لا ملك لأحد فيها .

٣ — ما يُقطعه الأئمة بعضَ المسلمين .

٤ — ما يحصل ملكا للمسلمين مما يقسمه الإمام من أرض العنوة بين من أوجف عليها من المسلمين .

٥ — ما صار فى يد المسلمين من الصفايا التى أصفاها عمر بن الخطاب من أرض السواد ، وهى ما كان لكسرى وآله وخاصته .

٦ — ما جلا عنه العدو من أرضيهم لحصل فى يد من قطنه وأقام به من المسلمين مثل الثغور . وكان إلى جانب ديوان الخراج ديوان آخر قائم بذاته يسمى ديوان الضياع . انظر Kremer S.293 ، ولا نجد ذلك بين أسماء الدواوين فى خراسان .

(٢) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٢٠ .

ذلك بالتكملة ، لأنه كمل بها قانون فارس القديم ، ولم تزل هـذه التكملة تُستوفى حتى أعيد افتتاح فارس عام ٢٩٨ هـ ، فتظلّم أهل فارس ، وورد قوم من أجلادهم إلى بغداد لرفع ظلامتهم ، فجمع المقتدر مجلسا من القضاة والفقهاء والكتّاب والعمال والقواد فأفتى الفقهاء ببطلان التكملة ، وصدر كتاب الخليفة بذلك عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م[١] . والظاهر أن أمر التكملة كان شاذًا فى ذلك العهد فى المشرق ، أما فى مصر فقد كانت القاعدة أن تضمن المدينة الأفراد الذين يجلون عن الأرض ، وفى العراق كان لا بد من هذا الضمان فيما يتعلق بالجزية الواجبة على أهل الذمة[٢] ولم يُلغَ نظام ضمان المدينة هذا فى فرنسا إلا قبل الثورة الفرنسية بقليل ؛ وفى الروسيا إلا منذ عام ١٩٠٦ م .

وكانت الحكومة تملك أراضى أخرى تسميها الضياع السلطانية ، وكانت هذه الضياع تزداد فى أيام الرخاء بابتياع أراضٍ جديدة[٣] . أما فى أوقات الشدة فكان يُباع بعضها . وقد حدث فى سنة ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م أن باع الوزير على التجار ضياعا سلطانية ليفى ببداد ما كان قد استسلفه من مالهم[٤] . وكانت هذه الضياع تتعرض دائما للخطر إذا ضعفت الحكومة ، فعند ذلك يقتطع كبارُ الملاك الأقوياء والوزراء بعضها ، ويضيفون ذلك إلى أملاكهم[٥] .

وكان يحدث أن يرغب صغار أرباب الضياع فى الإفلات من عبء الخراج العادى ، فاعتادوا أن يُلجئوا ضياعهم إلى الكبراء الأقوياء ، فكانت تجرى بأسمائهم ، ويُخَفَّف عن أهلها الخراجُ ، فيدفعون العشر فقط كما هو الحال فى

(١) كتاب الوزراء ص ٣٤٠ — ٣٤٢ ، وكتاب العيون ص ١٨٢ ا .
(٢) انظر الكلام عن الجزية فى الفصل الخاص باليهود والنصارى .
(٣) قدامة طبعة دى غوى ص ٢٤١ .
(٤) مسكويه ج ٥ ص ٥٠٥ .
(٥) كتاب الوزراء ص ١٣٤ ، وكتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ١ ص ٥٠ .

106

الإقطاعات ؛ ولكنها تبقى فى أيدى أهلها يتبايعونها ويتوارثونها ، وإن كانت بأسماء من ألجأوها إليهم . وهذه التلجئة نظام قديم ، وقد أوجدها فى مصر على عهد الرومان البوزنطيين كبارُ أصحاب الضياع ، ويُحكى أنها كانت موجودة فى عهد الأمويين [١] ؛ ثم صارت اصطلاحا قائما بذاته بين مواضعات الكتّاب فى دواوين الخراج بخراسان [٢] ، وأصبح لها قسم خاص بها فى القرن الرابع الهجرى ، وكانت شائعة فى فارس بنوع خاص لثقل الخراج فيها [٣] . وفى عام ٤١٥م اعتُبِر المُلْجِئون فى مصر بحكم القانون موالى تابعين للأقوياء الذين احتموا بهم [٤] ، ولكنهم لم يصيروا إلى هذه الحالة قط فى فارس .

ومن وجوه الأموال التى ترد إلى بيت المال أخماسُ المعادن والركاز ، والمال المدفون من دفائن الجاهلية ، وخُمس سَيْب البحر مما يقذف به ويستخرج منه مثل العنبر والحلية ، ومنها أثمان الآباق من العبيد ، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة ، إذا لم يأت لذلك طالب يستحقّه ، ومنها ما يؤخذ من مواريث من يموت ولا يخلّف وارثا له [٥] . وكان لا يؤخذ لبيت المال إلا من ميراث المسلمين فمثلا كتب الخطيب البغدادى (٣٩٢ — ٤٦٣) إلى الخليفة : إنى إذا مت كان مالى لبيت المال (وكان مقدار ذلك مائتى دينار) [٦] . وفى عام ٣١١هـ

---

(١) كتاب الخراج لقدامة طبعة دى غوى ص ٢٤١ .

(٢) مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٦٢ .

(٣) الاصطخرى ص ١٥٨ .

(٤) Matthias Gelzer, Studien zur byzantischen Verwalting Aegyptens, S.72 ff.

(٥) كتاب الخراج لقدامة مخطوط باريس ص ١٩١ — ب . وانظر أيضاً Schmidt, Die occupatio im islamischen Recht, Der Islam, 1, 300 ff.

(٦) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٢ .

— ٩٢٣ م أصدر الخليفة المقتدر كتابا فى أمر المواريث نصّ فيه على أن تُرَدّ تركةُ من يموت من أهل الذمة ولا يخلّف وارثا على أهل ملّته لا على بيت المال ، وذلك عملا بما رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن المسلم لا يرث الكافر وأن الكافر لا يرث المسلم وأنه لا يتوارث أهل ملّتين[١] . وقد تجادل كثير من الفقهاء فى مسألة كبرى من المسائل التى تُبحث حديثا ، وهى مسألة ردّ التركة إلى بيت المال بدلا من ردها إلى الأباعد من ذوى الأرحام ، وقد زاد شأن هذه المسألة عند المسلمين ، لأن كثيراً من الفقهاء ذهبوا إلى أن بعض الأقارب الأدنين لا يجوز أن يحوزوا أكثر من الأسهم المفترضة لهم فى القرآن ، أما ما يفضل عن ذلك فهو نصيب بيت المال[٢] . وفى القرن الثالث الهجرى أنشئ ديوان خاص يسمى ديوان المواريث ، وذلك فى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ = ٨٦٩ — ٨٩٢م) . وكان هذا الديوان مجالا واسعاً لظلم الناس والإعنات فى مواريثهم وأخذ مالم تجرِ به السنّة[٣] . يقول ابن المعتز قرب أواخر القرن الثالث يشكو

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٨ .

(٢) يذهب الشافعية إلى جعل ما يفضل عن السهام المفروضة إلى بيت المال لا إلى ذوى الأرحام الأباعد إن لم يوجد للمتوفى عصبة تحوز باقى ميراثه (انظر Sachau Muhammedanisches Recht, S. 211,247 . وفى عام ٢٨٣هـ — ٨٩٦ م أمر الخليفة المعتضد بردّ الفاضل من سهام المواريث على ذوى الأرحام وإبطال ديوان المواريث ، وصرف عماله (تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٥١) ، ويقول أبو الفدا (ج ٢ ص ٢٧٨ تحت عام ٢٨٣ هـ) ما يؤيد ذلك نقلا عن القاضى شهاب الدين فى تاريخه (توفى القاضى عام ٦٤٢هـ — ١٢٤٤م) ، ثم حذا المكتفى حذو المعتضد وجدد هذا الأمر فى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م . وفى عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م أصدر الخليفة المقتدر أمره بأن يردّ ما يفضل عن السهام المفترضة إلى ذوى الرحم الذين لا فرض لهم فى القرآن إذا لم يكن للمتوفى من يحوز ميراثه من ذوى السهام ، وفى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م أمر معز الدولة برفع المواريث الحشرية ، وفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٧م رد المواريث الحشرية إلى ذوى الأرحام — انظر المنتظم لابن الجوزى ص ٩٨ ب ، ١٠٠ ا

(٣) انظر كتاب الوزراء ص ٢٤٦ — ٢٤٩ ، عريب ص ١١٧ — ١١٨ .

ما يجرى على أصحاب المواريث[١] .

وويل من مات أبوه موسرا	أليس هـــذا محكا مشتهرا
وطال فى دار البلاء سجنه	وقيل من يدرى بأنك ابنه
فقال جيرانى ومن يعرفنى	فنتفوا ســـباله حتى فنى
وأسرفوا فى لـكمه ودفعه	وانطلقت أكفهم فى صفعه
ولم يزل فى أضيق الحبوس	حتى رمى لهم بالـكيس

وقد استطاع الخليفة الراضى أن يكبح شهوة الأمراء للاستيلاء على مواريث الناس ، فقد حدث أن رجلا مات وخلّف مالا عظيما ، فوجّه ابنُ رائق من حمل من داره وحوانيته مالا ومتاعا ، فلما عرف الراضى ذلك أنكره وأنفذ إلى ابن رائق بما أقلقه ؛ فأمر برد جميع ما أخذ من المال إلى موضعه[٢] . على أن سيف الدولة المعروف بشجاعته والمشهور بشعرائه وسوء حكمه كان يأخذ المواريث أخذاً رسميا ، ففى عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م عين أبا حسين على بن عبد الملك الرقى قاضياً على حلب ، فكان هذا القاضى يصادر التركات ويقول : التركة لسيف الدولة ، وليس لأبى الحسين إلا أخذ الجعالة[٣] . وقد تكلم المقدسى عن ركن الدولة وأهل بيته من الأمراء فعدد بعض مساوئهم ، ولـكنه أكد من فضائلهم بنوع خاص أنهم « لهم سياسة عجيبة ورسوم ردية ، غير أنهم لا يتعرضون للتركات »[٤] .

وكان كثير من الحكام يحاولون أن يعتبروا التركة من غير وارث ليستولوا عليها ، ولـكن لم يوجد فى الإسلام قانون طبّق على المسلمين يشبه مثلا القانون 108

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣١ .
(٢) الأوراق للصولى مخطوط باريس ص ١٤٧ — ١٤٨ .
(٣) Wüstenfeld, Die Staathalter von Aegypten, IV, S.35.
(٤) المقدسى ص ٤٠٠ .

الذى كان فى إنجلترا فى القرن الثالث عشر الميلادى[١] . وكان من محاسن أعمال عميد الجيوش حاكم بغـداد المتوفى عام ٤٠١ هـ — ١٠١٠ م أنه حُمل إليه مرةً مالٌ كثير قد خلفه بعض التجار المصريين ، وقيل له : ليس للميت وارث ، فقال : لا يدخل خزانةَ السلطان ما ليس لها ، يُترك إلى أن يصح خبره ، فلما كان بعد مدة جاء أخ للميت بكتاب من مصر بأنه مستحق للتركة ، فقصد باب عميد الجيوش وأوصل إليه الكتاب ، فقضى حاجته ، ولما وصل التاجر إلى مصر أظهر الدعاء له ، فضجّ الناس بالدعاء له والثناء عليه ، وبلغ عميدَ الجيوش الخبرُ فسُرّ به[٢] . ولكن الأمر لم يكن يجرى هذا المجرى بالنسبة لغير المسلمين ؛ ففى القرن الثانى عشر الميلادى اعتلّ ربى بتاحيا وهو بالموصل ، وقال الأطباء إنها علة الموت ، « ولما كان الرسم هناك فى ذلك الوقت أن تستولى الحكومة على نصف ما يخلفه كل يهودى غريب يموت هناك ، وكان الربى بتاحيا حسن اللباس ، فقد قيل إنه غنى ، وجاء عمال الحكومة لقبض تركته كأنه قد مات » . وكثيرا ما كان يؤخذ جزء من مال الأغنيا فى حياتهم ، وقد نشأ هذا الرسم من أن بعض العمال كانوا يستولون على الأموال بغير حق ، ثم يضطرون إلى إرجاعها ، وهذا شبيه بما فعله نابليون الأول حين ألزم قواده من ذوى اليسار العظيم أن يدفعوا للخزانة مبالغ كبيرة . على أن جميع التجار الذين كانت تُبتَزّ أموالهم كانت لهم معاملات مع الدولة أصابوا منها مالا وفيرا ، أو على الأقل ظن بهم ذلك . يقول ابن المعتز فى وصفه لجور الحكومة فى عهد المعتمد[٣] .

وتاجرٍ ذى جوهرٍ ومال   كان من الله بحسن حال

(١) Caro, Soziale unb Wirtschaftsgeschichte Der Juden, I,317.

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٨ .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣١ — ١٣٢ .

قيل له عنـــدك للسلطان ودائعٌ غالية الأثمان
فقال لا والله ما عندى له صغيرة من ذا ولا جليله
وإنمـا أربحت فى التجاره ولم أكن فى المال ذا خساره
فدخنوه بدخان التبن وأوقـــدوه بثقال اللبن
حتى إذا مل الحياة وضجر وقال ليت المال جمعاً فى سقر
أعطاهمو ما طلبوا فأطلقا يستعمل المشى ويمشى العنقا

109

ونرى من الثبْت الذى يحوى أسماء المصادَرين أنهم كانوا عمالا من عمال الدولة أو جهابذة كانوا يعاملونها [1] . وليس فيما انتهى إلينا من حكايات تتعلق بالمصادرات مثلٌ واحد لأخذ الحكومة أموال العمال الخاصة ظلماً وجوراً من غير طريقة قانونية ، فيحكى لنا ابن مسكويه « أن الوزير أبا على بن مقلة كان يعادى أبا الخطاب بن أبى العباس بن الفرات ، ولم يكن يجد إلى القبض عليه طريقاً ديوانيا ، لأنه كان ترك التصرُّف عشرين سنة ، ولزم منزله ، وقنع بدخل ضيعته » [2] . على أن نظام المصادرة قد تقلّب فى أطوار ، فكان فى أوائل القرن الرابع ضرباً من ضروب العقاب ، وبعد ذلك صار كل من كانت له صلة بالحكومة مشتبهاً فى نقاوة يده ، فكان يصادَر بين حين وآخر . وكان الأخشيد صاحب

(١) كتاب الوزراء ص ٢٢٣ — ٢٢٧ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٣٩٨ . والمصادرة اصطلاح ، والصدر هو الرجوع بعد الامتلاء بالماء ، ويقابله الورد وهو عند اللغويين مثل الرجع ، انظر فهرس الطبرى مثلا ، وكلمة صدر هى المال الذى يؤخذ من المصادر . (هذا ما يقوله المؤلف) ، وهو يذكر أمثلة منها ماعرض فى كلام مسكويه وهو : قد أمر بضرب عنقه إن لم يؤد صدراً من المال ، وصح منها إلى يوم هربه صدر كثير (مسكويه ج ٥ ص ٤٠١ ، ٥٧٢) وفى كتاب الوزراء (ص ٣١٠) ولم يزل الكلوذانى يدبر الأمور حتى مشى كثيراً واستخرج صدراً كبيراً . وفى رسائل الهمذانى (ص ٣٣٢) ، وقد كان الشيخ كتب خطأ عن فلان بصدر من الحنطة إلى بعض وكلائه (وهذا غير موجود فى كتب اللغة) ، ومن هذا صادره على قدر من المال .

مصر وأدرى الحكام بأمور المال بين عامى ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) و ٣٥٠ هـ (٩٦١ م)، يقوم بالمصادرات الكثيرة فى هدوء من جانبه و برود ، فكان يقبض على عماله وخاصته وثقاته و يصادرهم على المبالغ الكبيرة هم وأهلهم ومن يكون فى دورهم يوم المصادرة . وكان أحب إليه أن يأخذ غلمانهم بسلاحهم ودوابهم وثيابهم فيجعلهم بين يديه[١] ، وكان إذا أفلت أحد من المصادرة حيًا لم يسلم من أخذ أمواله بعد وفاته . وكانت طريقة الأخشيد أنه « إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرّض ورثته ، وأخذ منهم وصادرهم ، وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير »[٢] . فنى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م توفى عفان بن سليمان البزاز أجلّ تاجر كان بمصر ، فأخذ الأخشيد من ميراثه نحو مائة ألف دينار[٣] ، ولما مات الوزير أبو محمد المهلّبى (عام ٣٥٢ هـ — ٩٦٣ م) ، بعد أن لبث فى الوزارة ثلاث عشرة سنة ، قبض معز الدولة تركته وصادر عياله ومن دخل إليه يوماً حتى الملاحين والمكارين الذين كانوا يخدمون حاشيته ، وقد استقبح الناس ذلك من معز الدولة واستفظعوه[٤] ، وكذلك لما مات الصاحب بن عباد بعد أن كان وزير فخر الدولة المتحكم فى تدبير الملك له حتى كان لا يعصى له أمرا ، أرسل هذا الأميرُ من أحاط على دار الصاحب وخزائنه ، ووُجد له كيس فيه رقاع أقوام بمائة ألف وخمسين ألف دينار مودعة عندهم ، فطولبوا بذلك ، ونُقل ما كان فى الدار والخزائن إلى دار فخر الدولة[٥] . وكان أهل المال يستعملون جميع الوسائل لإفساد خطة المصادِرين وخداعهم ، فمن ذلك أنهم كانوا يودعون أموالهم عند ناس

(١) المغرب لابن سعيد ص ١٦ — ١٧ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٦ .
(٣) نفس المصدر ص ١٧ .
(٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٥٨ .
(٥) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٧٠ .

كثيرين[١] ، ويلحنون أسماءهم ويكنّون عن ألقابهم[٢] .

ولما اعتُقل ابن العميد عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م وأيقن أن القوم قاتلوه وأنه لا ينجو منهم وإن بذل ماله ، أخرج من جيبه رقعة فيها ثبت ما لا يحصى من ودائعه وكنوز أبيه وذخائره ، فألقاها فى كانون نار بين يديه ، وقال للموكّل به : اصنع ما أنت صانع ، فوالله لا يصل من أموالى المستورة إلى صاحبك دينار واحد فما زال يعرضه على العذاب إلى أن تلف من غير أن يخبرهم بشىء[٣] . ولما صح عند الخليفة المتقى قتلُ بجكم ركب المتقى إلى داره ، وحفر أماكن فيها ، فحصل له من مال بجكم ما يزيد على ألفى ألف عيناً وورقا . ثم أمر بغسل التراب ، فأخرج منه ستة وثلاثون ألف درهم[٤] . ولكن بجكم كان قد دفن أمواله فى الصحراء ، ولم يقتصر على ما دفنه فى البيوت ؛ فكان الناس يتحدثون بأنه يقتل من يعاونه فى ذلك ، لئلا يدلّ عليه فى وقت آخر ؛ وبلغ بجكمَ مايقوله الناس فأنكر ذلك وحكى لسنان بن ثابت ما كان يفعله إذا أراد دفن مال فى الصحراء : كان يُحضر إلى داره بغالا عليها صناديق فارغة ، فيجعل المال فى بعضها ، ويدخل من يريد أن يكون معه من المساعدين فى البعض الآخر ، ويطبق عليهم ؛ ثم يأخذ مقود قطار البغال بنفسه ، ويسير إلى حيث يريد ، ثم يفتح عن الرجال فيحفرون ، ويدفن المال ، وبعد ذلك يردّ الرجال إلى الصناديق ويطبقها عليهم ، ويعود ؛ فلا يدرى الرجال إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين أتوا ، وكان هو يجعل لنفسه علامات يهتدى بها ، وبهذه الطريقة استغنى عن القتل ، وأقسم لثابت

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٧٤ .

(٢) المنتظم ص١٩٣ ب .

(٣) الإرشاد ج ٥ ص ٣٥٠ .

(٤) المنتظم ص ٦٨ ب .

أنه لم يقتل أحداً من أجل دفن المال ، وأن ذلك من تشنيع الناس[١] .

وفى عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م ، توفى أبو على خازن معز الدولة ، وكان رجلا كثير التمويه متفاقراً يظهر الفقر والاقتصاد ، حتى كان معز الدولة يعتقد أنه بائس لا يملك شيئاً ، فاستأذن الوزير المهلّبى معزّ الدولة فى البحث عن أمواله ، واستعمل طريقة رجال الشرطة فقبض على غلمانه ، وكان يخلو ببعضهم ويرهبه ويرغّبه حتى استطاع أن يعرف أن أبا على الخازن طرد غلاماً له مزيّنا حبشيا من حجرة موسومة به ، وجلس فى هذه الحجرة للخلوة أياماً ، فعبر الوزير المهلبى دار أبى على والتمس حجرة المزيّن ، فحفر فيها فظفر بمال ، وكان فى جملة المدفون آلة شبيهة بالميزان من خشب الساج لا شىء فيها فعجب منها ، ثم قلبها فوجد عليها كتابة بخط ردىء ، فإذا هى أسماء قوم ورموز لا يفهم منها شىء ، فلم يشك الوزير أنها أسماء قوم مودَعين وأن الرموز مبلغ ما عندهم من المال ، ولم يزل يستعمل الدهاء والتخمين فى فك الرموز ومعرفة المعاملين حتى صحّ له ذلك ، وبطش بمن اهتدى إليه حتى حصل منهم على المال[٢] . وكان أحد الأغنياء إذا مات جرَّ موتُه النكبةَ لأهله ولكل من يتصل به من الكتاب والجهابذة والأصدقاء ، فكانوا يهربون ويستترون ويمتنعون من تسليم الوصية للحكومة ، حتى لا تهتدى إلى مكان التركة ووجوهها ، وقد حدث مثل هذا عند وفاة أحد العلويين إلى أن تقرر أمر التركة أخيراً على خمسين ألف دينار تُحمل إلى الخزانة صلحاً على التركة[٣] .

١٩٤

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٩ — ٤١ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٤ — ٢٤٩ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

والرسوم الجمركية غير جائزة فى الشريعة الإسلاميـة إذا دققنا النظر فى أحكامها . ورغم هذا فإن مراصد المكوس كانت منتشرة فى كل مكان . وقد حاول الفقهاء أن يحلوا هـذه المسألة بأن اعتبروا الضرائب الجمركية داخلة ضمن الزكاة ، وهذا بالنسبة للمسلمين على الأقل ، ومن هذا نشأت فكرة أن التاجر يستطيع أن يطوف عاماً كاملا أيما شاء من حدود البلاد معفى من المكوس متى دفع المكس مرة واحدة وهو العشر ، وأنه لا بد له أيضاً أن يدفع ضريبة ما معه من عين المال على معدّل ربع العُشْر [1] . وكانت التعريفة الجمركية فى الواقع مختلفة ، فكان يؤخذ فى جُدّة عن كل حمل من الحنطة نصف دينار وكيل من فرد

---

(١) ترجمة فستنفلد لمختصر صبح الأعشى ص١٦٢ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦١ ، ٤٦٣ . يجب على غير المسلمين من التجار من حيث الحكم النظرى أن يدفعوا عن بضائعهم عند الحدود من الضرائب ما يدفعه المسلمون فى تلك البلاد ، وهو العشر عادة ، ويعطى بذلك براءة تعفيه من المرور دون أن يدفع شيئا مدة عام (انظر شرح السرخسى المتوفى عام ٤٩٥ هـ — ١١٠٢ م) على الشيبانى مخطوط ليدن ، كما ذكر ذلك دى غوى : (De Goeje, Internationale Handelsverkeer in de Middeleeuwen, Verslagen Mededeelingen der K. Akad. v. Wetenschapen, 1909, S' 265.) ، على أن العلماء ليسوا متفقين فى أمر المكوس ، فبعضهم يقضى بدفع نصف العشر إلا الخمر فيؤخذ عنه العشر (كتاب الخراج ليحيي بن آدم ص ٥١) ، ويذهب البعض الآخر إلى وجوب دفع العشر عموماً (كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٦ — ٨٠) والمفتى به عند الشافعية أن للامام أن يزيد عن العشر أو ينقص عنه إلى نصفه للحاجة إلى زيادة الاستيراد وأن يرفع المكس رأساً إذا رأى فى ذلك مصلحة ، وعلى أى حال فان الضريبة كانت شخصية . وإذا عاد التاجر الذى دفعها فى أثناء السنة ومعه بضائع لا يلزم بدفع شىء إلا إذا كان قد وقع التراضى معه على ذلك (مختصر صبح الأعشى للقلقشندى ترجمة فستنفلد ص ١٦٤ ، وصبح الأعشى نفسه ج ٣ ص ٤٦٣ من طبعة القاهرة (دار الكتب) ، وليس عندنا معرفة دقيقة نستطيع استخلاصها مما ذكر من أن التاجر أبا دلف الذى سافر إلى الصين عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م دفع العشر عن بضائعـه فى الصين (ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة صين) ، ومن أن مراكب الروم والأسبان والمغاربة كانت تلزم بأن تدفع العشر للسلطان فى طرابلس (ناصر خسرو ص ١١٢) لأن كلمة عشر يمكن أن تؤخذ بمعنى الضريبة وبمعنى أخذ الضريبة . على أن المعاهدات التجارية التى أبرمت مع البيزيين سنة ١١٥٤ ، ١١٧٣ م تنص على أن تكون الضريبة هى العشر . انظر Schaube, Handelsgeschichte der roman. Völker, S. 149 ff.

الزاملة ، وعلى سفط ثياب الشطوى ثلاثة دنانير ، وعلى سفط الدبيقى ديناران ، وعن حمل الصوف ديناران . وكان يؤخذ بالقلزم (السويس) عن كل حمل درهم ، وكانت تفرض رسوم فى الموانى العربية الأخرى . ولكن المكوس كانت أقل مما تقدم ، وكانت الضرائب تؤخذ بالإسكندرية على المراكب الآتية من الغرب وبالفرما على مراكب الشام[1] . وكان لصغار ملوك العرب على اختلافهم مراصد برّية تدفع إليها الضرائب على تفاوت فى القيمة ، فكان بعضهم يأخذ نصف دينار عن كل حمل ، وأكثرهم كان لا يأخذ عن الحمل إلا درهما[2] . أما العراق فكانت كثيرة المراصد فى البر والبحر والنهر ، وكانت البصرة مشهورة بتفتيش صعب وشوكات منكرة . وفى عهد المقدسى كان على باب البصرة عند حدود مملكة الخليفة من حدود القرامطة ديوان للقرامطة وديوان آخر للديلم ، حتى لقد كان يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم (أى ضعف ثمنها) . وكان الديوان لا يفتح إلا ساعة من النهار[3] . وكان يؤخذ من كل حمل دخل اليهودية ، وهى القسم التجارى فى أصفهان ، ثلاثون درهما[4] . وكان الخراج فى طوران يؤخذ عن الحمل ستة دراهم إذا دخل وكذلك إذا خرج ، ومن الرقيق اثنا عشر إذا دخل حسب ، وإن كان من نحو الهند فعشرون من الحمل ، وإن كان من قبل السند فعلى حسب القيم[5] .

---

(١) المقدسى ص ٢١٣ والصفحات التالية ، وكانت الضرائب فى عدن ثقيلة ؛ وقد قُدّر أنه يصل إلى خزانة السلطان ثلث أموال التجار . ويظهر أن هذا كان يختص بعمان أيضاً كما فى بعض النسخ (انظر ص ١٠٥ فى الهامش) .

(٢) مقدسى ص ١٠٥ .

(٣) نفس المصدر ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٠٠ .

(٥) نفس المصدر ص ٤٨٥ .

وكانت تؤخذ فى المملكة الأسلامية ضرائبُ على الصادرات، كما كان الحال فى كل العصور القديمة . وقد نص الفقهاء على أنه ينبغى أن يكون للإمام مسالح على المواضع التى تنفذ إلى بلاد أهل الشرك ، فيفتشون من يمرّ بهم من التجار ؛ فمن كان معه سلاح أُخذ منه ورُدّ ، ومن كان معه رقيق رُدّ ، ومن كان معه كتب قُرئت كتبه ، فإن كان فيها خبر من أخبار المسلمين قد كُتب به أُخذ الذى أصيب معه الكتاب وبُعث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه(١) . وفيما وراء النهر كان لا يعبر الرقيق نهر جيحون إلا بجواز من السلطان . ويؤخذ مع الجواز من سبعين إلى مائة درهم ، وكذلك على الجوارى بلا جواز إذا كانوا أتراكا ، ويؤخذ على المرأة عشرون إلى ثلاثين درهما ، وعلى الجمل درهمان ، وعلى قماش الراكب درهم(٢) . أما فى بلاد طوران فكان يؤخذ الخراج من كل ما خرج إلا الرقيق ، فكان لا يؤخذ عنه إلا إذا دخل(٣) . وفى جنوب جزيرة العرب كان لا يؤخذ بمدينة عثّر إلا عمّا يخرج(٤) . وكان يعطى للمصدِّرين جوائز بكرمان ، وذلك لكثرة التمر ، حتى إن الجمالين كانوا يحملون التمر مناصفة إلى خراسان ؛ ويقصدها كل سنة نحو مائة ألف جمل ، ويعطى السلطان كل جمل ديناراً(٥) . وقد وصف الرحالون صعوبة التفتيش فى عدن بنوع خاص(٦) . وشكا ابن جبير الرحالة الأندلسى فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) مما عومل به فى الإسكندرية ، قال : « فمن أول ما شاهدنا فيها يومَ نزولنا أن طلع

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١١٧ .
(٢) المقدسى ص ٣٤٠ .
(٣) نفس المصدر ص ٤٨٥ .
(٤) نفس المصدر ص ١٠٤ .
(٥) نفس المصدر ص ٤٦٩ .
(٦) نفس المصدر ص ١٠٥ ، فى الهامش .

أمناء إلى المركب من قِبَل السلطان بها لتقييد جميع ما جُلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكُتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسُئل كل واحد منهم عما لديه من سِلَع أو ناضّ ليؤدى زكاة ذلك كله ، دون أن يُبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يَحُلْ ، وكان أكثرهم مشخّصين لأداء الفريضة ، لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم[١] ، فألزموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل هل حال عليه حول أم لا ، واستُنزل أحمد بن حسان منا ليُسأل عن أبناء المغرب ، وسلع المركب ، فطيف به مرقباً على السلطان أولا ، ثم على القاضى ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ؛ وفى كلٍ يُستفهم ثم يقيَّد قوله فخُلِّى سبيله ، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم ، وما فضل من أزودتهم . وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ، وحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان فاستدعوا واحداً بعد واحد ، وأُحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دقّ منها وما جلّ ، واختلط بعضهم ببعض ، وأُدخلت الأيدى إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا ، وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثُر الزحام ، ثم أُطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم ، نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك »[٢] .

ولما كان من الأمور المقرَّرَة أن الدولة الإسلامية ملك للمسلمين ، فقد

---

(١) يقضى الفقهاء بإعفاء الزاد من الضرائب — ترجمة فستنفلد مختصر صبح الأعشى ص ١٦٢ .

(٢) رحلة أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى ، طبعة ليدن سنة ١٨٥٢ ص ٣٥ — ٣٦ .

قُضى منذ أول عهد الإسلام بالفصل بين بيت المال العام و بين خزانة الخليفة ، وهى المسماة بيت مال الخاصة ؛ ولكن لما كان الذى يتولى الإنفاق من هاتين الخزانتين رجلا واحداً لا يقدم حساباً لأحد ، فقد كان مدى انفصالها مسألة تتعلق بضميره[١] . ولذلك ترددت حكايات مؤثرة فيما بعد تبيّن مقدار عناية كل من أبى بكر وعمر بالفصل بين مال المسلمين وما لهم الخاص . وكان هناك توازن بين بيتى المال ، فكان إذا نفد ما فى بيت المال العام يجب على بيت مال الخاصة أن يمد يد المعونة حتى لا تفلس الدولة[٢] . وعندنا دليل من رقعة للوزير على ابن عيسى ، على أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠١ م) ، وكذلك الخليفة المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ = ٩٠١ — ٩٠٧م) ، على ما عرف به من النظر فى القليل اليسير ، كانا ينفقان من بيت مال الخاصة الجملة بعد الجملة[٣] . ولم يكن اللجوء إلى بيت مال الخاصة فى عهد المعتضد قد صار رسماً جارياً ، ومما يحكى أن أحد الوزراء استخلف ابنه على الوزارة لما خرج من بغداد ، فضاقت الأموال على الولد ، واشتدت المطالبة بالاستحقاقات ، فدعته الضرورة إلى طلب قرض من الخليفة ، فكتب الوزير لابنه موبخاً معنفاً ، وأعلمه أنه قد أخطأ وأساء ، وجنى على نفسه ، وعلى أبيه جناية لا يمكن تلافيها ، وأنه كان يجب أن يستسلف المال من التجار ، ويلتزم من ماله ومال أبيه قدر الربح فيه ، ولا يفعل ما فعله[٤] . وفى عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ =

(١) كان للوزير ، وهو رئيس بيت المال العام ، شىء من الإشراف على بيت مال الخاصة أيضاً لأنه كان يوقع فى آخر رقاع الصرف بعد توقيع كبار رؤساء الحاشية (كتاب الوزراء ص ١٤٠) .

(٢) وفى عصرنا هذا كثيراً ما رأينا السلطان عبد الحميد يمد بيت المال من ثروته .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٨٤ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٨٧ — ١٨٨ .

٩٠٧ — ٩٣٢ م) استُنزف بيت مال الخاصة ، وذلك لأن المال أُخذ منه بزعم إعادته متى تحسّن الحال ، وفى عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م عرض الوزير على المقتدر ما كان من العجز وهو سبعمائة ألف دينار وقال له : ليس لى معوّل إلا على ما يطلقه أمير المؤمنين لأنفقه ، فعظم ذلك على المقتدر ؛ وكتب أحد المتطلّعين للوزارة إليه رقعة يضمن فيها القيام بجميع النفقات من غير أن يطلب منه شيئاً ، وأن يستخرج سوى ذلك ألف ألف دينار تذهب إلى بيت مال الخاصة ، فقلّده الخليفةُ الوزارة ؛ ولكنه عُزل فى العام التالى ، ووُجد أنه احتال بأن أضاف إلى ما يقدَّر حصولُه من النواحى أموالَ نواحٍ قد خرجت عن يد السلطان بتغلّب من تغلب عليها ، وأسقط من النفقات زيادات الجند والحاشية ، ولم يسقط من الأموال التى يُقَدَّرُ حصولُها من النواحى ارتفاعَ ما باع من الضياع . وإنما أراد بهذا كله أن يجعل تقدير النفقات مقارباً لارتفاع الأموال من النواحى ليسكن بذلك قلب المقتدر ، فكانت الحسبة التى قدمها مموّهة[1] . وفى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م طلب الوزير من الخليفة خمسمائة ألف دينار ليفرقها فى الجند ، فامتنع عليه . ثم أنفذها إليه بعد التهديد[2] .

وكان يجب على الخليفة بحكم أنه الرئيس الروحى للمسلمين أن يقوم بنفقات موسم الحج ، ونفقات الغزوات الصائفة ، وفداء أسرى المسلمين ، والقيام بنفقات الرسل الواردين ، وذلك من بيت مال الخاصة[3] . أما العطايا وكل ما يتعلق

(١) مسكويه ج ٥ ص ٣٥١ — ٣٥٢ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٧٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٢ ، ولذلك نجد الوزير ابن الفرات يطلب من المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه فى نفقات عيد النحر فيمنعه الخليفة ويلزمه القيام به من جهته ، كتاب الوزراء ص ٢٨ .

بنفقات دار الخلافة ، فكان يؤخذ من بيت المال العام[١] . وعندنا بيان يرجع إلى أول القرن الرابع مشتمل على وجوه الأموال التى تُحمل إلى بيت مال الخاصة[٢] .

(١) الأموال المخلّفة التى يتركها الآباء لأبنائهم فى بيت المال . ويقال إن الرشيد خلّف أكبر مقدار من المال وهو ثمانية وأربعون ألف ألف دينار ، وكان المعتضد (٢٧٩—٢٨٩ هـ) يستفضل فى كل سنة من سنى خلافته ، بعد النفقات ، مما كان يحصله بيت مال الخاصة ألف ألف دينار ، حتى اجتمع فى بيت المال تسعة آلاف ألف دينار ، وكان يريد أن يتممها عشرة آلاف ألف دينار ، ثم يسبكها ويجعلها نقرة واحدة ؛ ونذر عند بلوغ ذلك أن يترك عن أهل البلاد ثلث الخراج فى تلك السنة . وأراد أن يطرح السبيكة على باب العامة ليبلغ أصحابَ الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار وهو مستغنٍ عنها ، فاخترمته المنية قبل بلوغ الأمنية[٣] . ثم جاء المكتفى بعد المعتضد (٢٨٩ هـ — ٢٩٥ هـ) فأبلغ المدّخر إلى أربعة عشر ألف ألف دينار[٤] .

(٢) مال الخراج والضياع العامة الذى يرتفع من أعمال فارس وكرمان (بعد إسقاط النفقات) ؛ وبلغ مقدار ذلك فى كل سنة منذ عام ٢٩٩ هـ إلى ٣٢٠ هـ (٩١١ — ٩٣٢م) ثلاثة وعشرين ألف ألف درهم ، منها أربعة آلاف ألف درهم

---

(١) كتاب الوزراء ، ص ١٠ والصفحات التالية .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٣٨١ — ٣٨٥ وهو بيان الأموال التى أتلفها المقتدر .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٨٩ ، وكان بيت مال الخاصة الذى بناه المعتضد قلعة قد صب فى أتقالها الرصاص ، وكانت الأكياس التى يوضع فيها المال تختم بخاتم خازن بيت المال ، وكان بعض الملوك فى القرن الرابع يجعلون المال فى الصناديق إلا الأخشيد صاحب مصر فانه لبعد نظره كان يقول : لا تجعلوا المال فى الصناديق فان الصناديق مطلوبة ؛ بل اجعلوها فى خزائن السلطان ، فكانت توضع فى أعدال الجواشن (المغرب لابن سعيد ص٤٤) .

(٤) انظر عدا مسكويه كتاب الوزراء ص ٢٩٠ وما بعدها (ويحكى الصابى فى كتاب الوزراء ص ١٣٩ غير هذا) . انظر Elias Nisibenus (الذى ولد عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م) ص ٢٠٠ نقلا عن محمد بن يحيي .

كانت تحمل إلى بيت مال العامة ، والباقى ، وهو تسعة عشر ألف ألف درهم ، إلى بيت مال الخاصة . ويجب أن نسقط من ذلك النفقاتَ الحادثةَ التى تتطلبها هذه البلاد ؛ ففى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م أنفق الخليفة لفتحها ما يزيد على سبعة آلاف ألف درهم[١] .

(٣) أموال مصر والشام ، وكانت جزية أهل الذمّة مثلا تحمل إلى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين ؛ لا إلى بيت مال العامة[٢] . وهذا ما يجب للخليفة نظريا .

(٤) المال الذى يؤخذ من المصادرة لأموال الوزراء المعزولين والكتاب والعمال وما يحصل من ارتفاع ضيعاتهم ، والمال الذى يؤخذ من التركات[٣] .

(٥) ما كان يحمل إلى بيت مال الخاصة من أموال الضياع والخراج بالسواد والأهواز والمشرق والمغرب .

116

(٦) ما كان يستفضله الخلفاء ، فكان كل من الخليفتين الأخيرين فى القرن

---

(١) هذا المبلغ يعرف من مقارنة النصوص ومن أن مال البيعة والفتح بلغ بضعة عشر ألف ألف دينار (مسكويه) على حين أن مال البيعة وحده بلغ فى الدفعة الواحدة ثلاثة آلاف ألف دينار (كتاب الوزراء ص ٢٩٢) .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ١٩٦ ب .

(٣) كان الخليفة يرث مال الخدم ومال من لا ولد له من موالى أسرة الخلافة . ولما كان هؤلاء فى الغالب سادة ذوى مناصب تدرّ الرزق الكثير فان مالا كثيراً كان يجرى إلى خزانة الخليفة ، وفى عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م توفى القائد المسن يأنس الموفّقى ، وكان ذا غلمان وسلاح فكان ينزل عند سور داره من خيار الفرسان والغلمان والخدم ألف مقاتل ، وقد خلف ، فيما خلف ، ضياعا تغل ثلاثين ألف دينار (عريب ص ١١٥ — ١١٦) وفى عام ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م ماتت بدعة المغنية جارية عَريب ، (هكذا تسمى فى الأغانى ج ١٨ ص ١٧٥ — ١٧٩ ، وفى كتاب بغداد لطيفور طبعة Keller ص ٣٠٨ ، وليست عُريب كما يريد دى غوى فى كتاب عريب بن سعيد ص ٥٤) التى لم يكن بين جوارى المأمون امرأة « أضرب منها ، ولا أحسن صنعة ، ولا أحسن وجها ، ولا أخف روحا ، ولا أحسن خطابا ، ولا أسرع جوابا » ، وقد خلفت مالا كثيراً وجوهراً وضياعا وعقارات ؛ فأمر المقتدر بقبض ذلك كله (عريب ص ٥٤) .

الثالث الهجرى (وهما المعتضد والمكتفى) يستفضل فى السنة ألف ألف دينار ، وكان سبيل المقتدر أن يستفضل مثلها فيكون مبلغه فى خمس وعشرين سنة ، خمسة وعشرين ألف ألف دينار أعنى نحواً من نصف ماخلفه الرشيد[١] . ولكن المقتدر أتلف كل هذه الأموال الطائلة حتى لم يبق فى بيت مال الخاصة بعد ما أُنفق فى محاربة القرمطى عام ٣١٥ هـ — ٩٢٧ م إلا خمسمائة ألف دينار[٢] .

ولم يكن فى سائر دواوين الإسلام ديوان أصعب عملا وأكثر أنواعا من ديوان فارس ، لاختلاف ربوعها وتقارب الأخرجة على أصناف زروعها واختلاف أبواب أموالها وتشعُّب الأعمال على المتقلِّدين لها[٣] . وقد نبغ فى دواوينها الكثير من العمال . أما ضرائبها فيقول المقدسى : ولا تسأل عن ثقل الضرائب وكثرتها ، ويقول : قرأت فى كتاب بخزانة عضد الدولة : أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان ، وأصبرهم على الظلم ، وأثقلهم خراجا ، وأذلّهم نفوسا ، وهم لم يعرفوا عدلا قط[٤] . وكانت فارس فى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م تدفع ضرائب تفوق غيرها بكثير[٥] فليس غريبا أن نجد البلخى يخصص لفارس أطول مقالة من مقالاته السياسية[٦] . وربما كان تنظيم هذه البلاد الجبلية متنوعا منذ عهد الساسانيين ، فكان فيها قلاع صخرية بعيدة المنال ، وغابات ، وأشراف يملكون أرضاً واسعة ، فكان هذا من دواعى تكوين نظام إقطاعى كامل منذ ذلك الحين ، حتى إن المقدسى يقول إن أكثر الضياع بها مقتطعة[٧] . ومع هذا كان النظام المالى من النمو

---

(١) هنا خطأ فى كلام المؤلف أصلحته بالرجوع إلى الأصول العربية (المترجم) .

(٢) انظر مسكويه ج ٥ س ٣٠١ ، ٣٨١ — ٣٨٥ .

(٣) الاصطخرى س ١٤٦ .

(٤) المقدسى س ٤٥١ ، ٤٤٨ .

(٥) Kremer, Einnahmeudget, S. 308.

(٦) الاصطخرى س ١٥٦ وما بعدها ، وابن حوقل س ٢١٦ وما بعدها .

(٧) المقدسى س ٤٢١ .

بحيث أن الأكرة الذين كانوا يزرعون الضياع السلطانية بالمقاسمة أو المقاطعة كان عليهم ضرائب يؤدونها دراهم[١] . وكان يفرض الخراج على أساس ما إذا كانت الأرض تسقى أو لا تسقى ، وإذا كانت تسقى فهو على أساس ما إذا كانت تسقى بآلة أم بغير آلة ، فإن كانت لاتسقى بالآلات دُفع عنها مقدار هو المعيار ، ويؤخذ ثلثا ذلك عما يسقى بآلة ونصفه عما لا يسقى قط[٢] . وأما خراج الشجر والغروس المثمرة ومنها الكرم فقد كان الخليفة قد أسقط عنه الخراج ، ولكن أصحاب خراج الزرع شكوا إلى الخليفة المقتدر ثقل الخراج عليهم بسبب ما أُلزموه من التكملة ، فحُرم أهل الشجر مما كانوا يتمتعون به من الإعفاء وفُرضت عليهم الضرائب ، فكان يُدفع عن الجريب الكبير من الكرم ألف وأربعمائة وخمسة وعشرون درهما[٣] ، وعلى كل نخلة ربع درهم[٤] . وكانت الطواحين احتكارا للسلطان ، وكذلك أجرة الدور التى يعمل فيها ماء الورد[٥] . وفى مدن فارس كانت أراضى الأسواق وشوارعها ملكا للحكومة تأخذ عنها أجراً ؛ أما الدور فكانت ملكا لأصحابها .

وكان فقهاء المسلمين يعتبرون كل ما زاد عن الضرائب الشرعية (وهى عشر الأرض والزكاة وجزية أهل الذمة) ضرائب غير قانونية . ولذلك أبطل الوزير التقىّ على بن عيسى المكس بمكة وجباية الخمور بديار ربيعة[٦] . ولهذا السبب أيضاً نجد الخليفة الحاكم بأمر الله فى مصر حينما أراد أن يرجع إلى أصول الإسلام

---

(١) الاصطخرى ص ٥٨ .

(٢) الاصطخرى ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٣) نفس المصدر ص ١٥٧ ، وكتاب الوزراء ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

(٤) مقدسى ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .

(٥) الاصطخرى ص ١٥٨ .

(٦) كتاب العيون ص ٨٢ أ ، وهذه ما يسميها ابن حوقل (ص١٤٢) ضرائب الخمر .

الأولى يسقط جميع الرسوم والمكوس التى جرت العادة بها ، وسرعان ما أعيدت إلى ما كانت عليه فى عهد خلفه[١] . وكما أن فارس كانت هى البلاد المعروفة بخراجها ، فقد كانت مصر أرض المكوس . ويدل بيان وجوه المال فى عهد الفاطميين على أن كل شىء كانت تفرض عليه المكوس ، ولم يسلم من ذلك إلا الهواء[٢] ، وكان لا بد أن يُدفع فى جملة مبلغ الضرائب جزء من اثنى عشر منها « وضيعة » وعُشر « للصرف » وجزء من مائة للبراءة[٣] . والمؤرخون الإسلاميون الذين يعتبرون الإدارة الإسلامية الأولى هى التى تتمشى مع الشريعة يصفون ابن المدبّر الذى ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين بأنه من « شياطين الكتاب » ؛ لأنه أول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر[٤] . ولكن هذه المكوس لم تكن حديثة بل كانت موجودة على عهد البطالسة والرومان والبوزنطيين ، « وكان الإنسان لا يتمالك أن يسأل نفسه : هل بقى بمصر اليوم شىء مما يمكن أن تفرض عليه المكوس بدون مكوس ؟ »[٥] .

ويظهر أن الإسلام فى العهد الأول لم يقض على الكثير من الوسائل الاقتصادية القديمة التى جرت العادة باللجوء إليها لامتصاص ثروة الناس[٦] .

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٢٣ أ ، ١٣٣ ب .

(٢) انظر الخطط للمقريزى مثلا ج ١ ص ١٠٣ وما يليها .

(٣) Hofmeier, Islam, IV, S. 100 ff.

(٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٠٢ . قال أبو الحسن بن المدبر إنه كان يتقلد الديوانين بالعراق يريد ديوان المشرق وديوان المغرب ؛ فلا يبيت ليلة من الليالى وعليه عمل أو بقية منه ، ثم تقلد عمل مصر فكان ربما بات وقد بقى عليه شىء من العمل فيتمه إذا أصبح (ابن حوقل ص ٨٨) ، وكذلك يخبرنا يحيى بن سعيد أن عيسى بن نسطورس الذى تقلد الوزارة بمصر قرب أواخر القرن الرابع الهجرى أحدث رسوما ومكوسا جائرة ، ويحيى بن سعيد مواطن معاصر لعيسى ، وهو نصرانى مثله (يحيى بن سعيد ص ١١٣ ب) .

(٥) انظر Wilken, Griech. Ostraka, 410.

(٦) انظر أوراق البردى (التى نشرها بكر Becker ؟) ، وكان المهدى ١٥٨ — ١٦٩ هـ =

وقد ذكر المقدسى أن الضرائب بمصر ثقيلة وبخاصة فى تنيس وهى مدينة بمصر تحيط بها المياه مشهورة بمنسوجاتها [١] . وقد بلغ من شدة وطأة الضرائب بها وكثرة الرسوم أن أهلها شكوا إلى البطريق وهو مارٌّ بمصر حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م أن الواحد منهم يلزم بدفع خمسة دنانير فى كل عام ، وهو مبلغ لا يقدرون عليه ؛ وتستعمل القسوة فى تحصيله منهم [٢] . وقد بقى النظام القديم قائماً بتفاصيله . وظلت الإسكندرية محافظة على مكانتها الخاصة التى كانت لها فى عهد البطالسة [٣] حتى أوائل القرن الرابع الهجرى ، حيث نجد فى إحصاء أموال الدولة إفرادَ باب خاص عنوانه : مصر والإسكندرية [٤] ، فقد حافظت الإسكندرية على مكانها باعتبارها قسماً مستقلا بجبايته ، كما كان الحال على عهد البطالسة ؛ بل نجد القلقشندى بعد القرن الرابع بكثير ، يقول إن الإسكندرية تؤدى خراجها إلى خزانة السلطان رأساً [٥] . هذا إلى أن حق الملكية المطلقة عند الفراعنة ، وهو الذى ورثه البطالسة والرومان والبوزنطيون كان له شأن كبير فى تشريع العرب المتعلق بالضرائب [٦] .

وكذلك بقى بمصر نظام الاحتكار فى الاقتصاد على قوّته . ويحكى لنا المقدسى الذى زار مصر فى أوائل عهد الفاطميين : « أما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، وأما ثياب الشطوية فلا يمكن القبطى أن

= أول من فرض جباية على الأسواق وجعل عليها أجرة وذلك فى بغداد (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٨١ ، طبعة ليدن ١٨٨٣) وفى مصر (الولاة للكندى ص ١٢٥) .

(١) المقدسى ص ٢١٣ .

(٢) انظر الفصل الخاص باليهود والنصارى .

(٣) Wilken, Griech. Ostraka, S. 433

(٤) Kremer, Einnehmbudget, S. 309

(٥) ترجمة مختصر صبح الأعشى ص ١٥٨ .

(٦) المقدسى ص ٢١٢ — ٢١٣ .

ينسج شيئاً منها إلا بعد ما يُختم عليها بختم السلطان ، ولا تُباع إلا على يد سماسرة عُقدت عليهم ؛ وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ، ثم تُحمل إلى من يطويها ، ثم إلى من يشدها بالقشر ، ثم إلى من يشدها فى السفط وإلى من يحزمها ؛ وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، ثم على باب الفرضة يؤخذ أيضاً شىء ، وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش المراكب عند إقلاعها . ويوجد بتنيس على زقّ الزيت دينار ، ومثل هذا وأشباهه ، ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال ، رأيت بساحل تنيس ضرائبيا جالساً ، قيل . قبالة هذا الموضع فى كل يوم ألف دينار ، ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الإسكندرية ... »[١] . أما فى المشرق فلم تفرض الضرائب على البضائع إلا فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وقد فرض عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢هـ) فى آخر أيام دولته رسوماً على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة وزاد على ما تقدم ومنع من عمل الثلج والقز وجعلها متجراً للخاص[٢] . ولذلك قال الشاعر :

أفى كل أسواق العراق إتاوةٌ   وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم[٣]

ولما عزم صمصام الدولة بن عضد الدولة ببغداد فى عام ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م أن يضع على الثياب الأبريسم والقطن المبيعة ضريبة مقدارها عشر الثمن « اجتمع الناس فى جامع المنصور وعزموا على قطع الصلاة ، وكاد البلد يفتتن فأُعفوا من ذلك »[٤] . وفى عام ٣٨٩ هـ — ٩٩٨ م أُريد مرة أخرى وضعُ العشر على ما يُعمل من الثياب الأبريسميات والقطنيات بمدينة السلام ، فثار الناس

119

---

(١) المقدسى ص ٢١٣ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٥ .

(٣) انظر مادة مكس فى الصحاح للجوهرى .

(٤) المنتظم ص ١٢٣ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٦ ، ٣٣ نقلا عن التاجى للصابى المعاصر لذلك العهد .

وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة ومنعوا الخطبة والصلاة ، وأحرقوا دار الحولى ، فلم يبق فيها جدار قائم ، واحترق ما كان فيها من حسبانات الدواوين ؛ وقبض على جماعة من العامة اتهموا بما جرى وعوقبوا ؛ واستقرّ الأمر على أخذ العشر من قيم الثياب الأبريسميات خاصة ، ووضعت الختوم على كل ما يقطع من المناسج ويباع ويحمل[1] .

ولم يقتصر أمر الضرائب على أدوات الترف ، بل تعداها إلى الضروريات ، ففُرضت ضريبة على الملح . وفى سنة ٤٢٥ هـ — ١٠٣٣ م خاطب الدينورى الزاهد الملكَ فى إزالة ضرائب الملح ، وأعلمه ما يصيب الناس من الأذى بذلك ، فأجاب الملك طلبه ، وكتب برفع هذه الضرائب منشوراً قُرئ فى الجوامع ، وكتب على أبوابها بلعن من يتعرض لإعادة هذه الجباية ، وكان ارتفاعها ألفى دينار فى كل سنة[2] . على أن المصريين لم يثوروا أبداً بسبب شىء من هذه الضرائب .

أما فى الشام فكانت ضرائب البضائع هيّنة ؛ ولكن كان فى بيت المقدس ضرائب ثقال على الرحْبَة ، فلم يكن يجوز لأحد أن يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس إلا بها ، وثَمَّ رجالٌ على أبوابها وآخرون على ما يُباع فيها[3] . وكان من الضرائب التى اختص بها هذا الإقليم ضرائب الحماية على من يكون عنده مركب مثلا ، وكان الذى يأتى من ذلك يعادل ما يأتى من خراج الأرض[4] . وكانت الضرائب

---

(١) كتاب الوزراء ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ١٨٨ ا .

(٣) المقدسى ص ١٦٧ .

(٤) نفس المصدر ص ١٨٩ ، وليس عندنا تفسير لمعنى الحماية يسد مؤلفى ذلك العهد ، وانظر إلى جانب ما ذكره دوزى فى ملحق القاموس (ج ١ ص ٣٣٠) ، فهرس المكتبة الجغرافية ، وكتاب الخطط للمقريزى (ج ١ ص ٨٩) حيث يتكلم المقريزى عن حماية المراكب ويقول إنها كانت تؤخذ بمصر من كل من ركب البحر حتى السؤال والمكدّين .

فى البلاد التى تُبتلى بها تختلف باختلاف الحكام ، يقول ابن حوقل فى كلامه عن الشام : « فأما خراجاتها وأعشارها ومرافق سلاطينها ، فكان ذلك على أوقات مختلفة بقوانين متباينة وجبايات ناقصة وزائدة ، وذلك أنها منذ سنة ثلاثين (٣٣٠ هـ) بين قوم يتطاول أحدهم على الآخر ، وأكثرهم غرضه ما اجتلبه فى يومه وحصّله لوقته ، لايرغب فى عمارة ولايلتفت إليها برؤية ولا إشارة »[١]. وقد رأى هذا المؤلف نفسه ارتفاعَ الشام وما فى ضمنها من الأعمال والأجناد ، ووقف على ذلك من جماعة على بن عيسى ومحمد بن سليمان لسنة ٢٩٦ هـ وسنة ٣٠٦ هـ ، فكان بعد أرزاق العمال ، تسعة وثلاثين ألف ألف درهم[٢].

وكان بيت المال فى كل من هذين القطرين وهما الشام ومصر يقوم بالمسجد الجامع ، وهو شبه قُبّة مرتفعة محمولة على أساطين ، ولبيت المال باب حديد وأقفال ، والصعود إليه على قنطرة من الخشب ، وإذا صُلّيت العشاء الآخرة أُخرج الناس كلهم من المسجد ، حتى لا يبقى فيه أحد ، ثم أُغلقت أبوابه ، وذلك لوجود بيت المال فيه[٣]. ونستطيع أن نسأل : هل هذا من الرسوم المصرية أو الشامية قديماً ؟ وهل كانت خزانة الكنيسة تُحفظ على هذه الصورة ؟ ثم هل كانت الكنيسة فى العصر القديم والعصر البوزنطى خزانة للدولة لا معبداً فقط ؟[٤] نلاحظ أنه حتى القرن الرابع الهجرى كان تضمين الأراضى لمستغليها

120

---

(١) ابن حوقل ص ١٢٨ .

(٢) نفس المصدر ، وكلمة جماعة هنا هى اصطلاح ديوانى معناه الحساب الجامع (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٥٤) .

(٣) كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة طبعة ليدن ١٨٩١ ص ١١٦ ، والمقدسى ص ١٨٢ ، ويحكى الأصطخرى (ص١٨٤) أن بيت مال أهل برذعة ببلاد القوقاز كان بالمسجد الجامع ، ويلاحظ أنه على رسم الشام ، ويصفه بأنه مرصص السطح ، وعليه باب حديد ، وهو على تسعة أساطين .

(٤) قارن Wilken, Griech. Ostraka, S.149.

بمصر يجرى فى المسجد الجامع كل أربع سنين ، فكان ينادى على البلاد صفقات صفقات فى جامع عمرو أمام متولى خراج مصر وكتّابه ، وهذه عادة من عادات المصريين قديماً[١] .

وقد ظلت العراق معظم القرن الرابع (حتى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م) تحت حكم بنى حمدان ، وكانوا أمراء شبه مستقلين ، وهؤلاء الأمراء الذين لم يظهر من بينهم بالأعمال العظيمة والفروسية إلا سيف الدولة صاحب حلب ، جاروا على الرعية جوراً عظيما ، وهو ما يفعله أهل البادية الذين لا يعلمون ولا يحسنون لشىء تعهُّداً . وكانوا أسوأ جميع حكام القرن الرابع . والترك والفرس الذين حكموا فى هـذا القرن هم جميعاً كالآباء لرعيتهم إذا قورنوا بالحمدانيين . ومما نشأ عن طبيعتهم البدوية أنهم كانوا لا يبالون بالشجر ، ففى سنة ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م أغلقت مدينة حلب أبوابها فى وجه عسكر سيف الدولة ، فاقتلعوا كل الأشجار الجميلة المحيطة بالمدينة ، وكانت هذه الأشجار كما يقول الشاعر الصنوبرى المعاصر لذلك العهد أكبر ما ازدان به الإقليم[٢] . وقد اغتصب الحمدانيون أكثر أرض العراق واشتروا منها القليل بسهم من أعشار ثمنها[٣] ، حتى صارت الموصل وأكثر أعمالها ملكا لناصر الدولة ، وكان يضايق أصحاب الأرض حتى يلجئهم إلى البيع بأوكس الأثمان ، وطالت حياته وامتدت أيامه حتى استولى على الناحية مِلْكا ومُلْكا[٤] ، وقد اكتسح الحمدانيون أشجار الفاكهة والبساتين ، وجعلوا مكانها الغلات والحبوب مثل القطن والأرز والسمسم ، وجلا كثير من أهل هذه البلاد ، وكان ممن جلا بنو حبيب ، وهم بنو عم بنى حمدان ، فقد خرجوا

---

(١) الخطط المقريزى ج ١ س ٨٢ .

(٢) Wüstenfeld, Die Staathalter von Aegypten IV, S. 36

(٣) ابن حوقل س ١٤٣ وما يليها .

(٤) مسكويه ج ٦ س ٤٨٥ — ٤٨٦ .

بذراريهم ومواشيهم فى اثنى عشر ألف فارس إلى بلد الروم، حيث أُنزلوا على كرائم الضياع ، ثم عادوا إلى بلاد الإسلام على بصيرة بفسادها وعلم بطرقها ، وقلوبُهم تضطرم حقداً وتفور كيداً ، فشنّوا عليها الغارة سلباً ونهباً ، وصارت لهم بذلك عادة . وصادرت الحكومة أرض من جلا عن البلاد وسُلِّم بعضها إلى من بقى ، ولم يمكن لهؤلاء ترك البلاد ، « وآثروا فطرة الإسلام ، ومحبة المنشأ حيث قضوا أيام الشباب على مقاسمة النصف من غلاتها على أى نوع كانت ، وعلى أن يقدر الأمير الدخل ويقومه عيناً إن شاء أو ورقاً » . وفى سنة ٣٥٨ هـ — ٩٦٨ م بلغ حاصل نصيبين من الحبوب خمسة آلاف ألف درهم ، عدا ضريبة الجماجم ، فإنها بلغت خمسة آلاف دينار . وبلغت ضرائب الخمر خمسة آلاف دينار ، وبلغ ارتفاع ما يؤخذ عن الغنم والبقر والدوابّ والبقول خمسة آلاف دينار ، ورُفع من الطواحين والضياع المقبوضة والمشتراة وغلات العقار المسقّف من الحمامات والدكاكين سبعة عشر ألف دينار ، هذا على أن جلّ البلد قد خرب ، وناسه قد هلكوا ، وبادت الأشجار والبساتين ، فلما زال حكم الحمدانيين غُرست الأشجار وكثرت الكروم والفواكه[١] . فلا عجب بعد هذا أن نجد ابن حوقل حوالى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م يقول إن بنى حمدان هم أغنى ملوك الإسلام فى عهده إلى جانب عبد الرحمن الثالث خليفة الأندلس[٢] . وفى عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م فتح عضد الدولة بعض قلاع بنى حمدان ، فكان قيمة ما فى القلعة عشرين ألف ألف درهم[٣] . ومع هذا كانت تقوم بسبب دفع الجزية

---

(١) ابن حوقل س ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) Dozy, II S. 57.

(٣) مسكويه ج ٦ س ٤٩٥ — ٤٩٦ ، وقد كان مسكويه مكلفاً بإحصاء ما فى هذه القلعة .

منازعات مستمرة بين الحمدانيين من جهة و بين بغداد و بوزنطة من جهة أخرى[١].

أما إقليم خراسان الذى خضع فى أثناء القرن الرابع لأمراء كثيرين فى مقدمتهم السامانيون والبويهيون ، فقد كانت الضرائب فيه على ما كانت عليه فى القرنين الثالث والرابع ، وقد لاحظ ابن حوقل مثل هذا فى هراة[٢] ، وهو يحسن الثناء على السامانيين ، وعلى حسن إدارتهم المالية وضبطهم للأعمال فى شمال المملكة الإسلامية وفى شرقها ، يقول ابن حوقل : « وليس بأرض المشرق ملك أمنع جانباً ، ولا أوفر عِدة ، ولا أكمل عُدة ، ولا أنظم أسباباً ، ولا أكثر أعْطِيَةً ، ولا أدرّ طعاماً ، ولا أدوم حُسْنَ نياتٍ منهم ، مع قلة جباياتهم ، ونزور أخرجتهم ، وقلة الأحوال فى خزائنهم ، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبى صالح منصور بن نوح فى وقتنا هذا ، لكل خراج يُقبض وضمان يحل فى كل ستة أشهر ، عشرون ألف ألف درهم . وعليه أربعة أطعام فى كل سنة دارّة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل طمع منها فى رأس تسعين يوماً ، يخرج منه إلى غلمانه وقواده ولسائر المتصرّفين خمسة آلاف ألف درهم ، فتستوفى الأربعة أطعام الخراج الواحد لسائر خدمته من الرجال عند آخر السنة ، وتستوعب أعطيتهم نصف جباياته المذكورة ، وهى عشرون ألف ألف درهم عن نفس طيبة ومسرّة ظاهرة ، وغبطة بقيام المعدلة فيهم تامة . . . . . . ولهذه الحال أعمالهم مشحونة بالقضاة والجباة والكفاة والولاة منزلين على أرزاق تتساوى ، وأحوال فى المراتب تتدانى ، وذلك أن رزق القاضى وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرة ووالى الصلاة والمعونة راتبُهم بقدر كل ناحية وحسب كل

(١) يحيى بن سعيد ص ٦٤ ب — ٦٥ أ ، وانظر مثلا Elias Nisibenus, S,515 نقلا عن ثابت بن سنان .

(٢) ابن حوقل ص ٣٠٨ .

كورة ، وليس ينقص بعضهم عن بعض ، ولا يزيد بعضهم عن بعض »[١] .

وقد ارتفعت الجباية فى فارس فى عهد عضد الدولة ، أعظم حكام القرن الرابع ، من ١,٨٨٧,٥٠٠ إلى ٢,١٥٠,٠٠٠ ، وذلك فى عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م . أى أن زيادة الدخل كانت تقرب من السدس[٢] . وقد كان فى استطاعة عضد الدولة أن ينفق عن سعة ؛ لأن دخله فى السنة كان ثلثمائة وخمسة وعشرين ألف ألف درهم ، ولكنه « كان ينظر فى الدنيار ويناقش فى القيراط » كما يقول ابن الجوزى[٣] .

أما مصر فقد حافظت فى الجملة على المستوى العالى الذى كانت فيه ، فقد استطاع أحمد بن طولون بما كان له من قوة عظيمة أن يستخرج خمسة آلاف ألف دينار فى القرن الثالث . أما فى خلال القرن الرابع بما كان فيه من اضطراب فقد اشتمل ارتفاعها على ثلاثة آلاف ألف ومائتين ونيف وسبعين ألفاً من الدنانير ، وفى أواخر القرن بلغ الخراج على يد الوزير ابن كلّس أربعة آلاف ألف[٤] . ولم يحدث فى القرن الرابع تدهور مالى عام ، وكان الدخل يتوقف ، كما هو الحال دائماً ، على الرجل القابض على ناصية الحكم . ففى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٥ م أشار ابن العميد على ركن الدولة أن يدبّر ناحية أذربيجان لنفسه ويرفع له منها خمسين ألف ألف درهم ، وكانت بلاد أذربيجان غنية ، ولكن كان عليها إبراهيم السلار ، وكان حاكما ضعيفاً سيّئ التدبير مهملا لأمورها مشتغلا باللعب ،

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

(٢) ابن البلخى JRAS, 1912, S. 889.

(٣) المنتظم ص ١٢٠ ب ، ويقال إن عضد الدولة كان يريد أن يبلغ بدخله إلى ثلثمائة وستين ألف ألف درهم ليكون دخله كل يوم ألف ألف درهم ، وفى رواية أنه كان يرتفع له كل عام اثنان وثلاثون ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار ، وهذا يدل على أن الدنيا فى ذلك العهد كان يساوى عشرة دراهم .

(٤) تاريخ أبى صالح الأرمنى ص ١٢٣ .

فلم يكن يرتفع منها أكثر من ألفي ألف درهم « وذلك بسبب إقطاعات الديلم والأكراد ، وبعد ما يستولى عليه قوم متعززون لا يُتمكن من استيفاء الحقوق عليهم ، وبعد ما يضيع بالإهمال وترك العمارة [١] » . ولا نجد مثالا للانحطاط الحقيقى الكبير فى دفع الضرائب إلا فى العراق ؛ وكان ذلك منذ النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى . وقد قدّر ابنُ خرداذبة ارتفاع العراق لسنة ٢٤٠ هـ — ٨٥٤ م بثمانية وسبعين ألف ألف درهم ، وفى عام ٢٨٠ هـ — ٨٩٣ م ضُمِّن جزء كبير من العراق بألفى ألف وخمسمائة ألف وعشرين ألف دينار ، وهو نصف ما كان أو أقل [٢] . وقد بلغ خراج العراق فى ميزانية عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م ١٫٥٤٧٫٧٣٤ ديناراً ، وهو أقل من الثلث [٣] . وزاد الدخل بعض الزيادة فى أثناء القرن الرابع ، ففى سنة ٣٥٨ هـ — ٩٦٨ م عُقد ضمان العراق باثنين وأربعين ألف ألف درهم [٤] . وعرض عضد الدولة بعد ذلك مثل هذا المبلغ [٥] . وكان الفرق بين حال العراق قديماً وبين ما آلت إليه فيما بعد عظيما جدا ، فقد كان خراجها قديماً مضرب المثل فى الكثرة ، حتى كان البعض يقول : والله لو أعطيتنى خراج العراق ما فعلت كيت وكيت [٦] . ثم آل الحال فى آخر القرن الرابع إلى أن يقول عضد الدولة : غرضى من العراق الاسم ومن أرّجان (القسم الساحلى من فارس) الدخل [٧] . وكان أكبر أسباب هذا التدهور أن البلاد استحالت إلى

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ ، و Amedroz, Islam, III, 336.

(٢) كتاب الوزراء ص ١٠ ولا يتفق مع هذا ما جاء فى ص ١٨٨ من هذا الكتاب من أن ارتفاع العراق للمعتضد بلغ الارتفاع فى عهد عمر بن الخطاب ، والأرقام هنا غير صحيحة .

(٣) Kremer, Einnahmebudget, S. 312.

(٤) ابن حوقل ص ١٦٩ ، ١٧٨ .

(٥) مسكويه ج ٦ ص ٤٤٠ .

(٦) الأغانى ج ٤ ص ٧٩ .

(٧) المقدسى ص ٤٢١ .

مستنقعات ، ونظراً لأنها كانت تُروى بالطرق الفنية فقد كانت تحتاج إلى عناية ونظام أكثر مما وُجّه لها . وقد اضطر الزرّاع إلى الجلاء ، وكان أهل الموصل مثلا عرباً جاءوا فى القرن الرابع إلى شمال العراق ليزرعوا تلك الأراضى الفيضانية التى كانت حتى ذلك الحين جرداء لا نبات فيها[١] . وبعد هذا الفساد كان اعتماد الخزانة ببغداد على خراج العراق يعرضها للإفلاس ، ثم أُصيبت حكومة العراق بأول ضائقة مالية حينما منع الصفّار حملَ أموال فارس إليها ، وقد أدت هذه الضائقة حوالى عام ٢٧٠ ﻫ إلى فكرة الاقتراض ، وأول ما ظهر ذلك فى صورة قرض غير مضمون الردّ ؛ وذلك أن الخليفة الموفق احتاج إلى مال يُخرج به الجندَ لمحاربة الصفّار ، والتمس من وزيره صاعد بن مخلد أن يحتال فى ذلك ، فقال الوزير : والله مالى حيلة إلا من حظر النفقات ومنع المرتزقين ، فقال الموفّق : أين يقع ذلك مما أحتاج ؟ والذى أريد « أن نأخذ من التجار قرضاً ، ونوظّف عليهم وعليك وعلى الكتاب والعمال مالا نستعين به على إخراج راشد (قائد الحملة) فإذا اتسعنا رددناه عليهم » ، فاستوحش صاعد من ذلك ، وأزاد إعمال الحيلة فى التباعد عنه[٢] . وفى سنة ٣٠٠ ﻫ احتاج الوزير إلى شىء من مال الأهواز ، ولم يكن أصحابه متأهبين لذلك ، فأرسل فى إحضار يوسف بن فيجاس الجهبذ اليهودى ، وكان جهبذ الأهواز ، وطلب منه تقديم مال[٣] . وفى سنة ٣١٩ ﻫ — ٩٣١ م تواطأ مُتضمّناً أعمال الخراج والضياع بفارس وكرمان وتعاقدا على قطع حمل المال إلى السلطان ، واشتدت الضائقة بالوزير فباع من الضياع السلطانية بنحو خمسمائة ألف دينار — وكان ذلك لأول مرة[٤] . واستسلف من مال سنة

---

(١) ابن حوقل ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(٢) كتاب الديارات للشابشتى ١١٨ ب — ١١٩ أ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٧٨ .

(٤) وفى مثل هذه الأحوال كان أصحاب الأراضى المجاورة يتفقون ويشترون الضياع بأقل من ثمنها بكثير . (ابن حمدون فى JRAS,1908, S. 434) .

عشرين وثلثمائة شَطْرَهُ قبل افتتاحها بشهور ، فلم يبق من مال هذه السنة إلا أقله واضطر فوق هذا إلى أن يقترض مائتى ألف دينار بربح درهم فى كل دينار[١] .
وفى سنة ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م لم تُدفع للتجار أموالهم ، فطالبوا الوزير بها ، فدفعته الضرورة إلى أن سَبَّبَ لهم على عمال السواد ببعض مالهم ، ثم باع عليهم بالباقى ضياعاً سلطانية[٢] . وفى سنة ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م احتاج الوزير إلى مال لدفع استحقاقات الجند ، فطالب مياسير التجار بأموال يعجّلونها ، ويكتب لهم بها سفاتج ، وأمر من كان ينزل بسور المدينة أن ينتقل عنه لتُباع المنازل التى كانت هناك ملكا للحكومة[٣] .

وفى هذه الأحوال عاد الأمر فى تحصيل الخراج إلى ما كان جارياً قبل الإسلام من وسائل رديئة ، وكانت القروض التى احتاجت إليها الدولة مبدأ تضمين الخراج فى المشرق ، وأول ما أخذ بطريقة القروض فى عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠١ م) : حدَّث أبو القاسم عبيد الله ابن سلمان وزير المعتضد أحد أصحابه فقال له : قد وردنا على دنيا خراب مُسْتَغْلِقة ، وبيوت مالٍ فارغة ، وابتداء عَقْد لخليفة جديد الأمر ، وبيننا وبين افتتاح الخراج مدة ، ولا بد لى فى كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاقتصار والتجزية . فإن كنت تعرف وجهاً تعيننى به فأرشدنى إليه ، فأشار صاحب الوزير بإطلاق ابنى الفرات ، وكانا عاملين لهما دهاء وخبرة بالأعمال والأموال ، فأطلقهما من سجنهما ، فخاطبا أحد الأغنياء فى أن يضمن جزءاً من أرض العراق على أن يحمل من ماله فى كل يوم سبعة آلاف دينار ، فأعطى

(١) مسكويه ج ٥ س ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٤ ، وابن الأثير ج ٨ س ١٧٦ .
(٢) مسكويه ج ٢ س ٥٠٥ .
(٣) الأوراق للصولى مخطوط باريس س ١٠٣ — ١٠٤ .

خطه بذلك ، وعرف الوزير الأمر فاستطير هو والخليفة سروراً لهذا الحل الجديد بما انطوى عليه من مهارة (١) . ونجد فى ثبت خراج سنة ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م أن خراسان والأهواز وواسط كانت ضماناً إلا الضياع (٢) ، وفى سنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م ضمّن الخليفة خراج مصر بثلاثة آلاف ألف دينار (٣) . وفى سنة ٣٠٨ هـ ضمن الوزيرُ حامد بن العباس خراج العراق وخوزستان وأصفهان للمقتدر ، فارتفعت الأسعار ببغداد ؛ لأن الوزير جمع الحبوب فى تلك البلاد ومنع من حملها إلى بغداد ، فثار العامة على الوزير ، وسبّوه ، وفتحوا السجون ، وكبسوا دار صاحب الشرطة وانتهبوا بعض دوابّه ، ومنعوا صلاة الجمعة ، وهدموا المنابر ، وأحرقوا الجسور ، فأمر السلطان بمحاربة العوام ، فأُخذوا ، فضُرب بعضهم ، وفرّ الباقون ، وطلب حامد بن العباس من الخليفة فسخ ضمانه ، واستأذنه فى الشخوص إلى واسط لينفذ عماله بما فيها من الأطعمة إلى بغداد ، وفُسخ ضمان حامد ، وسأل الخليفةَ أن يعفيه من الوزارة فلم يُجِبْه (٤) . ولم يكن الذى يتولى ضمان الخَراج ، فى العراق على الأقل ، رجلا من عامة الناس ، بل كان عاملا على خراج البلاد التى يضمنها (٥) . وكان له أن يولى فى هذا الإقليم عمال الخراج ويعزلهم (٦) . وكان

(١) كتاب الوزراء ص ١٠ — ١١ .

(٢) Kremer, Einnahmebudget . وكذلك ضمنت فارس بعد استردادها من بنى الصفّار ، ولكن الضامن أخّر المال ، فحُل ضمانه وعقد على آخر (كتاب الوزراء ص ٣٤٠) .

(٣) كان الأخشيد فى القرن الثالث الهجرى يحمل إلى الخليفة ألنى ألف دينار (خطط المقريزى ج ١ ص ٩٩) ، وإلى جانب مبلغ الضمان كان لابد للضامن أن يبعث الهدايا الكثيرة للخليفة ، والسيدة الوالدة والخالة والقهرمانة والحاجب والقائد وكتابهم فى كل سنة (كتاب الوزراء ص ٣٢١) .

(٤) عريب ص ٨٥ ، ٨٦ ، والمنتظم لابن الجوزى ص ١٨ أ . والهمذانى مخطوط باريس ١٨٦ ب (؟) .

(٥) عريب ص ٥٥ .

(٦) الهمذانى مخطوط باريس ص ١٨٦ (؟) .

للحكومة إلى جانب الضامن رجل يشرف عليـه ليرى إن كان يتحصّل له زيادة على ضمانه[١] ، وأن يراعى بنوع خاص أن الضامن يؤدى ما يُنفق على كرى الأنهار وحراسة البزندات والبذور ، وعلى المعاونين الذين يحفظون الأمن[٢] . أما الضمانات الصغيرة مثل ضمان الصدقات . فيحكى عن الوزير أبى الحسن بن الفرات أنه قال لكاتب سأله أن يضمنه الصدقات بفارس : « إنما يُرغب فى عقد الضمان على تاجر ملىّ أو عامل وفىّ أو تانٍ غنى ، فأما أصحاب الحروب فعقد الضمان عليهم ومطالبتهم بالخروج من أموالها يستدعى منهم العصيان وخلع طاعة السلطان »[٣] .

وكان أمراء الأطراف فى معظم الأحوال يظهر أمرهم بأن يكونوا ضامنين للبلاد التى يحكمونها ، ولم يظهروا فى صورة أصحاب الإقطاعات كما كان الحال فى الإمبراطورية الجرمانية المقدسة ، وكانوا يتوصّلون إلى الملك بأن يبتدئوا باحتلال المدن والأقاليم غصباً ، ثم يقاتلون عليها عسكر الخليفة ، حتى يُعترَف لهم بالإمارة فى مقابل مال يضمنون أداءه ، وكانت أمثال هـذه الضمانات التى تؤخذ كرها تؤتى الحكومة صفقة سيئة بالنسبة للضمانات الأخرى . ففى سـنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م ضمن ابن أبى الساج أرمينية وأذربيجان قبل أن تؤولا إلى السامانيين بمائة وعشرين ألف دينار ، وهو ما يقرب من عشر الدخل الذى كانت تدفعه هذه البلاد منذ مائة سنة[٤] . وفى سنة ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م فتح عماد الدولة بن بُويه إقليم فارس ، وطلبها ضماناً من الخليفة ، على أن يدفع إليه ألف ألف درهم ، على حين أنها كانت تؤتى من مال الخراج والضياع وحده منذ عام ٢٩٩ هـ —

(١) ابن الأثير ج ٨ س ٨١ — ٨٢ .
(٢) كتاب الوزراء س ٣٤ .
(٣) نفس المصدر س ٧١ .
(٤) ابن الأثير ج ٨ س ٧٦ — ٧٧ ، Kreme, Einnahmebudget, S. 299.

٩١١ م إلى ما بعد ذلك بعشرين عاماً ثمانية عشر ألف ألف درهم[١] . وكذلك كان ضمان عمان فى أوائل القرن الرابع ثمانين ألف دينار ، وكان خراجها تحت الإدارة المباشرة قبل ذلك بمائة عام ثلاثمائة ألف دينار[٢] .

وكان استعمال الوسائل القاسية فى تحصيل الخراج من الوسائل المعروفة قديماً ، وربما كان ضروريا ، فمثلا كان أهل بادوريا حول بغداد معروفين بالجَلَد ، وكان عليهم بقايا أموال ، فتولّى عليهم ابن أبى السلاسل ، وفى قلبه أحقاد ورغبة فى التشفّى منهم ، وإخراج ما عليهم من البقايا ، فطالبهم ، فامتنعوا وصبروا على الحبس والقيد ، فأملى رقعة إلى الوزير على بن عيسى يغريه فيها بهم كل إغراء ، ويقول : هؤلاء قوم يُدِلّون بالجَلَد وعليهم أموال قد ألطَوا بها ، وصبروا على الحبس والقيد ، ومتى لم تُطلَق اليدُ فى تقويمهم واستخراج المال منهم تأسى بهم أهلُ السواد وبَطَل الارتفاع : فردّ عليه الوزير بقوله : الخراج ، عافاك الله ، دَيْنٌ لا يجب فيه غير الملازمة ، فلا تتعدّ ذلك إلى غيره[٣] . وهذا القرار الذى قرره الوزير يطابق المبدأ الذى عُمِلَ به فى زمن الرشيد ، وهو المنع من ضرب الناس فى الخراج أو إقامتهم فى الشمس أو تقييدهم[٤] . وكان أصحاب الخراج فى عهد هذه الخليفة نفسه يطالَبون بصنوف من العذاب حتى عام ١٨٤ هـ حين أمر الرشيد برفع العذاب عنهم ، فارتفع من تلك السنة[٥] . وفى عام ١٨٧ هـ — ٨٠٣ م وُلّى على خراج مصر عاملٌ بعد أن ضمن جباية الخراج عن آخره « بلا

---

(١) مسكويه ج ٥ س ٣٨١ ، وخراجها فى ميزانية عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م قدر بألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، وهو ما يقابل الثمانية عشر ألف ألف درهم .

(٢) كريمر نفس المصدر س ٣٠٨ والمقدسى س ١٠٥ .

(٣) كتاب الوزراء س ٣٤٦ .

(٤) كتاب الخراج لأبى يوسف س ٦٢ .

(٥) تاريخ اليعقوبى ج ٢ س ٥٠١ من الطبعة الأوروبية .

سوط ولا عصا »[١] . على أن ديونيسيوس يصف جُباةَ الخراج فى العراق حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م بأنهم « قوم من العراق والبصرة والعاقولاء ، وهم عُتاة ليس فى قلوبهم رحمة ولا إيمان ، شرّ من الأفاعى ، يضربون الناس ويحبسونهم ، ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يكاد يموت »[٢] . وفى أواخر القرن الثالث وصف الأمير عبد الله بن المعتز[٣] الإدارة فى عهد الوزير ابن بلبل ، وكان ابن المعتز يحمل له كراهية شديدة ، ووصف كيف كانت تجبى أموال الخراج من غير رحمة :

فكم وكم من رجل نبيل ذى هيبة ومركب جليل
رأيته يعتلّ بالأعوان إلى الحبوس وإلى الديوان
حتى أقيم فى جحيم الهاجره ورأسه كمثل قدر فائره
وجعلوا فى يده حبالا من قنب يقطّع الأوصالا
وعلقوه فى عرى الجدار كأنه برّادة فى الدار
وصفقوا قفاه صفق الطبل نصباً بعين شامت وخل
إذا استغاث من سعير الشمس أجابه مستخرج برفس
وصبّ سجانٌ عليه الزيتا وصار بعد بزة كميتا
حتى إذا طال عليه الجهد ولم يكن مما أراد بدّ
قال ائذنوا لى أسأل التجارا قرضاً وإلا بعتهم عقارا
وأجّلونى خمسة أياما وطوقونى منكمو إنعاما
فضايقوا وجعلوها أربعه ولم يؤمل فى الكلام منفعه

---

(١) الولاة للكندى ص ١٤٠ — ١٤١ .

(٢) Dionysius von Tellmachre, ed. Chabot, S. 152

(٣) الديوان ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

وجاءه المعينون الفجره   وأقرضوه واحداً بعشره
وكتبوا صكا ببيع الضيعة   وحلفوه بيمين البيعة
ثم تأدّى ما عليه وخرج   ولم يكن يطمع فى قرب الفرج
وجاءه الأعوان يسألونه   كأنهم كانوا يدلّلونه
وإن تلكّا أخذوا عمامته   وجمشوا أخدعه وهامته
فالآن زال كل ذاك أجمع   وأصبح الجور بعدل يقمع

وكان التعذيب أشد مما تقدم إذا كان استرداداً لأموال الدولة ، وأخص ما كان يستعمل فى ذلك القيودُ الحديدية الثقيلة فى الأرجل ، والضربُ المُتلِف ، والتعليق من اليد الواحدة [1] . وقد عذّب الخليفة القاهر أمَّ المقتدر أخيه وسلفه على عرش الخلافة ، فضربها ، وعلّقها برجلها لتخرج مالها ، وتحلّ أوقافها ، وتوكل فى بيعها ، فامتنعت ، ووكّلت فى بيع أملاكها دون أوقافها ، ولكن القاهر أرغمها على ما أراد ، وكتب إقراراً منها بذلك ، وأحضر القضاة للشهادة على توكيلها ، واستلزمت الشهادة أن يروها رأى العين . وقد تحدث القاضيان اللذان رأياها بهذه القصة فقالا : « ولما رأيناها رأينا عجوزاً رقيقة الحال سمراء اللون إلى البياض والصفرة ، عليها أثر ضرب شديد فما انتفعنا بأنفسنا ذلك اليوم ، فِكْراً فى تقلّب الزمان ، وتصرُّف الحدثان » [2] . ثم عُذّب آخرون بأن غُرزت

128

(١) وكان الحاكم يأمر بأن « يجرّ » المطالب أو « يسحب » على وجهه ، ومن هذا اشتقت الكلمة الإسبانية جروشا Garrucha ومعناها حبل الجر ، وهو الذى كان أكبر أداة للتعذيب فى اسبانيا أيام محاكم التفتيش كما قال العلامة لى (Lea) وكذلك الكلمة الإسبانية Garrota.

وكان الذى يوكل إليهم بالمطالبة قوماً يسمون المستحثّين ، وكانوا يختارون من الفلاظ الفظاظ ، لا يفارقون الرجل حتى يدفع ما عليه ، ولهم عليه نفقة يأخذونها ، وربما كانوا ثلاثة لكل منهم ديناران فى اليوم (كتاب الوزراء ص ٢٣٣) .

(٢) عريب ص ١٨٣ — ١٨٤ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٨١ — ١٨٢ ، المنتظم لابن الجوزى ص ٤٦ ب ، والمقدمة الإنجليزية لكتاب الوزراء ص ٤٥ .

فى أظافيرهم أطراف القصب [١] ، أو بالضرب على رءوسهم بالدبابيس [٢] ، وقد وصف شاهد عيان كيف جيء بأحد المصادَرين من محبسه « يرسف فى قيوده ، وعليه جبة دنسة وشعره طويل . . . وجعل يشكو ما أصابه من المكاره ، وفرائصه ترُعد » [٣] . وربما أمعن المطالبون فى التعذيب فألبسوا فريستهم جبّة صوف مدهونة بالنفط أو بماء الأكارع [٤] . وفى سنة ٣٢٥ هـ — ٩٣٦ م دخل بجكم التركى وأصحابه العراق ، فاعتقل الناس ، واشتدّ فى مطالبتهم بالمال ، وعذّبهم ، فكان يضع على بطونهم أطشات الجمر ، حتى قال له رجل أراد أن يسبر ما فى نفسه من طلب العراق : أيها الأمير ! أنت مطالِب بملك ، ومرشّح نفسك لخدمة الخلافة . ألا تعلم أن هذا إذا سُمع به أوحش منك ؟ وقد حمَلتَ نفسك فى أمرنا على مثل ما كان يعمله مرداويج بأهل الجبل ، وهذه بغداد ودار الخلافة لا الرىّ وأصبهان ، ولا تحتمل هذه الأخلاق ؛ فلما سمع بجكم ذلك انحلّ وفكّ القيود وأزال المطالبة [٥] . وكانت هذه المطالبات القاسية تعتبر عند الجميع أعمالا تدل على قلة الإيمان ، كما يؤخذ من حكاية ترجع إلى القرن الرابع : « حدّث أبو الحسن على بن أحمد بن على بن الحسين بن عبد الأعلى قال : كنت بحضرة أبى الحسن بن الفرات فى وزراته الأولى (٢٩٦ — ٢٩٩ هـ = ٩٠٨ — ٩١١ م) ، وهو جالس يعمل ، إذ رفع رأسه ، وترك العمل من يده ، وقال : أريد رجلا لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعنى حقّ الطاعة ، فأُنفذه فى مهمّ لى ، فإذا بلغ فيه ما أرسمه له أحسنت إليه إحسانًا يظهر عليه وأغنيته ؛ فأمسك من

---

(١) ذكر المعتزلة لأحمد بن يحيى المرتضى س ٥٢ .
(٢) مسكويه ج ٥ س ٢٣٠ .
(٣) كتاب الوزراء س ٨ — ٩ .
(٤) نفس المصدر س ٢٩٨ — ٢٩٩ .
(٥) مسكويه ج ٥ س ٥٧٠ .

حضر، ووثب رجل يكنى بأبى منصور، أخ لابن أبى شبيب حاجب ابن الفرات، فقال: أنا أيها الوزير، قال: وتفعل؟ قال: أفعل وأزيد، قال: كم ترتزق؟ قال: أرتزق مائة وعشرين ديناراً، قال: وقّعوا له بالضعف، وقال: سَلْ حوائجك، فسأله أشياء أجابه إليها، فلما فرغ من ذلك قال: خذ توقيعى وامض إلى ديوان الخراج وأوصله إلى كاتبى الجماعة، وطالبهما بإخراج ما على محمد بن جعفر بن الحجاج، وطالبْه بأداء المال وأتلفْه إلى أن تستخرج جميعه، ولا تسمعْ له حجة ولا تمهله ألبتة. فخرج وأخذ من رجّالة الباب ثلاثين رجلا، فقلت (الحاكى): لأخرجنّ وأمضينّ إلى الديوان حتى أنظر ما يؤول إليه الحال، فخرجت وصرت إلى الديوان . . . فدخل أبو منصور هذا إلى الصقر بن محمد وعبيد الله بن محمد الكلوذانى، وهما صاحبا المجلس شركة، فلم يجد الكلوذانى ووجد الصقر بن محمد، فأوصل إليه التوقيع، وقال له أخرج ما على ابن الحجاج، فقال: عليه من باب واحد ألف ألف درهم، فطالبه بذلك إلى أن نفرغ من العمل بسائر ما يلزمه. وكان محمد بن جعفر من عمال أبى الحسن على بن عيسى، قال: فأحضر ابن الحجاج، وشتمه، وافترى عليه، وابن الحجاج يستعطفه، ويخضع له، ثم أمر بتجريده، وإيقاع المكروه به فأُوقع، وهو فى ذلك كله يقول: يكفى، الله؛ ثم أمر أبو منصور بنصْب دقل، فنُصب، وجُعل فى رأسه بكرة فيها حبل وشدت فيه يدُ ابن الحجاج، ورُفع إلى أعلى الدقل، وهو يستغيث ويقول: يكفى، الله. فما زال معلقًا، وأبو منصور يقول له: المال المال، وهو يسأله حطّه وإنظاره إلى أن يواقف الكتاب على ما أُخرج عليه، وهو لا يسمع منه، وقد قعد تحت الدقل واختلط، وغضب من غير غضب، اعتماداً لأن يبلغ ابنَ الفرات فعلُه، فلما ضجر قال لمن يمسك الحبال: أرسلوا ابن الفاعلة (وعنده أنهم يتوقّفون ولا يفعلون)، فأرسلوه لما رأوه عليه من الحدة والغضب، ووافى ابن الحجاج إلى

129

الأرض ، وكان بدينا سمينا ، فوقع على عنق أبى منصور فدقّها ، وخرّ على وجهه ، وسقط ابن الحجاج مغشيا عليه ، فحُمل أبو منصور إلى منزله فى محمل فمات فى الطريق ، ورُدّ ابن الحجاج إلى محبسه ، وقد تخلّص من التلف ، وعجب من حضر مما رأى . وكتب صاحب الخبر بالصورة إلى ابن الفرات فورد عليه منها أعظمُ مورد ، وبكرت عرفان زوجة ابن الحجاج إلى موسى بن خلف حتى أوصلها إلى ابن الفرات فقررت أمره على مائة ألف دينار سلّمت ببعضها جعدة وقراها من طسوج كوثى ونُجّم الباقى ، وأُطلق ابن الحجاج ، وكان الناس يعجبون من قول ابن الفرات : أريد رجلا لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعنى»[1] ولم تُبْسَط على الناس أصناف العذاب والمكاره حتى كانوا يموتون تحتها أقبح موت إلا فى عهد الأمير بختيار ببغداد ، وكان حكم هذا الأمير أسوأ حكم فى القرن الرابع[2] .

ولعل مما تمجه النفس أن ترى كبار العمال يشترون من السلطان رجالا منكودين ، وأن كلا منهم ينافس الآخر فى تقديم أكبر ضمان ، إذا سلّم إليه وزير نهب الأموال ، آملا أن يقدر بعد ذلك على استخراج مبلغ يزيد على ضمانه بوسائل التعذيب[3] . ولكن هذه الوسيلة لاغتصاب الأموال قويت أيضا فى عهد بختيار خاصة ، ولم تكن شائعة فى عهد جميع الحكام .

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٢١ — ١٢٢ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٥٤ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٩٤ ، ٩٥ . ضمن أبو الفرج الوزير أبا الفضل بسبعة آلاف ألف درهم ، ثم ضمنه أبو الفضل فيما بعد بمثل هذا المبلغ . انظر مسكويه ج ٦ ص ٣٣٤ ، ٣٤٢ ، ٤٠٩ ، ٤٥٣ .

الفصل التاسع

رسوم دار الخلافة

كان اللون الذى اتخذه الخلفاء فى القرن الرابع الهجرى شعاراً لهم السواد والبياض ؛ فلما ركب الخليفة المقتدر فى عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢م لقتال مؤنس ، وهى الركبة التى قتل فيها وأشفق من عاقبتها إشفاقا كبيرا ، خرج من داره فى أكمل لباس وموكب ، فكان عليه خفتان ديباج فضى وعمامة سوداء ، وعلى كتفيه وصدره وظهره البردة النبوية ، وهو متقلد بذى الفقار سيف الرسول ، وحمائله أدم أحمر ، وفى يده اليمنى الخاتم والقضيب ، وسار بين يديه ولىّ عهده ابنه أبو أحمد عبد الواحد ، وعليه خفتان ديباج وعمامة بيضاء[1] . وكانت عادة خلفاء العباسيين فى القرن الثالث والرابع أن يلبسوا قلنسوة محدّدة وقباء وكلاهما أسود[2] ، وهذا هو لباس وجوه رعيتهم أيضاً . وكان السواد هو كذلك لون الخرقة التى كانت

(١) عريب ص ١٧٦ — ١٧٧ ، والمنتظم لابن الجوزى ص ٤٣ب ؛ وقد جاء فى شعر الشريف الرضى ما يدل على أن القضيب والبردة شعار الخلفاء ، وأن البردة هى بردة النبى عليه السلام . انظر الديوان ص ٣١٣ ، ٥٤٣ من طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ . وقد اتخذ الأخشيد صاحب مصر الخفتان الفضى لباساً له ، كما فعل الخلفاء ، وأمر ألا يلبسه أحد سواه (المُغرب لابن سعيد ص ٣٠) .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٦٩ ، ٣٧٧ . وقد أراد سلاطين المماليك أن يقلدوا الخلفاء فى لباسهم القديم تقليداً كاملا ، وكان لباسهم يتألف من :

١ — عمامة حرير لها عذبة مدلاة بين الكتفين .

٢ — جبّة حرير سوداء واسعة الكمين لا نقش عليها .

٣ — سيف عربى كان يحمل على طريقة البدو له حمائل يعلّق بها على الكتف الأيمن ، وهو مدلى على الجانب الأيسر ، ويقال إنه سيف عمر بن الخطاب . (انظر Quatremère, Mameloucs, I, 133)

تحضر فيها الصدقة كل يوم عند صلاة الصبح لتفريقها على المحتاجين[١] . وكذلك كان عَلَم الخلافة أسود ، عليه بالكتابة البيضاء : محمد رسول الله[٢] . أما خلفاء الفاطميين بمصر فكان لباسهم البياض ، وهو شعار العلويين ، وكانت ألويتهم بيضاء ، وعليها أحيانا أهلّة من ذهب ، في كلٍ منها صورة سبع من الديباج الأحمر وقد شبّهها أحد الشعراء بشقائق النعمان[٣] . وكانت طريقة تتويج الخليفة أن يَعْقِدَ لواء نفسه على الرسم المعروف في ذلك ، وأن يتسلّم خاتم الخلافة ممن يكون ذلك معه[٤] . وهذا تتويج على الطريقة العربية البسيطة . أما أمراء الأطراف فقد كان التتويج بالنسبة لهم تتويجا حقيقيا تجرى رسومه على الطريقة الوثنية ؛ فكان يوضع على رأس الأمير تاجٌ مرصّع بالجواهر ، ويلبس طوْقا وسوارين من الذهب المنظوم بالجوهر عادة[٥] . وكان لباس الحاشية الرسمى في القرن الثالث الهجرى أحمر اللون في العادة ، فيحكى أن المتوكل شرب يوما في أحد قصوره ، وأمر بضرب دراهم ، وصُبغ منها الأحمر والأصفر ، ثم أمر الحاشية أن يعد كل

---

(١) كانت هذه الخرقة تحوى مائتى درهم كل يوم ، وكان ما فيها يفرّق على من في قصر الرصافة من الحرم المحتاجات (كتاب الوزراء ص ١٩) ، ويخبرنا أبو المحاسن أن زكاة ابن طولون كانت ألف دينار في كل يوم ، وكثير من الأرقام التى يذكرها أبو المحاسن عن الطولونيين مجرد أرقام خيالية . على أن المقريزى (الخطط ج ١ ص ٣١٦) يقول إن صدقات ابن طولون كانت ألفى دينار في كل شهر سوى ما يطرأ من نذر أو صدقة شكر . (المترجم)

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٢٩٤ ، وكان ولى العهد العباسى في أواخر القرن الرابع ، وكذلك أمراء الأطراف يسير بين يديهم عَلَمان : لواء أبيض وراية سوداء ، انظر تاريخ أبى المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٥ ، وعريب ص ١٧٧ وابن الجوزى في المنتظم ص ٤٣ ب ، ١١٢ ب ، ١٢٥ ب .

(٣) أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٦٠ — ٤٦١ ، وكتاب الديارات للشابشتى ، ص ١٢٩ ا .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٤٥٤ .

(٥) لبس سيف الدولة أمير حلب تاجاً مرصعاً بالجوهر لما استقبل رسول ملك الروم في سنة ٣٥٣ هـ — ٩٦٤ م (يحيى بن سعيد ص ٩٤ ب) . وكان طوق الذهب من علامة =

واحد منهم قباء جديداً وقلنسوة على خلاف لون الآخر وقلنسوته ، ثم أمر بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، وحوله الندماء والخدم وقوف[١] . أما فى القرن الرابع فكان الغلمان عند ساعات الاستقبال بعضهم بسواد و بعضهم ببياض[٢] .

وكان يُحمل على رأس خلفاء العباسيين والفاطميين شَمْسة الخلافة (وتسمى فى مصر مظلة) ، وقلّ ما نسمع عن الشَّمْسَة ببغداد ، ففى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م أمر الخليفة أن تُحمل بين يدى أحد الكبراء شمسة الخلافة ، فكان هذا تكريماً لم يسمح به من كان قبله من الخلفاء[٣] . وكانت المظلة فى القاهرة علامة أُبّهة الخلافة ، وكان لونها يشابه لون ثياب الخليفة[٤] . وكان من علامات سيادة الخليفة ببغداد أن يُضرب على باب داره بالطبول والدبادب والأبواق فى أوقات الصلوات الخمس ، وكان لا يوقَف ذلك إلا أيام العزاء بدار الخلافة[٥] . وقد حاول الخليفة أن

= المحاربين عند المصريين القدماء (ZDMG. 41, S. 211) ، وصار حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م يُخلع عند المسلمين على القواد المنتصرين (عريب ص ٣٥) ، وقد سُوِّر القائد الذى هزم القرامطة بسوارين من الذهب (عريب ص ٣) . ويظهر أن أول أمير خلع عليه الطوق والسواران هو الأخشيد أمير مصر ، وقد أنفذ الراضى هذه الخلع مع وزيره الفضل بن جعفر فى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م ، وقد زينت لذلك الأسواق والشوارع بأنواع الفرش والستور والبسط وأبواب الجامع ، وركب الاخشيد إلى الجامع العتيق ، وعليه خلع الراضى ومعه الوزير (المغرب لابن سعيد ص ١٧ — ١٨) أما خمارويه ، سلف الاخشيد ، فلم يرسل له الخليفة إلا السيف والتاج والوشاح من غير طوق (كتاب الولاة للكندى ص ٢٤٠) ، وقد ظل الطوق والسوار مما يتحلى به القواد فى عصر الفاطميين . وذلك كله رغم ما قضى به فقهاء الإسلام من تحريم لباس الذهب والتحلى به .

(١) كتاب الديارات ص ٦٨ ب .

(٢) كتاب العيون ص ٢٣٥ ب .

(٣) كتاب العيون ص ٢٢٦ ب .

(٤) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٨٠ نقلا عن المسبحى (المتوفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م) ، وأبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ ، وترجمة فستنفلد لمختصر صبح الأعشى للقلقشندى ص ١٧٣ . ومن بقايا العادات البربرية التى استبقاها الفاطميون أنهم كانوا من تخريفهم يسيرون بالجيوش ومعهم توابيت آبائهم (أبو المحاسن طبعة كلفورنيا ص ١٠) .

(٥) المنتظم لابن الجوزى ص ١٧٦ ب ، ٢٠١ ب .

يحافظ على هذه المزية ويحول دون اتخاذ الأمراء لها ، ولكن ذلك لم يَدُمْ ، فنى عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م أمر الخليفة بأن تُضرب الدبادب على باب عضد الدولة فى أوقات الصلوات الثلاث : الغداة والمغرب والعشاء ، وفى عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م أذن الخليفة بعد إباء لجلال الدولة بأن يضرب الطبل أمام داره فى الصلوات الخمس ، وفى سنة ٤٣٦ هـ — ١٠٤٤ م ضرب الطبل أمام دار الأمير خمسا كما هو الحال بالنسبة للخليفة تماما [١] وظل لقب الخليفة بسيطا كبساطة لباسه ، وهو اللقب المشهور : « أمير المؤمنين [٢] » . على أنه منذ أيام الخليفة العباسى الثانى صار الخليفة يلقّب بلقب دينى ، وكان اتخاذ هـذا اللقب أول عمل يقوم به بعد البيعة له [٣] . ولا نعرف المثال الأول الذى كان أساسا لذلك . وفى سنة ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م طلب الخليفة الراضى من صديقه الصولى — الأديب ولاعب الشطرنج المشهور — أن يوجّه إليه بالأسماء التى تُنعت بها الخلفاء وتكون أوصافاً لهم . ويحكى لنا الصولى نفسه [٤] أنه بعث إليه رقعة فيها ثلاثون اسما ليختار منها ما يريد ، وأشار عليه أن يختار منها المرتضى بالله . وقد وثق من اختياره له حتى إنه ابتدأ من وقته يعمل أبياتا ضادية قافيتها المرتضى ، على أن ينشده إياها ؛ فلما فرغ منهـا جاءه رسول الخليفة برقعة فيها : إن إبراهيم بن المهدى لما بويع أيام المقتدر بالخلافة أراد أن يكون له ولى عهد ، فأحضروا المنصور بن المهدى وسموه المرتضى ، وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لغيرى ولم يتمّ له أمره ، وقد اخترت الراضى بالله . وقد حفظ

---

(١) المنتظم ص ١١٤ أ ، ١٧٥ ب ، ١٩٧ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ٢١٥ .

(٢) على أنه إذا كان الخليفة المتكفى قد لقب نفسه فى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م بلقب إمام الحق وضرب ذلك على السكة فإنما كان ذلك ردًّا على مزاعم جميع أئمة الفاطميين وأئمة الشيعة (انظر المنتظم ص ٧٣ ب ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣٠٨ طبعة ليدن) .

(٣) وكان ملوك السامانيين يسمون بعد موتهم بأسماء غير التى يسمون بها فى حياتهم (المقدسى ٣٣٧) .

(٤) الأوراق مخطوط باريس ص ٢ — ٥ ، ص ١٥ — ٢١ .

لنا الصولى فى تاريخه القصيدة الأولى التى ألفها ولم يقدَّر لها أن تُنشد . وقد أمره الخليفة أن يعملها قصيدة أخرى على قافية الراضى فعملها[1] .

وكان كاتب الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ = ٩٩١ — ١٠٣١ م) أول من أخرج فى ذكر الخليفة وصفه بالحضرة المقدسة النبوية اختراعا جعله قُرْبة فصار سنّة ، ومضى فى ذلك حتى خرق العرف والعادة ، فكتب عن الخليفة بالخدمة ، « وتصرف فى ذلك حتى قال : قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسُئلت الخدمة ، حتى رأيت بخط أبى الحسن بن أبى الشوارب القاضى فى ترجمة رقعة : خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان[2] » ، وكان الأمراء وكبار أصحاب المناصب والعمال يتهالكون جميعاً على الألقاب تهالكا شديداً ، وكانوا جميعا يلقبون بألقاب منسوبة إلى الدولة مثل ولىّ الدولة ، وعماد الدولة ، ومعين الدولة ، وعز الدولة ، ونحو ذلك[3] . يقول البيرونى (المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م) : « وبنو العباس لما لقّبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة ، وسوّوا فيها بين المُوالى والمعادى ، ونسبوهم إلى الدولة بأسرهم ضاعت دولتهم[4] » . وفى النصف الثانى من القرن الرابع احتيج إلى التفريق بين أصحاب الألقاب فثُنِّى لبعضهم التلقيب ، فكان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) يلقَّب بتاج الملّة ؛ وأخيراً ثُلِّث التلقيب ، فلقّب بهاء الدولة ضياء الملة وغياث الأمة . ثم ذاعت ألقاب الدولة فى كل مكان عند

(١) هذه القصيدة موجودة فى كتاب الأوراق ص ١٥ — ٢١ .

(٢) كتاب الوزراء لهلال الصابى (المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م) ص ١٥٢ .

(٣) إن أقدم هذه الألقاب — التى لا تزال تستعمل إلى اليوم مثلا لقبا للوزير بفارس — هو لقب ولىّ الدولة الذى لقب به الوزير أبو القاسم (المتوفى سنة ٢٩١ هـ — ٩٠٣ م) ، وفى عهد الحاكم بأمر الله فى مصر لقب أحد العمال بأمين الدولة . انظر الآثار الباقية للبيرونى ص ١٣٢ والصفحات التالية ، ويحيى بن سعيد ص ١١٣ ا — ب .

(٤) الآثار الباقية للبيرونى ص ١٣٢ .

الفاطميين ، وعند السامانيين فى تلقيب قواد الجيوش دون تلقيب أنفسهم ، لأنهم لم يرغبوا فيها ، واكتفوا بالتكنية ، وعند بغراخان التركى فإنه لما خرج فى سنة ٣٨٢ هـ — ٩٩٢ م لقب نفسه بشهاب الدولة ، ثم ظهرت ألقاب كاذبة فيها معارضة لروح الإسلام وتجرؤ على مقام الألوهية . وكان البويهيون أول من سموا وزراءهم بأسماء مما ينبغى أن يطلق على الله مثل : الأوحد ، وكافى الكفاة ، وأوحد الكفاة ، وجاوز نفر هذا الحد ، فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء ، ولذلك يقول البيرونى بعد ذكره ما تقدم : «فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ، وأظهرهم ولغيرهم عجزهم[1]» .

وأخيراً يقال إن الخليفة القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ = ٩٩١ — ١٠٣٠ م) لقب محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بأكبر لقب ظل له شأن عند الأجيال التالية وهو لقب السلطان ، وكان محمود أول من لقب به[2] . ولكن أمير بغداد طلب فى سنة ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م أن يلقب بالسلطان المعظم مالك الأمم ، فقال القاضى الماوردى رسول الخليفة إلى الأمير ، إن هذا لا يمكن لأن السلطان المعظم هو الخليفة ، وكذلك مالك الأمم ، فعدل الأمير إلى لقب مالك الدولة ، فأجازه الماوردى[3] . وفى سنة ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م زيد فى ألقاب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم ملك الملوك ، وهو اللقب الوثنى القديم ، فنفر العامة من ذلك ، ورموا الخطباء الذين ذكروه فى المساجد بالآجر ، ووقعت فتنة ، ومع أن الفقهاء أفتوا بأن هذه الأسماء إنما يعتبر فيها القصد والنية ، وأن ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض ، وليس فيه ما يوجب النكير ولا المماثلة بين المخلوق والخالق ، وأن هذا اللقب جائز كما جاز أن يقال كافى الكفاة وقاضى القضاة ، فإن كثيرين من أهل

---

(١) الآثار الباقية للبيرونى ص ١٣٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٩٢ وكتاب الأوائل لعلى دده مخطوط رقم ٩٣٧٢ بمكتبة برلين ص ٥٥ ا نقلا عن تاريخ الخلفاء للسيوطى .

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ١٨٤ ب .

الجد والتدقيق لم يرضوا به ، وذكروا أن القاضى الماوردى منع من جوازه حتى أدى ذلك إلى أن انقطع عن خدمة جلال الدولة بعد أن كان مختصا به[١] . ولم يرض هلال الصابى عن تلقيب القادر بالله ابنه وولى عهده بالغالب بالله فى عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م ، وهو يذكر بعد حكايته لهذا تلك العبارة المعروفة التى كانت مكتوبة على قصر الحمراء : لا غالب إلا الله وحده لا شريك له[٢] . ولم تكن ثمة قيمة حقيقية إلا للألقاب التى يمنحها الخليفة ، وكان يدفع له من أجلها الشىء الكثير ، وكان ذلك أكبر أبواب دخله فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، فبعد أن لُقّب أمير بغداد بمالك الدولة فى سنة ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م بعث للخليفة ألطافا كثيرة ، وقد أرسلها قبل التلقيب وإن كان قد أحب أن يلقب أولا ثم يرسلها . وكانت هذه الهدايا ألفى دينار ، وثلاثين ألف درهم ، وعشرة أثواب خز ، ومائة ثوب ديباج مرتفعة ، ومائة أخرى دونها ، وعشرين منّا عوداً ، وعشرة أمناء كافوراً ، وألف مثقال عنبراً ، وألف مثقال مسكا ، وثلثمائة مبخر صينى ، وأرسل أيضاً هدايا أخرى لبعض رجال الحاشية[٣] .

وفى هذا العصر أيضاً ارتقت صور الأدب فى حضرة الخلفاء حتى صارت على رسم بقى فى جوهره مستمرا طول العصور . كان الخليفة المأمون حوالى سنة ٢٠٠ هـ يُخاطَب كما يُخاطَب أى رجل آخر بلفظ أنت[٤] . وكذلك كان يخاطب الخليفة

---

(١) المنتظم ص ١٩٢ ب — ١٩٣ ا ، وطبقات السبكى ج ٣ ص ٣٠٥ ، وكان الماوردى من خواص جلال الدولة ، فلما أفتى بالمنع انقطع عنه ، فطلبه جلال الدولة يوما ، فمضى إليه على وجل وخوف ، فقال له الأمير : أنا أتحقق أنك لو حابيت أحدا لحابيتنى لما بينى وبينك . وما حملك على ذلك إلا الدين ، فقرّبك ذلك منى ، وزاد محلك عندى .

(٢) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ ، ويذهب الصولى (الأوراق ص ٣) إلى أن الألقاب مكروهة منهيّ عنها فى كتاب الله وعلى لسان رسوله عليه السلام ، قال الله عز وجل : ولا تنابزوا بالألقاب .

(٣) المنتظم ص ١٨٤ ب من مخطوط برلين .

(٤) كتاب بغداد لطيفور ص ٩٤ ومواضع كثيرة .

المقتدر عادة حوالى عام ٣٠٠ هـ[١] ، وإن كانت تستعمل إذ ذاك طريقة الخطاب بضمير الغائب إلى جانب ذلك ، فكان يقال : أمير المؤمنين أمر بكيت وكيت . وفى أواخر القرن الثالث لم يكن من السائغ أن يُخاطَب أىُّ رجل مثقف بمثل هذه البساطة ، وفى أوائل القرن الرابع لقى الخليفةُ المتقى الأخشيدَ صاحب مصر بالرقّة ، وقد حمل الأخشيد الهدايا ، وأظهر الخدمة والأدب ؛ وخاطب وزيرُ المتقى الأخشيدَ باسمه ، فأمره الخليفة بأن يكنّيه تأكيداً لقدره واحتراما له[٢] . وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كان الخليفة المعتضد لشدة هيبته إذا خاطب صديقه الطبيب ثابت بن سنان فى الملأ سمّاه ، وإذا كان فى الخلوات كنّاه[٣] . وكان المأمون يمد يده مسلما على البطريق ديونيسيوس ، وهكذا كان يفعل بكل من يريد إكرامه[٤] . ولما فارق مؤنس القائد الخليفة فى أوائل القرن الرابع الهجرى قبّل يده[٥] ، وكان من خاص التكريم فى ذلك العهد أن يقبل الإنسان رجل من هو فوقه[٦] وكتف من يساويه[٧] . وكذلك سلّم الجوارى من قبل على تليما كوس (Telemachos) بأن قبّلن كتفه وأعلى رأسه[٨] . وقد دعا الخليفة الراضى الأمير بجكم مرة فقبل هذا القائد فخذ الراضى ويده[٩] .

وكان الأولون من مسلمى العرب يرون فى تقبيل الأرض أمام المخلوقين

135

---

(١) انظر مثلا عريب ص ١٧٦ ، وكتاب الوزراء ص ٢٢٩ .

(٢) المغرب لابن سعيد ص ٤٠ .

(٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ١ ص ٢١٦ .

(٤) Michael Syrus, S. 517.

(٥) الهمذانى مخطوط باريس ص ٢٠١ أ (؟)

(٦) كتاب الوزراء ص ٣٥٨ .

(٧) نفس المصدر ص ٣٥٧ ، ٤٢٣ .

(٨) Odyssee, XVII, 35 وكذلك فعل لاوديسيوس رعاة الخنازير والبقر (XXI, 224)

(٩) الأوراق للصولى ص ٥٤ .

اجتراء على حقوق الله ، ولما قدم على المقتدر بالله رسلُ ملك الروم أعفاهم من تقبيل البساط لئلا يُطالَب المسلمون بمثل هذا فى بوزنطة [١] . وفى حكاية ترجع إلى أوائل القرن الرابع أن رجلا صالحا كتب كتابا لغلام من غلمان نازوك يستعطف فيه سيده بعد أن طرده ، فاستدعى نازوك ذلك الرجل ، فخضر مرتاعا ، وأهوى ليقبل الأرض ، فقال له نازوك وكان صاحب الشرطة : « مَهْ ، عافاك الله ، لاتفعل ، هذه من سنن الجبّارين ، مانريد نحن هذا » [٢] . على أنه حوالى عام ٣٣٠ ﻫ لما لقى الأخشيدُ الخليفة المتقى فى الرقة ترجّل عن بعد ومشى كالغلام بسيفه ومنطقته وجعبته بين يدى الخليفة على سبيل الخدمة ، وقبّل الأرض مرارا ، وتقدم فقبل يده ، ثم صاح به محمد بن خاقان : إركب يا محمد ، ثم صاح : إركب يا أبا بكر ، فقيل إن المتّقى قال لابن خاقان : كنِّه ، فكنّاه للوقت ، ثم كان الأخشيد يقف بين يديه على سيفه ، وإذا ركب حجبه ، وجعل مقرعته على كتفه لأنه لم يخدم خليفة قط غيره ، وافتخر بذلك ، وقد أعجب الخليفة من فعله ، وقال له : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة ، فاستخلف لك أونوجور ، وقيل إنه كنّاه أبا القاسم ، فقبّل الأرض مرارا ، وأهدى إليه الأخشيد هديّة أخرى على مافعله بابنه أونوجور وتكنيته له » [٣] . وفى عام ٣٦٩ ﻫ — ٩٧٩ م تمّ فى دار الخلافة تتويج عضد الدولة على أفخم صورة : جلس الخليفة الطائع على سرير الخلافة فى صدر صحن السلام ، وحوله من خدمه الخواص نحو مائة بالمناطق والسيوف ، وبين يديه مصحف عثمان ، وعلى كتفيه البردة ، وبيده القضيب ، وهو متقلّد بسيف ، ووقف الأشراف من الجانبين ، ودخل الأتراك والديلم ، ولم يكن مع أحد منهم

186

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى طبعة سلمون ص ٥٦ ، ويحكى مسكويه (ج ٥ ص ١٢٤) ذلك باقتضاب فيقول : فلما دخلا (الرسولان) قبّلا الأرض .

(٢) الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٥٤ .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ٤٠ .

حديد ، فلما وصل عضد الدولة أذن له الخليفة ، فدخل ، فلما وقع عليه طرف الخليفة قبّل الأرض بين يديه ، فارتاع أحد القواد لما شاهد ، وقال بالفارسية : ما هذا أيها الملك ، أهو الله عز وجل ! فالتفت عضد الدولة إلى من يفهمه أن هذا خليفة الله فى الأرض ، ثم استمر عضد الدولة يمشى ، ويقبل الأرض تسع مرات ، والتفت الطائع إلى خادمه ، وقال له : استدنه ، فصعد عضد الدولة ، وقبّل الأرض دفعتين ، فقال له الطائع : أُدْنُ إلىّ أُدْنُ إلىّ ، فدنا ، وأكبّ يقبّل رجله ، وثنى الطائع يمينه عليه . وكان بين يديه سرير ، ومما يلى الجانب الأيمن الكرسى ، فقال له : إجلس مرتين ، فلم يفعل ، فقال له أقسمت لتجلسنّ ، فقبّل الكرسى وجلس ، وبعد ملاطفة قال له الخليفة : قد رأيتُ أن أُفوّض إليك ما وكل الله تعالى إلىّ من أمور الرعية فى شرق الأرض وغربها وتدبيرها فى جميع جهاتها سوى خاصتى وأسبابى وما وراء بابى ، فتولّ ذلك مستخيراً بالله تعالى ، فقال له عضد الدولة : يعيننى الله عزّ وجل على طاعة مولانا وخدمته ، ثم أمر الخليفةُ بأن تُفاض عليه الخِلَع ، ويتَوّج ، فنهض عضد الدولة إلى الرواق فأُلبس الخِلَع وخرج ، وأمره الخليفة بالجلوس ، ثم عُقدت له الألوية ، وقُرئ كتابه ، ثم نصحه الخليفة بما أراد ، وقلّده سيفاً ، وخرج ، وبعد ثلاثة أيام بعث الخليفة إليه هدية فيها غلالة قصب وصينية ذهب وحردادى بلور « فيه شراب ناقص كأنه قد شُرب بعضه ، وعلى فم الحردادى خرقة حرير مشدودة مختومة »[١] .

وكان إجلال الخليفة فى مصر الفاطمية أعظم مما تقدم ، ففى سنة ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م قُرئ سجل أحد القضاة فى الجامع الأزهر ، « وهو قائم على قدميه ؛ فكلما مرّ ذكر المعزّ أو أحد من أهله أومأ بالسجود »[٢] . ولما اسند القضاة أيضا فى

---

(١) المنتظم لابن الجوزى س ١١٥ ب — ١١٦ أ .
(٢) ملحق أخبار الولاة والقضاة للكندى س ٥٨٩ .

عام ٣٩٨ هـ — ١٠٠٨ م إلى مالك بن سعيد الفارقى قُرِئ سجلّه بالقصر ، وهو قائم على رجليه ، وكان القاضى كلما مرّ ذكر الحاكم فى السجل قبّل الأرض[(١)] ، وقد أُمر الناس فى الحرمين فى إحدى السنين أن يقوموا عند ذكر هذا الخليفة ، وكان إذا ذُكر فى الأسواق ومواضع الاجتماع بمصر قام الناس وسجدوا[(٢)] .

137

ولكن هذا الخليفة فى آخر أمره أظهر الزهد فمنع الناس من تقبيل التراب بين يديه ، ومن بوس اليد والارتماء بالسجود له ، ومنع من مخاطبته بمولانا ، ولكن هذه الرسوم عادت فى زمن خلفه إلى ما كانت عليه من قبل[(٣)] . ولما احتضر الحاكم وصّى أبا محمد الحسن بن عمّار أحد شيوخ كتامة ، ثم جعل له الوساطة ، وخلع عليه ، وكان الناس يذهبون إلى قصره ، فمنهم من يومئ بتقبيل الأرض ، ولا يقبّل يده سوى أناس بأعيانهم ، وشرّف بعض الناس بتقبيل ركابه ، وكان أجل الناس من يقبل ركبته[(٤)] .

وقد ضرب أحد رجال الحاشية فى بخارى حوالى هذا العصر أحسن مثل للأدب وحسن الإصغاء للملك والإقبال عليه ؛ فبينما كان عنده يحادثه فى بعض مهماته لسعته عقرب فى إحدى رجليه عدة لسعات ، فلم يتحرك ولم يظهر عليه أثر ذلك ، فلما عاد إلى منزله نزع خُفّه ، وأخرج العقرب منها[(٥)] . ونظر الأخشيد إلى كافور يوما ، وقد جىء بفيل وزرافة ، فمال جميع العبيد والخدم بأبصارهم للفرجة ، فلم تبرح عينه من عين الأخشيد خوف أن يحتاج إليه ، ويدعوه فيكون

---

(١) نفس المصدر ص ٦٠٤ نقلا عن المسبّحى .

(٢) المنتظم ص ١٥٠ ب .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٢٢ ب — ١٢٣ ا ، ١٣٢ ب — ١٣٣ ا .

(٤) الخطط المقريزى ج ٢ ص ٣٦ .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٦ ، ويحكى مثل هذا عن الحجاج وعبد الملك بن مروان ، انظر محاضرات الأدباء طبعة بولاق ج ١ ص ١١٧ .

مشتغلا عنه[١] . وقد تكلم المسعودى فى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م عن هذا الأدب فى حضرة الملوك ، فقص علينا أن أبا بكر الهذلى حضر مجلس السفّاح ، وكان السفاح مقبلا عليه يحادثه بحديث لأنو شروان فى بعض حروبه ، فعصفت الريح فأذرت ترابا وقطعا من الآجرّ من أعلى السطح إلى المجلس ، فارتاع من حضر لوقعها ، والهذلى شاخص نحو السفّاح ، لم يتغير من شدة ميل ذهنه وانشغال فكره بمحادثة الأمير حتى لم يصبح فيه لحادثٍ مجال[٢] . ويحدثنا أيضاً عن أحد سُمَراء شبرويه ابن أبرويز أنه كان يساير الملك ، ويستمع حديثه مصغيا إليه بجوارحه كلها حتى ترك النظر إلى موطئ حافر دابّته ، فزلّت إحدى قوائمها فمالت بالرجل إلى النهر ، ووقع فى الماء ، فسُرّ الملك بذلك ، لأنه لم يكن يظنه بهذا المقدار من الإقبال عليه « فحشا فاه جوهرا ودُرًّا ، واستبطنه حتى غلب على أكثر أمره »[٣] .

وكان الأمراء فى مخاطباتهم الرسمية ، وفيما بينهم يتكلمون عن الخليفة أمير المؤمنين بكل احترام ، ويعبِّرون فى كلامهم عنه بمولانا ، ويضع الواحد منهم نفسه من الخليفة موضع « المولى[٤] » ، وكان أحدهم إذا كتب لآخر افتتح كتابه بالكلام عن الخليفة من نحو : « كتابى ومولانا أمير المؤمنين سالم موفور والله على ذلك محمود مشكور[٥] » . وكل شىء ينسب إلى أمره[٦] . وفى سنة ٣٧٨ هـ

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٤٧ .

(٢) يحكى شىء يشبه هذا عن أبى القاسم الكعبى فى حضرة أمير خراسان ، محاضرات الأدباء ج ١ ص ١١٧ .

(٣) مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٢ — ١٢٥ .

(٤) ولم يكن الواحد منهم يسمى نفسه عبدا كما فعل تكين صاحب مصر حتى عام ٣٠٠ هـ — كتاب العيون ص ١٢٥ ب (؟) .

(٥) انظر مثلا رسائل الصابى مخطوط رقم ٧٦٦ بمكتبة ليدن ص ٧٢ ب ، ٩٠ ب ، ١٢٩ ا .

(٦) انظر مثلا نفس المصدر ص ١٢٥ ا : « وأنهينا ذلك إلى مولانا أمير المؤمنين ، وخرج إلينا أمره لازال عالياً وسلطانه سامياً ... » ، وص ٢٠٣ ا : « ولم يزل أكرمكم =

أهدى الصاحب بن عباد إلى فخر الدولة فى أول المحرم ديناراً وَزْنُه ألفُ مثقال ، وكان على أحد جانبيه أبيات من الشعر ، وعلى الجانب الآخر سورةُ الإخلاص ، ولقبُ الخليفة الطائع لله ولقبُ فخر الدولة واسمُ جرجان لأنه ضرب فيها ، هذا مع أن الإهداء كان بالرىّ ، فى مكان طهران الحالية ؛ مع بعدها عن دار الخلافة [1] .

ولـكن أمير المؤمنين كان عند التقائه بالأمراء يرى ضعفه المتزايد ونقصان منزلته ، ومن ذلك أن بجكم القائد التركى كان من عادته فى داره وحشمه ألا يشرب الماء إذا جاءوه به إلا بعد أن يذوقه بين يديه من جاء به ، وعَلِم الخليفة الراضى بذلك ، فاستعمل معه ما يُعمل له فى منزله ، فكان إذا حُمل شىء وُضع بين يدى الراضى أولا فأكل منــه ، ثم يوضع بين يدى بجكم ، وجرى ذلك فى كل ما يوضع بين يديه ، وكان بجكم يستعفى الراضى من هذا فلا يعفيه [2] .

وقد تعرض بلاط الخلافة لأكبر ما أنقص هيبته فى عهد المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ — ٩٤٦ م) لأنه وقع فى سلطان امرأة فارسية مستبدة تسمى حُسْن ، « والتفّ إلى حسْن نفر ممن كانوا معها على الأصول القبيحة ... وكانت تتولى عرض الغلمان والحجّاب فى قصر الخليفة فى مجلس يقال له الحودان لم يكن يصل إليه أحد إلا وزير أو صاحب فانخرقت الهيبة بهذه المرأة ، وذهبت الرسوم التى كانت للخلافة ، وصارت الدار طريقاً لـكل من لم يرَها ، وكان كل من وصل إلى المستكفى أجلسه بين يديه . . . » ، وأرادت هذه المرأة أن تأمن توزون وتصلح قلبه ، فجعلت الخليفة يدعوه ويكرمه بما لم يسمح به أحدٌ من الخلفاء قبله ،

= الله مولانا أمير المؤمنين يتطلع أخباركم ... ويرى فيكم ما يراه فى كافة المسلمين من حماية حريمكم وصيانة جميعكم ... ويجارينا أعزّه الله ذلك من نيته ... ويهيب بنا إلى الذب عن دياركم ... » .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤١ .

(٢) الأوراق للصولى ص ٥٤ .

فكان يأكل معه على مائدة واحدة ويقدم له دابةً فى الرواق التسعينى ، وهو موضع لم يركب منه خليفة قط ، وأمر أن تحمل بين يديه شمسةُ الخلافة وأن يسير الخدم معه إلى داره[1] ، وكان من سوء حظ الخلفاء أن الديلم الذين ملكوا بغداد كانوا شيعة ، فازداد أمر الخلافة إدباراً ، وذهبت حرمة الخلفاء ، ولم يبق لهم من الأمر شىء ؛ لأن الديلم « كانوا يتشيّعون ويُغالون فى التشيّع ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة ، وأخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعثٌ دينى على الطاعة[2] » . وقد كان ثوار دار الخلافة حتى ذلك الوقت هم الذين يخلعون الخلفاء ويقتلونهم . أما الآن بعد قدوم الديلم ، فقد صار الخليفة يُعامل أمام الناس جميعاً معاملة سيئة ، لا تُراعى له فيها حرمة ولا يُعرف له فيها قدر . ففى سنة ٣٣٤هـ—٩٤٥م ذهب الأمير معز الدولة إلى دار الخليفة ، وذهب إليها سائر الناس على رسمهم فلما جلس المستكفى على سريره ، ووقف الناس على مراتبهم دخل الأمير معز الدولة ، فقبّل الأرض على رسمه ثم قبل يد المستكفى ووقف بين يديه يحدثه ، ثم جلس على كرسى ، فتقدم نفسان من الديلم ومدّا أيديهما إلى المستكفى ، وعلا صوتهما بالفارسية ، فظن أنهما يريدان تقبيل يده فمدها إليهما ، فجذباه بها وطرحاه إلى الأرض ، ووضعا عمامته فى عنقه وجرّاه ، فنهض حينئذ معز الدولة ، واضطرب الناس وارتفعت الزعقات وافتتنت دار السلطان ، وضُربت الأبواق ، وساق الديلميان المستكفى بالله ماشياً إلى دار معز الدولة حيث سُملت عيناه[3] .

وفى ٣٦٤هـ دخل عضد الدولة بغداد ، فكان من حسن سياسته أنه سعى حتى ردّ الخليفة بعد أن أخذه الأتراك معهم كارهاً ، وخرج للقائه فى الماء ، ومعه حشد

---

(١) كتاب العيون س ٢٢٤ أ — ٢٢٦ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٣٩ .

(٣) يحي بن سعيد س ٨٦ ب ، ومسكويه ج ٦ ص ١٢٣ — ١٢٤ .

عظيم من أهل بغداد ، وسار معه حتى أنزله بدار الخلافة[١] ؛ ولكن عضد الدولة طلب من الخليفة فيما بعد لما رجع إلى بغداد عام ٣٧٠هـ — ٩٨٠م أن يخرج للقائه إلى جسر النهروان ، « ولم تكن العادة جارية بخروج الخلفاء لتلقى أحد من الأمراء »[٢] .

وكانت حاشية دار الخلافة ونفقاتهم فى عهد الخليفة المعتضد ٢٧٩ — ٢٨٩هـ — ٨٩٢ — ٩٠١م كما يلى : 139

١ — أمراء بيت الخلافة .

٢ — أصحاب النوبة من الرجّالة ، وأرزاقهم فى كل يوم ألف دينار ، منها سبعمائة دينار للبيضان ، وهم البوّابون ، وثلثمائة للسودان ، وأكثرهم مماليك الخلفاء[٣] . ومن رسمهم أن ينوبوا فى مصافّ باب الخاصة وحوالى القصر . ولهم وظيفة خبز يُمَيَّزون بها لقلة أرزاقهم[٤] .

٣ — الغلمان المُعْتَقون ، وهم فى الغالب مماليك الخلفاء ؛ ومنهم يُختار الحجابُ ، وعدّتهم خمسة وعشرون ، وخلفاء الحجاب . وكانوا نحو خمسمائة[٥] . ولما قتل المقتدر كان معه رجل من خلفاء الحجاب طرح نفسه عليه فذبح أيضاً[٦] . وفى سنة ٣٢٩ هـ — ٩٤٠م أنشئ لأول مرة منصبُ حاجب الحجاب[٧] .

٤ — المختارون وهم حرس مستخلصون للموكب وملازمة الدار ، والدخول

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٧٧ .
(٢) المنتظم ص ١١٧ ا — ب .
(٣) وفى مصدر آخر لا ينطبق ما فيه على حقيقة الواقع تماما أن عدد هؤلاء الغلمان السود غير الخدم أربعة آلاف (تاريخ بغداد طبعة Salmon ص ٥١) .
(٤) انظر فى هذه الأصناف كلها كتاب الوزراء من ص ١١ إلى ص ٢١ .
(٥) مسكويه ج ٥ ص ٥٤١ ، وتاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٤٩ ، ٥١ .
(٦) مسكويه ج ٥ ص ٣٧٩ .
(٧) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٩٥ .

أوقات جلوس الخليفة ، والمقام من أول النهار إلى آخره . وكان جند كل قائد ببغداد بما فيهم مماليكه المسلّحون يؤلّفون وحدة قائمة بذاتها ، فاختار الخليفة من كل قيادة من عُرف بالشهامة والشجاعة ، وسُمّوا بأسماء قوادهم ، فقيل اليأنسيّة (وذلك نسبة ليأنس) والمُفلحيّة والمسرورية وهكذا . على أنه كان للمعتضد مماليك يقيمون فى القصر والحُجَر تحت مراعاة الخدم والأستاذين وسمّاهم الحجرية ، وهم يُختارون من بين الفرسان الذين يحسنون الركوب والرمى ويسمون أيضاً عسكر الخاصة . وكان لخمارويه بمصر قوم معروفون بالشجاعة وشدة البأس اتخذهم حرساً له وسماهم المختارة ، فكانوا يقاتلون أمام جنده ، وإذا ركب مشوا خلفه[١] .

٥ — أصناف أخرى من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين والمنجمين والفنجاميين والفرانقيين والأنصار والحرس وأصحاب الأعلام والبوقيين والمخرّقين والمضحكين والطبّالين والسقايين والطباخين والخبازين وخزنة السروج وعمال الاصطبلات الخمسة — خامسها للإبل — وأصحاب الصيد والملاّحين فى الطيّارات ، وخَدَمَة المشاعل والأطبّاء .

٦ — الحُرَم ، وأرزاقهن فى اليوم مائة دينار ، وليس عندنا معرفة دقيقة بعددهن . وقد ذكر الخوارزمى مازعمه البعض من أن المتوكل كان له اثنا عشر ألف سرية[٢] ، ويقول المسعودى إنه كان له أربعة آلاف سرية ، وفى أحد المخطوطات أربعمائة[٣] ، وكان على رأس نساء القصر حوالى عام ٣٠٠ هـ قهرمانتان إحداهما للخليفة والأخرى للسيدة والدته ، وكان يسلَّم للأولى كبارُ المعتقلين ليُحبسوا عندها مكرّمين حبساً هيّناً ؛ فمثلا وُكّل بابن الفرات حوالى ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م عند

---

(١) نفس المصدر ص ٦٥ .

(٢) رسائل الخوارزمى ص ١٣٧ .

(٣) المروج للمسعودى ج ٧ ص ٢٧٦ .

زيدان القهرمانة[1] كما سُلِّم إليها الأمير الحسين بن حمدان ، والوزير على بن عيسى سنة ٣٠٣هـ — ٩١٥م[2] . وكان اتخاذ الخليفة نساء من غير مبالاة بأصلهن ، وإن كان معظمهن من جوارى الترك والروم ، سبباً فى إيجاد كثير من الاضطراب فى البلاط وفى المناصب الإدارية العليا . فكانت كل سيدة تحابى من يتصل بها من الأقارب والأولياء ، وترفعهم ما استطاعت ، ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المهدى كتب إلى عامل جرش فى إشخاص الغطريف بن عطاء أخى الخيزران أم موسى وهارون ابنيه ، وكان الغطريف غلاماً لرجل من أهل جرش فأعتقه ، وكان يؤاجر نفسه بنظر كروم ، فحباه العامل وكساه ، وحمله إلى المهدى فرفع منزلته ، ثم ولّاه على اليمن[3] . وكان المقتدر خال رومى يسمى غريب ، وكان له نفوذ كبير ، وكان يُخاطَب بالإمْرة[4] . وفى سنة ٣٠١هـ استطاعت أم موسى الهاشمية قهرمانة السيدة أم الخليفة أن تسعى فى إسناد نقابة بنى هاشم الطالبيين والعباسيين لأخيها ، فضجّ الهاشميون حتى ردّوا النقابة إلى ابن النقيب السابق[5] . وقد أثبتت التجربة أن كثيراً من المنازعات مصدرها أمُّ الخليفة ، وقد ذاق المتصلون بالخليفة وبالَ ذلك ، حتى إن الخليفة كان يُنتخب أحيانا لأنه لا أم له رجاء أن تستقيم الأمور معه[6] .

وكان فى دار المقتدر حوالى عام ٣٠٠هـ — ٩١٢م أحد عشر ألفاً من الخدم

(١) غريب ص ١٠٩ ، كتاب الوزراء ص ١٠٥ .
(٢) كتاب العيون ص ٨٥ ا ، ٨٦ ا .
(٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٨١ من الطبعة الأوروبية .
(٤) غريب ص ٤٩ .
(٥) نفس المصدر ص ٤٧ .
(٦) نفس المصدر ص ١٨١ ، وكتاب العيون ص ١٣١ ب بالترقيم العربى (؟) ، وقد توفيت والدة القاهر نفساء (كتاب العيون ص ٦٦ ا) .

الخصيان[١]؛ وفى رواية أخرى أنه كان بها سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب[٢]؛ وفى مصدر قديم موثوق به أن خدم المتوكل وحاشيته كانوا سبعمائة[٣].

141 وقد جرى أباطرة الدولة الرومانية فى العصر المتأخر على عادة الفرس القدماء، فجمعوا حولهم جماعة يدعونهم إلى الطعام والشراب، وسموهم «أصدقاء الإمبراطور»؛ وكذلك فعل الخليفة المأمون لما ورد إلى بغداد، فإنه أمر بأن تُثبت له أسماء من يصلح لمنادمته من أهل الأدب[٤]. وقد آثر أن يكونوا من العلماء والقوّاد وممن جالس الخلفاء. وكذلك حاول القائد بجكم أن ينتفع بندماء الخليفة الراضى، فلم يجد من ينفعه إلا الطبيب سنان بن ثابت[٥]. وكان للخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩هـ = ٨٦٩ — ٨٩٢م) مع ندمائه مجالسات ومذكرات قد دُوّنت فى أنواع من الأدب، فيها مدح النديم وذكر فضائله وذمّ التفرّد بشرب النبيذ وما قيل فى ذلك[٦]، وكان للندماء أرزاق[٧].

وقد وصف لنا الصولى أول جلسة للخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٦هـ = ٩٣٦ — ٩٤٠م) مع أصحابه، كانوا يجلسون على رسم وترتيب مخصوص؛ وكانوا فى أول جلسة أربعة عن يمينه وخمسة عن يساره؛ فكان على يمينه قريباً إليه إسحاق بن المعتمد أحد الأمراء، ويليه الصولى، الأديب ولاعب الشطرنج

(١) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٤٩ نقلا عن القاضى التنوخى (المتوفى عام ٤٤٧هـ — ١٠٥٥م)؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٢٤٨.

(٢) تاريخ بغداد ص ٥١.

(٣) كتاب الديارات للشابشتى ص ٦٨ ب.

(٤) نفس المصدر ص ٢١ ب.

(٥) مسكويه ج ٦ ص ٢٦.

(٦) مروج الذهب ج ٨ ص ١٠٢، ويحكى لنا الشابشتى (ص ١٨٠ ا) أن المأمون أراد يوماً أن يتسلى مع ندمائه، فأمر بإحضار اللحوم وآلة الطبيخ وطلب من الندماء أن يطبخ كل واحد منهم قدراً وطبخ هو أيضاً قدراً.

(٧) الفهرست لابن النديم ص ٦١.

المشهور ، ثم أحمد بن محمد العروضى الذى كان مرسوماً بتأديب أبى إسحاق المتقى أمير المؤمنين ، ثم يليه محمد بن عبد الله بن حمدون أحد أبناء الأشراف المتصلين بالبلاط . وكان على يساره ثلاثة من آل المنجم وهم من أدباء الحاشية ، واثنان من بنى البريدى العمال المشهورين . وكانا يعلّمان الخليفة الخط . وقد افتتح المجلسُ بإنشاد قصائد بمناسبة تقليد الخلافة ، ثم تكلم الخليفة ، فشكا ثقلَ العبء الذى ألقاه عليه هـذا المنصب بسبب قلة الأموال وتغيّر الأحوال وكَلَب الجند وخراب الدنيا ، وذكر أنه يستصحبه من الغم والأسف والاهتمام أكثر مما يؤمل من السرور ، ورجا الله أن يعيله بجميل نيته . وكان مما قاله . والله لقد جاءنى هذا الأمر ولا شرعت فيه ولا جئته ولا عُلم إليه ذلك منى فى سرّ ولا علانيـة ، ثم تحدث عن إعنات القاهر له وخوفه من قتله إياه فى ليله ونهاره إلى أن قال : أليس بابن المعتضد وأخ المقتدر وعمّ لنا ؟ هذا والله عار وعيب لا يُزال ، فقال له الصولى : قد أزال الله عن سيدنا كل عيب ، وله فى رسول الله أسوة حسنة ، هذا عمه أبو لهب أنزل الله فيـه سورة من القرآن يعرفها كل إنسان ، فما لحقه عاره . يقول الصولى : « فكنا بين يديه فى ذلك اليوم ثلاث ساعات من الليل نشرب ، وكان هو لا يشرب قد ترك النبيذ جملة » ، وكان لـكل من الفريقين اللذين على يمينه وعلى يساره فى أول جلسة نوبةٌ خاصة به ، ويظهر أن بعض أعضاء النوبة كانوا يحضرون النوبة الأخرى أحياناً[١] . ويقول الصولى إن مما امتاز به الراضى فى مجالس منادماته أنه كان يأمر بأن توضع بين أيدى الندماء الصوانى عليها خماسيات المطبوخ ، والمغاسل وكيزان الماء ليشرب كل واحد منهم ما يريد « ولم يكن يفعل ذلك الخلفاء إلا خصوصاً بالواحد بعد الواحد[٢] » وبالجماعة فى وقت من

(١) الأوراق للصولى ص ١١ — ٢٦ ، ١٤٣ .

(٢) فمثلا كان لكل نديم من ندماء الواثق (٢٢٧هـ — ٢٣٣هـ = ٨٤١ — ٨٤٧ م) نوبة لا يحضر إلا فيها — الأغانى ج ٣ ص ١٨٤ .

الدهر » . وكان يأمر أن توضع بين أيديهم الفواكه الرطبة واليابسة ، فينالوا منها كما ينالون فى بيوتهم ؛ بل يحكى الصولى أن الندماء كانوا يتبارون فى الشرب بين يديه فيُسَرّ بذلك ، ويثيب عليه ويقول : من زاد فى شربه فإنما فعل ذلك سروراً بنا ونشاطاً لمجلسنا ، وكان إذا شرب أحد المتبارين كأساً قبل صاحبه رفعها ليراها الراضى ؛ وقد فعل اثنان منهما ذلك مراراً إلى أن ضجر الراضى فقال : كأنها قوارير بول تدفع بين يدى طبيب[1] .

وكان لكل سلطان من السلاطين أمارة لندمائه إذا أراد نهوضهم ، فكان أردشير إذا تمطى قام سماره ، وكان يزدجرد يقول شَبْ شُد (ومعناها مضى الليل) وكان سابور يقول : حسبك يا إنسان ، وكان عمر يقول : قامت الصلاة ، وعبد الملك : إذا شئتم ، والرشيد : سبحان الله ، وكان الواثق يمس عارضيه[2] .

وكانت نفقات دار الخلافة عظيمة جداً ، فكانت نفقات المطابخ والمخابز عشرة آلاف دينار فى الشهر . وكان يُطلق فى كل شهر فى جملة نفقات المطبخ لثمن المسك وحده ثلثمائة دينار ، مع أن الخليفة لم يكن يأكل طعاماً فيه مسك . ولا يطرح له إلا اليسير فى الخشكنانج . وكان يُصرف للسقايين مائة وعشرون ديناراً فى الشهر ، ومائتا دينار لثمن الشمع والزيت ، وثلاثون ديناراً للأدوية ، وثلاثة آلاف دينار لنفقات خزائن الكسوة والخلَع والطيب وحوائج الوضوء والحمام ونفقات خزائن السلاح وما يُرَمّ من الجواشن والدروع ويتخذ من النشاب والأعلام ونفقات خزانة السروج والفرش[3] . وكانت نفقات دار الحُرم التى بناها خمارويه عظيمة جداً ، وكان يفضل عن حاجات من فيها الشىء الكثير للخدم

---

(١) الأوراق للصولى ص ٧١، ٧٢ .
(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢١ .
(٣) كتاب الوزراء ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٥٢ .

والطباخين . واشتهر بيعُهم لذلك ، « وكان شيئاً موجوداً فى كل وقت لكثرته واتساعه بحيث أن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى باب دار الحرم ، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله »[١] . ولما قعد القاهر فى الخلافة أظهر من الجد والاختصار والقناعة ما هابه به الناس ، فلما عُرضت عليه صنوف الألوان والحلواء والفاكهة التى كانت توضع بين أيدى الخلفاء فى كل يوم استكثرها وكانت تُبتاع بثلاثين ديناراً ، فأمر بأن يُقتصر من ذلك على دينار واحد ومن الطعام على اثنى عشر لوناً . وكان يقدَّم لغيره فى كل يوم ثلاثون لوناً من حلواء فاقتصر على ما يكفيه[٢] . وفى ذلك العصر كانت أيام العسر قد أقبلت ؛ ففى عام ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م . أُنقص عدد الحجاب من خمسمائة إلى ستين[٣] وفى سنة ٣٣٤ هـ — ٩٣٧ م استولى معز الدولة على كل الأمور المالية من يد الخليفة ، وأقام له لنفقته كل يوم ألفى درهم[٤] ، وهو أقل من نصف ما كان يحتاج إليه[٥] . وبعد ذلك بسنتين قطع عن الخليفة الألفى درهم وعوّضه عنها ضياعاً من ضياع البصرة وغيرها زيادة على قدر ضياع الخليفة بنحو مائتى ألف دينار فى السنة ، ثم نقص ارتفاعها على ممر السنين إلى أن صار خمسين ألف دينار فى السنة[٦] . ثم جرت العادة منذ عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م أن تُنهب دارُ الخليفة بعد موته أو خلعه حتى لا يبقى فيها شىء[٧] . وفى سنة ٣٨١ هـ —

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣١٧ — ٣١٨ .
(٢) عريب ص ١٨٣ .
(٣) مسكويه ج ٥ ص ٥٤١ .
(٤) مسكويه ج ٦ ص ١٢٥ .
(٥) كانت نفقات الحضرة فى أيام المعتضد سبعة آلاف دينار فى كل يوم (كتاب الوزراء ص ١٠) ، وفى سنة ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م قُدِّر لسائر نفقات دار الخلافة مائة وخمسون ألف درهم فى السنة (كتاب العيون ص ٢٠٣ ا) .
(٦) المنتظم ص ٧٨ ب
(٧) يحيى بن سعيد ص ٨٦ ب — ١٨٧ ا ، ومسكويه ج ٦ ص ١٢٤ . ولما مات =

٩٩١ م لما خُلع الطائع حُوِّل ما كان فى دار الخلافة من المال والثياب والأوانى والمصاغ والفروش والآلات والرخام والخشب والساج والتماثيل والأبواب والشبابيك والرصاص حتى خلت دار الخلافة [1] . وكان العامة من الرومان يطلقون لأنفسهم العنان لمثل هذا الصنيع عند موت البابا . ونلاحظ هنا تشابهاً يستلفت النظر بين الخليفة والبابا ، وذلك أن الخليفة فى هذا العصر صار رئيساً روحياً فقط ليس له سلطة سياسية ، وصار هو الرئيس الروحى لجميع المسلمين . وإن تَقلص سلطانه عن العراق حتى لم تبق له إلا بغداد ينازعه عليها المنازعون كان مما أسرع فى جعل منصب الخليفة روحياً دينياً . فى سنة ٤٢٣هـ — ١٠٣٢م نزل السلطان جلال الدولة من داره على سكر ؛ وانحدر فى سميرية ، ومعه ثلاثة نفر من حاشيته ؛ وصعد إلى بستان دار الخلافة ، وجلس مع بعض مغنياته تحت شجرة ، واستدعى نبيذاً فشربه ، وأمر الزامر أن يزمر ؛ وعرف الخليفة ذلك فشقّ عليه وأزعجه ، فأرسل للسلطان قاضياً وحاجباً فقالا له : إن النبيذ والزمر مما لا يجوز فى هذا الموضع على مقربة من الخليفة ، فلم يقبل كلامهما ، ولم يمتنع فتغيَّظ الخليفة ، وأرسل له كلاماً غليظاً ، وأفهمه أن هذه السيرة تشين الخلافة ، وهدَّد بمفارقة البلد ؛ فحضر الوزير واعتذر [2] . على أن الدور الذى كان للخليفة فى هذه العصور الأخيرة كان بسيطاً لا يشبه منصب رئيس الكنيسة إذا قورن بإمبراطور بوزنطة الذى كان يُحَيَّى فى ميدان الألعاب بوصف أنه داود الثانى أو الرسول بولس الثانى ، وكان يُحتفى به كما يُحتفى بكبار القسس ، وكان يمضى يومه بين الكنائس والمذابح وصور القديسين ، كما يدل على ذلك كتاب De Caerimoniis .

= الراضى أرسل بحكم القائد إلى دار الخلافة ، وأخذ فرشاً وآلات كان يستحسنها (ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٦) ، ولما خلع الوزير فى عام ٢٩٩هـ — ٩١١ م نهبت داره وأخربت (كتاب الوزراء ص ٢٩ والمنتظم ص ٤٠ ا) .

(١) المنتظم ص ١٣٠ ب وابن الأثير ج ٩ ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) المنتظم ص ١٨٥ ا — ب .

الفصل العاشر

144

الأشراف

كان العرب يقولون : الشرف نسب ، يقصدون أنه فى الدم . وأول ما يجب أن يتوفر للسيد أن يكون جوادا شجاعا ، ومن خصاله أن يكون عاقلا متغافلا .

كما قال الفرزدق :

كأن فيه إذا حاولته بلها عن ماله وهو وافى العقل والورع

وكما قال الشاعر :

ليس الغبيُّ بسيد فى قومه لكنّ سيد قومه المتغابى[1]

ولا بد أن يكون عظيم الرأس ، ومن لم يكن عظيم الهامة فليس بسيد[2] ، كالكاتب فمن صفته أن يكون صغير الهامة[3] . ومن صفاته أن يكون كث شعر الناصية ، أشمّ عرنين الأنف ، واسع الأشداق[4] ، غير مستدير الوجه ، عريض الصدر والمنكبين ، مديد الساعد ، طويل الأنامل[5] . ويُكره فى السيد التصنّع فى اللباس والمشية ، ولذلك يقال : « عمامة السيد ملوّثة ، أى يديرها على رأسه كيفما

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص ٢٧١ .

(٢) نفس المصدر ٢٧٠ .

(٣) صبح الأعشى للقلقشندى طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٠ هـ — ١٩٢٢ م ج ١ ص ٦٧ .

(٤) وهذه أيضاً صفة كرام الخيل .

(٥) ومن صفات رأس الجالوت (رئيس اليهود) أن يكون طويل الباع تبلغ أناملُه ركبتيه (مجلة الأبحاث اليهودية مجلد ٥٩ (١٩١٠) ص ١٢١ وما يليها ، ومفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٣٥) ، ومن صفات المهدى عند السنوسيين بإفريقية أن تبلغ أناملُه الأرض ، (انظر M. Hartmann, Af. R. 1, S. 266)

اتفق »[١] . ويحكى عن الفضل بن يحيى أحد رجال الحاشـية فى العصر العباسى أنه قال : « الناس أربع طبقات : ١ — ملوك قدّمهم الاستحقاقُ . ٢ — ووزراء فضّلتهم الفطنة والرأى . ٣ — وعِلْية أنهضهم اليسار . ٤ — وأوساط ألحقهم بهم التأدُّب ؛ والناس بعدهم زبد جُفاء ، وسيل غُثاء ، لُـكَع ولكاع ، وربيطة اتّضاع ، همّ أحدهم طعمه ونومه »[٢] .

وكان الشرف والسيادة نتيجة للمال وللسيطرة السياسية ، وهما شيئان فى غاية الدناءة . وقد أهمل المسلمون مسألة الدم وخصوصاً دم الأم إهمالا شديدا ، وذهبت قلة الاكتراث بذلك إلى حد أن جميع الخلفاء فى القرنين الثالث والرابع للهجرة كانوا أبناء جوارٍ من الترك أو الروم ، وكاد رجل أسود فى أوائل القرن الثالث الهجرى أن يرتقى إلى عرش الخلافة[٣] . على أن الإسلام أوجد نوعا من شرف الدم لايزال باقيا إلى عصرنا هذا ، وذلك فى قرابة النبى أو بنى هاشم أو أهل بيت رسول الله أو أهل البيت باختصار ، وكانوا يأخذون ، باعتبارهم قرابة النبى ، راتبا من الحـكومة ، وكذلك حرمت عليهم الصدقة هم ومواليهم[٤] . وكان لهم قضاء مستقل بهم يتولاه نقيبهم الذى يعيّنه الخليفة[٥] . وكان لهم نقيب لا فى بغداد فقط ، بل فى جميع المدن الـكبرى مثل واسط الـكوفة والبصرة والأهواز[٦] ،

145

---

(١) أنباء نجباء الأبناء مخطوط برلين رقم ٩٥٠٧ ص ١٤ ب ومخطوط رقم ٦٠٣٢ ص ١٥ ب ، وهذا الـكتاب لابن ظفر المـكى المتوفى عام ٥٦٥ هـ — ١١٧٠ م .

(٢) مختصر كتاب البلدان لأبى بكر أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه طبعة ليدن عام ١٣٠٢ هـ ص ١ .

(٣) هو إبراهيم بن المهدى ، وأمه أم ولد سوداء ، وكان شديد السواد برّاق اللون طويلا بديناً حتى كان ينبز بذلك (مطالع البدور للغزولى ج ١ ص ١٣ ؟) .

(٤) رسائل الجاحظ طبعة فان فلوتن ص ٧ .

(٥) الأحكام السلطانية للماوردى طبعة إنجر ص ١٦٥ .

(٦) المنتظم لابن الجوزى ص ١١٥ ب .

وفى سنة ٣٥١ هـ — ٩٦١ م كانت نقابة الطالبيين بمصر للشاعر أبى القاسم أحمد ابن محمد بن إسماعيل طباطبا[١] . وكان نقيب العلويين فى عهد الفاطميين أيضا من كبار رجال دار الخلافة[٢] ، وقد انتهى إلينا كتاب بتقليد أبى أحمد الحسين ابن موسى نقابة الطالبيين سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م ، ونرى من هذا الكتاب أن النقيب هو الذى يحكم أيضا فى النزاع بين الطالبيين و بين سائر رعية الخليفة[٣] .

وكان الفرعان المتعاديان من أهل البيت وهما العباسيون الذين وصلوا إلى الرياسة ، والطالبيون الذين لم يبلغوها ، يخضعون جميعا لنقيب واحد حتى القرن الرابع[٤] . وفى آخر هذا القرن صار لكل فريق منهم نقيب خاص ، والسبب الأقوى فى ذلك أن العباسيين بدأ أمرهم فى الضعف و بدأ الآخرون فى القوة ، فلم يستطيعوا أن يحتملوا إشراف أحد على أمرهم ، وقد مهدت ظروف ذلك العصر الطريق لما عليه الأشراف اليوم .

وكان كل من العلويين والعباسيين يخاطَب بالشريف[٥] ، ولم يكن للعلويين شارة يتميزون بها كما تدل على ذلك الحكاية التى أوردها عريب بن سعيد القرطبى فى كتابه صلة تاريخ الطبرى[٦] ، أما اللون الأخضر فلم يجعل شارة لهم إلا أخيرا فى القرن الثامن الهجرى[٧] .

وكان يُعطى لكل واحد من بنى هاشم ببغداد دينارٌ فى كل شهر فى عهد

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٤٩ .

(٢) Becker, Beitrage, 1, S. 33 نقلا عن المسبِّحى .

(٣) رسائل الصابى طبعة بعبدا (لبنان) ١٨٩٨ ص ١٥٣ .

(٤) عريب ص ٤٧ .

(٥) فيما يتعلق بالعلويين انظر كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ٢ ص ٤٣ ، والإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٦ وفيما يتعلق بالهاشميين انظر المنتظم لابن الجوزى ص ٩٢ ب .

(٦) عريب ص ٤٩ .

(٧) انظر الفصل الخاص بالشيعة .

المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩هـ = ٨٧٠ — ٨٩٢م) — أما الذين خرجوا من بغداد فقد تركوها خاوى الوفاض. ثم اقتصر الخليفة المعتضد على ربع دينار. وكان عدد بنى هاشم بالحضرة أربعة آلاف نفس، وجملة الجارى لهم ألف دينار فى الشهر[١]، وفى سنة ٢٠٩هـ — ٨٢٤م أحصى عدد العباسيين، فكانوا ثلاثة وثلاثين ألفاً[٢]. على حين أن الجاحظ حوالى ذلك الوقت يقول: «إن آل أبى طالب أحصوا منذ أعوام وحصلوا، فكانوا قريباً من ألفين وثلاثمائة[٣]».

وكان يجرى لمشايخ الهاشميين راتب خاص يُذكر فى الميزانية مع أرزاق الخطباء فى المساجد الجامعة، وجملة ذلك ستمائة دينار فى الشهر[٤]. وكان لأولاد الخلفاء جار خاص، وإن كان قليلا، فكان المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢م) يُجرى على أولاد المتوكل وأولادهم رجالا ونساء ألف دينار فى الشهر، وكان يعطى أولاد الواثق والمهتدى والمستعين، ومن فى قصر أم حبيب خمسمائة دينار فى الشهر، وأجرى على ولد الناصر عبد الواحد وإخوته خمسمائة دينار أيضاً[٥]. ولذلك لم يَخْلُ العلويون من بعض المخاطرين الساخطين، وكانت بخارى مركز هذه الجماعة الذى إليه يأوون، لأنه كانت ببخارى أكبر حكومة غير شيعية بعد بغداد. وفى حوالى سنة ٣٨٠هـ التقى ببخارى بعض أولاد الخلفاء مثل أبى طالب المأمونى وأبى محمد الواثق، وابن المهدى وابن المستكفى[٦]. وكان أبو محمد الواثق يشهد بنصيبين عند الحكام والقضاة، وإليه مع الشهادة الخطابة فى المسجد الجامع. ثم أفسد على القاضى أمره، فأُخرج من بغداد، فقصد خراسان راجياً أن يقلد

(١) كتاب الوزراء ص ٢٠.
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٩٦٩ (؟) وكتاب العيون ص ٣٠١ (؟)، ولعله يشير إلى الجزء المطبوع.
(٣) كتاب الفصول للجاحظ مخطوط رقم ٣١٣٨ بالمتحف البريطانى ص ٢٠٧ أ.
(٤) كتاب الوزراء ص ٢٠.
(٥) نفس المصدر ص ٢٠.
(٦) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٨٤ — ٨٧، ١١٢.

قضاء أو ديوان بريد ، فلم ينل ما أراد ، فذهب مغاضباً يتوغل فى بلاد الترك حتى ألقى عصاه بحضرة بغراخاقان ، وافتعل مع رجل آخر كتاباً عن الخليفة بتقليده العهد بعده ، حتى اضطر الخليفة أن يكتب بتكذيبه إلى خراسان وسائر الأطراف ، ولم يزل الواثق يزين لبغراخاقان إزالة الدولة السامانية والاستيلاء على المملكة ، وبنى التدبير على أن تكون له الخلافة ، ويتقلد التركى أعمال خراسان وما وراء النهر من يده ، فألمّ التركى فى جيوشه ببخارى واستولى عليها ، ولكنه مات قبل تحقيق نهاية التدبير ، وعاد الواثق إلى بغداد سرّاً بعد فشل تدبيره ، ولكن الخليفة فطن إليه واضطره إلى الخروج ، فعاود بلاد الترك ، وتقلّبت به الأحوال حتى قبض عليه يمين الدولة محمود بن سبكتكين ، وحبسه فى إحدى القلاع موسَّعاً عليه حتى مات[1] . أما المأمونى فكان أيضاً يسمو بهمته إلى الخلافة ويُمَنِّى نفسه قصدَ بغداد فى جيوش تنضمّ إليه من خراسان لفتحها ، فاقتطعته المنية دون بلوغ الأمنيّة ، ولم يكن بلغ الأربعين ، وكانت وفاته سنة ٣٨٣هـ — ٩٩٣م[2] . ثم حاول محمد بن الخليفة المستكفى الذى خُلع سنة ٣٣٤هـ — ٩٤٥م أن يستولى على الدولة مستعيناً بما جاء فى الأخبار من ظهور المهدى ، فظهرت دعوته بين الخاص والعام ، وادعى أنصارُه أنه « يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويجاهد أعداء المسلمين ، ويجدد ما عفا من رسوم الدين » ، فتطلعت إليه نفوس العامّة ، وجعل دعاته يأخذون له البيعة على الرجل بعد الرجل ، فمن كان من أهل السنة قالوا له إنه عباسى ، ومن كان من أهل التشيّع قالوا له إنه علوى ، ودخل جماعة من وجوه الكتاب وأماثل الناس فى هذا الأمر ، ودخل فيه خلق كثير من الديلم والترك والعرب ، وكان فيهم سبكتكين القائد العجمى ،

147

(١) كتاب الوزراء ص ٤٢١ وما يليها ، ويتيمة الدهر ج ٤ ص ١١٢ — ١١٣ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١١٧ — ١١٨ .

(٢) اليتيمة ج ٤ ص ٩٤ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٧١ .

وكان يتشيّع ، فقال له الدعاة : إن الرجل علوى ، ووعدوه بأن يقلّد إمرة الأمراء فاستجاب للدعوة ؛ ثم ظهر لسبكتكين أن الرجل عباسى لا علوى ، فتغيرت نيّته ، وتصوّره بصورة المحتال ، ثم انتهى أمره بأن قبض عليه بختيار وعلى أخيه ، وأسلمهما للخليفة المطيع لله ، فأمر بجدع أنف صاحب الدعوة ، وقطع أذن أخيه وحبسهما ، ثم هربا وخفى أمرهما[1] .

وكان الهاشميون ، إلى جانب ما يجرى لهم من راتب خاص ، يقدّمون فى تولّى مناصب مشرّفة يصيبون منها المال بلا مبالاة ولا مراجعة ضمير : فكانت تسند إليهم إمامةُ كثير من المساجد[2] ، فمثلا كان أحد الهاشميين (توفى عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م) إماماً لجامع المنصور ببغداد وهو أكبر جامع فى الدولة الإسلامية[3] . وكان إمام جامع عمرو بمصر فى مثل هذا الوقت هاشميا أيضاً[4] ، وكذلك تولى قضاء القضاء فى عامى ٣٦٣ هـ — ٩٧٤ م و ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م رجلان من بنى هاشم[5] . وفى أواخر القرن الرابع كان أبو محمد الواثقى من ولد الواثق بالله أمير المؤمنين يتولّى الخطبة فى المسجد الجامع بنصيبين[6] ؛ كما كان الذى يحج بالناس فى كل عام رجلا من بنى هاشم ، وهذه مهمة يصيب من يقوم بها شيئاً كثيراً ؛ وكانت لا تخرج من يد الهاشميين . ولما احتاج المأمون أن يستعين بالعلويين على أخيه الأمين تولى الحج بالناس رجالٌ من الطالبيين منذ عام ٢٠٣ هـ ، وكانت هذه أول مرة يحج فيه الطالبيون بالناس ؛ ولكن إمارة

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣١٥ — ٣١٧ .
(٢) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مخطوط باريس ص ١٤ ا — ب .
(٣) المنتظم ص ٩٠ ب .
(٤) ملحق الكندى ص ٥٧٥ .
(٥) المنتظم ص ١٠٥ ا — ب ، ١٤٩ ب .
(٦) كتاب الوزراء ص ٤٢١ .

الحج عادت إلى الهاشميين بعد ذلك بثلاث سنين ، وبقيت لهم حتى آخر أيام المسعودى عام ٣٣٦ هـ — ٩٤٧م [١] ؛ ثم آلت إلى العلويين ، وكانوا ينيبون من بينهم من يقوم بالحج [٢] . وكانت أول ماتعطى المبرات إلى أقارب النبى ، فكان أحمد بن أبى يعقوب بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية (توفى عام ٣٤٠هـ) يُجرى بمصر فى عهد ابن طولون الجرايات على الأشراف الطالبيين ، ومنهم من كان ينال مائتى دينار فى كل سنة [٣] . وكان الوزير على بن عيسى فى أوائل القرن الرابع ينفق كل سنة أربعين ألف درهم فى صلات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفى مصالح الحرمين [٤] . وفى سنة ٣٣٤ هـ وصل الخليفة المطيع لله العباسيين والعلويين فى يوم بنيف وثلاثين ألف درهم [٥] ، وقد كان أبو العلاء المعرّى يصل بعض العلويين ، وبعث إليه مرة بشىء من النفقة وأرسل له يعتذر لقلته ويرجوه قبولَه [٦] . ومن الأمثال المعروفة أن العلوى يأخذ ولا يعطى [٧] ، وإذا نظرنا إلى قلة جارى بنى هاشم ، وهو ربع دينار فى الشهر علمنا أنهم لا بد أن يكونوا جميعاً علويين وعباسيين فى فاقة شديدة ، ونجد أحد الهاشميين يشتغل عيناً يجمع الأخبار ، وفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م وقع غلاء ومجاعة فقُتل كثير من النساء الهاشميات ؛ لأنهن كن يقتان الأطفال ويأكلن لحمهم [٨] . وكان عند الصاحب بن عباد وزير فخر الدولة بشمال فارس علوىٌّ شامى

148

---

(١) مروج الذهب ج ٩ س ٦٩ وما يليها .

(٢) المنتظم س ١٢٩ ب ، وابن الأثير ج ٩ س ٥٤ ، على أن إمارة الحج بمصر ظلت فى أيدى الهاشميين . انظر ملحق الكندى س ٥٧٥ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ٢ س ١٥٩ .

(٤) كتاب الوزراء س ٣٢٢ — ٣٢٣ .

(٥) المنتظم س ٧٤ ا .

(٦) رسائل أبى العلاء طبعة مرجليوث س ٣٥ .

(٧) كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى .

(٨) يحيى بن سعيد س ٨٧ ا والمنتظم س ٧٤ ب .

يحدثه بما شاهد من الأعاجيب [١] . وقد تحدث ابن الحجاج (توفى عام ٣٩١هـ — ١٠٠١ م) فى بعض شعره عن مغنية هاشمية سيئة السيرة [٢] . ومما يحكى عن كافور الأخشيدى صاحب مصر أنه وقفت له امرأة فى طريقه وصاحت به : ارحمنى يرحمك الله ، فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفاً فسقطت ، فاغتاظ كافور وأمر بقطع يده ، فقامت تشفع له ، فتعجب من مكرمتها ، وقال : اسألوها عن أصلها ، فما تكون إلا من بيت عظيم . فسئلت فإذا بها علوية ، فعظُم الأمر على كافور وقال : قد أغفلنا الشيطان عن نساء الأشراف ، وأحسن إليها وتفقد سائر نساء الأشراف وأدرّ عليهن الإحسان والجرايات [٣] . وفى سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م وقعت فى بغداد فتن عظيمة أصلها أن عربد رجل عباسى على رجل علوى وهما على نبيذ ، فقُتل العلوى ونفر أهله واستغاثوا لأجله ، ودخلت العامة ، وعظم الأمر ، وكان « أعمام النبى » من أكبر مشعلى نيران الفتنة بين عامة بغداد [٤] .

وفى عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م وثب جماعة من الهاشميين على الوزير على بن عيسى بسبب تأخر أرزاقهم ، فشتموه وخرقوا دراعته ، وأرجلوه ، فخلصه القوادُ منهم ؛ واتصل ذلك بالمقتدر فأمر فيهم بأمور عظام وبأن يُنفوا إلى البصرة مقيَّدين ، فحملوا فى سفينة مطبقة بعد أن ضُرب بعضهم ، وأمر الخليفة أن يُحبسوا فى محبس البصرة ، فحملهم سبك الطولونى أمير البصرة مقيّدين على حمير إلى دار فى جانب المحبس ، وكلمهم بجميل ووعدهم خيرا ، وفرّق فيهم أموالا ، إلا أنه أسرّ بذلك . ثم نفذ كتابٌ باطلاقهم فأحسن إليهم الأمير ، وصنع لهم طعاما ووصلهم ،

---

(١) محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٢٩٥ .
(٢) ديوان ابن الحجاج ١٠ ص ١٤١ .
(٣) المغرب لابن سعيد ص ٤٨ .
(٤) كتاب الوزراء ص ٣٣١ .

وأكريت لهم سُمَيريات ، فكان مقامهم فى البصرة عشرة أيام[(١)] . وكلما قوى أمر الشيعة ببغداد وأظهروا الاحتفال بأعيادهم ، قابل العباسيون السنيون ذلك بنهوض من جانبهم ، وفعلوا مثل ما يفعله الشيعة ، وأكبر من كان يفعل ذلك السنّيون فى باب البصرة[(٢)] . وحوالى عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م وقعت فتنة عظيمة ببغداد — كما تقدم — بسبب نزاع بين علوى وعباسى ، فقبض الوزير المهلّبى الحازم على كثير من مثيرى الفتنة من العباسيين ، وجعلهم فى زوارق مطبقة مسمّرة وأنفذهم للحبس فى بعض مدن العراق ، فكانوا هناك حيث مات كثير منهم ، ثم أطلق الباقون بعد موت المهلّبى[(٣)] . وقد أراد القائد عميد الجيوش فى سنة ٣٩٢ — ١٠٠٢ م أن يضع حدا لهذه العداوة القديمة بين أهل السنّة والشيعة ببغداد ، وهى العداوة التى كان المهيّجون المتطرفون من العلويين والعباسيين يدعون الناس فيها للقتال والشغب . وكان عميد الجيوش قد أرسل لإخماد الفتنة القائمة ، فطلب الثوار من العلويين والعباسيين ، فكانوا إذا وقعوا أمر أن يُقرن العلوى بالعباسى ويغرّقا نهارا بمشهد من الناس ، حتى هدأت بذلك الفتن المستمرة ، وتجددت الاستقامة المنسية ، وخاف الغائب والحاضر[(٤)] .

ثم جاء الوقت الذى ترقبه العلويون بعد طول انتظار ونفاد صبر ؛ فأخذ نجمهم فى الصعود فى كل مكان ، على حين بدأ أمر العباسيين فى الضعف ، فيقول المقدسى فى كلامه عن إقليم خراسان مثلا : وأولاد على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشميا إلا غريبا[(٥)] ، وفى هذا الأمر نجد القرن

(١) عريب س ٧٥ — ٧٦ .
(٢) ابن الأثير ج ٩ س ١١٠ .
(٣) كتاب الوزراء س ٣٣١ — ٣٣٢ .
(٤) نفس المصدر س ٤٦٤ ، والمنتظم س ١٤٧ ب .
(٥) المقدسى س ٣٢٣ .

الرابع الهجرى قد أوجد الظروف والموقف الذى نراه الآن ، فالعلويون هم الذين يمثلون أهل بيت الرسول . وقد عمل الجميع من قرامطة وفاطميين على خدمة قضية العلويين ، فأنشأوا دولة علوية فى جبال فارس ، وفتحوا مكة بعد منتصف القرن الرابع وجعلوها عاصمة البلاد المقدسة ، واستطاعوا بدهاء أن يستغلوا المنافسة الشديدة القائمة بين القاهرة و بغـداد لمصلحة هذا المركز الجديد[١] ، وكان الملوك الجدد فى الغرب والشرق وهم الحمدانيون والبويهيون على مذهب الشيعة ، وكان ازدياد التكريم للنبى مما أسبغ حول أبنائه تكريما كبيرا ، ويحكى أن كافورا الأخشيدى كان يوما فى موكب فسقط منه سوطه ، فناوله إياه أحد الشرفاء فقبل يده شكرا ، وقال له : « نعيتَ إلىّ والله نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها » ، فمات عن قريب[٢] ، وكان الأخشيد يخلف أباه طُغجا على طبرية ، وكان أهلها شيعة ، وكان بها أبو الطيب العلوى وَجْه البلد شرفا وملكا وقوة ، فكتب الأخشيد لأبيه يذكر أنه ليس له أمر ولا نهى مع أبى الطيب[٣] . وكان الأخشيد بريئاً من كل تحيّز ، فأحضر عبد الله ابن طباطبا والحسين بن طاهر بن يحيى إلى مجلسه ، «وكانا لا يفارقانه ، هذا حسنى ، وهذا حسينى ، و بينهما عداوة الرياسة والاختصاص »[٤] . والحسين بن طاهر هو الذى أرسله الأخشيد إلى سيف الدولة ليفاوضه من أجل السلام وتحديد الحدود بينهما[٥] ، وهو الذى سفر أيضاً بين الأخشيد و بين ابن رائق فى الصلح ، حينما

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٦ (؟) .
(٢) نفس المصدر ص ٤٧ .
(٣) نفس المصدر ص ٦ .
(٤) نفس المصدر ص ١٨ .
(٥) نفس المصدر ص ٤٢ .

جاء ابن رائق مهاجماً لمصر فى عام ٣٢٧هـ — ٩٣٩م[١] . وكان الحج قد تعطل منذ عام ٣١٧هـ حتى عام ٣٢٧هـ لاعتراض القرامطة ؛ فكاتبهم أحد العلويين ، وكانوا يخشونه لشجاعته وكرمه ، حتى انتهى الأمر بتسهيل سبيل الحج[٢] .
وكذلك كان العلويون هم الذين يتوسّطون عادة فيما يقوم من خصومات فى بيوت الشيعة من بنى حمدان وبنى بُوَيْه ، وإذا عرفنا ما كان يعود على العلويين من هذا التوسط ، استطعنا أن نستنبط مقدار ما لحقهم من الخسارة حينما اضطرتهم حكومة بغداد أن يحدّدوا موقفهم بإزاء الفاطميين ، وأن ينبذوهم ولا يعتبروهم من أبناء علىّ الحقيقيين . وفى سنة ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م صدر كتاب من الأمير بهاء الدولة بأن يضاف إلى الرضى الموسوى النظر فى أمور جميع الطالبيين بجميع البلاد ، وجعله نقيب النقباء ، ولم يبلغ ذلك أحد من أهل البيت[٣] ، وخُلع على الرضى السواد ، فكان أول طالبى لبس السواد على زى العباسيين[٤] ؛ وكان فى هذا إقرار من جانب ابن عم العباسيين الذى كان أقوى منهم من قبل بأنه قد هُزم .

أما أبناء الخلفاء الثلاثة الراشدين فلم يلعبوا دوراً هاما ، ولما اشتد البلاء على أهل مصر من ولاية العُمَرى القضاء عليهم خرج جماعة إلى هرون الرشيد ، وشكوا إليه ما يفعله العُمَرى فيهم ، فقال : أنظروا فى الديوان كم لى من والٍ من ولد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فكُشف الديوان ، فلم يوجد غيره فقال : انصرفوا فوالله لا عزلته أبداً[٥] ، ثم خلفه على القضاء هاشم بن أبى بكر البكرى من قِبَل

(١) نفس المصدر ص ٢٥ .
(٢) المنتظم ص ٦٠ ا .
(٣) ديوان الرضى ص ٢١٠ ، والمنتظم ص ١٥٨ ب .
(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧٠ ، والمنتظم ص ١٥٨ ب .
(٥) القضاة والولاة للكندى ص ٤١٠ ، وفى سنة ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م مات الخطابى من ولد زيد بن الخطاب أخى عمر بن الخطاب ، وكان من العلماء . (انظر الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٨١) .

الأمين عام ١٩٤ هـ ، وقد دخل مصر مُقِلّا ، فزرع زرعا فانكسر عليه خراجُه وطولب به وتشدّد عليه فى ذلك ، وكان أحد الكتاب حاضراً فعرفه وعرف الحال ، فقال : « سبحان الله ! ابن صاحب نبيكم والذى قام فى مقامه بعده يُطالَب بمثل هذه المطالبة ! ما كان عليه فهو علىّ ، وهو له علىّ فى كل سنة »[١] . أما اليوم فنجد أبناء أبى بكر وعمر إلى جانب أبناء النبى عليه السلام هم الذين يتألف منهم الأشراف بمصر ، ونجد البكريين منهم بنوع خاص ، ويسمون الصديقيين ، يتولون منذ أوائل القرن التاسع عشر مناصب روحية تعود عليهم بالخير الوفير[٢] . ونجد حوالى عام ٤٠٠ هـ ، أبا الغطاريف عملاق بن غيداق العثمانى يقيم بنيسابور ، وينتسب إلى عثمان بن عفّان ، وكان كثيرَ الشعر قليل الملح ، وممن ثقل حتى خف وقبُح حتى ملح ، يتعاطى الفواحش ، ويقول الشعر « فإذا قيل له : كيف أصبحت أيها الشريف قال : أصبحت جوّالا فى السكك حلّالا للتكك ، على رأسه : طائركم معكم سرمدا ، وعلى جبينه : ولن تفلحوا إذن أبداً »[٣] .

هذه هى أهم السلالات الشريفة التى نشأت عن الدين[٤] . أما سلائل الأشراف الذين كانوا قبل الإسلام فقد احتفظوا بأنفسهم متمسكين أشد التمسك بما كان لهم ، وذلك فى الأجزاء الإقطاعية من جبال فارس وغاباتها وقلاعها ؛ يقول ابن حوقل . « وبفارس سنّة جميلة وعادة فيما بينهم كالفضيلة ، من تفضيل

151

(١) القضاة للكندى ص ٤١٦ .

(٢) M. Hartmann, MSOS. 1909, II, S. 81

(٣) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ . على أنه يظهر بصراحة من شعر هذا الرجل الذى كان يلقب بالشريف أنه كان مولى لرجل من موالى عثمان بن عفان (المترجم)

(٤) ومن الأشراف الذين أوجدهم الدين سلائل الأنصار الذين ناصروا النبى عليه السلام ، وكان لهم نقيب ببغداد وكانت تفرق عليهم المبرات . انظر المنتظم ص ١١٢ أ ، وكتاب الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢ ، وكتاب الوزراء ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

أهل البيوتات القديمة وإكرام أهل النعم الأولية ، وفيها بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين على قديم أيامهم إلى أيامنا »[١] ، والغالب على ملوكهم وخدمهم والمخالطين للسلطان من عمال الدواوين وغيرهم « استعمالُ المروءة فى أحوالهم . . . وتحسينُ الموائد بالمطاعم وكثرة الطعام وإحضار الحلوى والفواكه قبل الموائد ، والنزاهة عما يقبح به الحديث من الأخلاق الدنيّة ، وترك المجاهرة بالفواحش ، والمبالغة فى تحسين دورهم ولباسهم وموائدهم ، والمنافسة فيما بينهم فى ذلك ، والآداب الظاهرة فيهم والعلم الشائع فى جميعهم »[٢] . أما سادة العهد الأموى فلم يستطع الاحتفاظ بمركزهم منهم إلا المهالبة بنو المهلب بن أبى صفرة ، وكان مقرّهم بالبصرة حيث كانت لهم دور حسنة[٣] . وقد كان لأحدهم شأن فى ثورة الزنوج الكبيرة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى[٤] ؛ ولعله كان يتوقع فى ذلك العهد نهاية دولة بنى العباس . وتولى آخرُ من المهالبة وزارة عضد الدولة حوالى منتصف القرن الرابع . وقد أراد آل بنى الشوارب القضاة أن يقيموا بينهم وبين الأمويين وبالتالى ملوك قرطبة والملتان[٥] نسبا[٦] . وكان للبَنَويين أو أبناء الدولة الذين حاربوا لأجل الدولة العباسية وجاءوا معها من خراسان إلى بغداد — وكانوا من الأشراف المحاربين الأحرار — شأنٌ قوى فى القرن الثالث الهجرى ، وكانوا يفتخرون بالصبر تحت ظلال السيوف وبأنهم فرسان شجعان ؛ ومن قولهم . «وُلدنا فى أفنية ملوكنا وتحت أجنحة خلفائنا فأخذنا بآدابهم واحتذينا على مثالهم»[٧] ؛ ولكن

---

(١) ابن حوقل ص ٢٠٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٣) كتاب المرواة للثعالبى مخطوط برلين ص ١٢٩ ب .

(٤) كتاب العيون ص ٦ ب — ٧ أ .

(٥) المسعودى ج ١ ص ٣٧٧ .

(٦) تجد فى كتاب العيون (ص ٧١ أ) شعراً فى ذلك .

(٧) رسائل الجاحظ طبعة فان فلوتن ص ١٥ — ١٦ .

حلّ محلهم فى القرن الرابع فرسانٌ من المماليك المعتقين أو غير المعتقين أصلهم من الترك والفرس ، بل نجد أيضاً أن آخر سلائل الطاهريين ، الذين كان بيتهم فى القرن الثالث ثانى بيت فى المملكة الإسلامية بعد بيت الخلافة ، يعالجون فى بلاط بخارى خدمة السامانيين ، وقد فقدوا ما كان لهم من مجد قديم ، ولكنهم لم يحرموا من الملكة الشعرية ، فكان منهم شاعر كان يخدم آل سامان جهراً ويهجوهم سرا ويطوى على بغض شديد لهم [١] . وكان هؤلاء السادة جميعاً يسمون فى جميع بلاد الشمال حتى بلاد الترك بالكلمة الرومانية البوزنطية البطارقة [٢] .

ويحدثنا ابن رستة فى أواخر القرن الرابع أحاديث طريفة عن البيوت الكبرى فى عصره : فأما الأشاعثة فقد كان جد الأشعث بن معدى كرب عِلْجا من أهل فارس إسكافا ، وكانت وردة بنت معدى كرب عمة الأشعث عند رجل من اليهود ، ولم تخلف ولداً ، فأتى الأشعثُ عمرَ بن الخطاب يطلب ميراثها ، فقال له عمر . لا ميراث لأهل ملتين ؛ وأما آل المهلب بن أبى صفرة فقد كان أبو صفرة فارسيا مجوسيا حائكا ؛ وأما آل خالد بن صفوان الأهتمين فإن الأهتم ابن علجة كانت امرأة أكار أخذها قيس بن عاصم بن سنان وجماعة من بنى منقر أغاروا على الحيرة ؛ وآل الجهم بن بدر بن جهم بن مسعود كان جدهم مسعود عبداً لحبيب ابن شهاب ، هرب منه ولحق بخراسان وادعى أنه من بنى سامة بن لؤى القرشى ؛ وكان آل أبى دُلَف قوما من العبّاديين من أهل الحيرة ، وكانوا جهابذة بها ، فخرج جد لهم يقال له إدريس فأثرى ، وابتاع داراً بالبصرة ، ثم خرج إلى الجبل ، فأبو دلف من ولده ؛ والربيع الحاجب ، وهو رأس أسرة من كبار العمال ، كان ابن زنى من جارية سوء كانت عند مولى لعثمان بن عفان [٣] .

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٧ وما بعدها وص ١١ — ١٢ .
(٢) عند شاعر تركستانى فى اليتيمة ج ٤ ص ٨١ ، وهو الشاعر أبو الحسن المتيّم .
(٣) الأعلاق النفيسة طبعة ليدن ١٨٩١ ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .

الفصل الحادى عشر

الرقيق

كان اتخاذ الرقيق منتشراً عند اليهود والنصارى والمسلمين . على أن ضمير الكنيسة كان يسخط على الرق بين حين وآخر ؛ وكان رجالها يقولون إن المسيح لا فرق عنده بين حر وعبد[1] . وقد حاولت الكنيسة ، على الأقل ، أن تحارب تجارة الرقيق ففرضت على من يشتغل بها عقوبة الحرمان[2] . وقد استلفت نظرَ المسلمين أن اليهود والنصارى لا يجوز لهم أن يتمتعوا بإمائهم[3] ، وذلك لأن القانون المسيحى فى الشرق كان يعتبر اقتراب الرجل من أمته زنًى عقابُه المنع من البيعة ، ويحق للزوجة فى هذه الحالة أن تبيع الجارية وتقصيها عن البيت ، وإذا حملت الجارية من سيدها المسيحى طفلا فإنه ينشأ رقيقاً « يحمل عار والده الزانى »[4] . ويحكى أن الخليفة المنصور ، بعد أن استدعى الطبيب جورجيس بن جبريل ليعالجه من مرضه وشُفى على يديه ، أرسل إليه ثلاثا من الجوارى الروميات الحسان مع

---

(١) انظر مثلا Sachau, Syr. Rechtsb., 2, S. 161 . وكذلك نجد المفكر الإثيوبى زرعه يعقوب (حوالى سنة ١٦٠٠ م) فى نقده للإسلام والنصرانية يعيب الإسلام ، لأنه بإقراره تجارة الرقيق ألغى المساواة والأخوة بين بنى الإنسان ، وهم جميعا يسمون الله أبا لهم (انظر : Philosophi abessini, ed. Littmann S. 11. من الترجمة) .

(٢) Syr. Rechtsb., 2, S. 109,147, 165 ، على أنه يوجد بين فقهاء المسلمين حديث يروى عن النبى وهو : شرّ الناس من باع الناس (كتاب العلل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ ص ٢٠٦ ب) .

(٣) كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسى وهو ينسب لأبى زيد البلخى ج ٤ ص ٣٩ من طبعة كليمان هورا بباريس .

(٤) Syr. Rechtsb. 2, S. 161 f.

ثلاثة آلاف دينار ، فأخذ المال وردّ الجوارى ، فسأله المنصور عن ذلك فقال : « هؤلاء لا يكونون معى فى بيت واحد ، لأنا نحن معشر النصارى لا نتزوج بأكثر من امرأة واحدة ، وما دامت المرأة فى الحياة لا نأخذ غيرها » ، فحسن موقعه من الخليفة[١] .

153 أما فى الإسلام فإن الطفل الذى يولد للمسلم من أمته يكون حُرًّا[٢] ، ولا يجوز للرجل أن يبيع الأمة أم الولد ، ثم هى تصبح حرة بعد موت زوجها ، ولا يجوز فى الشرع الإسلامى أن يشترك رجلان فى أمة فى وقت واحد ، وقد حدث مرة أن رجلين اشتريا أمة فوطئاها ، فأمر الخليفة بعقابهما[٣] .

وعلى حين أن القوانين فى الدولة الرومانية البوزنطية كانت تحرّم على غير النصرانى أن يتخذ رقيقاً من النصارى[٤] ، وأن الكنيسة المسيحية كانت فى بلاد الإسلام — كما تقدم — تعاقب بالحرمان من يبيع الرقيق النصرانى لغير النصارى ، فإن الشريعة الإسلامية لم تحرم على اليهود والنصارى اتخاذ رقيق من المسلمين[٥] .

وفى القرن الرابع الهجرى كانت مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال إفريقية أكبر أسواق الرقيق الأسود ، وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الذهب والعبيد من الجنوب ، وكان الثمن الجارى للعبد حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى مائتى

---

(١) Elias Nisibenus S. 179. (حوالى عام ٤٠٠ هـ) فى مجموعة Corp. scrip. or. Chr. ، طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) الولد الأول على الأقل ، واختلف الفقهاء فيما بعده ، انظر رأى الحنفية عند d'Ohsson, VI, S. 11-12 ، ورأى الشافعية عند Sachau, Muham. Recht, S. 174 .

(٣) الكندى ص ٣٣٨ .

(٤) Cod. Just., C. 1, tit. 9, 10

(٥) Sachau, Muham. Recht, S. 173

درهم[1] . وقد اشترِى كافور صاحب مصر ، وكان عبداً حبشيا ، فى سنة ٣١٢هـ — ٩٣٤ م بثمانية عشر ديناراً كما يقال[2] ؛ وهذا الثمن قليل بالنسبة لكافور لأنه كان خصيًّا . وكان يُدفع فى ثمن الزنجى الجيّد بعمان ما بين خمسة وعشرين وثلاثين ديناراً[3] . ولما اشترى الوزير الصاحب بن عباد عبداً نوبيا بأربعمائة دينار استكثر الناس هذا الثمن[4] . وقد سيمت جارية « جميلة حلواء » حوالى عام ٣٠٠ هـ بمائة وخمسين ديناراً[5] . ويقول الشريف الإدريسى[6] إن فى نساء النوبة جمالا فائقاً ، وإنه لا أحسن للجماع منهن لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن ، وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلثمائة دينار . وقد جُلب كثيرات من الزنج إلى بلاد العراق وهن معروفات بكثرة النسل . وقد علّل الجاحظ عدم غلبة أولاد الزنج فى العراق بكون الزنجى والزنجية قليلا ما يلدان من الغرائب ، وأن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجى ، وهى من الزنجى أسرع لقاحاً منها من الأبيض ، فكأن الجاحظ يرى أن الزنجيات يصيبهن العقم فى البلاد الشمالية[7] . وكان يُستعمل عبيد البيوت السود بوّابين كما هو الحال اليوم[8] .

154 وإذ كان المجتمع يعنى بالشعر الجيّد وبالموسيقى الجميلة أكثر مما يعنى بغيرهما

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٥٥ .

(٢) F. Wüstenfeld, Die Staatthalter von Aegypten IV, S. 47.

(٣) عجائب الهند ص ٥٢ ، وكان يدفع مثل هذا المبلغ فى بوزنطة فى ذلك العهد للعبد العادى . انظر Vogt, Basile, I, S. 383

(٤) ابن الوردى ص ٤٦ .

(٥) مطالع البدور للغزولى ج ١ ص ١٩٦ .

(٦) طبعة دوزى ، ليدن ١٨٦٤ ص ١٣ .

(٧) رسائل الجاحظ طبعة فان فلوتن ص ٧٧ — ٧٨ .

(٨) انظر ما حكاه رحالة صينى فى القرن الثالث عشر الميلادى عند Fr. Hirth, Die Länder des Islam nach Chinesischen Quellen, S. 55

من ألوان الفن عظمت فيه قيمة الغلمان والجوارى الموهو بين المتعلمين . وكان فى عهد الرشيد ببغداد مُغَنٍّ مشهور قد يتفق عنده وجود ثمانين جارية لإخوانه يودعونهن عنده لتعليمهن فن الغناء[١] . وكانت تُشترى الجارية من هؤلاء بألف دينار إلى ألفين[٢] . وقد يحدث أن يكون بيت النخّاس مكاناً يكثر غشيانَه الشعراء[٣] . وكان معظم القيان اللائى يحترفن الغناء ببغداد فى سنة ٣٠٦ هـ جوارى ، وقليل منهن أحرار[٤] . وكان للمشهورات من حذّاق المغنيات أثمان كبيرة كما نقدرهن نحن اليوم : فحوالى عام ٣٢٥ هـ اشترى ابن رائق أمير العراق جارية مولّدة كانت لابنة ابن حمدون النديم ، وكانت سمراء موصوفة بحسن الغناء ، فاشتراها ابن رائق من مواليها بثلاثة عشر ألف دينار ، وأعطى من دلّه عليها ألف دينار[٥] ، ويحكى الصولى[٦] أن ابن رائق اشتراها بأربعة عشر ألف دينار فاستعظم الناس ذلك .

وكان ثمن العبيد البيض يزيد على ما تقدم لأنهم أرستوقراطيو العبيد ، فكانت تؤخذ الجارية الحسناء من غير صناعة على جمالها بألف دينار وأكثر[٧] . وكانت لأبى بكر الخوارزمى جارية فطلبت بعشرة آلاف درهم فلم يَجُدْ بها[٨] . وقد ارتفعت أثمان الخدم البيض ارتفاعاً خاصا حينما خربت الثغور الغربية ، وانقطع عبيد الأندلس فى القرن الرابع ، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقى للرقيق وهو

---

(١) الأغانى ج ٥ س ٦ .
(٢) انظر Michael Syrus, S. 514 ، وهو يخلط إبراهيم المهدى بإبراهيم الموصلى .
(٣) الأغانى ج ٢٠ س ٤٣ .
(٤) أبو القاسم طبعة متز س ٧٨ وما بعدها .
(٥) المنتظم س ٨٨ أ .
(٦) الأوراق للصولى س ١٤٢ من مخطوط باريس .
(٧) الاصطخرى س ٤٥ .
(٨) اليتيمة ج ٤ س ١٥١ .

بوزنطة وأرمينية[١] . ومما زاد فى ذلك أن أهل المملكة الإسلامية من المسلمين وأهل الذمة لم يكن يجوز أن يُسْتَرَقوا بوجه من الوجوه القانونيـة ؛ ولم يكن الإجرام سبباً يكفى لحرمانهم من حريتهم ، كما هو الحال عنـد غير المسلمين . وكذلك كان يحرم على الآباء المسلمين أن يبيعوا أولادهم ، كما كان الحال عند اليهود مثلا ؛ فإنهم كانوا ، إذا احتاجوا ، باعوا أولادهم الصغار غير البالغين[٢] . وقد حدثت فتنة فى مصر فى القرن الثالث الهجرى ، فقُبض على بعض النصارى المصريين ، و بيعوا فى دمشق كما يباع الرقيق ، فأثار هذا العمل أكبر السخط ؛ لأنه فعل يخالف الشريعة[٣] . على أنه كان يوجد بين المسلمين بعضٌ من شرار الفرق يعتبرون أنفسهم المسلمين ، ويعتبرون جميع من خالفهم أهلاً للحرمان من الحقوق الشرعية ؛ ومن هذه الفرق الضالة فرقةُ القرامطة الذين عظم شأنهم فى القرن الرابع ، فقـد أحلوا استرقاق من يقع فى أيديهم من الأسرى ، وكان ذلك أمراً شنيعاً فى أيامهم ، فسرعان ما صار الـكثيرون من الآمنين المسالمين من أهل الشام وجزيرة العرب والعراق أرقاء فى أيديهم ، وقد اعترض القرامطة قافلة الحاج عام ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م ، فأسروا من الرجال ألفين ، ومن النساء نحو خمسمائة ، وساروا بهم إلى هجر ، وكان الأزهرى اللغوى الأديب المتوفى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م من جملة الأسرى ، ووقع فى سهم قوم من العرب الذين نشأوا بالبادية يتتبعون مساقط الغيث ، ويتكلمون بطباعهم البدوية ، ولا يكاد يكون فى منطقهم لحن ، وقد بقى فى أسرهم دهراً طويلا واستفاد من مخاطباتهم

(١) المقدسى ص ٢٤٢ .

(٢) Krauss, Talmudische Archäologie, II, S. 84. ، وكتاب البدء والتاريخ ج ٤ ص ٣٩ ، على أن بيع الشراكسة المسلمين بناتهم — وهو العمل الذى لا يزال جاريا إلى اليوم — يخالف الشريعة الإسلامية ، وهو محظور بحكم الشرع .

(٣) انظر الفصل الخاص باليهود والنصارى .

ومحاورة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمّة ، ونوادر كثيرة أورد أكثرها فى كتابه[١] .

أما فى سائر المملكة الإسلامية فقد اقتصر المسلمون فى العبيد البيض على الترك وعلى الصقالبة ، وهم الجنس الذى لا ينفد معينه ، والذى اشتق منه الاسم الذى أطلق على الرقيق فى أوروبا . وكان الصقالبة يقدّمون على الترك حتى قال الخوارزمى : « ويستخدم التركى عند غيبة الصقلبى »[٢] . وأكبر ما كان يُجلب من بلغار ، وهى قصبة البلغار الذين يقطنون حول نهر الفلجا ، رقيقٌ كانوا يؤخذون من هناك إلى إقليم جيحون[٣] . وكانت سمرقند أكبر سوق لهم ، وهى مشهورة بأن خير رقيق ما وراء النهر ما كان من تربيتها . وكان فى أهل سمرقند جمال ، وكان لهم حسنُ تعهُّد لأنفسهم بما زادوا به على أكثر أهل خراسان[٤] . وكانت بلادهم لذلك مشهورة بأنها مركز للتربية والتهذيب ، وكان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها كما هو الحال اليوم فى جنيف ولوزان ؛ أما الطريق الثانى الذى كان يأتى منه رقيق الصقالبة ، فقد كان يخترق ألمانيا إلى الأندلس وإلى الموانى البحرية بإيطاليا وفرنسا[٥] . وكان أغلب تجار الرقيق فى أوروبا من اليهود ، وكان الرقيق يُجلب كله تقريباً من الشرق الأوروبى ، كما هو الحال

---

(١) المنتظم ص ٢٧ ب — ٢٨ ا ، والأزهرى هو الذى حكى ذلك عن نفسه ، انظر الإرشاد ج ٦ ص ٢٩٩ .

(٢) اليتيمة ج ٤ ص ١١٦ .

(٣) المقدسى ص ٣٢٥ .

(٤) ابن حوقل ص ٣٦٨ .

(٥) إن تحريم الدوج فى مدينة البندقية عام ٩٦٠ م نقلَ العبيد على المراكب كان خاصا بالعبيد المسيحيين وحدهم (انظر Schaube, Handelsgeschichte der rom. Völker, S. 23) وكانت المعاهدة التى عقدت بين البندقية وبين الإمبراطور أوتو الأكبر عام ٩٦٧ م تحظر على المسيحيين الذين فى أرض الإمبراطور وحدهم أن يبيعوا أو يشتروا العبيد (نفس المصدر ص ٥) . وكانت تجارة الرقيق فى مدينة جنوه ، بعد ذلك بزمن طويل ، تجارة ظاهرة (نفس المصدر ص ١٠٤) .

اليوم فى تجارة النساء[١] . ومن الجلىّ أن استقرار جاليات يهودية فى مدن مقاطعة سكسونيا الشرقية مثل مدينة مجديبورج ومرزيبورج كان راجعاً إلى تجارة الرقيق[٢] . وكان اليهود فى أثناء نقلهم للرقيق يدفعون ضرائب ثقيلة ، وذلك فى ألمانيا على الأقل ، فكان قانون الجمارك فى مدينة كوبلنتز مثلا يقضى بأن يُدفع عن كل رأس من الرقيق أربعة دنانير[٣] . وكان أسقف مدينة خور Chur يفرض على الرأس دينارين يُدفعان فى جمرك مدينة فالّنشتات Wallenstadt[٤] . والطريق الثالث لتجارة الرقيق يسير من بلاد الرقيق فى الغرب — وكانت هذه البلاد بسبب حروبها مع الألمان كثيرة الإنتاج لهذه البضاعة الإنسانية — ويتجه نحو الشرق رأساً مارا بمدينة براغ وبولونيا وروسيا . وهذا هو الطريق الذى اتبعه الربى بتاحيا فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، وكانت مدينة براغ هى أول هذا الطريق لأنها كانت مركزاً لتجارة الرقيق فى القرن العاشر الميلادى . وقد اضطر القديس أدالبرت Adalbert بمدينة براغ سنة ٩٨٩ م لاعتزال منصبه الأسقفى ، لأنه لم يستطع أن يعتق جميع المسيحيين الذين اشتراهم تاجر رقيق يهودى[٥] .

وكان ثمّ فى المدن سوق للرقيق يُوكل الإشراف عليه لعامل خاص به .

---

(١) ذكر الأسقف أجوبارد ، أسقف مدينة ليون (Agobard of Lyon) فى كتابه insolentia Judaeorum أمثلة على أن بعض اليهود كانوا يسرقون أبناء النصارى الفرنسيين أو يحصلون عليهم شراء من النصارى أنفسهم ويبيعونهم للمسلمين فى أسبانيا (Opera, ed. Baluzius, Bd. 1, S. 65 f.) . وقد اقتبستُ هذا من كتاب : Graf Baudissin, Eulogius und Alvar, Leipzig, 1872, S. 77.

(٢) Caro, Wirtschaftsgeschichte der Juden, I, S. 191.

(٣) نفس المصدر ص ١٩٢ .

(٤) Schaube, Handelsgesch. der rom. Vöiker, S. 93

(٥) Caro, 1, 191, f.

وقد انتهى إلينا وصفٌ لسوق الرقيق التى بنيت فى مدينة سامرّا فى القرن الثالث الهجرى ، فهى سوق فى مربّعة فيها طرق منشعبة وفيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق ، وكان بيع الرقيق الجيّد فى السوق العام بمثابة عقوبة تحط من قدره[١] . والأولى أن يُباع فى منزل خاص أو بواسطة تاجر كبير ، وكان تاجر الرقيق موضع تشنيع ، مثله مثل تاجر الخيل فى أيامنا ؛ وكان محمد بن الأشعث صاحب شرطة مصر يصعد المنبر ويشتم أحد القواد فيقول : « النخّاس الكذّاب »[٢] . يقول ابن عبدون فى رسالة له فى الرقيق : « فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وممسوح العجز بثقيل الروادف ، وبطين بمجدول الحشا ، وأبخر الفم بطيّب النكهة ، وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء ، وحمّروا الخدود المصفرة ، وسمّنوا الوجوه المقعقعة ، وكبروا القفاح الهزيلة ، وأعدموا الخدود شعر اللحا ، وأكسبوا الشعور الشقْر حالك السواد ، وجعّدوا الشعور السبطة ، وبيّضوا الوجوه المسمرّة ، ودملجوا السيقان المعرقة ، ورطّلوا الشعور المرّطة ، وأذهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة » . . . . ولذلك يجب على الإنسان أن يكون على حذر من شراء الرقيق فى المواسم ، ففى مثل هذه الأسواق تتمّ للنخاسين الحيَلُ حتى يبيعوا المريض بالصحيح والغلام بالجارية ؛ « سمعنا بعض النخاسين يقول : ربع درهم حِنّا يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة » . ومن عادة النخّاسين أن يطوّلوا الشعور بأن يصلوا فى طرفها من جنسها ، وأن يزيلوا روائح الأنف بالسعوط بدهن البنفسج والنيلوفر ونحوهما ، وأن يجلوا الأسنان بالسواك بالأشنان والسكر وسحيق الصينى أو الفحم أو الملح المدقوق ، وكانوا يزيلون الشعث فى أصول الأظفار بغسلها بالخل والعسل والمرتك أو دهن الورد واللوز المرّ . ومن وصايا

---

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٩ .

(٢) الولاة للكندى ص ١٠٩ — ١١٠ .

النخاسين للجوارى أن يتبرّجْن للمشترى تارة ويختفين منه أخرى ، فإن هـذا مالك للقلوب ، وأن يدارين المشايخ والنافرى الطباع ويستملنهم ، ويتجنبن الشباب ويمتنعن عليهم ليتمكنّ من قلوبهم . وكان الجوارى يخضبن حواجبهن بالرامك وأطرافهن إن كانت الجارية بيضاء بالخضاب الأحمر ، وإن كانت صفراء بالأسود ، « ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة فى كشف الضد بالضد » .

هذه النصوص من رسالة لابن بطلان الطبيب النصرانى المشهور الذى عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى[1] . ونجد فى هذه الرسالة إلى جانب الناحية النظرية كثيراً من التجارب القديمة النافعة فى شراء الرقيق : « فالهنديات لهن حسن القوام وسمرة الألوان وحظ وافر من الجمال مع صفرة وصفاء بشرة وطيب نكهة ولين نعمة ؛ لكن الشيخوخة تسرع إليهن . . . . وهن يصلحن للولد ، ورجالهُم لحفظ النفوس والأموال ، وعمل الصنائع الدقيقة . غير أن النزلات تسرع إليهم .... والقندهاريات فى معنى الهنديات ، ولهن فضيلة على كل النساء ، فإن الثيّب منهن تعود كالبكر . والسنديات ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور ، والمدنيّات سمر الألوان معتدلات القوام ، قد اجتمع فيهن حلاوةُ القول ونعمة الجسم ، وملاحة دلّ وحسن شكل وبشر ، لا غيرة فيهن على الرجال ، قنوعات بالقليل لا يغضبن ولا يصخبن ، ويصلحن للقيان .... والمكّيات خنثات مؤنثات ليّنات الأرساغ ألوانهن البياض المشرب بسمرة ؛ قدودهن حسنة ، وأجسامهن ملتفّة ، وثغورهن نقية باردة ، وشعورهن جعدة ، وعيونهن مراض فاترة ؛ والطائفيات سمر مذهبات مجدولات ، أخف خلق الله أرواحا ، وأحسنهم فكاهة ومزاحا ، لسن بأمهات أولاد ، يكسلن فى الحبل ويهلكن عند الولادة ......

---

(١) رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد تأليف الشيخ أبى الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادى المتطبب ضمن مخطوط رقم ٤٩٧٩ بمكتبة برلين .

والبربريات مطبوعات على الطاعة نشيطات للخدمة ويصلحن للتوليد ؛ لأنهن أحدب شيء على ولد ؛ ويقول أبو عثمان وهو من سماسرة هذا الشأن : إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تُجلب وهي بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج وبمكة ثلاث حجج ، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة ، فتأدبت بالعراق ، جَمعتْ إلى جودة الجنس شكلَ المدنيات وخنث المكيات وآداب العراقيات واستحقت أن تخبى في الجفون وتوضع على العيون . والزنجيات مساويهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن وتحددت أسنانهن ، وقلّ الانتفاع بهن وخيفت المضرّةُ منهن ، والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب ، وليس في خلقهن الغمّ ؛ والرقصُ والإيقاعُ فطرةٌ لهن[1] وطبعٌ فيهن ؛ ولعجومة ألفاظهن عُدل بهن إلى الزمر والرقص ، ويقال لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع . وهم أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد الهضوم ، وفيهن جَلَد على الكدّ ، فالزنجي إذا شبع فصُبَّ العذابُ عليه صبًا فإنه لا يتألم ، وليس فيهن متعة لصنانهن وخشونة أجسامهن ؛ أما الحبشيات فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها ، يتعاهدهن السل والدق ، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها ، وفيهن خيريّة وسلاسة انقياد ، يصلحن للائتمان على النفوس ، يخصهن قوةُ النفوس وضعف الأجسام ، كما يخص النوبةَ قوةُ الأجسام وضعفُ النفوس ، قِصار الأعمار لسوء الهضم . والبجاويات مذهبات الألوان ، حسنات الوجوه ، ملس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جوارى متعة ، إن جُلبت الواحدة صغيرة وسلمت من أن يُنكَل بها — لأنهن يُقوّرن ويُمسح

158

---

(١) « الزنجي دائم الرقص ، وكما أن الألماني يشعر برغبة شديدة للغناء لا يستطيع التغلب عليها متى قطع شوطا من عمله اليومي ، فكذلك الزنجي يرقص متى استطاع » .
(K. Weule, Negerleben in Ostafrika, S. 84)

بالموسى أعلى فروجهن حتى يبدو العظم فيصرن شهرة من الشهر . والشجاعة والسرقة فى رجال البجّة (بلادهم بين الحبشة والنوبة) طبع وغريزة ، ولهذا لا يُؤمنون على مال ، ولا يصلحون أن يكونوا خُزّانا . والنوبيات من جملة أجناس السودان ، ذوات ترف ولطف ، وأبدانهن يابسة مع لين بشرة ، وهواء مصر يوافقهن ؛ لأن ماء النيل شربهن فى بلادهن ، وإذا انتقلن عن غير مصر تسلّطت عليهن العللُ الدموية والأمراض الحادة . والتركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ؛ وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة[1] ؛ وقدودهن ما بين الربع والقصير ، والطول فيهن قليل ، وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل ، قلّ ما يتفق فى أولادهن وحش ولا ردى التركيب . والروميات بيض شُقر ، سباط الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة ، يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن ، ولا يخلو أن يكنّ يألفن صنائع دقيقة . أما الأرمنيات فالملاحة للأرمن لولا ما خُصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسْر ، والعفة فيهن قليلة أو مفقودة والسرقة فيهن فاشية ، وقلّ ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غِلَظُ طبع ولفظ ، وليست النظافة فى لغتهن ، وهن عبيد كدّ وخدمة ، متى تركت العبد ساعة بغير شغل لم يَدْعُه خاطرُه إلى خير ، لا يصلحون إلا على العصا والمخافة ؛ والواحد منهم إذا رأيته كسلان فليس ذلك عن عجز قوة ، بل دونك والعصا ؛ وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر ؛ فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلا عن الغضب . ونساؤهم لا يصلحن لمتعة ، وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان ، كما أن الزنج أشر السودان . وما أشبه بعضهم ببعض

---

(١) قال أحد شعراء القرن الرابع فى غلام تركى :

قد أكثر الناس فى الصفات وقد ... قالوا جميعا فى الأعين النجل
وعين مولاى مثل موعده ... ضيقة عن مراود الكحل

يتيمة الدهر ج ٤ ص ٨٢) .

فى قوة الأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد[١] .

وقد جرت العادة منذ العصر الأول للإسلام بألا يسمى العبيد عبيداً بل يسمى العبد فتى والأمة فتاة ، وقد نُسب هذا — كما نُسب كثير غيره — إلى أمر النبى عليه السلام . وكان من التقوى وشرف النفس ألا يضرب الرجل عبْدَه ، ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شر الناس من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده » . وهذا شعور نبيل عبّر عنه الليث السمرقندى (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م) بروايته هذا الحديث[٢] . وفى القرن الرابع الهجرى اتخذ البعضُ من قوله تعالى : « إنما المؤمنونَ إخْوَةٌ » نقداً يوجّهونه لمن يضرب عبده ، وكذلك قال الشاعر :

إن كنتَ تطلب فضلا إذا ذُكرتَ ومجدا

فكن لعبدك خِلاً وكن لخِلّك عبْدا[٣]

ولذلك جاء فى وصف رجل من أشراف اليمن وذكر جميل خصاله (حوالى عام ٥٠٠ هـ — ١١٠٦ م) أنه لم يكن يضرب مملوكا أبداً[٤] . وقد حدث فى أول عهد الأمويين أنّ امرأة من حمير كانت بمصر جدعت أنف أمة لها ، فقضى عبدُ الرحمن بن حُجيرة قاضى مصر بعتقها ، وقضى بولائها للمسلمين يعقلون عنها ويرثونها[٥] ، وكان قانون الكنيسة المسيحية فى الشرق يهدد بعقوبة الحرمان من يكره جاريته على البغاء ؛ وذلك بأن يدفعها إليه مباشرة أو بأن يمتنع عن

(١) الرسالة المتقدمة ص ١٣٦ ب — ١٣٧ ا ، ١٤٥ ا — ١٥١ ب .

(٢) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندى طبعة بمباى ص ٢٢٢ .

(٣) كتب هذين البيتين رجلٌ لصديق له حضره يضرب عبداً له فنعه فلم يمتنع ؛ وهو يذكره بحق الصديق فى عبودية الطاعة وأخوة العبد فى حق الإيمان . رسالة فى الصداقة للتوحيدى ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٤) النكت العصرية لعمارة اليمنى طبعة درنبرغ ١٨٩٧ ص ٩ .

(٥) القضاة للكندى ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

إعالتها[١] . وكانت دور البغايا فى بلاد الإسلام قوامها الجوارى المملوكات ؛ وتدل على هذا حكايات كثيرة ؛ ولـكن كتب الفقه لم تتعرض لهذه المسألة ؛ لأن الفقهاء يعتبرون الزنا محرّماً جملة ، أما رجال الـكنيسة فقد احتفظوا فى هذه المسألة بشىء من الصراحة القديمة . على أنه قد جاء فى القرآن الحضُّ على تزويج الأيامى والإماء ؛ قال تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم و إمائكم[٢] » وكان فى الإسلام مبدأ فى مصلحة الرقيق ، وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشترى حريته بدفع قدر من المال ، وقد كان للعبد أو الجارية الحق فى أن يشتغل مستقلا بالعمل الذى يريده . و يحدثنا المسعودى مثلا عن عبدٍ خيّاط كان عليه لمولاه ضريبة قدرُها درهمان يدفعها له كل يوم ويتصرف بعدها فى حوائجه بما يبقى[٣] . وكذلك كان من البرّ والعادَات المحمودة أن يوصى الإنسان قبل مماته بعتق بعض العبيد الذين يملـكهم . وفى القرن الثالث الهجرى أوصى الخليفة المعتصم عند موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه[٤] . وقد أخذ هذا الخليفة أحد حصون أرمينية عنوة بعد معركة دموية فأمر ألا يُفرّق بين أعضاء العائلات[٥] التى وقعت فى الأسر .

160 وقد تمتع بعض الجوارى وظهرن بمظهر النعمة ، فيُحكى عن جارية لأحد كبار العمال الأغنياء بمصر أنها كانت تجلس فى الشباك ، وحولها الجوارى قائمات بالمذبّات[٦] . ويُحكى أن ابن سمعون الواعظ ذكر الحلواء وهو على كرسيّه فى ليلة النصف من رمضان ، وكان بين الحاضرين جارية لتاجر مشهور بكثرة المال

(١) Sachau. MSOS, X, 2, S. 93 .
(٢) سورة النور آية ٣٣ .
(٣) مروج الذهب ج ٦ ص ٣٤٤ .
(٤) Michael Syrus, S. 543 .
(٥) Michael Syrus, S. 537 .
(٦) المغرب لابن سعيد ص ١٥ .

فلما أمسى أتاه غلام ومعه خمسمائة خشكنانكة فى داخل كل منها دينار ، فحمل الدنانير بنفسه إلى التاجر ، فقال له التاجر إن الدنانير وُضعت بحضرته و برضاه [١] .

وكان بعض الغلمان يملكون قلوب سادتهم ، وذلك لميل الشرق إلى من يجمع بين الجمال والفطنة ، وعندنا قصيدة للشاعر سعيد بن هاشم الخالدى فى وصف غلام له [٢] .

ما هو عبدٌ لكنه ولد ... خوّلنيه المهيمنُ الصمدُ
شدّ أزرى بحسن خدمته ... فهو يدى والذراعُ والعَضُدُ
صغيرُ سنٍّ كبيرُ منفعة ... تمازج الضعفُ فيه والجَلَدُ
فى سنّ بدر الدجى وطلعته ... فمثله يُصطفى ويُعتَمَدُ
معشّق الطرف كحله كَحَل ... مغزّل الجيد حليه الجَيَدُ
وورد خدّيه والشقائق والتفاح والجلّنار منتضد
رياض حسن زواهر أبداً ... فهو ماء النعيم مطّرد
وغصن بانٍ إذا بدا وإذا ... شدا فقمرىّ بانةٍ غرد
مبارك الوجه قد حظيت به ... بالى رخىّ وعيشتى رغد
أُنْسى ولهوى وكلّ مأربتى ... مجتمعٌ لى فيه ومنفرد
مسامرى إنْ دجى الظلامُ فلى ... منه حديثٌ كأنه الشهد
ظريف مزح مليح نادرة ... جوهرُ حسن شرارُه يقد
خازن مافى دارى وحافظه ... فليس شىء لدىّ يُفتَقَدُ
ومنفق مشفق إذا أنا أسرفت وبذّرت فهو مقتصد
ويعرف الشعر مثل معرفتى ... وهو على أن يزيد مجتهد

---

(١) المنتظم ص ١٤٢ ب .
(٢) معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسى مخطوط برلين رقم ٧٢٢٤ ص ١٥ ب .

وصيرفىّ القريض وزّان دنانـــير المعانى الرقاق منتقد

يصون كتبى فكلها حسن   يطوى ثيابى فكلها جدد

وأبصر الناس بالطبيخ فكالمســـك القلايا العـنبر الثرد

وهو يدير المدام إن خلوت به   عروس يمّ نقابُها الزبد

تمنح كأسى يدٌ أناملها   تنحلّ من لينها وتنعقد

وواجد بى من المحبة والرأ   فة أضعاف ما به أجـــد

إذا ابتسمت فهو مبتهج   وإنْ تنمّرت فهو مرتعد

ذا بعض أوصافه وقد بقيت   له صفاتٌ لم يحْوِها أحــد

وقد صار هذا العبد لتوفر جميع الخصال الحسنة فيه مثالا مذكوراً بين الأدباء[1] وقد ذكر الشاعر كشاجم المتوفى عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م غلامه بشراً بما يؤثر فى القارئ[2].

أىُّ حراك غال منك السكون   ونار كَيْس أطفأتها المنون

يابشر إن تودَ فكل امرئ   بمثل ما صرت إليـــه رهين

من لدواة كنتَ تُعنى بها   عناية تعجز عنها القيـــون

أم من لـكتب كنت فى طيّها   أسرع مما تمتلى فى الجفون

يطوى الطوامير بلا كلفـــة   واللصق فى الإلصاق لا يستبين

طاهى قدور طيّبت كفّه   مذاقَها فالغث فيهـــا سمين

يا ناصحى إذ ليس لى ناصـــح   ويا أمينى إذ يخون الأمين

وقد أرسل أبو العلاء رسالة لصديق له فأهدى السلامَ فيه لغلامه مقبل وقال: « فهو وإن اسودّت بردته آثَرُ عندنا من أبيض لا تَصْدُق مودته »[3].

---

(١) عمد المنسوب للثعالبي .ZOMG, VI, S. 54 ، وهنا نرى أنه كان يسمى رشاشا .

(٢) ديوان كشاجم ص ١٨١ وما بعدها .

(٣) رسائل أبي العلاء، طبعة مرجليوث ص ٤١ .

وكان أرق العبيد مكانة هم حملة السلاح منهم ؛ وذلك لأن منهم من كانوا قواداً كباراً مثل مؤنس وجوهر ؛ بل منهم من كان حاكما مثل كافور بمصر وسبكتكين فى الأفغان . ومنذ عهد العباسيين الأولين نجد عبداً تركيا يتولى إمارة مصر وهو يحيى بن داود الخرسى الذى ولى الإمارة من سنة ١٦٢ — ١٦٤ ﻫ وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكره قال : « هو رجل يخافنى ولا يخاف الله »[(١)]؛ هذا إذا صرفنا النظر عن بعض الغلمان الذين كان لهم سلطان عظيم على سادتهم ؛ لأن هؤلاء كانوا يقتنونهم للاستهتار بهم .

وكانت أفكار ذلك العهد شبيهة بما كان فى فرنسا حيث نجد الأرقاء المُعتقين قد بلغوا أكبر مكان من الرفعة ، وأطاعهم الأحرارُ ، وكثير ممن تولوا القيادة فى الجيوش وحُكمْ الولايات وحراسة المَلِك كانوا عبيداً من قبل[(٢)] ، ولكن لم ينجح المعتقون فى التفوّق على الأحرار فى الشرق مدة طويلة إلا نادرا ؛ وذلك بخلاف ما نجده فى أوروبا بالنسبة لمن كانوا فى مركز الموالى ، ويرجع ذلك إلى أن بقاء نظام الرقّ فى الشرق حال دون زوال التمايز بين الأحرار والعبيد .

ولكن الرأى العام كان مجحفاً بحقوق الأرقاء فى الجملة ، ومن الأمثال السائرة أن العبد إذا جاع نام وإذا شبع زنى . ويقول المتنبى[(٣)] :

فلا ترجّ الخير عند امرئ ٍ   مرّتْ يدُ النخّاس فى رأسه

وكذلك يقول هوميروس : أنظر ، إن زيوس ، مدبّر هذا العالم ، يسلب الرجل الذى طلعت عليه شمسُ العبودية نصفَ رجولته »[(٤)] .

وعلى الرغم من كل الظروف الملائمة والضمانات القانونية والمكانة الحسنة التى

---

(١) الكندى ص ١٢٣ .

(٢) chr. Meyer, Kulturgeschichtliche Studien, S. 91.

(٣) الديوان طبعة مصر ١٣٤٢ﻫ — ١٩٢٣م ص ٣٧٩ .

(٤) Odyss., XVII, 322 .

162 يتمتع بها رقيق البيوت فى الشرق اليوم ، فلا ينبغى أن نصور مركز الرقيق عند المسلمين فى العصور الوسطى تصويراً يزيده بهاء ؛ وكانت سائر ولايات الإسلام فى القرن الرابع غاصّةً بالعبيد الأبّاق ؛ وكان من أول ما يُؤمر به ولاة النواحى فى كتب توليتهم أن يقبضوا على العبيد الآبقين ويحبسوهم ويسلموهم لمواليهم إن استطاعوا [١] . وكان لنازوك صاحب الشرطة ببغداد غلامٌ ، فطرده ، فلم يجد جهة يلجأ إليها ، فذهب لرجل صالح يكتب كُتُبَ العطف ليكتب له ما يستعيد به عطف سيده . وكان نازوك قد أرسل فى طلب الغلام ، واستخبره فقصّ الغلام عليه الأمر ، فلم يصدقه ، حتى استدعى الرجلَ الصالح وسأله فكان كلامه مطابقاً لكلام الغلام ، « قال فلما قلت له (لنازوك) إن الغلام قال : أنا عبد مملوك ، وما أعددت لنفسى من أقصده لهذا الحال ، ولا أعرف جهة ألجأ إليها ، وقد طردنى مولاى ، بكيت أنا لما تداخلنى من رحمتى للفتى ومحبتى للدينار الذى أعطانيه قال : فدمعت عين نازوك ثم تجلّد واستوفى الحديث » [٢] . وكان معظم العبيد الأبّاق ممن يشتغلون بالزراعة ، وكذلك كان جيش الثورة الوحيدة الخطرة التى قام بها العبيد فى القرن الثالث الهجرى مؤلفًا من الزنوج الذين يكسحون السباخ حتى يصلوا إلى التربة ويعمروها ، وكانت « كسوح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال ، وكان فى أنهار البصرة منهم عشرات ألوف يعذّبون بهذه الخدمة » [٣] .

---

(١) رسائل الصابى ص ١٦٠ والصفحات التالية مثلا .

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٥٣ — ٥٤

(٣) كتاب العيون ص ٧ أ .

تعليقات[١]

١ – أخذ الرقيق

« إن أكبر الفوارق ، وهو الفرق بين الحر والعبد ، يظهر إذا أبقى المحارب الوحشى على حياة عدوه بعد أن يهزمه ، ثم يأخذه إلى بلاده ليقوم بأشق الأعمال وبحرث الأرض » . وللرقّ سببان جوهريان : الفقر والحرب ، والحرب أقواهما ؛ وكذلك كان الرق عند المسلمين نتيجة للحروب فى الغالب . جاء فى القرآن الكريم :

« فإذا لَقِيتُمُ الذين كفروا فضَرْبَ الرقابِ حتى إذا أثْخَنْتُموهم فشُدّوا الوثاق فإمّا منًّا بعد وإمّا فِداءً حتى تَضَعَ الحربُ أوْزَارَها » . (سورة محمد آية ٤)

والتعبير المألوف فى القرآن للدلالة على النساء المملوكات هو ما ملكت أيمانكم ، وسنرى أنه ليس فى الإسلام شىء يتعلق بشراء العبيد .

والعبد عند فقهاء الإسلام : ١ — شخص أُخذ أسيراً فى الحرب ، أو حُمل عنوة من بلاد الأعداء ، بشرط أن يكون عند أخذه كافراً . ٢ — الولد الذى يولد من أمة مملوكة ، ويكون أبوه عبداً أو غير مالك للأمة ، أو يكون مالكا لها ولكنه لا يعترف بأنه أب للولد . ٣ — الشخص الذى يؤخذ شراء .

والحرب والرق متصلان اتصالا وثيقاً فى العهد القديم ، فنجد فى التوراة (عدد إصحاح ٣١ آية ٢) أن الرب يكلم موسى قائلا : انتقم نقمة لبنى إسرائيل من المِدْيانيين ؛ وفى الآية السابعة وما بعدها : فتجنّدوا على مِدْيان ، كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر . . . . . وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم . . . .

أما فيما يختص بالأجانب ، فقد أبيح لبنى إسرائيل أن يستعبدوهم (لاويين

---

(١) هـذا تلخيص لتعليق العلامه الهندى المرحوم خدابخش على الترجمة الإنجليزية لهذا الفصل .

إصحاح ٢٥ آية ٤٤ وما بعدها) : « وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك ، فمن الشعوب الذين حولكم ، منهم تقتنون عبيداً وإماء ؛ وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم ، منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم فى أرضكم فيكونون ملكا لكم ، وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك ، تستعبدونهم إلى الدهر ؛ وأما إخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف » .

وكما أن أبناء الإماء المملوكة عند المسلمين يؤلفون طائفة من الرقيق مثلهم مثل من يُشترى بالمال ، فكذلك نجد فى العهد القديم هذين الاصطلاحين : « الذى يولد فى البيت » ، و « الذى يشترى بالمال » . وهذا يدل على أن العبيد عند اليهود كما هو الحال عند المسلمين ، يتكاثرون بالنسل . وينطبق هذا بالطبع على جميع من يتجر بالرقيق . ولما كان العبيد ملكا لأصحابهم ، فأبناؤهم ملك لهم أيضاً .

ومن وجوه التطابق الأخرى بين الإسلام والعهد القديم ، جعلُ الرق مقصوراً على الأجانب عن الدين ، ففى التوراة (لاويين إصحاح ٢٥ آية ٣٩ وما بعدها) : وإذا افتقر أخوك ، وبيع لك ، فلا تستعبده استعباد عبد ، كأجير نزيل يكون عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك ، ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته وإلى ملك آبائه ، لأنهم عبيدى الذين أخرجتهم من أرض مصر ، لا يباعون بيع العبيد ، لا تتسلط عليه بعنف بل اخش إلهك » .

وكذلك الحال عند المسلمين ، فلا يجوز لهم أن يسترقوا المؤمنين ، لأن المسلم واليهودى يعتبر أخاه فى الدين أخاً له .

ولكن الأمر عند البابليين كان على خلاف ذلك ، فلم يكونوا يبالون أن يكون الرقيق منهم أو من غيرهم ، فكان الرجل يبيع ابنه الحقيق أو المتبنَّى إذا أجرم فى حق أبيه . وكذلك كان الزوج فى حل من أن يتخلص من زوجته المشاكسة بأن يبيعها . وكان العدو المأسور عندهم يعامل معاملة العبد .

٢ — معاملة الرقيق

أوصى القرآن بالعدل والرحمة فى معاملة الأرامل واليتامى ، وهو يوصى بمثل هذا فى معاملة الرقيق ، وذلك لأن الحر والعبد كليهما عباد الله ، فهما متساويان ، جاء فى القرآن :

« والله فضّل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فُضّلوا برادّى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون » (سورة النحل آية ٧١) ، وجاء أيضاً : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » . (سورة النساء آية ٣٦) .

وقد قال النبى عليه السلام فى الحديث : العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون وقال : إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم[١] .

وإذا كان النبى عليه السلام لم يلغ الرقّ ، فإنه قد أمر بما يضمن للأرقاء حسن المعاملة ، وإذا كان المسلمون يخالفون عن أمره ، فالنبى برىء من ذلك ، ولو أن المسلمين أطاعوا ما أمرهم به نبيهم فى معاملتهم لما ملكت أيمانهم ، لكان حال الرقيق عند المسلمين أحسن منه عند غيرهم .

على أننا لو نظرنا إلى معاملة الرقيق فى جملتها بحسب الشرع الإسلامى لوجدناها عادلة ؛ فقد كانت عقوبة الأمة الزانية أقل من عقوبة الحرة ، لأنها تُعتبر أقل ذنباً بسبب ما ينقصها من حرية . وقد أوصى الشرع بالعناية بالعبيد ، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون .

---

(١) وذكر صاحب التعليق ما قاله النبى فى حجة الوداع بشأن العبيد .

وكان الرقيق تنتقل ملكيته مثل سائر الممتلكات ، فكان يستطيع المسلم أن يبيع ما ملكت يمينه ، إلا إذا كانت جارية قد ولدت منه ، وكان يندر أن ينكر أبوة ولده حتى يجوز له بيعها .

٣ — تحرير العبيد

إن الشرع الاسلامى لم يكتف بتشديد الوصية فى حسن معاملة الرقيق ، بل مكّن العبيد من استعادة حريتهم ، إذا كانوا بحسن سيرتهم أهلا لذلك ، وقد حبّب الإسلام فى عتق الرقيق . جاء فى القرآن : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » . (سورة النور آية ٣٣) .

وتختلف طريقة هذا التحرير فى بلاد الإسلام ، فكان من الناس من يعتق ، كرماً منه ، عتقاً كاملا ، ومنهم من كان يطلقه على أن يدفع له مقداراً من المال فيما بعد . ويكون هذا بعقد مكتوب ، أو بكلام شفاهى يشهد عليه رجلان ، أو بأن يعطى الرجلُ لمملوكه وثيقة شرائه من مالكه قبله . وقد تُمنح للعبد حريته إذا أدى شروطاً متفقاً عليها أو بموت مالكه غالباً . ويجوز أن يوصى الرجل بثلث ما له لمن ملكت يمينه ، ولا يزيد عن الثلث ، وإلا أخذ الورثةُ الزيادة ، وقد جعل القرآن عتق رقاب الرقيق كفارة لذنوب كثيرة ، وقربة من أحسن القرب .

وإذا كان العهد القديم قد تعرض لتحرير العبيد اليهود الذين صاروا أرقاء بسبب الدين . فإن الاسلام قد تعرض لتحرير الرقيق جملة . انظر :

Robert : Social Laws of the Kur'án p. 53, 60.
Doughty : Arabia Deserta, I, 554.
Lane : Modern Egyptians, 168.
Snouck Hurgronje Mekka II, 18 ff.

الفصل الثاني عشر

العلماء

فى القرن الثالث الهجرى صار الأدباء الذين نشأوا حول الخلفاء وفى قصورهم وتعلموا الأدب على تقاليد الفروسية ، أدباء من طراز جديد يلمّون بكل شىء ، ويشبهون فى عصرنا الصحفيين غير المتخصصين الذين يتكلمون فى جميع الأمور . ولهذا نجد العلماء يفرّقون بين أنفسهم و بين الأدباء ، حتى قال ابن قتيبة : « من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحداً ؛ ومن أراد أن يكون أديباً فليتّسع فى العلوم »[1] . وقد خرجت من بين فنون الآداب القديمة مجموعةٌ من العلوم الدنيوية ؛ ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ماله منهج علمى وأسلوب علمى سوى الفلسفة وعلم الكلام ؛ ثم صار لكل من التاريخ والجغرافية واللغة منهجه الخاص . وترك العلماء ما كانوا قد ألفوا قبل من اتخاذ المعارف وسيلة للتسلية ؛ كما أنهم أصبحوا لايغالون فى حشد المعارف على تنوعها ، بل أقبلوا على الدراسة العملية وعلى تنظيم المعارف ، وشعروا بما يجب عليهم من عناية ومحاسبة فى تدوينها . وقد أوجزوا مقدماتِ كتبهم إيجازا كبيراً ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه صاحب الفهرست فى خطبة كتابه عام ٣٧٧ هـ—٩٨٧م ، « ربّ يسّر برحمتك ، النفوس تشرئب إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات ؛ فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات فى صدر كتابنا هذا ، إذ كانت دالّة على ماقصدناه فى تأليفه إن شاء الله ، فنقول و بالله نستعين و إياه نسأل الصلاة على جميع أنبيائه وعباده المخلصين فى طاعته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . . . »

(١) المخلاة للعاملى المتوفى عام ١٠٠٣ هـ طبعة مصر ص ٢٢٨ .

163

ومن التغيرات الأخرى أن علم الفقه تميّز عن غيره من علوم الدين وأصبح العلماء فريقين : الفقهاء ، والعلماء على الحقيقة . وكانت غالبية طلبة العلم المتكسّبين يقصدون الفقهاء لأن الفقهاء هم حملة علوم الشريعة والعبادات ، فكان لابد لمن يريد تولى القضاء والخطابة فى المساجد من التتلمذ عليهم . يقول الجاحظ فى نص مشهور له : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويلَ القرآن ، ويجالس الفقهاء خمسين عاما ، وهو لا يُعدّ فقيها ، ولا يُجعل قاضياً ، فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمرّ ببابه فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحرىّ ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان »[1] .

وكان نهوضُ علم الكلام بعد أن تخلص من قيود علم الفقه ، وكذلك ظهورُ الأفكار الجديدة فى ذلك العصر مما رفع شأن العلماء إلى درجة عالية من الإحترام والتقدير ، يقول المطهّر المقدسى حوالى عام ٣٥٥هـ — ٩٦٦م : « ويأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لمتجرّد له بكليّته ومتوفر عليه بأنيّته ، مُعانٍ له بالقريحة الثاقبة والروّية الصافية ، مقترنا به التأييد والتسديد ، قد شمّر ذيله ، وأسهر ليله ، حليف النصب ضجيع التعب ، يأخذ مأخذه متدرّجا ويتلقاه متطرفا ، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يخبط فيه خبط العشواء فى الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والنزوع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الإلف ونبذ المحاكلة واللجاجة ، وإجالة الرأى عند غموض الحق ، والتأنى بلطيف المأتى ، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتّضح ، والتفريق بين التمويه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ

---

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٤٣ — ٤٤ ، وانظر مثلا Goldziher, Muhamm. Studien, II, 233 ، ويحكى أن الجوينى قال يوما للغزالى : يا فقيه ، فرأى فى وجهه التغيُّر ، كأنه استقل هذه اللفظة على نفسه (طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٠٩) .

العقول ، فعند ذلك إصابةُ المراد ومصادفة المرتاد »[١] .

وكان صاحب العلوم الدنيوية يسمى كاتباً ، وكان يتميَّز عن العلماء فى لباسه ، فكان العلماء يلبسون الطيلسان ، وكانوا فى خراسان يظهرون متطلّسين متحنّكين ، وكانت فارس مركز الكتاب ، وكانوا فى مدينة شيراز يُرفعون على العلماء[٢] . ولكن خراسان كانت جنة العلماء . ولا يزال العلماء بها إلى اليوم يتمتعون بجاه واحترام لا نظير لهما فى سائر البلاد . ومن أمثلة ذلك أن أحد العلماء الزهاد دخل خراسان ، فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم يمسحون أردانه ، ويأخذون تراب نعليه ويستشفون به . وكان يُخرِج من كل بلد أصحابُ البضائع بضائعهم ، وينثرونها ، ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك ، وهو ينهاهم ، حتى وصلوا إلى الأساكفة ، فجعلوا ينثرون المتاعات وهى تقع على رءوس الناس ، وخرج إليه صوفيات البلد بمسابحهن وألقينها إليه . وكان قصدهن أن يلمسها فتحصل لهن البركة ، فكان يتبرك بهن ويقصد فى حقهن ما قصدن فى حقه[٣] .

164

وكان فى كل جامع كبير مكتبة ، لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجوامع[٤] . ويقال إن خزانة الكتب بمرو كانت تحوى كتب يزدجرد ، لأنه حملها إليها وتركها[٥] . وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى

---

(١) كتاب البدء والتاريخ ج ١ ص ٤ .

(٢) المقدسى ص ٤٤٠ .

(٣) طبقات السبكى ج ٣ ص ٩١ .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٥٥ فى ترجمة أبى نصر المنازى .

(٥) كتاب بغداد لطيفور ص ١٥٧ ، وقد ترنَّم ياقوت بذكرى مكاتب مرو مع تأخر الزمن به . وكان قد قضى بمرو ثلاث سنين ، فتغنى بأيامه فيها شعراً جميلا . وكان بها على عهده اثنا عشرة خزانة ، باحداها نحو من اثنى عشر ألف مجلد ، « وكانت (الخزائن) سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن ، تكون قيمتها مائتى دينار ، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها ، وأنسانى حبها كل بلد وألهانى عن الأهل والولد » (معجم البلدان ج ٤ ص ٥٠٩ — ٥١٠ من الطبعة الأوروبية) .

كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة و بغداد فى أواخر القرن الرابع ولعٌ شديد بالكتب ؛ فكان الحكم صاحب الأندلس يبعث رجالا إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها ؛ وكان فهرس مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كراسة ، كل منها عشرون ورقة ، ولم يكن بها سوى أسماء الكتب . أما فى مصر فكانت للخليفة العزيز (المتوفى عام ٣٨٦ هـ ٩٩٦ م) خزانة كتب كبيرة ، وقد ذُكر عنده كتابُ العين للخليل بن أحمد ، فأمر خُزّان دفاتره ، فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة ، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد ، وحمل إليه رجلٌ نسخة من تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينار ؛ فأمر العزيز الخزّان ، فأخرجوا ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه . وذُكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد ، فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها[1] . وقد أراد المتأخرون أن يقدّروا عدد ما كانت تشتمل عليه هذه الخزانة ، فيقول المقريزى إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب ، ويذكر عن ابن أبى واصل أنه كان بها ما يزيد على مائة وعشرين ألف مجلد . وقال ابن الطوير إن خزانة الكتب كانت تحتوى على عدة رفوف ، والرفوف مقطّعة بحواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب[2] .

165

ولنذكر ما كان فى بعض خزائن الكتب فى الغرب على سبيل المقارنة : كان فى مكتبة الكاتدرائية بمدينة كُنستانز فى القرن التاسع الميلادى ثلاثمائة

(١) المقريزى (الخطط ج ١ ص ٤٠٨) نقلا عن المسبّحى المؤرخ الثقة (توفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩م) الذى كان معاصراً للعزيز بالله ... على أن الأرقام تختلف بين مخطوط وآخر ، فيقول ابن الطوير إن من عجائب خزانة العزيز بالله أنه كان بها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبرى ، على أن ابن الطوير متأخر (المقريزى ج ١ ص ٤٠٩).

(٢) المقريزى (الخطط) ج ١ ص ٤٠٩ .

وستة وخمسون كتابا ، وفى مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢ م ما يزيد على المائة بقليل ، وفى خزانة كتب الكاتدرائية فى مدينة بامبرج سنة ١١٣٠ م ستة وتسعون كتابا فقط[١] . وقد أطلعَ رئيسُ الفراشين المقدسىَّ على خزانة الكتب التى كانت فى دار عضد الدولة ، والمقدسى يصفها بأنها « حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صُنِّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصّله فيها . وهى أزج طويل فى صفّة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه ، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب ولا يدخلها إلا كل وجيه »[٢] . وكان أكبر عشاق الكتب المولعين بها ولعاً شديداً فى القرن الثالث الهجرى الجاحظ ، وكثيراً ما يذكر بذلك ؛ والفتح بن خاقان ؛ وإسماعيل بن إسحاق القاضى . فأما الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .

وقد حكى بعض المؤرخين المتأخرين أنه مات فى حب الكتب ، فقد روى أنه مات بوقوع مجلدات عليه ؛ وكان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به ، وهو جالس عليها ، وكان عليلا فسقطت عليه فقتلته[٣] ، وأما الفتح بن خاقان ، وكان من كبار رجال دار الخلافة ، فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمّه أو خفّه وقرأه فى مجلس المتوكل إلى عوده إليه ؛ « وأما إسماعيل بن إسحاق فإنى ما دخلت عليه إلا رأيته ينظر فى كتاب

(١) Th. Gottlieb, Ueber Mittelalterliche Bibliotheken, S.22, 23, 87,

(٢) المقدسى ص ٤٤٩ ،

(٣) تاريخ أبى الفدا تحت سنة ٢٥٥ هـ .

أو يقلّب كتباً أو ينفضها »[١] . وفى سنة ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م توفى السجستانى المحدِّث ، وكان له كمّ واسع وكمّ ضيق ، فقيل له فى ذلك ، فقال : الواسع للكتب والآخر لا أحتاج إليه[٢] . وقد عمل علىّ بن يحيى المنجم ، وكان ممن جالس الخلفاء ، حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى خزانة كتب عظيمة فى ضيعته ، وسماها خزانة الحكمة ؛ وكان يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى . فقدم أبو معشر المنجّم من خراسان يريد الحج وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شىء من النجوم ، فوُصفت له الخزانة ، فمضى ورآها وهاله أمرُها ، « فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلّم فيها علم النجوم ، وأغرق فيه حتى ألحد ، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً »[٣] . وفى سنة ٢٧٢ هـ — ٨٨٥ م توفى أحد علماء أصفهان وكبار أصحاب الضياع فيها ، ويقال إنه أنفق فى شراء كتبه ثلثمائة ألف درهم[٤] . وفى سنة ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م توفى محمد بن نصر الحاجب وخلّف كتباً بأكثر من ألفى دينار[٥] . وفى ٣٥٧ هـ — ٩٦٧ م صودر حبشى بن معز الدولة لأنه أراد عصيان أخيه أمير بغداد ، فكان من جملة ما أُخذ منه خمسة عشر ألف مجلد سوى الأجزاء وما ليس بمجلد[٦] . وفى سنة ٣٥٥ هـ — ٩٦٥ م نهب قوم من الغزاة دار الوزير أبى الفضل بن العميد

(١) الفهرست لابن النديم ص ١١٦ — ١١٧ ، والإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٥٧ ، غرر الفوائد للمرتضى طبعة طهران ١٢٧٢ هـ .
(٢) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٧٩ .
(٣) الإرشاد ج ٥ ص ٤٦٧ .
(٤) تاريخ أصفهان لأبى نعيم مخطوط ليدن ص ٥١ ب .
(٥) عريب ص ١٢١ نقلا عن الصولى ، وكان للصولى هذا مكتبة كبيرة . انظر المنتظم لابن الجوزى ص ٧٩ ب .
(٦) مسكويه ج ٦ ص ٣١٤ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٣١ .

بالرىّ ، فلما انصرف إلى داره ليلا لم يجد فيها ما يجلس عليه ، ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ، وكان ابن مسكويه المؤرخ فى ذلك الحين خازناً لكتب ابن العميد ، وهو يقص علينا القصة فيقول : « فأنفذ إليه أبو حمزة العلوى فرشاً وآلة ، واشتغل قلب الوزير ابن العميد بدفاتره ، ولم يكن شىء أعزّ عليه منها ، وكانت كثيرة فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب يُحمل على مائة وِقر ، فلما رآنى سألنى عنها فقلت : هى بحالها لم تمسسها يد ، فسُرِّى عنه ، وقال : أشهد أنك ميمون النقيبة ، أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض ، وهذه الخزانة هى التى لا عوض منها ، ورأيته قد أسفر وجهه ، وقال : باكر بها غداً إلى الموضع الفلانى ففعلت ، وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله »[1] . وقد استدعى السلطان نوح بن منصور السامانى الصاحب بن عبّاد (المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م) ليوليه وزارته ، فكان مما اعتذر به أنه لا يستطيع حمل أمواله ، وأن عنده من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر ، وكان فهرس كتبه يقع فى عشرة مجلدات ، ولما ورد السلطان محمود الرى استخرج من بيت كتب الصاحب كل ما كان فى علم الكلام وأمر بحرقه[2] ، وكذلك لم يجد البيرونى من قبل ولا الفردوسى من محمود هذا مشجعاً ولا حامياً . وكان القاضى أبو المطرف (المتوفى عام ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م) قاضى الجماعة بقرطبة ، وقد جمع من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً ، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه ليشتريه منه وبالغ فى ثمنه ، وكان لا يعير كتاباً من أصوله ألبتة ، وإذا سأله أحدٌ ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير . ويحكى أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٦ وما بعدها .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٥ .

كتبه عاماً كاملا فى مسجده ، واجتمع من ثمنها أربعون ألف دينار[١] . ولما أراد البرقانى العالم البغدادى المتوفى عام ٤٢٥ هـ — ١٠٣٣ م أن ينتقل احتاج إلى ستين من الأعدال وإلى صندوقين ليحمل فيها كتبه عند انتقاله[٢] . وقد دخل أبو يوسف القزوينى المعتزلى (المتوفى عام ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م) بغداد ومعه عشرة جمال عليها كتب[٣] .

وقد أظهر المانوية من قبل عناية كبيرة بزخرفة كتبهم ، فى سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م أُحرقت على باب العامة ببغداد صورةُ مانى ، وأربعة أعدال من كتب الزنادقة ، فسقط منها ذهب وفضة مما كان على هذه الكتب ، وكان له قدر[٤] . وقد قلّد أصحابُ الحلاج الذى قتل عام ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م المانوية فى زخرفة الكتب ، فكانت كتبهم تُكتب على ورق صينى ، وبعضها يكتب بماء الذهب ويبطّن بالديباج والحرير ، ويجلّد بالأدم الجيد[٥] .

وكانت الكتب التى يرسلها ملك الروم مزخرفة . وقد وصل لنا من وصف بعضها ما يجعلها تحفة فنية ، ففى سنة ٣٢٦ هـ — ٩٣٧ م وصل كتاب ملك الروم إلى الخليفة الراضى ببغداد ، وكانت الكتابة بالرومية بالذهب والترجمة بالعربية بالفضة[٦] . وبعد ذلك ورد على الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة كتابٌ من صاحب القسطنطينية ، وكان فى ورق مصبوغ لوناً سماويا مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقى ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقى

(١) كتاب الصلة فى تاريخ علماء الأندلس لابن بشكوال طبعة مجريط ١٨٨٢ ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .
(٢) انظر Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr, 335
(٣) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٣٠ .
(٤) المنتظم ص ٢٣ ا .
(٥) عريب ص ٩٠ نقلا عن ابن مسكويه .
(٦) المنتظم ص ٥٩ ا .

أيضاً ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبّسة بالديباج[١] . وكانت أشعار الخليفة المعتمد مكتوبة بالذهب[٢] . ولما تولى قاضى القضاة عبد الجبار منصبه ، كان الوزير ابن عباد المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م هو الذى أنشأ له العهد وكتبه له بخطه واعتنى بزخرفته . ويقال إنه كان سبعمائة سطر كل سطر فى ورقة سمرقندى ، وله غلاف آبنوس يطبّق كالأسطوانة الغليظة ، وقد أهدى هذا العهد فى القرن الخامس الهجرى للوزير نظام الملك مع هدايا أخرى كان منها مصحف بخط أحد الكتاب المجوّدين بالخط الواضح ، وقد كتب كاتبه اختلافَ القرّاء بين سطوره بالحمرة ، وتفسير غريبه بالخضرة ، وإعرابه بالزرقة ، وكتب له بالذهب علامات على الآيات التى تصلح للانتزاعات فى العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد ، وما يُكتب فى التعازى والتهانى[٣] . وكان أكبر ما يُعنى به عشاق الكتب ، الكتب التى كتبها كبار الخطاطين والتى لأصحابها فى النسخ أصل منسوب .

على أنه قد ظهرت إلى جانب دور الكتب مؤسساتٌ علمية أخرى تزيد على دور الكتب بالتعليم ، أو على الأقل بإجراء الأرزاق على من يلازمها ، فيحكى عن أبى القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الفقيه الشافعى المتوفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م أنه أسس داراً للعلم فى بلده ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم

---

(١) نفح الطيب للمقرى طبعة دوزى ج ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٢) وقد أطلع المكتفى الصولىّ على هذه الأشعار ، انظر كتاب الديارات للشابشتى ص ٣٩ ب .

(٣) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٣٠ .

وقفاً على كل طالب لعلم ، لا يُمنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب ، وكان مُعسراً أعطاه ورَقا وورِقا ، وكان ابن حمدان يجلس فيها ويجتمع إليه الناس فيملى عليهم من شعره وشعر غيره ، ثم يملى حكاياتٍ مستطابة وطرفا من الفقه وما يتعلق به[(١)]. وقد عمل القاضى ابن حبّان (المتوفى عام ٣٥٤ هـ ٩٦٥ م) فى مدينة نيسابور داراً للعلم وخزانة كتب ، ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم وأجرى لهم الأرزاق ، ولم تكن الكتب تُعار خارج الخزانة[(٢)]. وقد أنشأ أبو على بن سوّار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢م) دار كتب فى مدينة رام هرمز على شاطئ بحر فارس، كما بنى داراً أخرى بالبصرة وجعل فيهما إجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ فيهما ، وكان فى الأولى منهما أبداً شيخٌ يُدْرس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة[(٣)]. وفى سنة ٣٨٣ هـ أسس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بنى بويه داراً للعلم فى الكرخ غربى بغداد ونقل إليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها ، وكان بها مائة نسخة من القرآن بأيدى أحسن النُسّاخ ، هذا إلى عشرة آلاف وأربعمائة مجلد أخرى معظمها بخط أصحابها أو من الكتب التى كان يملكها رجال مشهورون ، وردّ النظرَ فى أمرها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى رجلين من العلويين يعاونهما أحد القضاة[(٤)] ؛ وكذلك اتخذ الشريف الرضى (المتوفى

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٢٠ .

(٢) Wüstenfeld, AGGW. 37.

(٣) المقدسى ص ٤١٣ وكتاب الفهرست ص ١٣٩ .

(٤) المنتظم ص ١٣٥ ا ، ورسائل أبى العلاء ص ٥٢ ، ومقدمة مرجليوث لهذه الرسائل ص ٢٤ ، وقد أحرقت هذه الدار عام ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م (ابن الأثير ج ٩ ص ٢٤٦ — ٢٤٧) . على أن الكتب التى كانت من قبل فى حوزة رجال مشهورين لها شأن هام فى العلم لأنها توجد نوعاً من السند الصحيح لما تحويه وإقراراً به ، ولذلك يعنى القارئ بكتابة اسمه على غطاء الكتاب . ويحدثنا ياقوت (الأرشاد ج ٦ ص ٣٥٩) عن خازن هذه الدار ، المتوفى عام ٥١٠ هـ ، كيف كانت الكتب تهلك بأكل البراغيث لها وعيثهم فيها .

عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م) نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سماها دار العلم وفتحها لطلبة العلم وعيّن لهم جميع ما يحتاجون إليه [١] . ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة ، فكانت دار الكتب قديماً تسمى خزانة الحكمة ، وهى خزانة كتب ليس غير ؛ أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم ، وخزانة الكتب جزء منها ، وقد أنشئت فى مصر أيضاً مثل هذه الدور ، فقد اشترى العزيز بالله الخليفة الفاطمى فى سنة ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م داراً إلى جانب الجامع الأزهر ، وجعلها لخمس وثلاثين من العلماء . وكان هؤلاء يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد فى كل يوم جمعة بعد الصلاة حتى صلاة العصر . فالجامعة الأزهرية التى هى أكبر معهد علمى إسلامى اليوم نشأت فى القرن الرابع الهجرى . وكان الوزير ابن كلّس يحب أهل العلم والأدب ويقرّبهم ، وكان يُجرى بأمر العزيز بالله ألف دينار فى كل شهر على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين [٢] . ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله ففتح فى سنة ٣٩٥ هـ الدار الملقّبة بدار العلم [٣] بالقاهرة ، وحمل الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ودخل سائرُ الناس إليها يقرءون وينسخون ، وأقيم لها خزّان وبوّابون ، ورُتّب فيها قوم يدرسون للناس العلوم ، ولكن الحاكم أبطل ذلك بعد قليل من الزمان [٤] . وكان فى هذه الدار ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والمحابر والورق ، وقد وصلت إلينا ميزانية هذه الدار فكان ينفق عليها فى كل سنة ٢٥٧ ديناراً من العين المغربى . فمن ذلك :

للورق	٩٠ ديناراً

(١) ديوان الشريف طبعة بيروت ص ٣ من طبعة سنة ١٣٠٧ هـ .
(٢) ذكر ذلك معاصره وشريكه فى الوطن يحيى بن سعيد ص ١٠٨ أ .
(٣) تسمى أيضاً دار الحكمة ، المقريزى ج ١ ص ٤٥٨ .
(٤) يحيى بن سعيد ص ١١٦ أ .

الخازن	٤٨	ديناراً
الفراشين	١٥	»
للناظر فى الورق والحبر والأقلام	١٢	»
لمرمّة الكتب	١٢	»
ثمن الماء	١٢	»
ثمن الحصر العبدانى	١٠	»
ثمن لبود للفرش فى الشتاء	٥	»
ثمن طنافس فى الشتاء	٤	»
لمرمة الستارة	١	»

وقد بقيت هذه الدار إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش ؛ لأنه اجتمع بها فريق من العلماء ، فاستفسد بعضهم عقولَ جماعة ، وأخرجهم عن الصواب [١] . وكان معظم دروس الفقه والكلام تُعطى فى المسجد ، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدى المدرس . وكان هذا يتخذ مكانه إلى جانب أسطوانة فى المسجد مستنداً إليها بظهره إن أمكن ؛ وإذا اقترب أحد من هذه الحلقة سمع النداء : دوّروا وجوهكم إلى المجلس [٢] . وقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرة مجلسا من مجالس للعلم [٣] . وكان جامع المنصور ببغداد، وهو أقدم مسجد جامع بها أشهر مركز للتعليم فى المملكة الإسلامية . ويُحكى أن الخطيب البغدادى [٤] لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات ، وسأل الله

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٥٨ — ٤٥٩ .

(٢) المقدسى ص ٢٠٥ . وفى سنة ٣١٤هـ — ٩٢٦م برد الهواء برداً شديداً وسقط ببغداد ثلج كثير ، وجمدت دجلة بأسرها بالموصل حتى عبر الناس عليها وجلس المحدث المعروف بأبى زكرة فى وسط دجلة على الجمد ، وأملى الحديث (المنتظم لابن الجوزى ص ٣١ ا) .

(٣) المقدسى ص ٢٠٥ .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٦ .

عز وجل ثلاث حاجات أخذاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : ماء زمزم لما شُرب له ، فالحاجة الأولى أن يحدِّث بتاريخ بغداد ، والثانية أن يملى الحديث بجامع المنصور ، والثالثة أن يُدفن إذا مات عند قبر بشر الحافى . وقد جلس إبراهيم بن محمد نفطويه (المتوفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م) ، وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهانى ، إلى أسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يغير محلّه منها [(١)] . وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ ، وكان ذلك طبيعياً ؛ لأن الفقهاء يعلمون العلم الذى يؤهل أصحابه لتولّى مناصب يعيشون منها كما تقدم القول ؛ ولكن لو قارنا عدد التلاميذ فى ذلك العصر لوجدناه صغيرا بالنسبة لما نراه اليوم ، وهذا يدل على كثرة العلماء بالنسبة إلى التلاميذ ، فقد كان أبو حامد أحمد بن محمد الاسفرايني المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ، إمامَ أصحاب الشافعى ، حتى قيل إنه أفقه وأنظر منه ، وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد ، وكان يحضر مجلسه مابين ثلاثمائة وسبعمائة فقيه [(٢)] . وكان أبو الطيب الصعلوكى الفقيه الأديب مفتى نيسابور ، وهى مركز علماء خراسان ، ويقال إنه حضر مجلسه أكثر من خمسمائة طالب علم فى عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م [(٣)] . وكان يقعد بين يدى أحد أصحاب الجوينى « الإمام الفرد » (المتوفى عام ٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م) فى كل يوم ثلثمائة من الأئمة والطلبة [(٤)] ؛ هذا على حين أننا نجد اليوم فى كشغر مثلا مع أنها ليست مركزاً دينياً كبيراً أن أكثر من خمسمائة طالب يحضرون درس أكبر العلماء فيها [(٥)] . وكان عدد الطلاب يُعرف بإحصاء محابرهم التى

(١) الارشاد ج ١ ص ٣٠٨ .

(٢) Wüstenfeld, AGGW 37, Nr. 287 ، وطبقات السبكى ج ٣ ص ٢٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٨٣ يذكر أربعمائة طالب .

(٣) التهذيب للنووى طبعة فستنفلد ص ٣٠٧ وطبقات السبكى ج ٣ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٤) السبكى ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٥) Hartmann, Chinesisch - Turkestan, S. 45-

يضعونها أمامهم والتى كانت أهم عتاد الطالب [١] . ولما قدم محمد بن جرير الطبرى بغداد قصده الحنابلة فسألوه عن أحمد بن حنبل وعن حديث الجلوس على العرش فقال : أما أحمد فلا يُعدّ خلافه ، فوثبوا ورموه بمحابرهم غاضبين [٢] . وكان إذا مات العالم كسر تلاميذه المحابر والأقلام ، وطافوا فى البلد نائحين مبالغين فى الصياح ، فلما مات الجوينى المتقدم الذكر ، وكان خطيباً مشهوراً أيضاً كسّر منبره ، واشتركت نيسابور كلها فى حزن العلماء عليه ، « فلم تفتح الأبواب فى البلد ، ووضعت المناديل على الرءوس عاماً بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه » [٣] .

وكان الطلبة يحضرون كتبهم فى شىء يسمى قارورة ، ولعلها سميت بهذا الاسم من قبيل الفكاهة العلمية [٤] .

وكان الإملاء فيا مضى من الزمان يعتبر أعلى مراتب التعليم [٥] ، وكثيراً ما كان المتكلمون واللغويون فى القرن الثالث الهجرى يتبعون طريقة الإملاء خاصة ، فيُحكى أن الجبّائى المعتزلى أملى مائة ألف وخمسين ألف ورقة ، وما رؤى ينظر فى كتاب إلا يوما فى زيج الخوارزمى [٦] . وقد أملى أبو على القالى خمس مجلدات [٧] ، وكان المستملى يكتب أول القائمة : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع

(١) السبكى ج ٣ ص ١٧٠ ؛ والنووى نفس الاشارة .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٣٦ .

(٣) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 365 ، وانظر طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٤) الارشاد ج ٢ ص ١٠ ؛ وأغلب الظن أن القارورة هى المحبرة كما يمكن أن يؤخذ من النص : « دخلت طالباً للحديث فحضرت مجلس بعض أصحاب الحديث ، وليست معى قارورة ، فرأيت شابا عليه سمة الجمال فاستأذنته فى كتب الحديث من قارورته » (المترجم) ، على أن المؤلف يقول إن كلمة قارورة تدل على مايشبه الصندوق .

(٥) المزهر للسيوطى ج ٢ ص ١٩٩ طبعة مصر ١٩٣٥ ، Goldziher, SWA, 69 S. 20

(٦) المعتزلة لابن المرتضى ص ٤٧ .

(٧) السيوطى فى المزهر .

كذا فى يوم كذا » . وفى القرن الرابع الهجرى ترك اللغويون طريقة المتكلمين والمحدِّثين فى الإملاء ، واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه أحد الطلبة والمدرس يشرح « كما يدرِّس الإنسان المختصرات »[1] . ويقال إن آخر من أملى من اللغويين هو أبو القاسم الزجاجى المتوفى عام ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م[2] . أما إملاء الحديث فقد بقى كما صرح بذلك السيوطى . ولما عزم الوزير الصاحب ابن عباد (المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م) على إملاء الحديث خرج متطلِّساً متحنِّكاً على زىّ أهل العلم ، واتخذ لنفسه بيتاً سماه بيت التوبة ، وقعد للإملاء فحضر الخلق الكثير ، « وكان المستملى الواحد ينضاف إليه ستة كلٌّ يبلغ صاحبه »[3] . ولكن أصحاب الإملاء اختصروا فيه حتى إن أغلب العلماء كانوا يختصرون فى أماليهم ويطيلون فى تدريسهم[4] .

وعندنا من خبر كتاب الياقوت فى اللغة لأبى عمرو المطرز (المتوفى عام ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م) ما يرينا كيف كان ينشأ الكتابُ من الإملاء : ابتدأ المؤلف بإملاء هذا الكتاب يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ٣٢٦ هـ — ٣٨٠ م فى جامع المنصور ببغداد ارتجالا من غير كتاب ولا دستور ، ومضى فى الإملاء مجلساً مجلساً إلى أن انتهى إلى آخره ؛ ثم رأى الزيادة فيه فزاد فى أضعاف ما أملى ، وكتب هذه الزيادة أحدُ تلاميذه : ثم قرأه عليه أبو إسحاق الطبرى وسمعه الناس ؛ ثم زاد فيه بعد ذلك ،وقرئ عليه بالزيادة يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م ؛ وفرغ منه فى ربيع الثانى سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م ، وحضرت نسخ جميع من كتب فقورنت ، ثم زاد المؤلف

---

(١) السبكى ج ٣ س ٢٥٩ .

(٢) المزهر للسيوطى .

(٣) الارشاد لياقوت ج ٢ س ٣١٢ .

(٤) المعتزلة لابن المرتضى س ٦٣ ، ويظهر أنه فى عصر حاجى خليفة كان المحدِّثون قد تركوا الإملاء تركا نهائياً . انظر : Marcais, Le Taqrib de en Nawawi, JA.1901, 18, S. 87 ، وكتاب التقريب مطبوع بالعربية ومعروف .

بعد ذلك أشياء أخرى كتبها محمد بن وهب ، ثم جمع الناس ووعدهم بعرض أبى إسحاق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرضة يتقرر عليها الكتاب ولا يكون بعدها زيادة[١] .

وكان تغيُّر طريقة التعليم سبباً فى إيجاد نوع جديد من المؤسسات العلمية ، ذلك أنه لما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس ، ولعل من أكبر الأسباب فى ذلك أن المساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس بما يتبعه من مناظرة وجدل قد يخرج بأصحابه أحياناً عن الأدب الذى تجب مراعاته للمسجد ؛ فالقرن الرابع هو الذى أظهر هذه المعاهد الجديدة التى بقيت إلى أيامنا . ويدل مجموع الأخبار التى انتهت إلينا على أن نيسابور كانت مهد هذه المعاهد ، وكانت أكبر مراكز العلم فى خراسان . ويقول الحاكم النيسابورى المؤرخ الثقة (المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م صاحب تاريخ علماء نيسابور إن أول مدرسة هى التى بُنيت لمعاصره أبى إسحاق الإسفراينى (المتوفى عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م) بنيسابور[٢] . أما المدرسة التى بنيت لابن فورك (المتوفى عام ٤٠٦ هـ) فهى أحدث عهداً من تلك المدرسة بقليل . وكان كل من الإسفراينى وابن فورك أشعرياً متحمساً ، فلا بد أن يكونا قد آثرا البحث فى المسائل الكلامية ، بل آثروا طريقة التدريس ، على مجرد رواية الأحاديث[٣] . على أنه كان بنيسابور رجل

(١) الفهرست لابن النديم ص ٧٦ .

(٢) طبقات السبكى ج ٣ ص ١١١ ، ١٢٧ ، ويقول المقريزى (الخطط ج ٢ ص٣٦٣) إن أول من حُفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية التى بنيت للبيهقى (المتوفى عام ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م) . ويقول الذهبى إن أول المدارس المدرسة النظامية (السبكى ج ٣ ص ١٣٧) ، ولا توجد كلمة مدرسة عند الجوهرى ولكنها وردت فى رسائل الهمذانى (ص ٢٤٧) .

(٣) ويريد الأستاذ ريبيرا (Ribera) فى مقاله : Origen del Colegio Nidami de Bagdad، وهو بحث شيق ضمن Homenajo a Don Fr. Codera, Zaragoza 1904, S. 3 ff. أن يثبت أن المدارس فى أصلها من مؤسسات الكرامية ولكن لا برهان له على ذلك .

من كبار الأئمة وأولى الرياسة ، وهو أبو بكر البستى المتوفى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م ، وقد بنى لأهل العلم مدرسة على باب داره ووقف عليها جملة من ماله الكثير . وكان هذا الرجل من كبار المدرسين والمناظرين بنيسابور [١] .

وكان المستملى فى المجالس الكبيرة يجلس على مقعد مرتفع ليستنصت الحاضرين وليعيد كلام المدرس حتى يسمعه من كان بعيداً عنه . وكان العالم يبتدئ درسه بحمد الله والصلاة على نبيه بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئاً من القرآن ثم يدعو للبلد وللسامعين [١] . وبعد أن يستنصت المستملى الناس يبدأ كلامه باسم الله وبالصلاة على النبى ؛ ثم يقول للمحدّث : من أوما ذكرت رحمك الله ؟

وكلما ورد ذكر النبى أو أحد الصحابة أو نحوهم [٢] صلى على النبى ورضى عن الصحابة . وفى حوالى عام ٣٠٠ هـ كان ابن كيسان النحوى يبدأ مجلسه بأخذ القرآن والقراءات ، ثم بأحاديث الرسول عليه السلام ؛ « فإذا قرئ خبر غريب أو لفظة شاذة أبان عنها وتكلّم عليها وسأل أصحابه عن معناها » [٣] . وكان يجوز للسامع فى المجلس أن يقف ويسأل المدرس ، ويدل على ذلك ما حكى عن أبى عبيدة اللغوى من أن رجلا حضر مجلسه فسأله سؤالا سخيفاً يدل على الجهل وسوء الفهم ؛ ثم قام ثان وثالث فسألا مثل ذلك ، فأخذ أبو عبيدة نعليه ، واشتد ساعياً فى مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته : من أين حُشرت البهائم علىّ اليوم [٤] . على أنه قد بقى فى القرن الرابع ذلك التهيُّب الشديد للحديث ، وقد

---

(١) انظر الفصل الخاص بالمقائد .

(٢) Nawawi, Taqrib, trad. Marçais, JA, 1901, 18, S. 88. والطبعة العربية ، النوع السابع والعشرون ، وهذه كانت هى العادة الجارية فى القرن الرابع كما يدل على ذلك ما روى من أن الخطيب البغدادى كان يأمر المستملى أن يرفع صوته بذلك .

(٣) الارشاد ج ٦ ص ٢٨٢ .

(٤) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٧٢ .

كان معروفاً من قبل ، فكان يبلغ من ورع البعض أنه يتهيب رواية الحديث[١] ، وقد حكى البرقانى (المتوفى عام ٤٢٥ هـ — ١٠٣٤ م) أن أستاذه كان يروى الأحاديث متهيباً متحرزاً ، وأن تلاميذه كانوا إذا تكلم مع أحد يذهبون جانباً ويكتبون الأحاديث التى ترد فى كلامه دون أن يفطن هو لذلك[٢] . وكان أبو سهل الصعلوكى يُطلب منه التحديث فيمتنع أشد الامتناع ، ولم يقعد لذلك إلا فى آخر عمره عند ما بلغ السبعين[٣] . على أن التحديث كان يعتبر نوعاً من العبادة يحتاج إلى آداب خاصة : فيستحب للمحدث قبل أن يجلس للحديث أن يتطهّر ويتطيّب ويسرح لحيتـه ، وأن يجلس متمكناً بوقار ، فإن رفع أحد الحاضرين صوته زجره ، وعليه أن يقبل على الحاضرين كلهم[٤] . ويروى لنا من القرنين الثانى والثالث للهجرة أنه كانت تُرمى رقاع فى حلقة بعض العلماء الصالحين أمام العالم ، وتتضمن هذه الرقعة طلبَ دعاء لمريض أو صاحب حاجة ، فيقبض العالم عليها ويقرؤها ، ويدعو لصاحبها ، ويؤمّن على دعائه من حضر ، ثم يمضى فى درسه[٥] . وقد رويت لنا من القرن الرابع هذه الحكاية التالية :

174

---

(١) انظر Goldziher, ZDMG, 1907, S. 861 ، وقد حكى السمرقندى (بستان العارفين ص ١٠) عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أنه قال : أدركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان منهم محدّث إلا ودّ أن أخاه كفاه الحديث ولا مُفْت إلا ود أن أخاه كفاه الفتوى .

(٢) انظر ما ذكره مارسيه فى هامش ترجمته لكتاب التقريب للنووى : JA, 1901, 17, S. 196 Anm. 2

(٣) الطبقات للسبكى ج ٢ ص ١٦١ .

(٤) التقريب للنووى ترجمة مارسيه Marçais, JA, 1901, 18, S. 85 f. (النوع السابع والعشرون من الطبعة العربية) ، ويذكر مارسيه عن الغزالى أن سفيان الثورى كان يُجلس الفقراء فى الصف الأول .

(٥) الارشاد لياقوت ، ج ٦ ص ٣٨٤ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٨٥ وما يليها .

لما عزم الصاحب بن عباد على إملاء الحديث ، وهو وزير « خرج يوماً متطلساً متحنكا بزى أهل العلم فقال : قد علمتم قدمى فى العلم ، فأقروا له بذلك ، وأنا متلبس بهذا الأمر ، وجميع ما أنفقته من صغرى إلى وقتى هـذا من مال أبى وجدى ، ومع هذا لا أخلو من تبعات أشهد الله وأشهدكم أنى تائب إلى الله من ذنب أذنبته ؛ واتخذ لنفسه بيتاً سماه بيت التوبة ، ولبث أسبوعاً على ذلك ، ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبتـه ، ثم خرج وقعد للإملاء وحضر الخلق الكثير ، وكان المستملى الواحد ينضاف إليه ستة كل يبلغ صاحبه ، فكتب الناس حتى القاضى عبد الجبار »[1] . وكان أبو الحسن الدار قطنى (المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥م) يقرأ عليه تلاميذه ، فإذا أخطأ أحدهم سبّح أو قرأ شيئاً من القرآن بقصد التصحيح من الآيات التى تكون ملائمة لذلك[2] . وتوفى أحد العلماء فى سنة ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م . وكان يبتدئ كل يوم بتدريس القرآن ، ثم يدرس الحديث ، وكان يجلس على حال واحدة لا يتحرك ولا يعبث فى شئ من أعضائه ، ولا يغير شيئاً من هيئته ، وكان يقرأ بنفسه حتى يستنفد قوته ويبلغ النهاية فى جهده فى القراءة[3] . وكان أبو الحسن الباهلى يدرس فى كل جمعة مرة واحدة ، وكان يرخى الستر بينه و بين تلاميذه كى لا يروه ، وسئل عن سبب إرساله الحجاب بينه و بين الناس فأجاب إنهم يرون السوقة ، وهم أهل الغفلة ، فيرونى بالعين التى يرون بها أولئك ، « وكان من شدة اشتغال قلبه بالله مثل واله أو مجنون ، لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره »[4] . وكان بعض العلماء إذا انتهى مجلسه يقول : قوموا ؛ فيقوم تلاميذه ، ويأخذ هو يدعو الله[5] .

---

(١) الارشاد ج ٢ س ٣١٢ .
(٢) طبقات السبكى ج ٢ ص ٣١٢ .
(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ١٦٣ أ .
(٤) طبقات السبكى ج ٢ ص ٢٥٧ .
(٥) نفس المصدر ص ١٩٢ .

وقد اختلف العلماء متى يبدأ الإنسان فى سماع الحديث ، فذهب جماعة إلى أنه يستحب أن يبتدئ الإنسان بسماع الحديث بعد ثلاثين سنة ، وقال آخرون بعد العشرين ، ونقل القاضى عياض ، قاضى قرطبة (المتوفى عام ٥٤٤ هـ — ١١٤٩ م) أن مذهب المحدثين أنفسهم أن أول زمن يصح فيه السماع خمس سنين ؛ ويُذكر حديث للبخارى (كتاب العلم ، الباب الثامن عشر) لإثبات هذا الرأى . ويقول النووى (المتوفى عام ٤٧٦ هـ — ١٠٨٣ م) إن العمل استقر على ذلك فى زمانه . ويُحكى أن الحميدى المحدِّث المشهور كان أبوه يحمله على كتفه[١] إلى مجلس الحديث ؛ ولهذا يذكر مؤرخو الحديث السن الذى بدأ عنده كل محدِّث فى سماع الحديث ، وكان يندر أن يذهب الولد لسماع الحديث وهو فى السادسة من العمر ، ويقال إن القاضى التنوخى المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م ، ممن سمع الحديث وهو فى سن ست[٢] ؛ ويُقال إن أبا نعيم الأصفهانى أكبر محدثى عصره سمع الحديث وهو ابن ثمان[٣] . والغالب أن يبدأ فى سماع الحديث فى الحادية عشرة ، وفى هذا السن سمع الحديثَ الخطيبُ البغدادى المحدِّث المشهور وثلاثة من شيوخه[٤] ، وكذلك ابن الجوزى ، فقد كتب الحديث وله إحدى عشرة سنة[٥] . وكان بعض المحدثين لا يقبل فى مجلسه من لم يكن ملتحياً ، خوفا من قصص الغرام فيما يظهر ، ويُذكر أن صبيا كان شديد الرغبة فى سماع الحديث ، ومنع من ذلك فاتخذ لنفسه لحية مصطنعة[٦] .

---

(١) التقريب للنووى ترجمة مارسيه . انظر Marçais JA, 1901, 17, 193 f. ؛ والنسخة العربية : النوع الرابع والعشرون .

(٢) المنتظم ص ١٣٦ ب .

(٣) السبكى ج ٣ ص ٨ .

(٤) تاريخ بغداد JRAS, 1912, S. 50.

(٥) المنتظم ص ١٣٧ ب .

(٦) Wüstenfeld, Schafiiten, AGGW 37, Nr. 88.

وقد اختُلف أيضاً فى السنّ التى يجوز للرجل فيها أن يتصدى لتدريس الحديث ، فذهب النووى إلى أنه يجوز للانسان أن يجلس لذلك فى أى سنّ متى احتيج إلى ما عنده ؛ ويجب على الشيخ المسن أن يمسك عن التحديث إذا خشى التخليط بهرم أو خرف أو عمى [١] .

وكان الاسفراينى ، أكبر أئمة الشافعية فى القرن الرابع الهجرى ، طالباً فقيراً ، وكان يشتغل حمّالا [٢] . وكان آخرون فى وقت طلبهم للحديث يسكنون فى مئذنة المسجد الذى يستمعون فيه الحديث [٣] . ويحكى عن الوزير أبى الحسن بن الفرات (المتوفى عام ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م) أنه كان يطلق للشعراء فى كل سنة من سنى وزارته عشرين ألف درهم رسما لهم ، سوى ما يصلهم به متفرّقا ، وعند مديحهم إياه ، فلما كان فى وزارته الأخيرة تذكّر طلاب الحديث وقال : لعل الواحد منهم يبخل على نفسه بدانق ودونه ويصرف ذلك فى ثمن ورق وحبر ، وأنا أحق بمراعاتهم ومعاونتهم على أمرهم ، وأطلق لهم من خزانته عشرين ألف درهم [٤] . يدلنا هذا على أن المعاهد العلمية التى كان يستطيع الطلاب أن يلجأوا إليها لم تكن قد ظهرت ، وكان جزء كبير من مثل هذه العطايا لا يُصرف إلى الطلاب ، بل لغيرهم بواسطة ذوى الجاه ، كما يصرح بهذا صاحب كتاب الوزراء . وكان العالم

---

(١) التقريب للنووى ترجمة مارسيه JA, 1901, 18, S. 84 ، والنسخة العربية : آداب المحدّث فى النوع السابع والعشرين . وقد كان المحدّثون المتأخرون قساةً فى حكمهم على العمى من المحدثين ؛ فقد أراد البعض أن يسحبوا منهم كل ثقة فى أمر الحديث ، وهـذا يدل على ما أصبح للكتابة من الشأن وعلى نقصان قيمة الذاكرة وما كان لها من التقدير فيما مضى . وقد قال الخطيب البغدادى إن الأعمى فى منزلة البصير الأمى — نفس المصدر ص ٦٣ ، والنوع السادس والعشرون .

(٢) AGGW, 37, Nr. 287. ، وفى طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٦ أنه كان فى أول أمره يحرس فى بعض الدور .

(٣) الأرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٥ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

إذا لم يكن فقيهاً صاحب منصب ، ولم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب ، كما حُكى عن أبى زكريا يحيى بن عدىّ المتوفى عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م ، وكان من أكبر فلاسفة القرن الرابع ، ومذهبه مذهب النصارى اليعقوبيين ؛ وذكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبرى ، وأنه كان يكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة[١] . وكان بنيسابور ورّاق يسمى أبا حاتم ورّق بها خمسين سنة ، وهو القائل :

إن الوراقة حرفة مذمومة ... محرومة عيشى بها زمنُ
إنْ عِشْتُ عشتُ وليس لى أكل ... أو مُتُّ مُتُّ وليس لى كفن[٢]

وكان أبو بكر الدقاق المعروف بابن الخاضبة المتوفى عام ٤٣٩ هـ — ١٠٨٦ م يعول والدة وزوجة وبنتاً من الوراقة ، وفى سنة واحدة كتب صحيح مسلم سبع مرات ، وهو يقول : « فلما كان ليلة من الليالى رأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت ، ومنادٍ ينادى ابن الخاضبة ، فأُحضرت فقيل لى أدخل الجنة ، فلما دخلت الباب وصرت من داخل استلقيت على قفاى ووضعت إحدى رجلىّ على الأخرى وقلت : آه استرحت والله من النسخ »[٣] .

وقد قيل إن من آفات العلم خيانة الورّاقين . وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا[٤] . ولم تكن حرفة التعليم تدرّ شيئاً كثيراً ؛ فقد ذهب طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل وسفيان الثورى وغيرهما إلى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجراً عن

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٦٤ ، وأخبار الحكماء للقفطى ص ٣٦١ من الطبعة الأوروبية .
(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣١٩ .
(٣) الأرشاد لياقوت ج ٦ ص ٣٣٧ .
(٤) يُذكر هذا كثيراً ولا سيما فى تراجم المالكية .

تعليمه القرآن والحديث[١] ، وأجاز ذلك آخرون ؛ ولـكنهم جعلوا معلم الحديث فى درجة أعلى لأنه يعلّم ابتغاء الثواب الأخروى . وفى القرن الثامن الهجرى امتنع النووى أن يأخذ رزقاً لتدريسه فى المدرسة الأشرفية ، وكان الرجل إذا انتهى من مجلس علم قعد له من غير أجر ، قال له الطالب : آجرك الله ، وهو يقول : نفعك الله[٢] . وفى سنة ٣٤٦ هـ — ٩٥٧ م توفى أبو العباس الأصمّ ، وكان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم ، وقد ظهر به الصم وهو ابن ثلاثين سنة ، ثم استحكم حتى كان لا يسمع نهيق الحمار ، وكان إذا ذهب إلى المسجد للتحديث وجد السكة قد امتلأت بالناس ، وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم إلى مسجده . وكان لا يأخذ شيئاً على التحديث ، وإنما كان يورّق ويأكل من كسب يده[٣] . وحُكى عن أبى بكر الجوزقى محدّث نيسابور المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م أنه قال : « أنفقت فى الحديث مائة ألف درهم ما كسبت به درهماً »[٤] . وكان أبو بكر الخطيب البغدادى يوماً فى جامع صور فدخل عليه بعض العلوية وأعطاه ثلثمائة دينار وضعها على سجادة الخطيب ، فقام الخطيب محمرّ الوجه ، وأخذ السجادة وخرج من المسجد ، وترك العلوى يلتقط الدنانير من شقوق الحصير[٥] . أما إذا كان أحد معلم صبيان أو معلم كُتّاب كما كان أبو زيد البلخى العالم المشهور المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م[٦] ، فمعنى هـذا عيش مرّ وحرفة محتقرة . وقد ألّف الجاحظ كتاباً فى المعلمين ملأه

---

(١) انظر مقدمة بستان العارفين للسمرقندى والتقريب للنووى (Marçais, JA, 1901, 17, S. 143.

(٢) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٩٧ .

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٨٧ ا .

(٤) السبكى ج ٢ ص ١٦٩ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ١٤ .

(٦) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤١ .

بالحكايات التى تدل على حماقات المعلمين وقلة عقلهم ورأيهم . ومن أمثال العامة : أحمق من معلم [١] . ولعل كثيراً مما لحق المعلمين من ضروب الاستهزاء إنما يقع إثمه على الروايات اليونانية الهزلية ؛ لأن المعلم فيها كان من الشخصيات المضحكة . وقد ذكر ابن قتيبة عن السندى أنه كان لا يستحلف المُكارى ولا الحائك ولا الملّاح ، ويجعل القول قول المدّعى مع يمينه ، ويقول : اللهم إنى أستخيرك فى الحمّال ومعلم الصبيان [٢] . وكان ابن حبيب أحد علماء اللغة والأخبار والشعر (توفى عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) يقول إذا قلت للرجل : ما صناعتك ؟ فقال : معلم ، فاصفع [٣] . ويحكى ابن حوقل عن أهل صقلية أنهم كانوا يكثرون التغذى بالبصل النيء ، « وما فيهم من لا يأكله فى كل يوم ، ويؤكل فى داره صباحاً ومساء من سائر طبقاتهم ، وهو الذى أفسد تخيّلهم ، وضرّ أدمغتهم ، وحيّر حواسهم ، وغير عقولهم ، ونقص أفهامهم ، وأفسد سحنة وجوههم ، فأحال مزاجهم حتى رأوا الأشياء أو أكثرها على غير ما هى عليه . والذى دخل تحت العدّة أن فيها أزيد من ثلثمائة معلم يؤدبون الصبيان ؛ وهم يرون أنهم أفضلهم ، وأنهم أهل الله ، وهم شهودهم وأمناؤهم ؛ هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم وخفة أدمغتهم ، وإنما لجأوا إلى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونكولا عن الحرب » [٤] . وكان يُدفع للمعلم أجرُه أحياناً عدا المال أشياء مما يأكله الناس وينتفعون به ، ولذلك كانت « رغفان المعلم » مثلا يُضرب فى الاختلاف وشدة التفاوت ، لأن رغفان المعلم تختلف بحسب اختلاف آباء الصبيان فى الغنى والفقر ، والجود والبخل . وقد أنشد الجاحظ للرقاشى فى معلم :

178

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٠٠ طبعة مصر ١٣١١هـ .

(٢) عيون الأخبار طبعة بروكلمان ص ٩٣ .

(٣) الإرشاد ج ٦ ص ٤٧٣ .

(٤) ابن حوقل ص ٨٦ — ٨٧ .

مختلف الخبز خفيف الرغيف   منتثر الزاد لئيم الوصيف

وأنشد لأبى الشمقمق :

خبز المعـــلم والبقال متفق   واللون مختلف والطعم والصور

أما المعلمون الذين يؤدّبون الأولاد فى البيوت الغنية فكانوا أحسن حالا ؛ يقول الجاحظ[1] : « يكون الرجل نحوياً عروضيا ... وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً ، ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعانى ، ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم[2] » ، وكان عند قائدٍ لعبد الله بن طاهر مؤدب رزقه فى الشهر سبعون ديناراً ، وذلك فى القرن الثالث الهجرى . وكان مثل هذا المعلم يظل تحت إشراف من اختاره ، وهو الذى يقدّر رزقه ، ويطوف عليه ويتعهد من بين يديه من الصبيان ، وهو يصرفه ويبدّل به غيره إذا لم يعجبه[3] . وكان مؤدّبو الأمراء أحسن المؤدبين حالا ، وكان الذين يُختارون لتأديب أبناء الأمراء هم علماء اللغة المشهورون ، فمن ذلك أن محمد بن عبد الله ابن طاهر ، وكان من أجود أمراء زمانه ، اختار لتأديب ابنه طاهر أحمدَ بن يحيى ثعلب النحوى اللغوى إمام الكوفيين ، فأفرد له داراً فى داره كان يقيم فيها هو وتلميذه ، وكان يتغدى معــه ؛ وقد أقام له الأمير مع ذلك فى اليوم سبع وظائف من الخبز الخشكار ووظيفة من الخبز السميد وسبعة أرطال من اللحم

---

(١) عمد المنسوب للثعالبى ZDMG, VI, ، وثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ص ١٩٤ — ١٩٥ ، وكان يوم الثلاثاء ويوم الجمعة يوم عطلة مدرســية (انظر ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣ ، ومقدمة متز لــكتاب حكاية أبى القاسم للأزدى ص ٥٧ ، وفيما يختص بالعصور المتأخرة (انظر كتاب ألف باء ج ١ ص ٢٠٨ ، والمدخل ج ٢ ص ١٦٨) ، وكان الصبيان يكتبون على ألواحهم بالطباشير (مقدسى ص ٤٤٠ ؟) ، وكان المعلم يؤدبهم بأن يضربهم بالسير (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٦٣) .

(٢) البيان للجاحظ ج ١ ص ١٥١ .

(٣) الارشاد لياقوت ج ١ ص ١٢٢ .

وعلوفة رأس ، وأجرى له فى الشهر ألف درهم[١] . وفى سنة ٣٠٠ هـ — ٩١٢م احتفل أبو القاسم بن الوزير الخاقانى بدخول ابنه الكُتّاب ، فدعا من القواد والرؤساء جماعة بلغوا ثلاثين نفسا ، وأمر الداعى بإعطاء المعلم ألف دينار وأكرم الناس ، وأكلوا[٢] ، وكان يلازم المأمون فى الكتاب غلامٌ لمعلمه ، فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحه بادر إليه ، فأخذ اللوح من يده وغلب على غلمان المأمون فمسحه وجاء به فوضعه على المنديل فى حجره[٣] . وكان العلماء الكبار يأخذون أرزاقا من السلطان ، وكانوا فريقين : فقهاء وعلماء ، وثَمّ فريق ثالث أكثر رزقا ، وهم الندماء الذين يجالسون الحضرة ؛ وكان البعض يأخذ رزقا فى هذه الطوائف كلها كالزجّاج المتوفى عام ٣١٠ هـ ، فقد كان له رزق فى الندماء ، ورزق فى الفقهاء ، ورزق فى العلماء ، ومبلغ ذلك ثلثمائة دينار ، وكانت له منزلة عظيمة[٤] . وقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ خمسين ديناراً فى كل شهر حينما قدم بغداد فقيراً[٥] .

١٧٩ وكذلك أجرى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب على أبى نصر الفارابى الفيلسوف التركى المتوفى عام ٣٣٩هـ — ٩٥٠م أربعة دراهم كل يوم ، فاقتصر عليها[٦] . ويندر أن نجد فى هذا العصر من العلماء من يتخذ صناعة أو تجارة يعيش منها إلى جانب العلم . فيُحكى أن أبا بكر الصبغى المتوفى عام ٣٤٤ هـ — ٩٥٥ م كان يبيع الصبغ بنفسه أو يعمله بنفسه فى الحانوت على عادة العلماء

---

(١) نفس المصدر ج ٢ س ١٤٤ .
(٢) كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين س ٧٩ ب .
(٣) المحاسن والمساوئ للبيهقى الطبعة الأوروبية س ٦٢٠ .
(٤) الفهرست س ٦١ .
(٥) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 92.
(٦) تاريخ أبى الفدا تحت عام ٣٣٩هـ (ج ٢ س ٤٥٨) .

المتقدمين الذين يتسبّبون فى المعاش ، وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدّثين[١] . وقد أوصى الصبغى لأحد العلماء فى أمور مدرسته « دار السنّة » ، وفوّض إليه تولية أوقافه فى ذلك[٢] . وكان دعلج بن أحمد بن دعلج أبو محمد السجزى (المتوفى عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م) شيخ أهل الحديث ، وكان فقيهاً ، ويقال إنه لم يكن فى الدنيا من التجار أيسر منه ؛ وقد خلّف ثلثمائة ألف دينار ؛ ويحكى أنه بعث بالمسند إلى رجل لينظر فيه ، وجعل فى الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً ؛ « وكان يقول : ليس فى الدنيا مثل دارى ، لأنه ليس فى الدنيا مثل بغداد ، ولا ببغداد مثل القطيعة ، ولا بالقطيعة مثل درب أبى خلف ولا فى الدرب مثل دارى »[٣] . وكذلك كان بمصر أبو العباس أحمد بن محمد الدبيلى الخياط المتوفى عام ٣٧٣ هـ ، وكان فقيهاً جيد المعرفة على مذهب الشافعى ، وكان قوته وكسبه من خياطته ، كان يخيط قميصاً فى جمعة بدرهم ودانقين طعامه وكسوته منها غلاء ورخصاً ، « وما ارتفق من أحد بمصر بشربة ماء »[٤] . وكان بمصر عالم آخر توفى عام ٤٩٢ هـ — ١١٠٩ م ، وكان يبيع الخِلَع لأولاد الملوك[٥] . على أننا نجد أن أبا عمر المطرّز المتوفى عام ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م ، وكان أحد أئمة اللغة المشاهير المكثرين ، قد منعه اشتغاله بالعلوم عن اكتساب الرزق ، فلم يزل مضيّقاً عليه[٦] . ويقول أحمد بن فارس اللغوى المتوفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م :

إذا كنت فى حاجة مرسلا   وأنت بها كَلِف مغـرم

---

(١) السبكى ج ٢ ص ١٦٨ .
(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٦٦ .
(٣) السبكى ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٢ .
(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٩٧ .
(٦) تاريخ أبى الفدا تحت عام ٣٤٥ هـ (ج ٢ ص ٤٦٤) .

فأرسل حكيما ولا توصه   وذاك الحكيم هو الدرهم

وكان يقول :

ياليت لى ألف دينار موجهة   وأن حظى منها فلس فلاس

قالوا : فما لك منها؟ قلت : تخدمنى   لها ومن أجلها الحمق من الناس[١]

وأخيراً دخل علماء الإسلام فى نهاية هذا العصر فى جملة العظماء وأصحاب الألقاب ، وكان الأسفراينى الأصغر المتوفى عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م بنيسابور أول من لقب بين العلماء بركن الدين[٢] . وفى ذلك العصر ظهر لقب على سبيل التكريم وهو لقب شيخ الإسلام الذى صار له شأن كبير فيما بعد ، وكان ظهوره عند فريقين مختلفين ، وذلك أن أهل السنة فى خراسان لقبوا به أحد علمائهم ، فثارت نفوس المجسمة بمدينة هراة وعمدوا إلى شيخ لهم ألف كتابا فى ذم الكلام فلقبوه به[٣] .

ولم يكن يخلو الحال من شخصيات مضحكة بين المعلمين كالتى نجدها فى المجلات الهزلية . فقد كان بين المبرد وثعلب منافرات كثيرة ، والناس يختلفون فى تفضيل كل واحد منهما على صاحبه ، وكان يسعى بينهما السعاة ، وينقلون لأحدهما هجاء الآخر ، وكانا يتناظران[٤] . ويحكى أن قتادة السدوسى قال مرة : مانسيت شيئاً قط ثم قال : يا غلام ناولنى نعلى ، قال : نعلك فى رجلك[٥] . وكان ابن خالويه

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ س ٩ .

(٢) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 316 ، وكان أحمد بن عبد الله أبو محمد المزنى المعقلى الهروى المتوفى عام ٣٦٥هـ — ٩٦٦م إمام أهل العلم والوجوه وأولياء السلطان بخراسان فى عصره ، مع رتبة الوزارة وعلو القدر عند السلطان ، وكان يقال له الشيخ الجليل ببخارى ، وكان فوق الوزراء لعظمته ، وكانوا يصدرون عن رأيه ، (طبقات السبكى ج ٢ س ٨٥ — ٨٦) .

(٣) طبقات السبكى ج ٣ س ٤٧ ، ١١٧ .

(٤) الإرشاد ج ٢ س ١٤٩ .

(٥) نفس المصدر ج ٦ س ٢٠٢ .

180

اللغوى عالما غليظا ، فيحكى أنه وقع بينه و بين المتنبى كلامٌ فى مجلس سيف الدولة ، فوثب ابن خالويه على المتنبى وضرب وجهه بمفتاح كان معه ، فخرج المتنبى ودمه يسيل على ثيابه[1] . وكان نفطويه مشهوراً بعلمه ، كما كان مشهوراً بالقذارة والصنان ونتن الرائحة ، وقد أثرت فى عقل الجوهرى صاحب المعجم المشهور (المتوفى عام ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م) كثرةُ عمله ، فقد صنّف كتاب الصحاح فى اللغة حتى وصل إلى باب الضاد ؛ ثم اعـتريته وسوسةٌ فانتقل إلى الجامع القديم بنيسابور ، فصعد إلى سطحه ، وقال : أيها الناس ! إنى عملت فى الدنيا شيئا لم أُسبق إليه ؛ فسأعمل للآخرة شيئا لم أُسبق إليه ، وضمّ إلى جنبيه مِصراعىْ باب وتأبّطهما بحبل ، وصعد مكانا عاليا من الجامع وزعم أنه يطير ، فوقع فمـات .

---

(١) ابن خلكان (الوفيات) طبعة فستنفلد ج ١ س ٦٥ .

الفصل الثالث عشر

علوم الدين

فى القرن الرابع الهجرى مرّ علم الكلام الإسلامى أو علم العقائد فى أهم أدوار حياته ، وهو دور تحرّره من الفقه ، بعد أن ظل حتى ذلك الحين خادما له ؛ وكانت جميع كتب الكلام المعتبرة عند جمهور الأمة الإسلامية تتناول بعض الموضوعات الفقهية . ومرجع الفضل فى حدوث هذا التغير إلى المعتزلة الذين كانوا طول القرن الثالث الهجرى يعالجون مسائل كلامية محضة ، وهم فى القرن الرابع يضطرون خصومهم إلى الإجابة عن هذه المسائل . وكانوا أول فرقة إسلامية تحررت من نزعات الفقهاء كلها ، فكانوا هم الفرقة « الكلامية » الوحيدة[1] التى تعالج الكلام وحده بين الفرق الخمس الكبرى التى كان المسلمون منقسمين إليها فى ذلك العهد ، وهى أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج[2] . وقالوا إن كل مجتهد مصيب فى الفروع[3] . وكان منهم رجال فى جميع المذاهب الفقهية ، حتى بين أصحاب الحديث الذين يعتبرون عادة ألدّ أعداء المتكلمين[4] . ومن جهة أخرى كان الصوفية خصوما ألداء لجميع الفقهاء ، ولم يقنعوا قط من التشنيع عليهم ، وقد عبّروا عن احتقارهم لعلم الفقه الذى يسمونه علم الدنيا تعبيراً قاسياً ؛ ومن أمثلة ذلك ما يقوله المكى المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م أخذا عن السيد المسيح عليه

181

---

(١) المقدسى ص ٣٧ .

(٢) ابن حزم مثلاج ٢ ص ١١١ .

(٣) المقدسى ص ٣٨ ، والمعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣ .

(٤) المقدسى ص ٤٣٩ .

السلام ؛ فهو يقول : « وروينا عن عيسى عليه السلام : مَثَلُ علماء السوء مَثَلُ صخرة وقعت على فم النهر ، لا هي تشرب الماء ، ولا تترك الماء يَخْلُص إلى الزرع ، وكذلك علماء الدنيا ، قعدوا على طريق الآخرة ، فلا هم نفذوا ، ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل ، قال : ومثل علماء السوء كمثل قناة الحش ، ظاهرها حسن وباطنها نتن ، ومثل القبور المشيدة ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى »[1].

وقد انتصر الصوفية فى هذا الباب ؛ ففى القرن التالى جاء الغزالى إمام جمهور المسلمين المتأخرين فجاهر بأن علم الفقه علم دنيوى لا دينى[2]. ونجد بين الصوفية طوائف كثيرة ترفض العلوم جملة . حتى إنه يُحكى عن أبى عبد الله بن خفيف المتوفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م أنه كان يوصى الناس بأن يشتغلوا بالعلم ولا يغتروا بكلام الصوفية ، ويقول إنه كان يخبئ المحبرة والورق فى ثيابه ويذهب إلى أهل العلم خفية ؛ فإذا علم به الصوفية خاصموه وقالوا : لا تفلح[3]. وقد فرّق الصوفية مرة أخرى بين المعرفة (أى علم الحقائق) وبين العلم (بمعنى العلوم المألوفة للناس). يقول الحلاج المتوفى عام ٣٠٩ هـ — ٩٢٢ م . مستهزئا بالعلم : «ياعجبا ممن لايعرف شعرة من بدنه كيف تنبت سوداء أم بيضاء ، كيف يعرف مكوّن الأشياء ! من لا يعرف المجمل والمفصّل ، ولا يعرف الآخر والأول والتصاريف والعلل والحقائق والحيل لا تصح له معرفة من لم يزل » . ويحكى الحلاج فى موضع آخر : « رأيت طيراً من طيور الصوفية عليه جناحان وأنكر شأنى حين بقى على الطيران ، فسألنى عن الصفا ، فقلت له : اقطع جناحك بمقارض الفناء ، وإلا فلا تتبعنى ، فقال : بجناح أطير ، فقلت له : ويحك ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، فوقع يومئذ

---

(١) قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ١ ص ١٤١ طبعة مصر ١٣١٠ هـ .

(٢) Goldziher, Zahiriten, S. 182.

(٣) Amedroz, notes on some sufi lives, JRAS., 1912, S. 556.

فى بحر الفهم وغرق »[١] . ولكن نجد قوما آخرين ، كالجنيد المتوفى عام ٢٩٨هـ — ٩١٠ م ، يصرّحون بأن العلم أرفع من المعرفة وأتمّ وأشمل [٢] . ونجد بين العلماء كالشافعية مثلا كثيراً من الصوفية ، وهذه حقيقة واقعة . وكانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحا ؛ فقد كانت هى الحركة العلمية التى ضمت أعظم القوى الدينية فى ذلك العهد ؛ والحركة الصوفية فى القرنين الثالث والرابع أوجدت فى الإسلام ثلاثة مبادئ أثرت فيه تأثيراً كبيراً وهى : ثقة وطيدة كاملة بالله تعالى ، والاعتقاد بالأولياء ، وإجلال النبى محمد عليه السلام ، ولا تزال هذه المبادئ الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيراً فى الحياة الإسلامية [٣] . وقد زاد الإقبال على دراسة القرآن والحديث لأن ذلك واجب من أول الواجبات المفروضة على كل مسلم ومسلمة [٤] . ولكن نشأ فى القرن الرابع رسم جديد ، وهو الذى يجيز للإنسان رواية الحديث من غير لقاء رجاله ، ومن غير إجازة مكتوبة تخوّله حق الرواية [٥] ، وبهذا حلّت دراسة الكتب محل الأسفار التى كان يقوم بها طلاب الحديث من قبل للقاء رجاله . وقد استطاع ابن يونس الصفدى المتوفى عام ٣٤٧هـ — ٩٥٨م . أن يكون إماما متيقظا حافظا فى الحديث ، وإن كان لم يرحل ، ولا سمع بغير مصر [٦] . وكان مثل العالم الذى يطلب الحديث مثل التاجر أو عامل السلطان فى كثرة غشيانه للخانات التى يأوى إليها المسافرون

182

---

(١) كتاب الطواسين للحلاج طبعة باريس ١٩١٣ ص ٧٣ ، ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٥ . على أن النصين الأولين لا يحويان بصراحة تقابلا وتعارضاً بين المعرفة والعلم ، بل فيهما معنى غير هذا ، ولا أرى تعارضاً بينهما وبين ما يحكى عن الجنيد. (المترجم)

(٣) انظر الفصل الخاص بالدين .

(٤) بستان العارفين للسمرقندى على هامش تنبيه الغافلين ص ٣ .

(٥) Goldziher, Muh. Studien, II, 190 ff. ، وقد ذكر النووى أن من العلماء من أجاز صحة رواية الحديث كتابة وذلك منذ القرن الثانى الهجرى ، ونجد أمثلة كثيرة لمثل هذه الرواية فى المجموعات الفقهية الشرعية .

(٦) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٦٤ .

أو فى طوافه فى السكك ؛ وهكذا بقى شأنه فى الحركة والتجوال زمانا طويلا . وفى سنة ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م توفى ابن مندة « خاتمة الرحّالين » الذين رحلوا لسماع الحديث ؛ وقد جمع ألفا وسبعمائة حديث ، ورجع إلى وطنه ومعه أربعون وِقْراً من الكتب[(١)] . ويقول أبو حاتم السمرقندى (المتوفى عام ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م) : لعلنا كتبنا عن ألف شيخ مابين الشاش والإسكندرية[(٢)] ويروى عن أبى يعقوب القراب السرخسى (المتوفى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م) أنه طلب الحديث فأكثر ، حتى زاد عدد شيوخه على ألف ومائتى شيخ[(٣)] . على أن الغزالى على شهرته ومع أنه صار أكبر حجة للعلم عند أهل القرونَ التى جاءت بعده ، لم يسافر فى طلب العلم إلا قليلا : فقد خرج من بلده طوس ، وسمع بجرجان فى الشمال ، ودرس فى نيسابور ، وكانت أكبر مدينة علمية فى بلاده ، وهذا كل ما عُرف من أسفاره لطلب العلم ، وقد بين صاحب كتاب بستان العارفين[(٤)] فى القرن الرابع اختلاف الآراء فى هذا الباب أوضح بيان . ومن أمثلة النقد الذى وُجّه للمحدثين أن النوبختى يصف أبا الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى (المتوفى عام ٣٥٦ هـ —٩٦٧م) ، وهو الذى سمع منه الدارقطنى المحدّث المشهور ، بأنه أكذب الناس ؛ لأنه « كان يدخل سوق الورّاقين ، وهى عامرة ، والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشترى شيئاً كثيراً من الصحف ، ويحملها إلى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها »[(٥)] . على أن المحدثين كانوا يُعتبرون أكبر العلماء شأنا ؛ وكانوا يُعدون من أعظم رجال الإسلام ، ولا يفوت المؤرخين ذكرُ وفاتهم إلى جانب القليلين الذين يختارون

183

---

(١) الزرقانى ج ١ ص ٢٣٠ ، Goldziher, Muh. Studien, II, 180 .

(٢) السبكى ج ٢ ص ١٤١ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٤ .

(٤) بستان العارفين للسمرقندى ص ١٨ وما يليها (؟) .

(٥) تاريخ بغداد طبعة كرنكو : JRAS, 1912, S. 71 .

ذكرهم ، ويقصون من الحكايات العجيبة التى تدل على مقدرتهم فى الحفظ . فيُحكى أن عبد الله بن سليمان بن الأشعث (المتوفى عام ٣١٦ هـ — ٩٢٨ م) كان محدّث العراق ، وكان يحدّث فى دار الوزير على بن عيسى ، وقد نصب له السلطان منبراً حدّث عليه ، وقد خرج إلى سجستان ، فسأله أهلها أن يحدثهم فقال : ما معى أصل ، فقالوا : ابن أبى داود وأصول ! فأملى عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث ، فلما قدم بغداد ، قال البغداديون : مضى ابن أبى داود إلى سجستان ولعب بالناس ؛ ثم فيّجوا فيّجا بستة دنانير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فكتبت وجىء بها ، وعُرضت على الحفّاظ نخطأوه فى ستة أحاديث ، لم يكن أخطأ إلا فى ثلاثة منها[1] . ويُحكى أن ابن عقدة (المتوفى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣م) كان يحفظ بالأسانيد والمتون خمسين ومائتى ألف حديث[2] .

وكان قاضى الموصل المتوفى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م يحفظ مائتى ألف حديث عن ظهر قلب[3] . وفى سنة ٤٠١هـ — ١٠١٠م مات بمصر الحافظ ميسر ، وكان عنده درج طويل طوله سبعة وثمانون ذراعاً مملوء الوجهين فيه أوائل ما يحفظه من الأحاديث[4] . ويحكى العلماء مع الفخر ما جرى لأبى الفضل الهمذانى بنيسابور مع الحاكم النيسابورى ؛ ذلك أن أبا الفضل لما ورد نيسابور ، وتعصّب الناس له ، ولقّب بديع الزمان أُعجب بنفسه إذ كان يحفظ المائة بيت إذا أُنشدت بين يديه مرة وينشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة ، فأنكر على الناس قولهم : فلان الحافظ فى الحديث ، ثم قال : وهل حفظ الحديث مما يُذكر ؟ فسمع به الحاكم النيسابورى فوجّه إليه بجزء وأجّله جمعة فى حفظه ، فردّ الهمذانى إليه الجزء بعد

---

(١) المنتظم ص ٣٦ ا ، السبكى ج ٢ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) المنتظم ص ٧٢ ب .

(٣) Goldziher, Muh. Studien, II, 200.

(٤) سكردان السلطان على هامش المخلاة ص ١٨٨ .

جمة ، وقال : من يحفظ هذا ! محمد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان ، أسامٍ مختلفة ، وألفاظ متباينة ؛ فقال له الحاكم : فأعرف نفسك ، واعلم أن حفظ هذا أضيق مما أنت فيه[١] .

أما من حيث السرعة فى تعلّم الحديث فنستطيع معرفة ذلك مما حُكى عن الخطيب البغدادى أنه قرأ صحيح البخارى على كريمة بنت أحمد المروزى فى خمسة أيام[٢] . وأكبر محدّثى القرن الرابع هما أبو الحسن على الدارقطنى المتوفى عام ٣٨٥هـ — ٩٩٥م والحاكم النيسابورى المتوفى عام ٤٠٥هـ — ١٠١٤م . وقد خلفهما فى القرن الخامس أبو بكر الخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣هـ — ١٠٧١م . وقد وجدوا من كتب الحديث التى جمعت فى القرن الثالث الهجرى موضوعاً لبحثهم بما كان فى هذه الكتب من تبويب وما كان فيها من تناقض . ولذلك قاموا بتأليف كتب جديدة فى الحديث ، فمثلا ألّف الدارقطنى كتاباً فى السنّة . وقد استدعاه الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات من بغداد وبرّه بمال كثير ، وأنفق عليه نفقة واسعة ، وخرّج له المسند ، وكان لهذا الوزير مجالسُ إملاء كتبها الدارقطنى وآخر معه وخرّجاها[٣] ؛ أو قاموا بتأليف الاستدراكات أو المستدركات كما فعل الدارقطنى والحاكم ، لاعتقادهما أن كثيرا من الحديث الصحيح قد فات جامعيه الأولين ؛ أو بعمل المخرّجات أو المستخرجات ، وقد فعل ذلك كلُّ محدّث كبير فى القرن الرابع[٤] .

184

---

(١) طبقات السبكى ج ٣ س ٦٦ — ٦٧ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ١ س ٢٤٧ ، وتسمى عند ابن بشكوال (ج ١ س ١٣٣) كريمة المرزوية .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ٢ س ٤٠٨ ، وقد كتب تلاميذ مسلم خاصة كتبا فى الصحيح منهم أبو حامد (المتوفى عام ٣٢٥هـ) وأبو سعيد (المتوفى عام ٣٥٣هـ) — طبقات السبكى ج ٢ س ٩٧ وما بعدها .

(٤) Goldziher, Muh. Studien, II, 257, 273 ، وقد ذكر النووى فى شرحه على مسلم (ج ١ س ١٧) تلاميذ الدارقطنى .

وكذلك ظهرت فى القرن الرابع كتبٌ جديدة تعالج تصحيفات الحديث ، ومنها كتب للخطيب وللدارقطنى[١] . وقد اعتنى نُقّاد الحديث منذ أول الأمر بمعرفة رجال الحديث وضبط أسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات أو ضعفاء ، ثم نظروا فى الأساس الذى ينبنى عليه هـذا الحكم أعنى الصفات التى يجب توفرها فى المحدِّث الثقة ، وهو ما يعرف بالجرح والتعديل . ويقال إن أول من ألف فى هذا الباب يحيى بن كتان المتوفى عام ١٩٨ هـ — ٩١٤ م[٢] . وبعد أن اشتغل العلماء بتأليف كتب الحديث الكبرى المعتمد عليها بدأوا فى الفحص عن الرجال المذكورين فيها وألفوا الكتب فى رواة الصحيحين وهكذا . وقد أدّت بهم حاجتهم إلى السند المتصل[٣] أن يتجاوزوا البحث فى حياة الرواة والحكم عليهم إلى عمل تاريخ كامل لهم ، وهكذا وُجدت « تواريخ » القرن الثالث الهجرى مثل تاريخ البخارى المتوفى عام ٢٥٦ هـ — ٨٧٠ م ، ومثل الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ — ٨٤٥ م التى روعى فى تأليفها الزمان والمكان ، وكذلك تواريخ المدن ، وهى المؤلفات التى ظهرت فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، وتمثّل كمالُها فى تاريخ نيسابور الذى ألفه النيسابورى المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م والذى يرى السبكى أنه يشتمل على تراجم أوفى وأكمل من تراجم الخطيب البغدادى[٤] ، وفى تاريخ أصفهان لأبى نعيم المتوفى عام ٤٣٠هـ — ١٠٣٨م ، وفى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م . ويدلنا على مقدار الدقة التى أظهرها العلماء فى طريقة النقد ما ذكر عن الخطيب من أنه ألف

185

(١) ترجمة مارسيه للتقريب للنووى ، انظر Marçais, JA, 1901, 18, S. 115 f. ، Goldziher, Muh. Studien, II 241.

(٢) ترجمة مارسية للنووى JA 1900, 16, 321 .

(٣) ويقال إن الشافعى (المتوفى عام ٢٠٤هـ) أول من أثار هذه المسألة (انظر ماذكره مارسيه فى المصدر المتقدم حكاية عن ابن عبد البرّ المتوفى عام ٤٦٣هـ) .

(٤) طبقات السبكى ج ١ ص ١٧٣ .

كتاباً فى «رواية الآباء عن الأبناء» وآخر فى « رواية الصحابة عن التابعين »[١] .
وكانت هذه المعارف المتعلقة برجال الحديث تنال أعظم التقدير فى ذلك الوقت ، ويُحكى عن القاضى أبى حامد أحمد بن بشر المروزى المتوفى عام ٣٦٢هـ — ٩٧٢م ، والمشهور بأنه أستاذ أبى حيان التوحيدى الكاتب الكبير أنه كان بحراً يتدفق حفظاً للسِيَر وقياما بالأخبار ، « وكان يزعم أن السِيَر بحر الفتيا وخزانة القضاء ، وعلى قدر اطلاع الفقيه عليها يكون استنباطه »[٢] .

وأكبر ما كان يثير إعجاب الناس فى الخطيب البغدادى دقتهُ وقدرتهُ على نقد الوثائق المكتوبة وإثبات تزويرها اعتماداً على معرفته بتواريخ حياة الرجال الذين يُذكرون فيها[٣] . وفى القرن الرابع الهجرى ألف الكرابيسى المتوفى عام ٣٧٨هـ—٩٨٨م كتاباً فى أسماء الرواة وألقابهم ؛ وقد اعتبر هذا الكتاب أحسن الكتب قديمها وحديثها[٤] . على أن الدراسات التاريخية لم تكن محمودة عند العلماء ؛ ويحكى عن ابن إسحاق المتوفى عام ١٥١ هـ — ٧٧٦ م أنه سأل أحد التلاميذ الذين يدرسون التاريخ مستهزئاً به : من الذى كان يحمل لواء الجالوت[٥] ، أما الآن فيحكى لنا أبو القاسم الزنجى عن المحدثين الذين سمع منهم فى أول القرن الرابع الهجرى قصصاً تاريخية محضة مثل أخبار المبيِّضة ، ومقتل حجر بن عدى زعيم الشيعة ، وكتاب صفّين ، وكتاب الجمل ونحوها[٦] . ولكن الاتجاه تغير فيما بعد حتى نجد النووى يعيب ابن عبد البرّ المتوفى عام ٤٦٣ هـ —

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٨ .
(٢) السبكى ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣ .
(٣) الإرشاد ج ١ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .
(٤) مارسيه فى ترجمته للتقريب للنووى : Marcais, JA, 1901, 18, S. 133 .
(٥) Goldziher, Muh. Studien II, 207 .
(٦) كتاب الوزراء ص ٢٠٢ .

١٠٧١ م بأنه أفسد كتابه بما ضمنه من أخبار المؤرخين[١]. وكذلك وُضعت الأصول التي يبنى عليها نقد الحديث وتكامل بناؤها في القرن الرابع، وأُخذت مصطلحاتها من هذا العصر أيضاً. وقد رتب ابن أبي حاتم المتوفى عام ٣٢٧ هـ — ٩٣٩ م ألفاظ الجرح والتعديل مراتب فأعلاها: ثقة أو متقن أو ثبت أو حجة أو عدل أو حافظ أو ضابط، والثانية صدوق أو محله الصدق أو لا بأس به[٢]، ويقال إن الخطابي المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م هو أول من عيّن أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهى الصحيح والحسن والضعيف؛ ثم حدد الدارقطني المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م معنى التعليق، وجاء الحاكم المتوفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٥ م فجعل أصول الحديث علماً مستقلا ووضع هيكله الذى بقى فى جملته إلى أيامنا، بحيث إن القرون التالية لم تضف فى هذا الباب لما تمّ فى القرن الرابع الهجرى إلا أشياء ثانوية؛ بل إن تقسيم الرواة إلى أنواع صارت هى الطريقة المستعملة منذ عصر الحاكم[٣]، ويرجع إلى الخطيب ما جرى عليه كتّاب الحديث من وضع نقطة فى وسط الدائرة التى تكتب فى نهاية الحديث بعد التصحيح بالمقارنة والمقابلة[٤].

أما الدور الثانى فى الناحية العلمية الدينية فقد قام به مقرئو القرآن. ونجد أن المقدسى مثلا لا يغفل فى كلامه عن البلاد التى وصفها عن ذكر أصحاب القراءات فيها، وإن كان قد أبان عن عدم محبته للمقرئين بأن وصفهم بأنهم لا ينفكون من الطمع وسوء السمعة[٥]. وقد وضع ابن مجاهد حوالى عام ٣٠٠ هـ

(١) التقريب للنووى JA., 1901, 18, S., 123
(٢) نفس المصدر JA, 1901, 17, S. 146، وانظر Goldziher. Muh. Studien, II, S. 142.
(٣) التقريب JA, 1900, 16, S. 330 ff.، وكذلك فعل ابن حبان المتوفى عام ٣٥٤ هـ، انظر نفس المصدر ص ٤٨٧ هامش رقم ١.
(٤) التقريب للنووى فى JA, 1901, 17, S. 528
(٥) المقدسى ص ٤١.

—٩١٢م أصول هذه الناحية[١]. وقد قامت حوالى هذا الوقت خلافات شديدة حول قراءة القرآن ، وتدخلت الحكومة ، فاضطهدت بعض أصحاب القراءات ؛ فمثلا ضرب الوزيرُ أبو على بن مقلة ابنَ شنبوذ المتوفى عام ٣٢٨ هـ — ٩٣٩ م بالسوط واضطره أن يتبرأ من قراءات قرأ بها ، وأخذ خطه بالتوبة عنها فكتب : « يقول محمد بن أحمد بن أيوب : قد كنت أقرأ حروفا تخالف مصحف عثمان المجمع عليه ، والذى اتفق أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على قراءته ، ثم بان لى أن ذلك خطأ ، وأنا منه تائب ، وعنه مقلع وإلى الله جل اسمه منه برىء ؛ إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذى لا يجوزَ خلافه ولا يُقرأ غيره »[٢]. ولكن ابن شنبوذ خلف تلاميذ منهم محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الفرج الشنبوذى المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م[٣]. على أن قراءات ابن شنبوذ وغيره التى انتهت إلينا لا خطر فيها مطلقاً[٤]. ولكن كانت مسألة القراءات مسألة خطيرة ؛ لأن الاعتقاد بأن القرآن كلام الله من شأنه أن يحتم هذا . وفى سنة ٣٥٤هـ — ٩٦٥م توفى أبو بكر العطار المقرى وكان قد قرأ بحروف تخالف الإجماع ، واستخرج لها وجوهاً من اللغة ذكرها فى كتابه الاحتجاج للقراء ؛ وقراءاته تقوم على تصحيف الكلمات واستخراج وجوه بعيدة لها ، وزعم العطار أن كل ما صح فى العربية من كلمات توافق خط المصحف فقراءتها جائزة ؛

---

(١) توفى ابن مجاهد سنة ٣٢٤ هـ — ٩٤٥ م ، وكان وافر اللحية عظيم الهامة ، وكان يدعو الله فى دبر كل صلاة أن يجعله ممن يقرأ فى قبره ، وقد رآه بعض الناس فى المنام يقرأ (المنتظم لابن الجوزى ص ٥٦ ا) .

(٢) الأوراق للصولى ص ٨٢ ، والفهرست لابن النديم ص ٣١ — ٣٢ ، والإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٣٠٠ وما يليها Nöldeke, Gesch. d. Korans, S. 274

(٣) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٣٧ من طبعة Meursinge ، ومسكويه ج ٥ ص ٤٤٧ والمنتظم ص ٥٤ ا .

(٤) ولكنها تحرّف القرآن عن معانيه الظاهرة المعقولة . (المترجم)

وشاعت عنه هـذه القراءات الغريبة ، فأنكرها أهل العلم ووصل الأمر إلى السلطان ، فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء فأذعن بالتوبة وكُتب محضر بتوبته ، وأثبت جماعة من الحاضرين خطوطهم فى المحضر بالشهادة ، وقيل إنه لم ينزع عن تلك الحروف ، وكان يقرأ بها إلى حين وفاته ، واستغوى بعض أصاغر المسلمين من أهل الغفلة والغباوة [١] . وفى سنة ٣٩٨ هـ — ١٠٠٨ م أظهر بعض الشيعة مصحفا ذكروا أنه مصحف ابن مسعود ، وكان مخالفا للمصاحف ، فأشار الفقهاء والقضاة بإحراقه ، وأُحرق بمحضرهم ، ثم ورد إلى الخليفـة كتاب بأن رجلا من أهل جسر النهروان حضر المشهد ليلة النصف من شعبان ، ودعا على من أحرق المصحف وسبّه فقُتل [٢] . وكما أن المذاهب الفقهية الأربعة حلت محل غيرها ، فـكذلك حلت الحروف السبعة الشرعية المتفق عليها محـل القراءات الشاذة فى القرن الرابع الهجرى [٣] ؛ وفى هذا القرن أيضا ظهرت كتب فيما سمى بالقراءات الثمان [٤] .

على أن جواز تفسير القرآن لم يكن أمراً مسلما به فى القرن الرابع بل كان موضع نظر ، فيحكى لنا الطبرى أن الشعبى مرّ على السُدّى ، وهو يفسر القرآن فقال : « لأن يُضرب على استك بالطبل خير لك من مجلسك هذا [٥] » .

---

(١) المنتظم س ١٩٨ ا ، والإرشاد ج ٦ ص ٤٩٩ .

(٢) المنتظم س ١٥٢ ب ، وطبقات السبكى ج ٣ ص ٢٦ .

(٣) Nöldeke, Gesch. d. Korans, S. 275 ، والفهرست لابن النديم ص ٣١ وما بعدها ؛ وبستان العارفين للسمرقندى ص ٧٣ .

(٤) Nöldeke, Gesch. d. Korans, S. 299. ، وقد كتب أبو غانم المصرى المتوفى عام ٣٣٣ هـ فى الاختلاف بين القراءات السبع ، وكذلك ألف مصرى آخر ، وهو فارس ابن أحمد الحمصى المتوفى عام ٤٠١ هـ كتاب المنشأ فى القراءات الثمان . انظر حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٤ .

(٥) تفسير الطبرى ج ١ ص ٣٠ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

ويخبرنا السمرقندى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه رأى فى يد رجل مصحفاً وقد كتب عنـد كل آية تفسيرها ، فدعى بمقراض فقرضه[١] . ونقل السيوطى عن الأصمعى مثلا أنه كان شديد التألّه ، فكان لا يفسر شيئاً من القرآن ولا شيئاً من اللغة له نظير واشتقاق فى القرآن ، وكذلك الحديث تحرّجاً[٢] . على أن الطبرى قد ذكر أمثلة تدل على أن الصحابة وخصوصاً ابن عباس كانوا يفسرون القرآن تفسيراً محموداً[٣] . ولـكن نقده[٤] يدل على أن الفريق الذى كان يحجم عن تفسير القرآن كان قوياً جداً . وقد روى عن النبى عليه السلام حديث من شأنه أن يوفق بين الفريقين ، وهو قوله « من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ، فكل تفسير يجب أن يستند إلى أثر وارد عن النبى ولا يجوز أن يُعتمد فيه على الرأى ، ولا يكون القول بالرأى إلا فى التفسير اللغوى للألفاظ[٥] على أننـا نجد فى تفسير الطبرى نفسه دليلا على أن المفسّر يستطيع رغم هذه القيود أن يقول فى تفسيره بحذق ومهارة أشياء كثيرة ينبغى ألا تقال فى التفسير[٦] . هذا مع العلم بأن العلماء يقولون عن تفسير الطبرى إنه لم يؤلَّف مثله لأن صاحبه جمع فيه بين الرواية والدراية ولم يشاركه فى ذلك أحد لا قبـله ولا بعده[٧] .

على أن السمرقندى مع حريتـه الـكبيرة فى الرأى ، ومع كونه حنفياً قد

---

(١) بستان العارفين ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢) المزهر للسيوطى ج ٢ ص ٢٠٤ (انظر أيضاً : Goldziher, SWA, Bd. 72, 630.)

(٣) التفسير للطبرى ج ١ ص ٢٦ .

(٤) ص ٢٦ — ٣٠ .

(٥) تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٧ .

(٦) مثلا ج ١ ص ٥٨ عند الكلام عن القدر .

(٧) طبقات المفسرين للسيوطى طبعة Meursinge ص ٣٠ .

تكلم بلا لبس فى هذه المسألة ، ومنع كل تفسير بالرأى ، وكلُّ ما أجاز هو أن يحكى المفسر ما سمعه من بعض الأئمة على سبيل الحكاية ؛ وإذا أراد أن يستخرج حكما من الآية فلا بأس أن يقول المراد من الآية كذا وكذا ؛ أعنى أن التفسير عند السمرقندى يكون على صورة الفصول المتعلقة بتفسير القرآن عند البخارى ومسلم ، وهو ما يفعله الفريق الثانى من المفسرين عند السيوطى . وهم المفسرون المحدثون الذين صنفوا التفاسير مسندة مورداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد[١] . ثم إن السمرقندى يسمح بأن تستنبط التفاسير الفلسفية والآراء الفقهية فى الأحكام والأوامر من ذلك[٢] .

والجديد الذى نلاحظه فى تفسير القرآن فى هذا القرن وفى القرن الذى تقدمه هو تعاون المعتزلة واجتهادهم فى تفسير القرآن . وممن ألف فى التفسير منهم أبو على الجبائى ؛ ويقول الأشعرى تلميذه وخصمه وابن زوجته إنه فى هذا التفسير ما روى حرفاً واحداً عن المفسرين ، وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه[٣] . على أن أهل المغرب السنّيين تردّدوا فى اتباع الأشعرى فى تفسيره للقرآن ؛ وكانوا يتركون التأويل ويُمرون المتشابهات كما جاءت اقتداء بالسلف ، حتى جاء ابن تومرت وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذهب الأشعرية[٤] .

189

وقد ألف أبو الحسن على بن عيسى الرمّانى المتوفى عام ٣٨٥ هـ — ٩٩٥م ، وهو عالم بالكلام والفقه والنحو واللغة ، تفسيراً للقرآن ؛ وقد بلغ من قيمة هذا

(١) نفس المصدر ص ٢ .

(٢) بستان العارفين ص ٧٥ وما بعدها ، ولم أستطع أن أحقق إلى أى حد عمل السمرقندى بهذه الأحكام فى تفسيره الذى لا يزال مخطوطاً .

(٣) W. Spitta, Zur Gesch. Abu'l Hasan al Asch'ari's, Leipzig, 1876, S. 127. 128.

(٤) Goldziher, ZDMG, 41, S. 59 نقلا عن تاريخ البربر لابن خلدون ج ١ ص ٢٩٩ .

التفسير أنه قيل للصاحب ابن عباد : هلا صنّفت تفسيراً ! فقال : وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً [١] ؟ وكذلك ألف أبو بكر النقاش المعتزلي المتوفى ببغداد عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م ، تفسيراً كبيراً يقع في اثني عشر ألف ورقة [٢] . و« كان يكذب في الحديث » [٣] وكذلك صنف أبو بكر الإدفوي المصري المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م تفسيراً يقع في مائة وعشرين مجلدا [٤] . ولم يزد عليه في عظم التأليف إلا عبد السلام القزويني شيخ المعتزلة ببغداد المتوفى عام ٤٨٣ هـ — ١٠٩٠ م فإنه ألف تفسيراً في ثلثمائة مجلد منها سبعة مجلدات في الفاتحة [٥] . ونستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة عن طريقة هؤلاء المفسرين إذا عرفنا أن عبيد الله الأسدي المعتزلي المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م صنف تفسيراً للقرآن ذكر فيه في بسم الله الرحمن الرحيم مائة وعشرين وجها [٦] . ولما كانت كل فرقة من الفرق في هذا العصر تعتدّ بالقرآن وترجع إليه بحيث كان مصدرها الأكبر للاستشهاد ومستودعها الذي تتسلح به في أدلتها فقد كان لا بد للقرآن ، ككل كتاب مقدس ، أن يتعرض لكثير من التكلّف في التفسير . وقد اشتهر الصوفية والشيعة بأنهم أصحاب تأويلات ؛ وقد جروا على عادة مألوفة من قبل وهي الخروج عن ظاهر القرآن بالتأويل البعيد لإثبات دعاويهم [٧] . وحاول بعض الشيعة أن

---

(١) المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣ ، والمفسرين للسيوطي ص ٢٤ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٣٣ ، والإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٩٧ .

(٣) السيوطي ص ٣٠ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٣٣ .

(٥) السيوطي ص ١٩ ، ويقول السبكي (الطبقات ج ٣ ص ٢٣٠) إن هذا التفسير سبعمائة مجلد .

(٦) السيوطي ص ٢٢ ، ويرى ابن قتيبة خصم المعتزلة أنهم في تفسيرهم للقرآن ردوه إلى مذاهبهم وحملوه على نحلهم وجاءوا في إثبات صحة تأويلهم بشواهد لا تعرف (تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ وما بعدها) .

(٧) Goldziher, Zahiriten, S. 132 نقلا عن ابن حزم ج ٢ ص ١٤٠ .

يؤولوا كثيراً من الأسماء الواردة فى القرآن بأنها أسماء أشخاص ؛ فقالوا إن البقرة التى أمر قومُ موسى بذبحها[١] هى عائشة ، و إن الجبت والطاغوت[٢] هما معاوية وعمرو بن العاص[٣] . أما المفسرون العلماء فكانوا على خلاف ذلك ومنهم أبو زيد البلخى (المتوفى عام ٣٢٢ ﻫ — ٩٣٤ م) الذى تتلمذ للكندى ببغداد ، وأخذ عنه الفلسفة والتنجيم والطب وعلوم الطبيعة . كان البلخى يتنزّه عما يُقال فى القرآن من تأويل بعيد ولا يقول إلا بالظاهر المستفيض من التفسير والتأويل ، وقد بيّن ذلك فى كتابه المسمى نظم القرآن[٤] . ثم صنف كتابا فى البحث عن التأويلات أغضب فيه رجلا قرمطياً ، فقطع هذا القرمطى عن البلخى صلاتٍ كان يُجريها عليه[٥] . وكذلك كان لا بد للّغويين من التدقيق فى الألفاظ حتى أمكن وضع مصطلحات دينية خاصة تتميز عن اللغة المألوفة[٦] . على أنه و إن كان أصحاب المذهب الظاهرى بأجمعهم قد جعلوا أساس مذهبهم الأخذ بالظاهر فى تفسير كتب الشريعة وأولها القرآن ، فإن أحدا منهم لم يصنف تفسيراً للقرآن ، وذلك لأسباب بيّنة وهى أن التفسير الحرفى للقرآن لم يكن يروق المسلمين فى ذلك العهد كما أنه لا يروقنا اليوم .

190

وقد كانت القصص القديمة العربية واليهودية والمسيحية المذكورة فى القرآن ميدانا خاصاً لاختلاف ونزاع شديد ، وكانت هى النقطة التى يواجه العلم فيها مشكلة الخوارق ، لأن هذه القصص لا تعرف من تقدّم محمداً عليه السلام من الأنبياء

---

(١) سورة البقرة آية ٦٧ .

(٢) سورة النساء س ٦٠ .

(٣) وهذا هو تفسير الروافض للقرآن عند ابن قتيبة فى مختلف الحديث ، ص ٨٤ وما بعدها .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤٨ ، ولم يذكر صاحب الفهرست هذا الكتاب .

(٥) الفهرست ص ١٣٨ والإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٦) Goldziher, Zahiriten, S. 134

عليهم السلام إلا بأنهم أصحاب معجزات ، ولذلك نجد أن أشهر الكتب التى ألفها أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى النيسابورى المتوفى عام ٤٢٧ هـ — ١٠٣٦ م ، وكان أوحد زمانه فى علم القرآن ، بعد تفسيره المشهور للقرآن كتابه المسمى العرائس فى قصص الأنبياء[١] .

وقد أولع البعض بالغرائب ليقصّوها على الناس ؛ وتكلم المطهّر المقدسى عن هذا الفريق فوصفهم بأن « الحديث لهم عن جمل طار أشهى إليهم من الحديث عن جمل سار ، ورؤيا مُزَيّنة آثر عندهم من رواية مروية[٢] » . وأنكر قوم العجائب رأسا ، وصرفها آخرون إلى تأويل منحول[٣] . وقد ألف الرازى الطبيب المشهور حوالى عام ٣٠٠ هـ كتابا سماه مخاريق الأنبياء لم يستجز المطهّر ذكرَ ما فيه « فإنه المفسد للقلب ، المُذهب للدين ، الهادم للمروءة ، المورث البغض للأنبياء صلوات الله عليهم[٤] » . وحاول البعض أن يوفقوا بين ما فى القرآن و بين العقل فكان ماوصلوا إليه مضحكا كالذى تأدى إليه البروتستانتيون الذين فسروا الإنجيل تفسيراً عقليا . فمثلا تألم بعض العقليين من أن يكون الأطفال قد غرقوا مع أبائهم فى الطوفان بغير ذنب ، فقالوا إن الله أعقم أرحام النساء قبل الطوفان فلم تحمل منهن واحدةٌ خمس عشرة سنة حتى لم يأت الغرق إلا على مستحق العذاب[٥] ؛ وذهب آخرون إلى أن سفينة نوح إنما هى مثل

(١) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٥ ، وقد ألف أبو رجاء الأسوانى من قبل (توفى فى سنة ٣٣٥ هـ — ٩٤٦ م) قصيدة ذكر فيها أخبار العالم وقصص الأنبياء بلغت مائة ألف وثلاثين ألف بيت (طبقات السبكى ج ٢ ص ١٠٨ وأبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٣١٩) .

(٢) كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسى طبعة هوار ج ١ ص ٤ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٠ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧ .

لدينه ؛ فأما لبثه فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فهو مثل لبقاء شريعته[١] .

101

وزعم قوم أنه يجوز أن يكون خروج الناقة المنسوبة لصالح عليه السلام من الصخرة معناه حجة دامغة وسلطان قاهر أذعن له القوم ، وأن يكون شربها ماء العين إبطالَ تلك الحجة جميعَ ما خالفها . وقال البعض يشبه أن يكون خبأها تحت الصخرة ثم أخرجها . وزعم آخرون أن اسم الناقة كناية عن رجل وامرأة[٢] . وزعم غير هؤلاء أن إبراهيم عليه السلام سحر القوم الذين أوقدوا له النار وطرحوه فيها ، وأطلى ببعض الأدوية التى يبطل معها عمل النار ؛ وساق هؤلاء قصة لبعض الهند وشبهوا إبراهيم بها[٣] . أما أصحاب الفيل الذين أهلكهم الله بحجارة ألقاها عليهم طير أبابيل ، فقد أوّل البعض هذا بأن القوم أحرقتهم ثمار اليمن ، وأوبأهم ماؤها وهواؤها ، فحصبوا وجدروا فهلكوا[٤] .

أما عين القطر التى وردت فى قوله تعالى : وأسلنا له عين القطر[٥] ، فهى إشارة إلى ما اهتدى سليمان إلى استخراجه من معدنه كسائر الجواهر . والهدهد الذى لم يَرَهَ حين تفقّد الطير[٦] كناية عن رجل ، وكذلك أُوِّل النمل فى قوله تعالى : حتى إذا أتوا على وادى النمل ... الآية[٧] ، بأنهم قوم ضعاف خافوا خبط عسكر سليمان . والجن والشياطين الذين سُخِّروا لسليمان هم عتاة الناس وأشدّاؤهم وحذّاقهم وعرفاؤهم بالأمور الغامضة[٨] . أما المعجزات الوحيدة التى وجّه العلماء إليها

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢ ، وانظر أيضاً التفصيل فى مقالة لهوار فى مجلة RHR. Bd 50, 1904 فى مقالة عنوانها Le Rationalisme Musulmane au IV siècle

(٢) البدء والتاريخ للمطهر المقدسى ج ٣ ص ٤٢ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٥ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٨٧ .

(٥) سورة سبأ آية ١٢ .

(٦) سورة النمل آية ٢٠ .

(٧) سورة النمل آية ١٨ .

(٨) البدء والتاريخ ج ٣ ص ١٠٩ .

اهتمامهم ، فيما عدا القرآن ، فهى معجزات محمد عليه السلام ؛ وهى وإن لم ترد فى القرآن ، فقد ذُكر فى الأحاديث التى جُمعت فى القرن الثالث الهجرى نحوُ المائتين منها .

وقد حاول بعض العقليين أن يؤوّلوا هذه المعجزات ؛ فمثلا قالوا إن أبصار من اجتمع من قريش ليلة الدار للفتك بالنبى لم تعمَ حقيقة ؛ بل أعماهم الحقد والغيظ والغضب . ولم يكن إبليس هو الذى كلّم المتآمرين ليعينهم بالرأى ، بل هو رجل ممن يعمل بعمل إبليس فسُمى بذلك[1] . على أنه كان بين المسلمين المثقفين طائفة ممن حسن إسلامهم قالوا بهذه المعجزات من غير أن يطمئن قلوبهم لذلك . وقد ألّف المطهّر بن طاهر المقدسى حوالى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م كتابه المسمى البدء والتاريخ ليحمى الإسلام ممن يشحنون صدور العامة بترّهات الأباطيل ، ويقصون عليهم غرائب العجائب ، معتقدين كل غريب وحاكين كل أسطورة ؛ وليحميه أيضاً من الشكاك الذين لا يؤمنون بشىء . وهو لا يمل من الإعراب عن رأيه بالتصديق بما نزل به الوحى وبما جاءت به السنة الصحيحة ، وهو كذلك لا يستطيع إخفاء سروره حينما يوفّق إلى تأييد إحدى المعجزات بأدلة العقل الذى يعتبره « أمّ العلوم كلها » . وهو يجيب على من ينكر ما ورد فى الحديث من رفع إدريس إلى السماء بأن « أعظم منه هذا الغيم الراكد فى الجو ، وهذه الأرض فى ثقلها واقفة فى السماء كما ترى »[2] . وأما من أنكر قصة يونس وأحال إمكان بقاء روح حى فى بطن حيوان ، فإن المطهر يردّ عليهم بقوله : « أوليس الجنين فى بطن أمه متنفس حى ؟ فهل يعجز من أبقى الأجنّة فى ظلَم الأرحام أن يبقى الأرواح فى أجسام المحبوسين حتى لا يصل إليهم الهواء ؟ »[3] .

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ١٧٣ والصفحات التالية .
(٢) البدء والتاريخ ج ٣ ص ١٣ .
(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٢ — ١١٣ .

وهذا نوع من الدفاع عن الدين قد ألفناه نحن من قبل ؛ ونستطيع أن نستشف ما تنطوى عليه نفس المطهر من سرور خفى حينما يعالج المعجزات النبوية بطريقة عقلية ، ويبين جريانها على سنن الطبيعة ، وقد تحمس لوضع مبدأ يقوم على أن الشيء قد يكون معجزة فى وقت ، ويكون بعينـه غير معجزة فى وقت آخر ، ويكون معجزة لقوم وغير معجزة لقوم آخرين[(١)] .

ويروى عن النبى عليه السلام أنه وعد أمته بقوله : « يبعث الله على رأس كل مائة سنة رجلا من أهل بيتى يبين لهم أمر دينهم » . وقد أحصى العلماء المتأخرون هؤلاء « المجدِّدين » الذين يموت كل واحد منهم فى أوائل قرنه ؛ وقد اختار العلماء فى حوالى عام ٤٠٠ ﻫ ثلاثة رشحوهم لهذه المهمة ، وكلهم لم يكونوا ذوى شأن عظيم ، وفى حوالى عام ٣٠٠ ﻫ لم يقع اختيارهم إلا على الأشعرى المتوفى عام ٣٢٤ ﻫ — ٩٣٦ م[(٢)] . ويدل هـذا على قلة العلماء بين جمهور أهل السنة ، لأن أعظم مفكرى الإسلام فى ذلك العهد كانوا جميعاً بين صفوف المعتزلة الذين كانت تنبعث من عندهم جميع المسائل التى يعالجها المتكلمون ، ولم يكن المعتزلة من حيث هم فرقة لها مذهبها الخاص أشد مخالفة لأهل السنة من الشيعة فى ذلك العهد ، ذلك أن من الفريقين كما قال ابن حزم من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد ، ومنهم من يخالفهم الخلاف القريب[(٣)] . وفى القرن الرابع الهجرى كانت مخالفة المعتزلة لجمهور المسلمين مخالفة كلامية محضة لا تخرج عن

---

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٢) Goldziher, Zur Charakteristik es—Suyûtis SWA, Bd. 69, S. 8 ff.
وقد اختلف العلماء هل لكل قرن مجدد واحد أم له مجدد فى علم من علوم الدين ؟ كان الذهبى يذهب إلى هذا الرأى الأخير ، ويقول كان على رأس المائة الثالثة ابن سريج فى الفقه والأشعرى فى أصول الدين والنسائى فى الحديث . (انظر طبقات السبكى ج ٢ ص ٨٩) .

(٣) الفصل لابن حزم ج ٢ ص ١١١ .

حدود مسائل علم الكلام ، وهى شبيهة بخلاف الصوفيـة ؛ لأن هؤلاء اعتبروا فرقة إلى جانب الفرق الأخرى الـكبيرة[١] . أما فى العبادات فقد كان المعتزلة فى الغالب متفقين مع أهل السنة ؛ هذا إلى أنه كان بين المعتزلة شيعة كالزيدية وكان من هؤلاء بعض أهل البيت مثل أبى عبد الله الداعى وهو أحد تلاميـذ أبى عبد الله البصرى[٢] . وكان من الشيعة المعتزلة المشهورين إلى جانب من تقدم أبو الحسين الراوندى والرمّانى اللغوى[٣] المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م ، وكان أساتذتهم كلهم تقريباً فُرْساً هاجروا إلى العراق أو استوطنوا أصفهان ؛ بل يقال إن الجبائى المتوفى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م ألف تفسيراً للقرآن بالفارسية[٤] .

وكان موضوع بحث المعتزلة علم العقائد بمعناه المحدود ، وأول ما عالجوا من ذلك مسألة القدر وما يتصل بهـا من وصف أفعال الله بالخير والشر . وكانت هذه المسألة أكبر ما أثار اهتمام أدمغتهم التى تأثرت بمذهب زرادشت . وكان إمام المعتزلة فى عصر المأمون أبو الهذيل العلاف وأكبر ما ظهرت فيه قدرته وانتصاراته ردوده على الثنوية[٥] . وفى أواخر القرن الثالث الهجرى أخرج المعتزلة أكبر مدافع عن مذاهب الثنوية وهو ابن الراوندى الذى كان من المعتزلة ، ثم انسلخ عنهم ، وشنّع عليهم حتى استعانوا بالسلطان على قتله[٦] . وفى القرن الرابع الهجرى كان نصيب المعتزلة فى أصفهان على الأقل[٧] نصيب الصوفية من أنهم

---

(١) البدء والتاريخ لمطهر المقدسى ج ١ ص ١٦ .
(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣ .
(٣) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٤ .
(٤) Spitta, el—aschari, 87.
(٥) المعتزلة لابن المرتضى ص ٢٥ — ٢٧ .
(٦) نفس المصدر ص ٥٣ — ٥٤ .
(٧) نفس المصدر ص ٦١ — ٦٢ .

دخل فيهم بعض الشيعة فانتسبوا بسبب ذلك لعلى وردّوا سند مذهبهم إليه[١]. ويذكر الخوارزمى أن المعتزلة يعتدّون بالحسن البصرى — الذى يعتد الصوفية به ويدّعونه لأنفسهم — اعتداد الشيعى بالوصىّ ، واعتداد الزيدية بزيد بن على والإمامية بالمهدى[٢] . ونجد آثاراً متفرقة تدل على أثر مذاهب الغنوسطيين فى المعتزلة مثل ما يحكى عن أحمد بن حائط من قوله إن للعالم خالقين : أحدهما قديم وهو الله تعالى ؛ والآخر حادث وهو كلمة الله عز وجل عيسى بن مريم التى بها خلق العالم[٣] . وكان بعض المعتزلة فى القرن الرابع يتكلمون فى القدر وفى تحديد معنى الفسق والإيمان . ولكن كانت عمدتهم التى يتمسكون بها هى الكلام فى التوحيد ومايوصف به الله تعالى ؛ ثم يزيد بعضهم غيرذلك[٤] . ولايخلو ذلك من

(١) نفس المصدر س ٥ — ٦ .

(٢) اليتيمة للثعالبي ج ٤ ص ١٢٠ .

(٣) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ١٩٧ .

(٤) كان هؤلاء القليلون الذين لم يزالوا يعالجون البحث فى مسألة الاختيار والقدرة الإنسانية يسمون « القدرية » وليس من السهل بيان معنى هذه الكلمة ؛ فالقدرية عن ابن قتيبة هم الذين أضافوا القدر إلى أنفسهم (تأويل مختلف الحديث ص٩٨) ، يعنى أنهم أصحاب الاختيار ، وهم الذين يخالفون الجبرية ؛ ولكن هذا التفسير متناقض ؛ لأن لفظ القدرية كان يطلق قديماً على القائلين بالقدر من الله خيره وشره . ويحكى عن زيد بن على أنه قال : « أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ، ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله » (كتاب المعتزلة لابن المرتضى ص١٢) . أما فى القرن الثالث فكانوا يقولون على وجه التدقيق إن الله تعالى يخلق الخير وإن الشيطان يخلق الشر (ابن قتيبة مختلف الحديث طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ ص٥ ، والأشعرى فى الإبانة كما ذكر ذلك Spitta S. 131) . وبسبب هذه الاثنينية سمى المعتزلة « مجوس الأمة الاسلامية » (ابن قتيبة ص ٩٦) ويحكى عن أحدهم أنه قال لرجل من أهل الذمة : ألا تسلم يافلان ؟ فقال : حتى يريد الله ؛ فقال له : قد أراد الله ولكن إبليس لايدعك ؛ فقال له الذمى : فأنا مع أقواهما (ابن قتيبة ص ٩٨ — ٩٩) وبسبب هذه الاثنينية أيضاً سمى القائلون بالاختيار قدرية فى حين أن أصحاب الاختيار يقولون إن إطلاق اسم القدرية على من يقول بالقدر خيره وشره من الله أولى (الشهرستانى على هامش ابن حزم ج ١ ص ٥٤ ، وابن قتيبة ص٩٧) . وفى القرن الرابع يقول المقدسى إن المعتزلة غلبوا على القدرية (ص٣٧) ويقول الأشعرى Spitta, 131 ما يدل على أن القدرية هم المعتزلة =

١٩٤ تأثير الفلسفة اليونانية التى كان لها أثر فعال فى تحريك الخواطر فى أثناء القرن الثالث . ولـكن تأثيرها الظاهر كان مقصوراً على الطبقة العليا من المتكلمين كالنظّام والجاحظ[١] ، كما أن الفلسفة أثرت فى علم العقائد المسيحى الذى كان رجاله طوال تلك المدة يعالجون مسألة الصفات الإلهية بقصد بيان وحدة الذات وتنزُّهها عن الـكثرة[٢] . ولما كان المعتزلة قد جعلوا عمدة بحثهم الكلام فى ذات الله وصفاته ، فلم يقتصر الأمر على أن صارت هـذه المسألة أهم مسائل العقائد الإسلامية حتى اليوم ، بل أدى كلامهم فى هذه المسألة إلى طبع الفلسفة العربية بطابع خاص . كما أن مباحثهم فى هذا الموضوع كان لها أثر فى مذهب سبينوزا ، ونفذ التأثير من مذهب سبينوزا إلى الفكر الأوروبى . يقول ابن حزم إن المعتزلة هم الذين اخترعوا لفظ الصفات ، وكان الذى يستعمل قبل ذلك هو كلمة « النعوت » أو « الأسامى »[٣] . أما ما يمتاز به المعتزلة من الخصال فيقول المقدسى[٤] . إنهم لا ينفكون من أربع خصال : اللطافة والدراية والفسق والسخرية . ومما يدل على أن المعتزلة كانوا مولعين بالمناظرة والجدل[٥] ،

= ويقول المقدسى — إلى جانب ما تقدم من غلبة المعتزلة على القدرية — إنه لا يميز إحداهما من الأخرى إلا كل نحرير (ص ٣٨) . وقد حاول القاضى عبد الجبار بالرىّ حوالى أول القرن الخامس ، وكان القاضى أكبر شيوخ المعتزلة فى عصره ، أن يثبت من الأحاديث أن اسم القدرية لا ينبغى أن يطلق على المعتزلة ، بل على القائلين بالقدر خيره وشره من الله) انظر مقالة الأستاذ شرينر Schreiner. ZDMG. 52. S. 509 f.

(١) انظر : S. Horovitz: über den Einfluss der griechischen philosophie auf die Entwicklung des Kalam, Breslau 1909.

(٢) Becker, ZA, Bd 26, 175 ff.

(٣) البخارى : كتاب التوحيد نقلا عن جولد زيهر Goldziher, Zahiriten, S. 145, Anm. 1

(٤) المقدسى ص ٤١ .

(٥) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠٦ .

195

أن مذهبهم كله يقوم على الجدل[١] ، ولذلك قال المعتزلة إن المختلفين كلاهما على صواب[٢] . ومع ذلك كانوا متكاتفين حتى إن تكاتفهم فى القرن الرابع كان مضرب المثل ، وحتى تمثل الخوارزمى باعتداد المعتزلى بالمعتزلى[٣] . وكان المتكلمون ينظرون فى كل شىء « وأرادوا معرفة كل شىء »[٤] ، وكان من يسمون بالفلاسفة ينظرون إليهم بعين التصغير « كما ينظر الباحث فى علم النفس التجريبى إلى صاحب ما بعد الطبيعة »[٥] . وكان الفلاسفة يرمون المتكلمين بالتعصب واستحسان التقليد واللجاج ، وأنهم « انفتح باب الحيرة عليهم وسُدَّ بابُ اليقين عنهم ، ولهذا قل تألههم وتنزُّههم ، وصاروا يقولون بتكافؤ الأدلة »[٦] . ولما كان المتكلمون ينكرون السحر بجميع صوره والتنجيم ، بل أنكروا كرامات الأولياء[٧] ، فإننا نستطيع أن نعتبرهم من دعاة حرية الفكر والاستنارة ، رغم مذهبهم الكلامى ، وما كان لهم فيـه من تدقيقات . جاء فى كتاب الإرشاد لياقوت : « اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالم ثلاثة : الجاحظ ،

---

(١) وقد كان القفال أبو بكر الشاشى المتوفى عام ٣٣٦ هـ (أو ٣٣٥) أحد أئمة الشافعية أول من صنف فى الجدل (أبو المحاسن ج٢ ص٣٢١ طبعة ليدن) .

(٢) بستان العارفين للسمرقندى ص ١٥ .

(٣) رسائل الخوارزمى ص ٦٣ (؟) .

(٤) الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٠٩ (؟) .

(٥) كتاب معانى النفس Goldziher, AGGW, N. F., 10, S. 13 ff.

(٦) انظر Goldziher, ZDMG, Bd, 62. S, 2 ff. ، نقلا عن التوحيدى فى المقابسات (طبعة بمباى ص٥٢) على أن المتكلمين من جانبهم يطعنون فى الفلاسفة ، فيحكى أن رجلا سوفسطائياً أنكر الضروريات فى مجلس أبى القاسم البلخى ، وألحقها بالخيالات ، فقام البلخى إلى بغل جاء السوفسطائى راكباً عليه وخبّأه ، ثم قام السوفسطائى من غير أن يقتنع فلم يجد البغل ، ورجع إلى أبى القاسم ، فقال له : لعلك تركته فى غير هذا الموضع ، أو لعلك لم تأت راكباً ، وخيل إليك ذلك تخيلا ، وجاءه بأنواع من هذا الكلام حتى رجع عن مذهبه (المعتزلة لابن المرتضى ص٥١) .

(٧) لم يكن هذا مذهب المتكلمين جميعاً (المترجم)

وعلى بن عبد الله اللطفى ، وأبو زيد البلخى » ، والأول والثالث من هؤلاء الثلاثة — ولا أعرف من أمر الثانى شيئا — رجلان يمثلان الفكر الحر على نحو جدير بالتقدير ، أما الجاحظ « فيزيد لفظه على معناه » ، وأما أبو زيد « فيتوافق لفظه ومعناه »(١) ، والجاحظ يشبه ڤلتير Voltaire أما أبو زيد (وقد توفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣م وقد جاوز الثمانين) فقد كان أثبت وأكثر اتزانا ، وهو يشبه الإسكندر همبولت Alexander Humboldt بين دعاة الفكر الحر فى القرن التاسع عشر . وقد جمع إلى دراسة الفلسفة ؛ دراسة التنجيم والطب والجغرافية وعلوم الطبيعة ، وألف كتابا سماه نظم القرآن ، تكلم فيه بكلام لطيف ، وكان يتنزه عن التأويل البعيد للقرآن . وكان الحسين بن على المروروذى يُجرى عليه صلات دائمة ، فلما أملى كتابه فى البحث عن التأويلات قطعها عنه ، وكان الجيهانى يُجرى عليه صلات أيضاً فلما أملى كتاب القرابين والذبائح حرمه إياها ، وكان الحسين قرمطياً والجيهانى ثنويا . وهاك مثالاً من نظر خصوم الجاحظ إليه فيما كتبه ابن قتيبة : « هو آخر المتكلمين ، والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يَعظُم وتصغير العظيم حتى يصغُر ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشىء ونقيضه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان ، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يُفضِّل عليا رضى الله عنه ومرة يؤخره ، ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتبعه قال الجمّاز ، وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش . ويَجِلُّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن أن يُذكر فى كتاب ذُكرا فيه ، فكيف فى ورقة أو بعد سطر وسطرين ؟ ويعمل كتابا يذكر فيه حجج

(١) الإرشاد ج ١ ص ١٤١ — ١٤٨ .

النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوّز فى الحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضَّعَفَةِ من المسلمين . وتجده يقصد فى كتبه المضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشُرّاب النبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ، ويذكر الصحيفة التى كان فيها المنزل فى الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب فى تنادُم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمّه فى رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، وأشباه هذا . . . . . وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل »[١] . وقد وجهت إلى المعتزلة اتهامات أخرى إذا ذكرت للمسلم الحق ملأت قلبه رُعباً وخوفا ، فيذكر ابن قتيبة أن ثُمامة بن أشرس كان يتنقص الإسلام ويرسل لسانه بما لا يكون من رجل يعرف الله ويؤمن به ، « ومن المحفوظ عنه المشهور أنه رأى قوما يتَعادَوْن يوم الجمعة إلى المسجد لخوفهم فوْتَ الصلاة فقال : انظروا إلى البقر ، انظروا إلى الحمير ، ثم قال لرجل من إخوانه : ما صنع هذا العربى بالناس ! »[٢] .

وفى القرن الثالث الهجرى كان أهل السنة يواجهون المعتزلة بالكراهية والاحتقار . ثم خرج الأشعرى حوالى آخر القرن الثالث على المعتزلة ، بعد أن كان منهم ، وبدأ يحاربهم بسلاحهم ، وعلى هذا نشأ المذهب الكلامى الرسمى القائم على النظر العقلى فى القرن الرابع الهجرى ، وكان مذهب الأشعرى مذهب

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٧١ — ٧٢ طبعة مصر ١٣٢٦ هـ .

(٢) ابن قتيبة ص ٦٠ .

توفيق ، وذلك شأن كل مذهب رسمى ، ولذلك سمى مذهباً أوسط[١] ، وقد حسب الأشعرى أن فى قدرته أن يوفق بين مذهب أهل السنة وبين العقل ، وأعلن فيما كتبه تمسكه بمذهب الحنابلة ، يقول الأشعرى : « قولُنا الذى نقول به ، ودياتنا التى ندين بها ، التمسُّكُ بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل نضَّر الله وجهه ، ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ، ولمن خالف قولُه قولَه مجانِبون ؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحقّ عند ظهور الضلال »[٢] ، ولكن الحنابلة كانوا يخاصمون الأشعرى[٣] ، ويقول ابن الجوزى إن الأشعرى ظل معتزليا دائما[٤] وقد قُدِّر لمذهب الأشعرى ما يقدر عادة لغيره من المذاهب التى توفِّق بين ما اختلف ، وقد انحرف الباقلانى (المتوفى عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م) أكبر تلاميذه عن الجادة وتطرف فأدخل فى علم العقائد مسألة الجزء الذى لايتجزأ ، والخلاء ، وغير ذلك من الأشياء الغريبة عنه[٥] ، وكان القاضى عبد الجبار بالرىّ (توفى سنة ٤١٥ هـ — ١٠٢٤ م) فى ابتداء حاله يذهب فى الأصول مذهب الأشعرية ، ثم انتقل إلى خصومهم — المعتزلة — وإليه انتهت الرياسة فيهم حتى صار شيخهم وعالمهم غير مدافَع[٦] . وكان

---

(١) Spitta, Aschari, 46 ، وكان أسلاف الأشعرية الأقربون بين المتكلمين هم الكلابية الذين اندمجوا فى الأشاعرة فى القرن الرابع ، وكانوا ينكرون الجبر (مقدسى ص ٣٧).

(٢) Spitta, 133 .

(٣) نفس المصدر ص ١١١ .

(٤) المنتظم ص ٧١ ب ، على أن ابن الجوزى إنما قال إن الأشعرى ظل على مذهب المعتزلة زماناً طويلا (أربعين سنة) ثم تركه وأتى بمقالة خبط بها عقائد الناس . (المترجم)

(٥) Schreiner, Or. Kongr. Stockholm, 1, 1, S. 82 نقلا عن ابن خلدون (المقدمة ، الفصل الخاص بعلم الكلام) .

(٦) المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٦ .

الصاحب بن عباد قد أحسن إليه وقدمه وولاه القضاء ، فلما توفى الصاحبُ قال عبد الجبار : لا أرى الترحم عليه لأنه مات من غير توبة ظهرت منه ، فنُسب عبد الجبار إلى قلة الوفاء[١] . ونرى من هذا أن المعتزلة لا يستحقون كل ما ينسب إليهم من أنهم أصحاب الفكر الحر .

وفى غضون القرن الرابع الهجرى كان أصحاب مذهب السنة القدماء يحاربون الشيعة الذين صعَّروا خدودهم ببغداد ، ويضيقون على متكلمى المعتزلة فى سائر البلاد حتى نغصوا عليهم العيش ، ولكنهم على الرغم من إثارتهم للعامة لم ينجحوا فى ذلك إلا قليلا ، ولا نسمع من أمثلة هذا الاضطهاد إلا قليلا[٢] ، ولم يكن مذهب الأشعرى قد قوى فى ذلك العهد ليكون خصما ويهاجم ، فإنه لم ينتشر فى العراق إلا منذ نحو سنة ٣٨٠ هـ[٣] ، وعند ذلك بدأت تظهر آثار الاضطهاد له ، وقد حاول الحنابلة أن يمنعوا الخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م من دخول المسجد الجامع ببغداد ، لأنه كان يذهب مذهب الأشعرى[٤] ، وكان أكابر الأشاعرة فى ذلك العهد يُضْطَهدون وينفون فى أيام طغرل بك . وقربَ أواخر القرن الرابع تحاملت الحنابلة على رجل من كبار الأشاعرة ذوى النفوذ ، وهو القشيرى المتوفى عام ٥١٤ هـ — ١١٢٠ م ، ووقع بسبب تهييج الحنابلة قتالٌ فى الشوارع ، واضطر القشيرى إلى ترك بغداد[٥] . ومن هذه الحادثة أرّخ ابن عساكر مبدأ وقوع الانحراف بين الحنابلة والأشاعرة[٦] . ولم ينتشر هذا المذهب

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٦ .

(٢) Zwei Besonders Charakteristiche Bei Goldziher ZDMG., 62 S. 8

(٣) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٤) كان الخطيب البغدادى يتعصب على الحنابلة (المنتظم ص ١١٨ ب) .

(٥) Goldziher ZDMG, 62, S. 8 .

(٦) Spitta, Asch'ari, S. 145 .

الكلامى الجديد الذى قدِّر له أن يصير مذهب جمهور المسلمين إلا انتشاراً بطيئاً فى المملكة الإسلامية ، ففى أقصى المشرق كان الماتريدية ينافسون الأشاعرة ، وذلك على الرغم مما بين الفريقين من تشابه فى أصل المذهب ، وكان لا بد لهم أيضاً أن يقاوموا الحنابلة الذين كان شيخهم حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م يلعن أبا الحسن الأشعرى وينال من الأشاعرة[١] ، وأن يقاوموا أيضاً هجمات الكرامية الذين تحزّبوا على الأشاعرة ، ورفعوا أمرهم إلى السلطان محمود بن سبكتكين مدّعين أن الأشاعرة يعتقدون أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس نبيًّا اليوم وأن رسالته انقطعت بموته ، ولم يكن هذا مُعْتَقداً للأشاعرة[٢] . أما فى المغرب فقد انتشر مذهب الأشاعرة من بلد إلى آخر فقامت لهم سوق فى صقلية والقَيروان والأندلس « ثم رقّ أمرُهم والحمد لله رب العالمين »[٣] . ولم يكن مذهب الأشاعرة معروفاً قط فى شمال إفريقية حتى حمله إليها محمد بن تومرت حوالى عام ٥٠٠ هـ — ١١٠٧ م[٤] . وكانت الحكومة فى أوائل القرن الخامس الهجرى تتدخل نوعاً من التدخل الرسمى لفض المنازعات المذهبية ، ففى عام ٤٠٨ هـ — ١٠١٧ م أصدر الخليفة القادر كتاباً ضدّ المعتزلة ، فأمرهم بترك الكلام والتدريس والمناظرة فى الاعتزال والمقالات المخالِفة للإسلام ، وأنذرهم — إن خالفوا أمره — بحلول النكال والعقوبة . وامتثل السلطانُ محمود فى غَزْنَة أمرَ أمير المؤمنين واستنّ بسُنّته فى قتل المخالفين ونفيهم وحبسهم ، وأمر بلعنهم على المنابر ، « وصار ذلك سنة فى الإسلام »[٥] وصدر فى بغداد كتابٌ آخر سُمّى الاعتقاد القادرى وذلك

(١) طبقات السبكى ج ٣ ص ١١٧ .
(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٤ .
(٣) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ٢٠٤ .
(٤) Goldziher, ZDMG, 41, s. 30 ff
(٥) المنتظم ص ١٦٥ ب .

فى سنة ٤٣٣ هـ — ١٠٤١ م ، وقُرِئ فى الدواوين ، « وكتبَ الفقهاء خطوطَهم فيه أن هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر ، وكان هذا أول اعتقاد رسمى يعلنه الخليفة [١] ، وكان معنى ذلك نهاية نموّ علم الكلام ، ويستطيع الرجل الثاقب النظر أن يتبيّن فى كل كلمة منه جراثيم المنازعات التى مضت عليها قرون ، وهاك نص هذا الاعتقاد : « على الإنسان أن يعلم أن الله عزّ وجلّ وحدَه لا شريك له ، « لم يَلِدْ ، ولم يُولَد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، لم يتّخِذْ صاحبةً ولا ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وهو أوّلٌ لم يزَلْ ، وآخرٌ لا يزال ، قادرٌ على كل شىء ، غيرُ عاجز عن شىء ، إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون ، غنىٌّ غيرُ محتاج إلى شىء ، « لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنةٌ ولا نَوْمٌ » « يُطْعِمُ ولا يُطْعَم » ، لا يستوحش من وَحْدَةٍ ولا يَأْنَسُ بشىء ، وهو الغنى عن كل شىء ، لا تُخْلِقُه الدهورُ والأزمانُ ، وكيف تغيّرُه الدهورُ وهو خالقُ الدهور والأزمان ، والليل والنهار ، والضوء والظلمة ، والسموات والأرض ، وما فيهما من أنواع الخلق والبر والبحر وما فيهما ، وكل شىء حى أو موات أو جماد ؟ كان ربُّنا وحده لا شىء معه ، ولا مكان يحويه ، فخلق كلّ شىء بقُدْرَتِه ، وخلق العرشَ لا لحاجته إليه ، فاستوى عليه كيف شاء وأراد ، لا استقرار راحةٍ ، كما يستريح الخَلْق . وهو مدبّر السموات والأرضين ومدبّر ما فيها ومن فى البر والبحر ، لا مدبّر غيرُه ، ولا حافظ سواه ، يرزقهم ويُمْرِضُهم ويعافيهم ويميتهم ويحييهم ، والخلق كلهم عاجزون ، الملائكة والنبيون والمرسلون والخلق كلهم أجمعون ، وهو القادر بقدرةٍ ، والعالم بعلمٍ أزلىّ

(١) على أن ما حدث فى أيام المأمون من أمر المحنة ، وإصدار الكتب بعضها تلو البعض فى العقيدة التى يجب أن يحمل الناس عليها ، هو أيضاً اعتقاد رسمى أصدره الخليفة ، وهو أول اعتقاد . (المترجم)

غيرِ مُسْتَفادٍ ، وهو السميع بسمع ، والمُبْصِرُ بِبَصَرٍ ، يَعْرِفُ صِفَتَهما من نفسه لا يبلغ كُنْهَهُما أحدٌ من خلقه ، متكلّمٌ بكلام لا بآلة مخلوقة كآلة المخلوقين ، لا يوصَف إلا بما وَصَف به نفسَه أو وصفه به نبيُّه عليه السلام ، وكلُّ صفةٍ وصفَ بها نفسَه أو وصفَه بها رسوله فهى صفةٌ حقيقية لا مجازية ، ويَعْلَم أن كلام الله تعالى غيرُ مخلوق تكلم به تكليما وأنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل بعد ما سمعه جبريل منه ، فتلاه جبريل على محمد ، وتلاه محمد على أصحابه ، وتلاه أصحابه على الأمة ، ولم يَصِرْ بتلاوة المخلوقين مخلوقاً ، لأنه ذلك الكلام بعينه الذى تكلم الله به ، فهو غير مخلوق فبكل حال متلوًّا ومحفوظاً ومكتوباً ومسموعاً ، ومن قال إنه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافرٌ ، حلالُ الدم بعد الاستتابة منه . ويعلم أن الإيمان قولٌ وعملٌ ونيّةٌ : قولٌ باللسان ، وعملٌ بالأركان والجوارح وتصديقٌ به ، يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهو ذو أجزاء ، فأرفع أجزائه لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شُعْبَةٌ من الإيمان ، والصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، والإنسان لا يدرى كيف هو مكتوب عند الله ، ولا بماذا يُخْتَمُ له ، فلذلك نقول إنه مؤمن إن شاء الله ، وأرجو أن أكون مؤمناً ، ولا يضرّه الاستثناء والرجا ، ولا يكون بهما شاكا ولا مُرْتاباً ، لأنه يريد بذلك ما هو مغيَّبٌ عنه من أمر آخرته وخاتمته ، وكلُّ شىء يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى ويُعمل لخالص وجهه من أنواع الطاعات فرائضها وسننها ونفائلها فهو كلُّه من الإيمان منسوب إليه ، ولا يكون للإيمان نهايةٌ أبداً ، لأنه لا نهاية للفضائل ولا للمتنوع فى الفرائض أبداً . ويجب أن نُحِبَّ أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلَّهم ، ونعلم أنهم خيرُ الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن خَيْرَهم كلَّهم وأفضلَهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ،

200

ثم على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، ونشهدَ للعشرة بالجنة ، ونترحّم على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن سبّ عائشة فلا حظ له فى الإسلام ، ولا نقول فى معاوية إلا خيراً ، ولا ندخل فى شىء شَجَر بينهم ، ونترحّم على جماعتهم ، قال الله تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غِلًا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » (سورة الحشر آية ١٠) وقال فيهم « ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين » (سورة الحجر آية ٤٧) . ولا يُكَفَّر بترك شىء من الفرائض غير الصلاة المكتوبة وحدها ، فإنه من تركها من غير عذر وهو صحيح فارغ حتى يخرج وقت الأخرى فهو كافر ، وإن لم يجحدها لقول النبى صلى الله عليه وسلم : بين العبد والكفر ترك الصلاة . فمن تركها فقد كفر ، ولا يزال كافراً حتى يندم ويعيدها ، فإن مات قبل أن يندم ويعيد أو يضمر أن يعيد لم يصلَّ عليه وحُشر مع فرعون وهامان وقارون وأُبَىّ بن خلف . وسائر الأعمال لا يكفر بتركها ، وإن كان يفسَّق حتى يجحدَها . ثم قال هذا قول أهل السنة والجماعة الذين من تمسك به كان على الحق المبين ، وعلى منهاج الدين والطريق الواضح ورُجِىَ به النجاةُ من النار ودخول الجنة إن شاء الله ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : الدينُ النصيحة ، قيل لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وقال عليه السلام أيّما عبد جاءته موعظة من الله تعالى فى دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها بشكر ، وإلا كانت حجة عليه من الله تعالى ليزداد بها إثما ويزداد بها من الله سخطا ، جعلنا الله لآلائه شاكرين ولنعمائه ذاكرين وبالسنة معتصمين ، وغفر لنا ولجميع المسلمين »[1] .

(١) المنتظم ص ١٩٥ ب — ١٩٦ أ .

وكان تسامح المسلمين فى حياتهم مع اليهود والنصارى ؛ وهو التسامح الذى لم يسمع بمثله فى العصور الوسطى سببا فى أن لحق بمباحث علم الكلام شىء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى ، وهو علم مقارنة الملل ، ولم تكن نشأة هذا العلم من جانب المتكلمين ، ذلك أن النوبختى ؛ وهو مؤلف أول كتاب له شأن فى الآراء والديانات كان من نَقَلَة كتب اليونان إلى لسان العرب(١) . وكذلك ألّف المسعودى كتابين فى الديانات(٢) . ولم يكن المسعودى متكلما ، ثم جاء المسبِّحى المتوفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م ، وكان قد اشتغل فى الدواوين زمانا طويلا ، ومن مؤلفاته كتابُ دَرْكِ البغية فى وصف الأديان والعبادات ، وهو كتاب مطول على طريقة المسبِّحى ، ويقع فى ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة ، وإذن فقد عنى هذا المؤلف بالبحث فى الأديان إلى جانب اشتغاله بأمور الدولة ، وهذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذى يتصل بعلوم الدين من بين كتب المسبحى ، ومرجع العناية بذلك إلى أن أسرة المسبحى من حرَّان ، ولذلك عنى بما كان يعنى به الصابئة(٣) . ثم أقبل على البحث فى الملل بعض المتكلمين الميالين إلى معرفة ما غاب عنهم ، فمن ذلك كتاب المِلل والنِّحل ، (وقد صار هذا الاسم شائعا بين المؤلفين فى هذا الباب) لأبى منصور البغدادى المتوفى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٨ م(٤) . ثم جاء ابن حزم الأندلسى المتوفى عام ٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م فألف كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، وردّ فيه على مختلف المذاهب متحمساً فى ذلك للدفاع عن الإسلام ، وفى أول القرن الخامس الهجرى ألف أبو الريحان

---

(١) الفهرست ص ١٧٧ ، مروج الذهب ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٣) المُغْرب لابن سعيد ص٩٦ وما بعدها .

(٤) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٣٩ .

البيرونى المتوفى عام ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م كتابه المسمّى « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ، وجعله كتابَ حكايةٍ لمذاهب الهند على وجهها لا كتاب حجاج وجدل ، ولذلك لم يناقض الخصوم ، ولم يتحرّج من حكاية كلامهم ، وإنْ بايَنَ الحقّ[١] ، فكان هذا الكتاب كتاب بحث علمى نزيه .

ومما ينبغى أن نلاحظه أن عقيدة مؤرخى النّحل كانت فى الغالب موضعاً لشكوك الشاكّين وطعنهم ، وقد نقل ياقوت[٢] عن صاحب تاريخ خوارزم ما اتهم به الشهرستانى[٣] من التخبُّط فى الاعتقاد ، والميل إلى الإلحاد لأنه — فى زعم مؤرخ خوارزم — مع وفور فضله وكمال عقله أعرض عن نور الشريعة واشتغل بظلمات الفلسفة ، ولم يكن فى مجالس وعظه قال الله ولا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا جواباً من المسائل الشرعية .

---

(١) كتاب الهند للبيرونى طبعة سخاو ص ٤ .

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٣٤٣ من الطبعة الأوربية ، وانظر Goldziher, SWA, 73, S. 552.

(٣) المتوفى عام ٥٤٨ هـ وهو صاحب الكتاب المشهور المسمى الملل والنحل .

الفصل الرابع عشر

المذاهب الفقهية

كان القرن الرابع الهجرى أهم نقطة فاصلة فى تاريخ التشريع الإسلامى ، فيُقال إنه فى هذا القرن وقف سير التشريع الإسلامى المبنى على الاجتهاد المطلق وعلى الحكم بالرأى فى فهم القرآن والحديث (١).

ومضى عصر الابتكار فى التشريع ، واعتُبر العلماء الأولون كالمعصومين ، وأصبح الفقيه لا يستطيع إصدار حكمه الخاص إلا فى المسائل الصغيرة ، وهذا يشبه ما حدث عند اليهود من مجىء الربّانيين الذين كان قصاراهم التناقش فى آراء القدماء ، وذلك بعد مضىّ عهد علماء الكتاب الذين كانوا يعلمون الكتاب ويحق لهم الاجتهاد . ولكن هـذا هو اعتبار المسألة من وجهة النظر الإسلامية (٢) . والواقع أنه ظهر فى هذا الميدان الفقهى ما ظهر فى غيره من الميادين ، وأهم ما حدث هو تسرّب آراء فى التشريع مما كان قبل عهد الإسلام إلى الفقه الإسلامى ، كما تسربت بعض النظريات اليونانية والرومانية القديمة . وكان يمثّلها الفقهاء ، ويخالفهم أصحاب الحديث المتمسكون بالسنة القديمة ، والذين يقيسون الحياة بمقياس نصوص الوحى والسنة النبوية . ولم يشأ هؤلاء المتمسكون بالقديم أن ينزلوا عن مكانهم بسهولة ، فقد كانت لهم الغلبة فى إقليمين من أهم أقاليم المملكة الإسلامية وهما فارس والشام ، وكذلك كانت لأهل الحديث

---

(١) Snouck Hurgronje, RHR, 37, S, 176.

(٢) راجع ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته عن الفقه . (المترجم)

غلبة فى السند ، كما كانت همذان وأجنادها أصحاب حديث [١] . وكان أهم المذاهب بين أصحاب الحديث : الحنابلة ، والأوزاعية والثورية [٢] . ولم يكن الحنابلة فى ذلك — خلافا لما صار إليه الحال فيما بعد — يعتبرون من جملة الفقهاء ، وفى سنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م ذكر أصحاب المذاهب فكانوا : الشافعية والمالكية والثورية أصحاب سفيان الثورى ، والحنفية والداوودية [٣] . وفى أواخر القرن الرابع كانوا : الحنفية والمالكيه والشافعية والداوودية [٤] . ولم يذكر الحنابلة بين الفقهاء فى هاتين المدتين ، ولما توفى محمد بن جرير الطبرى عام ٣١٠ هـ — ٩٢٣ م دُفِن بداره ليلا ، لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً . وكان ذلك بتأثير الحنابلة ، وقد تعصّب عليه هؤلاء لأنه جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فسئل فى ذلك فقال : لم يكن فقيهاً وإنما كان محدِّثاً [٥] . ولم ينل الحنابلة الاعتراف بأنهم فقهاء إلا أخيراً [٦] . أما مذاهب غيرهم من أصحاب الحديث فلم تستطع البقاء ، ففى القرن الثالث الهجرى غلب المالكية على أصحاب الأوزاعى فى الأندلس [٧] . وكان قاضى دمشق المتوفى عام ٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م أوزاعى المذهب [٨] ، وكان للأوزاعية على عهد المقدسى

203

---

(١) المقدسى ص ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ، ٤٨١ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢٢٥ وما بعدها والمقدسى ص ٣٧ .

(٣) طبقات السبكى ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٤) المقدسى ص ٣٧ .

(٥) المنتظم لابن الجوزى تحت عام ٣١٠ هـ نقلا عن ثابت بن سنان ، وابن الأثير ج ٨ ص ٩٨ نقلا عن مسكويه ، Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 80.

(٦) حوالى عام ٥٠٠ هـ كما يقول الغزالى (انظر كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن جرير الطبرى طبعة كرن (Kern) ، مصر ١٣٢٠ هـ — ١٩٠٢ م ، ص ١٤) .

(٧) انظر فيما يتعلق بهذا كتاب Fagnan, Homenaje a Don Fr. Codera, Zaragosa, 1904. S. 108

(٨) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٤٧ طبعة ليدن .

مجلس بجامع دمشق[١] . ويرى المقدسى أيضاً أن مذهب الأوزاعى لم ينتشر أكثر من ذلك لأنه كان مُتطرَّفاً ، فقلّ الواردون عليه والناقلون عنه ، « ولو كان على سابلة الحج لنقَلَ مذهبَه أهلُ الشرق والغرب »[٢] . وكذلك يَعُدُّ المقدسى مذهبَ سفيان الثورى بين المذاهب المندرسة ، بعد أن كان لهذا المذهب جَلَبَةٌ فى أصفهان والدينور[٣] . وفى سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م توفى أبو بكر عبد الغافر بن عبد الرحمن الدينورى ، ولم يكن ببغداد مُفْتٍ على مذهب سفيان الثورى غيره ، وهو آخر من أفتى بجامع المنصور على مذهب الثورى[٤] .

ولم تكن المذاهب قد استقرّت على رأس المائة الثالثة ، رغم ما قيل من أنه فى هذا التاريخ كان قد بطل نحوٌ من خمسمائة مذهب[٥] . وقد أسس داوودُ الأصفهانى (المتوفى عام ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م) مذهباً كان له شأن ، وهو مذهب الظاهرية ، وقد عَظُم شأن هذا المذهب فى الشرق فى القرن الرابع الهجرى ، وكان بين أتباعه كثير من أصحاب الجاه بإيران[٦] . وكان الداوودية بفارس يتقلّدون الأعمال والقضاء ، وكانت لهم الغلبةُ ، لأن السلطان عضد الدولة كان يتقلّد هذا المذهب[٧] . وقد أنكر الظاهرية أشدّ الإنكار ما فعله الشافعى من محاولة التوفيق بين المنهج الفقهى القديم الذى انتهى إليه و بين المنهج الجديد[٨] ،

---

(١) المقدسى ص ١٧٩ .

(٢) المقدسى ص ١٤٤ .

(٣) المقدسى ص ٣٧ ، ٣٩٥ .

(٤) أبو المحاسن طبعة كاليفورنيا ص ١٢٠ ، ويقول أبو المحاسن : لعل هذا بالشرق ، وأما بالغرب فدام مذهب الثورى بعد هذا التاريخ عدة سنين . (المترجم)

(٥) كتاب اختلاف الفقهاء للطبرى ص ١٤ ، نقلا عن كتاب عمدة العارفين ، وكانت مذاهب أصحاب الحديث كثيرة جدا ، وإنما كان ذلك لكثرة مافى الأحاديث من غموض .

(٦) Goldziher, Zahiriten, S. 110.

(٧) المقدسى ص ٤٣٩ .

(٨) مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٨ ، ولا توجد هنا مطابقة تامة وإنما ينسب للظاهرية أفكار القياس . (المترجم)

وكان مذهب الظاهرية سبباً فى وضوح المناهج شأن غيره من مذاهب المتطرفين ، وكانت القاعدة الكبرى التى استندوا إليها هى التمسك بحرفيّة النصوص تمسكا دقيقاً . ولكن هذه قاعدة علمية ، وسرعان ما أدركوا أن الفقه ليس علماً نظريا بل هو عمل ، ولم يكن الأثر الأكبر لمنهجهم القائم على محو اللبس فى الفقه ، بل كان فى المباحث التاريخية واللغوية . ويرى المقدسى أن أكبر خصال أصحاب داود هى : الكبر ، والحدّة ، والكلام ، واليسار[1] . وقد أسس أبو جعفر محمد ابن جرير الطبرى صاحب التاريخ المتوفى عام ٣١٠ هـ — ٩٢٣ م مذهباً خاصا به ، وقد ظل الناس بعد موته عدة شهور يجتمعون للصلاة على قبره ليلا ونهاراً[2] .

وكان للطبرى صاحبٌ يسمّى ابن شجرة وتوفى سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م ، وقد ناهز التسعين ، وكان جريرى المذهب ، ثم خالف أستاذه وأصبح يختار لنفسه ، ولا يضع لأحد من الأئمة أصلا ، ومع هذا تقلّد قضاء الكوفة[3] ، وهو دليل على مرونة الظروف وعدم التعصب بسبب الاختلاف فى الرأى ، وكذلك كان ابن حربويه الشافعى المذهب قاضى مصر (المتوفى عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م بعد أن جاوز المائة) يختار فى أحكامه ، « وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه ، فلم ينكر عليه أحدٌ ، لأن أبا عبيد (كنية ابن حربويه) كان لا يُطْعَنُ عليه فى علم ، ولا تلحقه تهمة فى رُشْدِه ، ولا يحيف فى حكم »[4] .

---

(١) المقدسى ص ٤١ .

(٢) Wüstenfeld, AGGW, 37,Nr. 80 ، ويذكر أبو المحاسن (طبعة كلفورنيا ص ١٢٦ تحت سنة ٤١٠ هـ — ١٠١٩ م ، وفاة عالم كان يتفقه على مذهب الطبرى . ومما صنفه القاضى عبد الله بن محمد بن الخصيب المعروف بالقاضى الخصيبى المتوفى عام ٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م ، كتاب فى الرد على الطبرى (ملحق القضاة للكندى ص ٥٧٧) . انظر أيضاً طبقات السبكى ج ٢ ص ١٣٩ وما يليها .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٨ .

(٤) ملحق الكندى ص ٥٢٨ ، وطبقات السبكى ج ٢ ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

وبالإجمال استقرت المذاهب الفقهية الكبرى فى ذلك العصر وتوطدت أركانها على النحو الذى نجده اليوم ، إذا استثنينا البلاد التى آل أمرها إلى الشيعة ، ولم يبرز مذهب الإمام أحمد خارج العراق إلا فى القرن الرابع الهجرى (١) وفى هذا القرن فتح مذهب الشافعى — وهو أهم المذاهب اليوم — البلادَ التى يحتلها اليوم ، وكان أكبر مراكزه مكة والمدينة (٢) . ويقول السبكى : « وأما بلاد الحجاز فلم تبْرَحْ أيضاً منذ ظهور مذهب الشافعى ، وإلى يومنا هذا فى أيدى الشافعية القضاء والخطابةُ والإمامةُ بمكة والمدينة ، والناس من خمسمائة وثلاث وستين سنة يخطبون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويصلون على مذهب ابن عمه محمد بن إدريس ، يَقْنُتون فى الفجر ، ويجهرون بالتسمية ، ويفردون الإقامة إلى غير ذلك ، وهو صلى الله عليه وسلم حاضرٌ يبصر ويسمع ، وفى ذلك أوضح دليل على أن هذا المذهب صواب عند الله تعالى » (٣) . ولم يكن للشافعى أتباع كثيرون فى العراق ، وكان الغالب على فقهاء هذا الإقليم وقضاته أصحاب أبى حنيفة (٤) ، وإنْ كان قد وَلِىَ قضاء القضاة ببغداد أحد الشافعية سنة ٣٣٨ هـ — ٩٤٩ م (٥) . وقد أفلح الشافعية فى التغلب على الحنفية بالمشرق (٦) ، وكان أكبر حصن لهم فى الشام ومصر . وكان أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقى (المتوفى عام ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م) أول من ولى قضاء مصر من الشافعية ، وهو أول من أدخل فى دمشق

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) رسائل الخوارزمى ص ٦٣ ، ولم يقل المقدسى شيئاً فى هذه المسألة .

(٣) طبقات السبكى ج ١ ص ١٧٤ .

(٤) المقدسى ص ١٢٧ .

(٥) طبقات السبكى ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٦) يقول السيوطى فى طبقات المفسرين (ص ٣٦ من الطبعة الأوربيـة) إن الإمام أبا بكر الشاشى الفقيه الشافعى المعروف بالقفال المتوفى عام ٣٦٥ هـ — ٩٧٨م هو الذى نشر فقه الشافعى فيما وراء النهر . ويقول المقدسى (ص ٤٦٨ — ٤٦٩) إن الغلبة بكرمان لأصحاب الشافعى .

مذهب الشافعي وحكم به ، ولم يَلِ بعده قضاء مصر ولا قضاء الشام إلا شافعيُّ المذهب ، بعد أن كان الغالب على أهل دمشق مذهب الأوزاعي[١] . وكان ينافسهم في مصر المالكية الذين استولوا على مصر منذ منتصف القرن الثاني الهجري .

205 وفي سنة ٣٢٦ هـ — ٩٣٨ م كان للمالكيين في المسجد الجامع خمس عشرة حلقة ، وللشافعيين مثلها ، ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات فقط[٢] . وفي عهد المقدسي تولى إمامة مسجد ابن طولون أحد الشافعية لأول مرة ، ولم يقدَّم في محراب هذا المسجد إمامٌ قط قبله إلا وهو يتفقّه لمالك[٣] ، وكان معظم الفقهاء بمصر من أصحاب مالك . ويقول السيوطي إن أبا بكر النعالي المتوفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م كان إمام المالكية بمصر ، وكانت حلقته في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها[٤] . ولهذا اشتدت الدولة الفاطمية في محاربة المالكية ، ففي سنة ٣٨١ هـ — ٩٨٩ م مثلا ضُرب رجل بمصر وطِيف به في المدينة ، لأنه وُجد عنده كتابُ الموطّأ لمالك بن أنس[٥] ، ولما زالت دولة الفاطميين وحلت محلها دولة الأيوبيين ، وهم من الأكراد الشافعية ، أكملوا انتصار هذا المذهب بإيثارهم للفقهاء الشافعية ، ولكن الصعيد بقي في الجملة مالكي المذهب إلى أيامنا ، ولم ينتشر مذهب الشافعي غربا أكثر من ذلك ، وقد اقتسم المالكية والحنفية بلاد المغرب ، وكان مذهب الحنفية بفضل مرونته أكثر ملاءمة للحكومة الفاطمية من مذهب مالك ، ولكن لما خرجت بلاد المغرب من يد الفاطميين سنة ٤٤٠هـ

(١) ملحق القضاة للكندي ص ٥١٨ ، وطبقات السبكي ج ٢ ص ١٧٤ وحسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٨٦ ، ولكن قاضي دمشق المتوفى عام ٣٤٧ هـ . كان أوزاعي المذهب (أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٤٧ ، وطبقات السبكي ج ٢ ص ١٧٤) .

(٢) المغرب لابن سعيد ص ٢٤ .

(٣) المقدسي ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢١٢ .

(٥) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣٤١ .

— ١٠٤٨ م لم يقتصر البلاء على مذهبهم الشيعى فقط بل شمل مذهب الأحناف السنّيين الذين كانوا يظلّونهم برعايتهم : وانتقل المغرب إلى مذهب مالك ، ولا يزال عليه إلى اليوم[١] أما فى الأندلس فكانت السيادة المطلقة لمذهب مالك[٢].

أما فى بغداد نفسها فقد كان الحنابلة ، دون سائر أهل السنة ، أكبر من أقلق بال الحكومة ، ثم إنهم اشتدّوا فى محاربة الشيعة ببغداد ، وقد بنوا ببغداد مسجداً « وجعلوه طريقاً إلى المشاغبة والفتنة »[٣] ، ثم عظم أمرهم حتى أرهجوا بغداد ، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد ، وكانوا إذا مرّ بهم شافعىُّ المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت[٤]. ولكنهم ادّخروا أشد غضبهم للشيعة ، ولمن خاصمهم من المتكلمين ، وكان الشافعية أشد الفقهاء قدرة على النظر والشغب ، وهاتان الخصلتان من ضمن الخصال التى وصفهم بها المقدسى[٥] . والمؤرخ عرضة للخطأ فى هـذه المسائل لأن معظم معارفنا عن هذه الحركات مستقاة من مصادر شافعية ، ولكن الشافعية كان لايخلو منهم نزاع فقهى ، وكانوا خصوما لمن عداهم لايعدلون عن الخصومة ؛ على حين كان خصومهم يتصالحون ويبحثون عن طريق للوفاق ، على أن المذاهب كانت فى الجملة على وفاق ومسالمة تامة فى القرن الرابع . ونجد العلماء — كالمقدسى — يوصّون بترك الخلاف ، ولزوم أحد المذاهب ، وترك الغلوّ فى الدين ، وكفّ اللسان عن تمزيق

206

(١) مقدمة جولد زيهر لكتاب محمد بن تومرت ص ٢٣ .

(٢) المقدسى ص ٢٣٦ . ويقول المقدسى « أما فى الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون : لا نعرف إلا كتاب الله ، وموطأ مالك ، فإن ظهروا على حنفى أو شافعى نفوه فان عثروا على معتزلى أو شيعى أو نحوهما ربما قتلوه » . (المترجم)

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٣٥ .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٥) ص ٤١ .

المسلمين[١] . ولم يكن الانتقال من مذهب إلى آخر بالأمر العسير : فيحكى أن أحمد بن فارس أكبر اللغويين المتوفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٨٠ م كان شافعيا فصار مالكيا وقال : دخلتنى الحَمِيَّة لهذا البلد ، يعنى الرىّ ، كيف لا يكون فيه رجل على مذهب هذا الرجل المقبول القول على جميع الألسنة[٢] . وقد اختير لإمامة مسجد ابن طولون بمصر أحد الشافعية بعد أن كان لا يقدّم فيه إلا مالكى ، وكان ذلك لسبب بسيط ، وهو أنه لم يوجد أطيب منه[٣] . ولما سُئل المقدسى عن سبب تفقّهه لأبى حنيفة ، مع أنه شامىّ وأهلُ ناحيته أصحاب حديث يتفقهون للشافعى ، أجاب بأنه استحسن مذهبه لخلال ذكرها[٤] . ولم تظهر المنافسة بين المذاهب فى صورة شديدة إلا فى القرن التالى عندما فنيت المذاهب الصغرى ، و بقيت المذاهب الكبرى وحدها فى ميدان الخلاف ، عند ذلك قويت المنافسة ، وصار أصحاب المذاهب يستعين بعضهم على بعض بالسلطان خصوصا فى المشرق[٥] .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٦٦ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٧ .

(٣) المقدسى ص ٢٠٣ .

(٤) المقدسى ص ١٢٧ ، يقول المقدسى إن هذه الخلال ثلاث : أولها اعتماد أبى حنيفة على قول على رضى الله عنه ، وقال النبى عليه السلام : أنا مدينة العلم وعلىّ بابها . وثانيها أن أبا حنيفة كان أقدم الأئمة وأقربهم إلى الصحابة وأورعهم وأعبدهم ، وقد رويت التوصية بالعتيق ، والثالثة أن المقدسى رآه أصاب عياناً فى مسألة أخطأ فيها الجميع ، وهى أنه كان لا يجوّز أخذ الأجرة على القرب ، فقال السائل للمقدسى : دققت النظر يا مقدسى واحتطت لنفسك . (المترجم)

(٥) انظر نصوص ابن الأثير التى ذكرها سنوك هورجرونى فى مجلة تاريخ الأديان Snouck Hurgronje, RHR, 37, S. 178..

الفصل الخامس عشر

القضاة

لم يفكر المسلمون إلا قليلا فى المبدأ الذى يقضى بالفصل بين السلطتين : القضائية والتنفيذية ، وكان هـذا أيضاً هو شأن أوروبا المسيحية حتى أحدث العصور . فقد كان النبى هو القاضى الأعلى للمسلمين ، وكذلك كان خليفته من بعده ، وكان ولاته على البلاد يباشرون هذه السلطة بالنيابة عنه ، ثم إن كثرة الواجبات تطلّبت الاستعانة ببعض القضاة ، كما يحكى عن المختار ، فإنه كان يجلس للقضاء بنفسه ، وقد نشط فى ذلك وأحسن حتى كثرت عليه الأعمال فاضطر إلى تعيين القضاة[1] . ولهذا السبب نفسه لم يحدَّد اختصاصُ القاضى بالنسبة لاختصاص الوالى تحديداً دقيقاً . وقد احتفظ الوالى لنفسه بما كان « يعجز عنه القاضى »[2] وإذا لم يقبل الوالى حكم القاضى لم يكن أمام القاضى إلا أن ينصرف عن الحكم ويعتزل أو يجلس فى منزله مضربا على الأقل[3] . ولـكن مثل هذا الإهمال لحكم القاضى لم يكن كثير الوقوع ، فلم يذكر الـكندى صاحب تاريخ القضاة بمصر من أمثلة التصادم بين حكم القاضى وبين الوالى فى مسائل مما يمس الأحوال الشخصية إلا حادثتين طوال القرون الأولى ، وكانت إحـدى هاتين الحادثتين مسألةً هامة جـدا من حيث المبدأ ، وذلك أن امرأة تزوّجها رجل ليس من

207

---

(١) Wellhausen, Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam, S. 78.

(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ س ٢٠٧ .

(٣) القضاة للـكندى س ٣٢٦ — ٣٢٧ ، ٣٥٦ ، ٤٢٧ .

أكفائها ، فقام بعض أوليائها وأنكروا الزواج ، وترافعوا إلى القاضي ليفسخ النكاح ، فأبى ، فذهبوا إلى الأمير فأمر القاضيَ بفسخ النكاح ، فامتنع أيضاً ، ثم فرّق الأمير بينهما[1] . ونجد هنا اصطداما بين مبدأين : المبدأ العربي القائم على الأرستقراطية والدم ، ومبدأ الإسلام الديمقراطي الذي يحكم على الناس لا باعتبار الدم بل على قاعدة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكان من أثر القضاء على الإدارة الإقطاعية في عهد العباسيين أن خرج القاضي من سلطان الوالي ، وصار يُعَيِّنُه الخليفة مباشرة أو يُقِرُّ تعيينه على الأقل . وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة ولّى قضاةَ الأمصار من قِبَله[2] . ولما قدم هارون بن عبد الله قاضياً على مصر من قِبَل المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ — ٨١٣ — ٨٣٣ م) جلس معه صاحبُ البريد في مجلسه ، فأخرجه منه ، وقال : هذا مجلس أمير المؤمنين ، ليس يجلس فيه أحد إلا بأمره[3] . وظل تعيين القضاة من حق الخليفة حتى في العصور السيئة ، باعتبار أن القضاء آخرُ ما بقي من المناصب الهامة ، ولما بويع للمستكفي عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤م ، وجلس على عرش الخلافة ، سأل عن القضاة وكشف عن أمر الشهود بالحضرة ، فأمر بإسقاط بعضهم وقبول بعضهم ، فامتثل القضاة ما أمر به وقال العامة ساخرين : « إلى هنا بلغ سلطانُه وانتهى في الخلافة أمرُهُ ونهيُه »[4] . وفي سنة ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م سلّم الأخشيد

---

(١) الكندي ص ٣٦٧ ، والمثال الآخر في ص ٤٢٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبي طبعة هوتسما ج ٢ ص ٤٦٨ . وكان عبد الله بن لهيعة الحضرمي الذي ولي قضاء مصر في مستهل عام ١٥٥ هـ — ٧٧٢ م أول قاض ولي مصر من قبل الخليفة (القضاة للكندي ص ٣٦٨) . وكان أول قاض قضى بالمدينة من قبل الخليفة هو عبد الله بن عمران التيمي من قبل الخليفة المهدي (تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٤) . وأما فيما يتعلق بقضاة الإسلام الأولين الذين يحكى أن الخليفة هو الذي كان يعينهم ، فالظاهر أن حكاياتهم موضوعة كما هو الحال في الخطابات التي ينسب لعمر أنه كان يوجهها إلى القضاة والولاة .

(٣) الكندي ص ٤٤٤ .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ٣٧٨ .

قضاء مصر إلى أبي بكر بن الحدّاد ، فألّف البعض فيه الأشعار متهكّمين ، لأنه تولى القضاء من قِبَل الأخشيد لا من قِبَل الخليفة[١] . وفى سنة ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م قلّد السلطانُ بهاء الدولة النقيبَ أبا أحمد الموسوى والد الشريف الرضى نقابة العلويين بالعراق وقضاء القضاة والحجّ والمظالمَ ، فلم ينظر فى قضاء القضاة لامتناع الخليفة القادر بالله من الإذن له بذلك ، هذا مع عظم سلطان بهاء الدولة[٢] ولا يزال من الحقوق القليلة الباقية التى يمتاز بها الخليفة اليوم تعيينه قاضى القضاة بمصر[٣] . وقد عظم شأن القضاة ، وقوى مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بنى العباس ، فقد كانت العادة أن الولاة يُحضِرون القضاةَ إلى مجالسهم ، فلما قَدِم محمدُ بن مسروق الكندى قاضياً على مصر من قِبَل الرشيد عام ١٧٧ هـ — ٧٩٣ م أرسل إليه الأميرُ عبدُ الله بن المسيَّب يأمره بحضور مجلسه ، فقال : لو كنتُ تقدمتُ إليك فى هذا لفعلت بك وفعلت يا كذا وكذا ، فانقطع ذلك عن القضاة من يومئذ[٤] . بل نجد أن الآية قد انعكست فى القرن الثالث الهجرى ، فكان الولاة يحضرون مجلس القاضى فى كل صباح[٥] إلى أيام القاضى ابن حربويه عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م ، فكان آخر من ركب إليه الأمراء ، لأنه كان لا يقوم للأمير إذا أتاه[٦] . وكان هذا القاضى مثلا أعلى للعدالة لا يُطمن

---

(١) طبقات السبكى ج ٢ س ١١٤ وما بعدها .

(٢) المنتظم لابن الجوزى س ١٤٩ ب ، وابن الأثير ج ٩ س ١٢٩ .

(٣) Gottheil, The Cadi, SA der REES, 1908, S. 7, Anm. 3 (وقد بطل ذلك من عهد قريب) .

(٤) الكندى س ٣٨٨ ، وقد ذكرت المحاولتان الوحيدتان اللتان أريد فيهما الجمع بين القضاء والإمرة لرجل واحد ، وهما تتعلقان بالقاضى الأندلسى أسد المتوفى عام ٢١٣ هـ ، وبالقاضى شريك بن عبد الله فى عهد المهدى (١٥٨ — ١٥٩ هـ) انظر كتاب العيون س ٣٧٢ والمؤلف يشير إلى الجزء الذى طبعه من هذا الكتاب دى غوى بليدن سنة ١٨٧١ .

(٥) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 91 ، وطبقات السبكى ج٢ س٣٠٢ (المترجم)

(٦) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ س ١٠١ ، وملحق الكندى س ٥٢٨ ، ويحكى مثل هذا عن الوزير الصاحب بن عباد ، ذلك أنه قصد القاضى أبا السائب فتثاقل فى القيام له ، =

فى حكمه ولا تلحقه تهمة ، وكان لا يؤمّر أحداً من ولاة مصر ، بل كان يدعوهم بأسمائهم ، ويحكى من تصميمه أن مؤنسا الخادم وهو أكبر أمراء المقتدر ، وكان فى خدمته سبعون أميراً سوى أصحابه ، وكان يخطب له على جميع المنابر مع الخليفة ، عرض له بمصر مرض فأرسل إلى القاضى يطلب شهوداً يُشهِدهم أنه أوصى بوقف على سبيل البرّ ، فقال القاضى : «لا أفعل حتى يَثْبُتَ عندى أن مؤنسا حرٌّ ، وقال إن لم يَرِدْ علىّ كتابُ المقتدر أنه أعتقه وإلا فلا أفعل . ولما وصل الكتاب أبى القاضى إلا أن يشهد عدلان أنه كتاب أمير المؤمنين ، هذا ومؤنس أكبر أمراء الإسلام . وكان ابن حربويه مهيباً وافر الحرمة ، لم يره أحدٌ يأكل ولا يشرب ، ولا يلبس ولا يغسل يده ، وإنما يفعل ذلك فى خلوة ، ولا رآه أحد يتمخّط ولا يبصق ولا يحك جسمه ، ولا يمسح وجهه ، وكان إذا ركب لا يلتفت ولا يتحدث مع أحد ، ولا يصلح رداءه ، وكان عليه من الوقار والحشمة ما يتذاكره أهل بلده ، وكان يختار فى أحكامه ، ويرى أن من قلّد فهو متعصب أو غبى ، وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه فلم ينكر عليه أحد ، ولم يكن يلحق علمَه طعنٌ ، ولا رشدَه تهمةٌ . وكان لا يحيف فى حكم[1] . وقد اختصم عنده رجلان ، وكان المدّعى عليه قد سبق إليه وجعل نفسه المدِّعى صاحبَ الحق ، فضحك خصمه متعجّباً ، وعند ذلك صاح ابن حربويه صيحة ملأت الدار ، وقال : «لِمَ تضحك ، لا أضحك الله سنّك ، تضحك فى مجلس الله مطّلع عليك فيه ، وَيحك ؟ تضحك وقاضيك بين الجنة والنار ؟» فأرعب القاضى

= وتحفّز تحفزاً أراه به ضعف حركته ، فأخذ الصاحب بضبعه ، وأقامه ، وقال : نعين القاضى على قضاء حقوق إخوانه ، فخجل أبو السائب واعتذر للصاحب ، وتحكى القصة بعينها بين القاضى ورجل آخر ، ويقال إن الصاحب انتحلها لنفسه لأنه كان يحب الفخر وانتحال الفضائل (الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٣٨) .

(١) طبقات السبكى ج ٢ ص ٣٠٢ وما بعدها ، وملحق الكندى ص ٥٢٨ .

الرجلَ ، ومرض ثلاثة أشهر ، وكان إذا عاده صاحبه يقول له : صيحةُ القاضى فى قلبى إلى الساعة وأحسبها تقتلنى[١] . وكان القاضى أبو حامد أحمد بن محمد ابن أحمد الأسفرائينى قاضى بغداد المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م رفيع الجاه فى الدنيا ، وقد وقع من الخليفة ما أوجب أن كتب إليه الشيخ أبو حامد : اعلم أنك لست بقادر على عزلى عن ولايتى التى ولانيها الله تعالى ، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك[٢] . ومما يدل على رهبة منصب القضاء واحترامه فى ذلك العهد أننا نجد الأمراء والوزراء كثيراً ما يساقون إلى السجن ، ولا يُحكى مثلُ ذلك إلا عن قليل من القضاة ، ولم يَمُتْ فى أثناء السجن إلا قاض واحد ، ولا يُعلم أن قاضياً مات فى السجن سواه ، وهو القاضى أبو أُميّة المتوفى عام ٣٠٠ هـ ، وكان أمرُ هذا القاضى غريباً ، فإنه كان قليل العلم ، وكان يتّجر فى البز ببغداد ، فاستتر عنده الوزير ابن الفرات أيام محنته وقال له : إن وُلِّيتُ الوزارة فأى شىء تحب أن أصنع بك ؟ فقال : تقلدنى شيئاً من أعمال السلطان ، قال ويحك ؟ لا يجىء منك عامل ولا أمير ولا قائد ولا كاتب ولا صاحب شرطة فأيش أقلّدك ؟ قال : لا أدرى ، قال : أقلدك القضاء ، قال : قد رضيت . ثم خرج ابن الفرات ، وولى الوزارة وأحسن إلى أبى أميّة ، وولاه قضاء البصرة وواسط والأهواز ، وربما أراد بذلك أن يغيظ الفقهاء ، ولكن عفة أبى أمية وتصوّنه غطيا على نقصه فى العلم ، وكان يتيه على أمير البصرة ، ولا يركب إليه ، حتى ورد على الأمير كتابٌ مع طائر بنكبة ابن الفرات ، والقبض عليه ، فقبض على أبى أمية وأدخله السجن ، فأقام فيه مدة ثم مات[٣] .

(١) طبقات السبكى ج ٢ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٦ وانظر أيضاً Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 287

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٧ ب .

على أن دوائر الفقهاء لم تكن من الناحية النظرية ترمق منصب القضاء بعين الرضا ، ونجد الكلام فى قبول القضاء وعدم قبوله يمتد حتى إلى القرن الرابع الهجرى ، ويقول السمرقندى المتوفى عام ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م : اختلف الناس فى قبول القضاء ، قال بعضهم لا ينبغى أن يُقْبَل القضاء ، وقال بعضهم إذا وُلِّىَ رجل بغير طلب منه فلا بأس بأن يَقْبَل ، إذا كان يصلح لذلك الأمر (١) . وقد احتج من كره ذلك بأحاديث رُويت عن النبى عليه السلام من شأنها أن ترعب القضاة حتى العادل منهم (٢) . ولما كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن ضنّة على القضاء أرسل إليه عمرو بكتاب أمير المؤمنين ، فقال كعب والله لا ينجيه الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ثم يعود فيها أبداً إذا أنجاه الله منها ، وأبى أن يقبل القضاء (٣) . وفى سنة ٧٠ هـ — ٦٨٩ م تولى قضاء مصر عبد الرحمن بن حجيرة ، فلما بلغ أباه ذلك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، هلك الرجل ، ويروى أنه قال : هلك ابنى وأهلك (٤) . ولا أعلم كيف كان موقف المسيحيين الأولين من مسألة القضاء ، أما المسلمون فإنهم تمسكوا بالوصية التى جاءت فى خطبة الجبل (إنجيل متى) من عدم التعرض للحكم على الناس . ويُحكى لنا من ورع المسلمين وخوفهم من ولاية القضاء أن أبا قلابة مثلا دُعى للقضاء ، فهرب من العراق حتى أتى الشام ، فوافق ذلك عزل قاضيها ، فهرب واختفى حتى أتى بلاد اليمامة ، وروى عن سفيان الثورى أنه دعى إلى القضاء فهرب إلى البصرة حتى

---

(١) بستان العارفين ص ٣٨ .

(٢) من أمثلة ذلك ما ذكره السمرقندى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى عليه السلام قال : يجاء بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يودّ أن لم يكن قضى بين اثنين ، وعن أبى هريرة : من جعل قاضياً فكأنما ذبح بغير سكين . (المترجم) .

(٣) الكندى ص ٣٠٢ .

(٤) الكندى ص ٣١٥ .

مات وهو مُتَوارٍ ، ورُوى عن أبى حنيفة أنه ابتلى بالضرب والحبس فلم يقبل حتى مات[١] ، وقد حكى الطبرى أن قوماً من أهل الحديث تحاموا حديث أبى يوسف القاضى من أجل غلبة الرأى عليه مع صحبة السلطان وتقلده القضاء[٢] . وفى عهد الخليفة المهدى أُلزم قاضى المدينة ولاية القضاء بعد أن أشرف عليه والى المدينة بضرب السياط[٣] . وكان القاضى شريك قد ولى القضاء حوالى هذا العصر بعد تأبٍّ وذهب إلى الصيرفى ليأخذ رزقه فضايقه فى النقد فقال له الصيرفى : إنك لم تبع به بزا ، فقال له شريك : بل والله بعت أكثر من البز ، بعت به دينى[٤] . بل يحكى عن بعض العلماء أنه أظهر الجنون هربا من تولى منصب القضاء[٥] .

وكان الصوفية بنوع خاص يقفون من القضاة الذين يسمونهم علماء الدنيا على طرفى نقيض ، ويقولون « إن العلماء يحشرون فى زمرة الأنبياء ، والقضاة يحشرون فى زمرة السلاطين » ويحكى لنا أبو طالب المكى أن إسماعيل بن إسحاق القاضى كان من علماء أهل الدنيا ، ومن سادة الفضلاء وعقلائهم ، وكان مؤاخيا لأبى الحسن بن أبى الورد ، وكان هذا من أهل المعرفة فلما ولى إسماعيل القضاء هجره ابن أبى الورد ، ثم إنه اضطر إلى أن دخل عليه فى شهادة ، فضرب ابن أبى الورد على كتف إسماعيل القاضى وقال : يا إسماعيل ! علمٌ أجلسك هذا المجلس لقد كان الجهل خيراً منه ، فوضع إسماعيل رداءه على وجهه ، وبكى حتى بلّه[٦] . وكان

(١) بستان العارفين للسمرقندى س ٣٩ وتجد أمثلة أخرى فى كتاب كشف المحجوب ترجمة نكلسون س ٩٣ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ترجمة رقم ٨٣٤ من طبعة فستنفلد .

(٣) تاريخ بغداد JRAS, 1912, 54 ، ج ١١ س ٢٧٦ — ٢٧٧ طبعة مصر ١٩٣١ .

(٤) ابن خلكان ترجمة رقم ٢٩٠ .

(٥) تجد أمثلة أخرى ذكرها أمدروز فى مقاله عن منصب القضاء فى الأحكام السلطانية وذلك فى مجلة : JRAS, 1910, S. 775 .

(٦) قوت القلوب ج ١ س ١٥٧ طبعة مصر ١٣١٠ هـ .

الحنفية فيما يتعلق بالقضاء أول من خضع لما اقتضته ظروف الحياة ، وهذا شأنهم بالإجمال فيما عدا ذلك ، ويحكى عن الفقيه الشافعى ابن خيران المتوفى عام ٣١٠ هـ — ٩٢٢ م أنه كان يعيب صاحبه ابن سريج على تولى القضاء ويقول له : هذا الأمر لم يكن فى أصحابنا ، إنما كان فى أصحاب أبى حنيفة . وكان ابن خيران قد امتنع من تولى قضاء بغداد ، فوكّل الوزير به فى داره ، وختم الباب بضعة عشر يوماً [١] . ولكن أبا بكر الرازى المتوفى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م ، وكان إمام أهل الرأى فى عصره خوطب فى أن يلى قضاء القضاة فامتنع وأُعيد عليه الخطاب فلم يفعل [٢] . وكانت العادة حتى أواخر القرن الرابع تقضى ألا يقبل أحد منصب القضاء إلا بعد إحجام وتردّد . ولما صُرف أبو عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة وحل محله أبو الحسن بن أبى الشوارب وذلك فى عام ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م قال العصفرى الشاعر [٣] .

عندى حديثٌ ظريفٌ بمثله يُتغنَّى
مِنْ قاضيين يُعزَّى هذا ، وذاك يُهنَّى

---

(١) AGGW, 37, Nr. 81 ، وهكذا وقع لابن سريج المتوفى عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م فقد أراد الوزير على بن عيسى أن يوليه القضاء فامتنع ، فسمر عليه بابه ، فلما عوتب فى ذلك قال إنه أراد أن يتسامع الناس أن رجلا من أصحاب الشافعى يعامل بمثل هذا لتقلد القضاء ، فيصر على الامتناع ، ويزهد فى الدنيا . وكان ابن سريج قاضياً على شيراز من قبل (انظر طبقات السبكى ج ٢ س ٩٢) ويقول السبكى (ج ٢ س ٢١٣) إن الوزير كان يقصد من ختم دار ابن خيران أن يقال إنه كان فى زمانه من يوكل به ليتقلد القضاء فلا يفعل ، ويحكى السبكى (ج ٢ س ٢١٤) عن ابن زولاق المؤرخ المصرى المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٨ م أن الناس كانوا يأتون بأولادهم الصغار ليشاهدوا باب ابن خيران وهو مسمور ويقولون لهم : انظروا حتى تحدثوا بهذا .

(٢) المنتظم لابن الجوزى س ١١٧ ب .

(٣) نفس المصدر س ١٥٤ ا ، وابن الأثير ج ٩ س ١٤٩ وأبو المحاسن طبعة كالفورنيا س ١٠٣ .

فذا يقول : اكرهونا　　وذا يقول استرحنا
ويكذبان جميعا　　فمن يصدّق منا

٢٣٥

وقد اختُلِف هل يأخذ القاضى عن القضاء رزقاً ؟ ويقال إن عمر بن الخطاب منع من ذلك[١] . أما الخصّاف الفقيه الحنفى المتوفى عام ٢٦١ هـ — ٨٧٤ م فقد حاول أن يثبت جواز أخذ القاضى لرزق من بيت المال مستنداً فى ذلك إلى أحاديث نبوية وإلى أمثلة جرت فى الصدر الأول[٢] . ولما ولى القضاء بمصر ابن حجيرة سنة ٧٠ هـ — ٦٨٩ م كان رزقه فى السنة من القضاء مائتى دينار ، وكان لابن حجيرة إلى جانب ولاية القضاء القَصَص وإدارة بيت المال ، وكان رزقه من القصص ومن إدارة بيت المال أربعمائة دينار ، وكان عطاؤه مائتى دينار ، وكانت جائزته مائتى دينار ، فكان مجموع رزقه فى السنة ألف دينار[٣] وفى سنة ١٣١ هـ — ٧٤٨ م كان رزق قاضى مصر عبد الرحمن بن سالم عشرين دينارا فى الشهر[٤] ، ولكن هذا المبلغ كان فيما يظهر لا يكاد يكفى للإنفاق على كُتّاب القاضى وعلى غير ذلك مما يتطلبه ديوانه ، ومع أن القاضى ابن حجيرة كان يأخذ ألف دينار فى كل سنة ، فكان لا يحول عليه الحول وعنده منها شىء يَفْضُل على أهله وإخوانه[٥] . وقد دخل رجل على قاضى الفسطاط فى سنة ٩٠هـ — ٧٠٩ م وقد تغدّى فقال أتتغدّى ؟ قال : نعم ، فأتت الجارية بعدس بارد على طبق خوص وكعك وماء ، فقال ابلُلْ ، وكل ، فلم تتركنا الحقوق نشبع من الخبز[٦]

---

(١) Gottheil, The Cadi, S. 8.
(٢) كتاب أدب القاضى مخطوط ليدن رقم ٥٥٠ ص ١٢٥ ا .
(٣) الكندى ص٣١٧ .
(٤) الكندى ص ٣٥٤ .
(٥) نفس المصدر ص ٣١٧ .
(٦) نفس المصدر ص ٣٣١ .

وكان القاضي خير بن نعيم الحضرمي الذي تولى القضاء والقصص بمصر عام ١٢٠ هـ ٧٣٨ م يتّجر — إلى جانب منصبه — بالزيت ، فقال له رجل حديث السنّ من حضرموت كان يلازمه : وأنت أيضاً تتّجر ! يحكي لنا هذا الحضرمي الصغير فيقول : « فضرب (خير بن نعيم) بيده على كتفي ، ثم قال انتظر حتى تجوعَ ببطن غيرك ، قلت في نفسي كيف يجوع إنسان ببطن غيره ؟ فلما ابتليت بالعيال إذا أنا أجوع ببطونهم »[1] ، وكان القاضي أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد الرعيني الذي ولي قضاء مصر عام ١٤٤ هـ — ٧٦١ م ، متحرّزاً جداً فيما يتعلق برزقه « فكان إذا غسل ثيابه أو شهد جنازةً أو اشتغل بشغل لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل ، وقال : إنما أنا عاملٌ للمسلمين ، فإذا اشتغلت بشيء غير عملهم فلا يحلّ لي أخذ مالهم » ، « وكان يعمل الأرسان كل يوم رسنين واحدا ينفقه على نفسه وأهله وآخر يبعث به إلى إخوان له من أهل الإسكندرية لكل واحد منهم رسن ، وكان ذلك في سبيل الله[2] » . وكما أن العباسيين جعلوا للقاضي منصبا رفيعا مستقلا فإنهم رفعوا رزقه أيضاً ، فكان رزق عبد الله بن لهيعة الذي ولي القضاء على مصر من قبل المنصور عام ١٥٥ هـ ثلاثين ديناراً في كل شهر[3] ، وكان رزق المُفضَّل بن فضالة قاضي مصر من قبل المهدي ثلاثين ديناراً في كل شهر أيضاً ، وكان يأخذ عسلا بدل عشرة منها[4] . أما في عصر المأمون بما كان فيه من كرم ، فقد أجرى والي مصر على القاضي الفضل بن غانم الذي ولي القضاء عام ١٩٨ هـ مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر ، وكان الفضل أول قاض أُجري عليه هذا الرزق الكبير[5] . ولما تولى مصر عبد الله بن طاهر وكان مشهوراً

212

(١) نفس المصدر ص ٣٥٢ .
(٢) الكندي ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٦٩ .
(٤) نفس المصدر ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .
(٥) نفس المصدر ص ٤٢١ . وفي ص ٤٣٥ أن رزقه كان مائة وثلاثة وستين ديناراً =

بالكرم ، قلّد عيسى بن المنكدر القضاء عام ٢١٢ هـ ، ولما عرف أنه مُقِلّ أجرى عليه سبعة دنانير كل يوم « لجرت فى القضاء إلى اليوم[(١)] » . ويحدثنا المسعودى عن إبراهيم بن جابر القاضى أنه كان ببغداد « يعالج الفقر ويتلقاه من خالقه بالرضا ناصراً للفقر على الغنى ، فما مضت أيام حتى لقيتُه بحلب من جند قنّسرين والعواصم من أرض الشام ، وذلك فى سنة ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م ، وإذا هو بالضد مما عهدته متوليًا للقضاء على ما وصفنا ، ناصراً ومشرّفا للغنى على الفقر . . . وقد أُخبرت أنه قطع لزوجته أربعين ثوبا تستريّا وقصبا وأشباه ذلك من الثياب على مقراض واحد ، وخلّف مالا عظيما لغيره[(٢)] » . وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاء وبين أخذ الأموال بغير حق ، فأمر بأن يُضعّف للحسين بن على بن النعمان رزقه وصلاته وإقطاعاته ، وشرط عليه ألا يتعرض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه[(٣)] . ويحدثنا الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى أن رزق قاضى القضاة بمصر ألفا دينار فى الشهر[(٤)] ، ويُذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أن دَخْل القاضى عبد الحاكم بن سعيد الفارقى فى السنة كان يزيد على عشرين ألف دينار[(٥)] . وكان القاضى فى المشرق يُعطى رزقه من بيت المال[(٦)] ،

= وفى ص ٥٠٧ أن المتوكل أجرى على خلفه مثل رزقه .

(١) نفس المصدر ص ٤٣٥ ، وفى نصوص أخرى أن رزقه غير ذلك ، ويحكى السبكى (ج ٢ ص ٣٠٢) نقلا عن ابن زولاق المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٨ م أن رزق القاضى ابن حربويه الذى عزل عن القضاء سنة ٣١١ هـ — ٩٣٣ م كان مائة وعشرين ديناراً فى الشهر .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٨٨ — ١٩٠ .

(٣) الكندى ص ٥٩٧ .

(٤) ناصر خسرو ص ١٦١ .

(٥) الكندى ص ٦١٣ ، أما ما ذكر فى ص ٤٩٩ من أن دخله كان خمسين ألف دينار فى السنة ، فيجب أن يؤخذ على أنه ما يحصل عليه بغير حق . ونجد فى بيان المقريزى (الخطط ج ١ ص ٤٠١) لنفقات الفاطميين أن رزق قاضى القضاة كان مائة دينار فى الشهر .

(٦) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١١٥ .

ولكن عندنا من النصوص ما يدل على أنه كان لا يأخذ شيئاً من رزقه ، إما لأنه كان لا يكفيه أو رغبة عن رزق القضاء على سبيل اتقاء الشبهة والرغبة فى التحرّز ، ويظهر أن الأمر الأخير هو الحق ، فإن الحسن بن عبد الله (المتوفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٧٨ م) لبث على قضاء مدينة سيراف خمسين عاما ، ومع أن هذه المدينة كانت مدينة تجارية كبيرة ، فقد كان الحسن يعيش مما يبيعه من منسوخاته المشهورة بجودة خطها [١] . وقد امتنع قاضى المدينة فى عهد المهدى أن يأخذ رزقا ، لأنه لم يرد أن يصيب مالا من هذا المنصب الذى يكرهه [٢] . ولما ولى قضاء القضاة ببغداد محمد بن صالح بن أم شيبان الهاشمى فى سنة ٣٦٣ هـ — ٩٧٢ م ، وكان يتفقّه لمالك اشترط عند تولى منصبه شروطا منها ألا يتناول على القضاء أجراً ، ولا يقبل شفاعة فى فعل ما لا يجوز ولا فى إثبات حق ، ولا يغير ملبوسه [٣] ، وكان علىّ بن المحسن التنوخى المتوفى عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م قد تقلد قضاء عدة نواح ، وكان دخله كل شهر من القضاء ودار الضرب التى كان يتولاها مع القضاء ستين ديناراً فى الشهر [٤] ، وفى سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م كبس اللصوص دار أحد القضاة ببغداد ، وأخذوا جميع ما كان فى منزله ولم يكن شيئاً مذكوراً ، لأنه كان مشهوراً بالفقر ، وكانوا يقدّرون أن للقاضى مالا ، فضربوه ليستخرجوه منه فهرب إلى السطوح ورمى بنفسه إلى ما جاوره فسقط فمات [٥] . وفى سنة ٣٥٢ هـ — ٩٦٣ م تقلّد أبو بشر عمر بن أكثم القضاء ببغداد على ألا يأخذ رزقا [٦] . وكان للقاضى أبى الطيب الطبرى

213

---

(١) Huart, Calligr. S. 77.

(٢) تاريخ بغداد JR.A.S., 1912, S. 54 و ج ١١ ص ٢٧٧ من طبعة القاهرة سنة ١٩٣١

(٣) ملحق القضاة للكندى ص ٥٧٣ ، وابن الجوزى فى المنتظم ص ١٠٥ ب ، ولذلك حكاية أخرى عند السبكى فى طبقاته ج ٣ ص ٨٤ .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٠٢ .

(٥) المنتظم ص ٧٥ أ

(٦) مسكويه ج ٦ ص ٢٥٧ .

عمامة وقميص بينه و بين أخيه ، إذا خرج ذاك قعد هذا فى البيت ، و إذا خرج هذا احتاج ذلك أن يقعد[١] . وكان أبو بكر محمد بن المظفر الشامى قاضى قضاة بغداد المتوفى عام ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م زاهداً ورعا . وقد شرط عند تولى القضاء ألا يأخذ رزقا ، وكان له كراء بيت قدره فى الشهر دينار ونصف ، وكان من ذلك قوته ، وكان له عمامة من الكتان وقميص من القطن الخشن ، وكان له كيس يحمل فيه فتيت الخبز ، فإذا أراد الأكل جعل من الفتيت فى قصعته ، ووضع عليه قليلا من الماء وأكل منه[٢] . وكذلك كان أحمد بن يحيى القاضى الأندلسى يختلف إلى غلة كان يعمرها بالعمل ليعيش منها[٣] . و يحدثنا بيترمان (Petermann) وهو فى دمشق عام ١٨٥٢ هـ « فى كل سنة يُرسلُ قاضٍ جديدٌ من القسطنطينية يختاره شيخ الإسلام و يرسله ، وهو يأخذ نصيباً ثابتاً من تركة كل من يموت (قيل لى إنه الربع وهو كثير بالطبع) ، وهو يأخذ نصف العشر عن كل قضية يحكم فيها ، وهذا هو المقدار الذى يدفعه كل فرد من رعايا الباب العالى عن القضية التى يتقدم بها (ولو خسرها) . أما الرعايا الأورو بيون فإنهم يدفعون خمس العشر[٤] » ، وفى مراكش اليوم يأخذ القضاة باعتبارهم عُمّالا دينيين ، أرزاقهم من الحبوس (الأوقاف الخيرية) . ولما كان هذا نادراً فإنهم يُتركون لقبول الهدايا من المتحاكمين إليهم[٥] . وفى سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م تقلد أبو العباس بن أبى الشوارب قضاء بغداد بعد أن وافق على أن يحمل إلى خزانة الأمير معز الدولة مائتى ألف درهم فى كل سنة . وكان هذا القاضى « مع قبح فعله قبيح الصورة مشوّهها »[٦]

(١) ابن خلكان ترجمة رقم ٣٠٦ من طبعة فستنفلد .
(٢) طبقات السبكى ج ٣ ص ٨٤ .
(٣) ابن بشكوال ج ١ ص ٦٠ .
(٤) Petermann, Reisen im Orient, S, 98 .
(٥) انظر Revue du monde Musulman, XIII S. 517
(٦) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

وقد اتُّهم « بالغلمان والشهوات والخمور »[١] ولكن الأمور لم تَسِرْ معه على عادتها ، فقد خُلع عليه من دار السلطان وامتنع الخليفة من أن يصل إليه ، ولم يأذن له الخليفة أن يصل إليه فى يوم موكب ولا غيره ، ثم عُزل من منصبه بعد عامين ، وتولى مكانه أبو بشر عمر بن أكثم المتقدم الذكر وأُعفى مما كان يحمله ابن أبى الشوارب ، وأُمر بألا يمضى شيئاً من أحكام ابن أبى الشوارب وسجلاته ، لأنه اشترى منصبه شراء[٢] .

214

وقد كان القاضى توبة بن نمر الحضرمى المتوفى عام ١٢٠ هـ — ٧٣٨ م أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس ، وإنما كانت الأحباس فى أيدى أهلها وأيدى أوصيائهم ، فأراد توبة أن يضع يده عليها حفظا لها « فلم يمت حتى صارت الأحباس ديوانا عظيما »[٣] وكان القاضى إلى جانب هذا يتولى أموال اليتامى ، ومنذ عام ١٣٣ هـ — ٧٥١ م أوردها القاضى خير بن نعيم بيت المال وسجّل فى كل مال منها سجلا بما يدخل منها وما يخرج[٤] ، وفى سنة ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م توفى القاضى محمد بن النعمان فوُجد عليه من أموال اليتامى ستة وثلاثون ألف دينار ، فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله أن تُصادر أمواله وأُرسل فهد النصرانى كاتب الوزير ، فاحتاط عليها ، وشرع فى البيع وفى تغريم الشهود الذين كانت الودائع تحت أيديهم (وهم خيار أهل البلد) إلى أن تحصل نصف الدين ، وأمر

(١) تذكرة ابن حمدون عند أمدروز (Amedroz, JRAS, 1910, s. 789 فى) وكان الولع بالغلمان من رذائل القضاة المعروفة (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٨٨) ومن القضاة من كان مشهوراً باللواط ومنهم من كان مشهوراً بالأبنة (محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢٥ والمستطرف ج ٢ ص ١٩٩) وكان يحيى بن أكثم قاضى قضاة المأمون لواطا مشهوراً ، وقد هجا البحترى (الديوان ج ٢ ص ١٧٥ من طبعة القسطنطينية) ابن أبى الشوارب قاضى القضاة بمثل هذه الرذيلة .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٩ ، ٢٥٧ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٠ ، ٤٠٧ .

(٣) الكندى ص ٣٤٢ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٥٥ .

الحاكم ألا يودع بعد ذلك عند أحد الشهود مالُ يتيم ولا غائب ، وأفرد موضعٌ يوضع فيه المال ويختم عليه أربعة من الشهود لا يفتح إلا بحضورهم [١] . ولم يدخل فى اختصاص القاضى النظر فى المواريث بصورة نهائية إلا فى القرن الرابع الهجرى [٢] ثم صار إليه أخيراً الإشراف على سجون البلاد التى يلى قضاءها ، واختص القضاة من ذلك بما سمى حبوس القضاة ، وهى الخاصة بمن يحبس لدين عليه ، وذلك فى مقابل حبوس المعونة التى يُحبس فيها أصحاب الجنايات . وفى سنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م أمر فخر الدولة ليلة الفطر بتأمل من فى حبوس القضاة فمن كان محبوسا على دينار إلى عشرة أطلق ، وما كان أكثر من ذلك كُفل ، وأخرج ليعود بعد التعييد ، وأوعز بتمييز من فى حبس المعونة فمن صَغُرت جنايته أطلق ووقعت توبته [٣] .

وكانت عادة المتحاكمين أن يتقدموا للقاضى برقاع فى الرقعة منها اسم المدَّعِى واسم خصمه وأبيه ، وكان الكاتب يأخذ هذه الرقاع عند باب المسجد قبل مجئ القاضى ، ولا يزال يأخذها حتى يحضر القاضى ، وإذا كانت الرقاع كثيرة لا يقدر القاضى أن يدعو بها كلها فى يوم ، فرّقها فى كل يوم خمسين رقعة أو أكثر من ذلك على قدر طاقته فى الجلوس والصبر [٤] . وكانت جلسات القاضى للحكم علنية ، وقد خاصم رجلٌ المأمونَ مرة ، وأذن المأمون للقاضى يحيى بن أكثم فى القضاء بينهما فى دار الخلافة ، فقال القاضى : فإنى أبدأ بالعامة أولا ليصح المجلس للقضاء ، ثم أمر بفتح الباب وقعد فى ناحية من دار الخلافة وأذن للعامة فى الدخول ، ونادى المنادى وأخذ الرقاع ودعا بالناس ، ثم قضى بين الخليفة وخصمه [٥] . ومن

---

(١) ملحق الكندى ص ٣٩٥ .
(٢) انظر الفصل الخاصة بالأمور المالية (الفصل الثامن) .
(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ١٥٧ ب .
(٤) كتاب أدب القاضى مخطوط بمكتبة ليدن رقم ٥٥٠ ص ٩ ا
(٥) المحاسن والمساوئ للبيهقى طبعة شفالى ص ٥٣٢ .

أجل أن جلسات القضاء كانت علنية ، فقد كان القاضى فى أول الأمر يجلس فى 215 مكان لا يُمنع أحد من المسلمين من الدخول إليه ، وهو المسجد الجامع حيث كان يجلس مستنداً إلى أسطوانة من أساطين المسجد (١) وكذلك كان القاضى يجلس أحيانا للقضاء فى داره ، ويحكى عن خير بن نعيم الذى تولى قضاء مصر عام ١٢٠ هـ — ٧٣٨ م أنه كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره ، فكان يجلس فيه فيسمع ما يجرى بين الخصوم من الكلام (٢) . وقد ولى قضاء مصر إبراهيم ابن الجراح سنة ٢٠٥ هـ — ٩١٩ م ، وقد سخط المصريون عليه وكان مُصَلَّاهُ موضوعا فى المسجد الجامع فجاء المصريون وألقوه فى الطريق ، فجلس للحكم فى منزله ، ولم يعد للمسجد الجامع حتى صُرف . ولم يكن هذا القاضى بالمذموم فى أول الأمر حتى قدم عليه ابنه من العراق فأفسد أموره وخدعه وأخذ الرشا من الناس ، فسخط المصريون على القاضى (٣) . ولما ولى القاضى هرون بن عبد الله قضاء مصر سنة ٢١٧ هـ — ٨٣٢ م جعل مجلسه فى الشتاء فى مقدَّم المسجد ، واستدبر القبلة ، وأسند ظهره بجدار المسجد ، « ومنع المصلين أن يقربوا منه ، وباعد كتّابه عنه ، وباعد الخصوم ، وكان أول من فعل ذلك » . واتخذ مجلساً للصيف فى صحن المسجد وأسند ظهره للحائط الغربى (٤) . وقد رأى أهلُ السنة بعد انتصارهم حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى أن جلوس القاضى فى المسجد ينافى ما يجب لبيوت الله من الحرمة ، فأمر المعتضد سنة ٢٧٩ هـ ألا يقعد القضاة فى المسجد (٥) . ولكن هذا الأمر لم يثمر إلا قليلا ، فقد كان قاضى القضاة ببغداد حوالى عام ٣٢٠ هـ —

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١٢٣ .
(٢) الكندى ص ٣٥١ .
(٣) الكندى ص ٤٢٨ .
(٤) نفس المصدر ص ٤٤٣ — ٤٤٤
(٥) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٨٧ .

٩٣٢ م يجلس للقضاء فى داره[١] أما فى مصر فكان القاضى يجلس للقضاء فى داره أحيانا ، وفى الجامع أحيانا أخرى[٢] . ولما تولى أبو عمر محمد بن الحسين البسطامى (المتوفى عام ٤٠٧ هـ — ١٠١٦ م) قضاء نيسابور أُجلس فى مجلس القضاء فى المسجد فى الساعة التى قُرِئَ فيها عهده[٣] .

يقول المعرى شاكيا حال العدول وسوء فعلهم[٤] :

فى البدو خُرّابُ أذواد مسوّمة   وفى الجوامع والأسواق خُرّابُ
فهؤلاء تسمّوا بالعدول أو التجـــار واسم أولاك القوم أعرابُ

ويقول فى العدول فى موضع آخر[٥] :

عدول لهم ظلم الضعيف سجية   يسمّون أعراب القرى والجوامع .

أما فى عصر الفاطميين فكان قاضى القضاة بالقاهرة يجلس السبت والثلاثاء بزيادة جامع عمرو بن العاص على طراحة ومسند حرير . وكان الشهود يجلسون حواليه يمنة ويسرة بحسب تاريخ عدالتهم . وبين يديه خمسة من الحجاب ، اثنان بين يديه ، واثنان على باب المقصورة ، وواحد ينفذ الخصوم إليه ، وأمامه كرسى الدواة ، وهى دواة محلاة بالفضة تُحمل إليه من خزائن القصور[٦] .

وكان المتحاكمون إلى القاضى فى العصر الأول يبسطون قضيتهم وهم وقوف بين يديه ، وقد أتى الأمير الأموى عبد الملك بن مروان النصيرى إلى القاضى خير ابن نعيم يخاصم ابن عم له ، فقعد على مفرش القاضى ، فقال له القاضى : قم مع ابن عمك ، فغضب الأمير ، وقام ولم يخاصم[٧] . ثم صار الرسم أن يجلس

---

(١) طبقات السبكى ج ٢ س ١٩٤ .
(٢) نفس المصدر ج ٢ س ١١٤ .
(٣) نفس المصدر ج ٣ س ٥٩ .
(٤) Kremer, ZDMG, 30, S. 49
(٥) Kremer, ZDMG, 31, S. 478
(٦) الخطط للمقريزى ج ١ س ٤٠٣ .
(٧) الكندى س ٣٥٦ .

المختصمون بين يدى القاضى صفًا متساوين . وقد وقع بين أم المهدى وبين أبى جعفر المنصور خصومة ، فقالت لا أرضى إلا بحكم غوث بن سليمان ، وكان هذا قاضياً على مصر من قِبَل المهدى ، فحُمل إلى العراق للحكم بينهما فوكَّلت أم المهدى عنها وكيلا ، جلس أمام القاضى ، فطلب القاضى من أمير المؤمنين أن يساوى خصمه فى مجلسه فانحطَّ عن فرشه ، وجلس مع الخصم . وبعد النظر فى القضية حكم القاضى لأم المهدى على أمير المؤمنين [1] . وقد جاء فى مصدر أن المأمون شكاه رجل إلى القاضى يحيى بن أكثم ، فنودى الخليفة ليجلس مع خصمه فأقبل ، ومعه غلام يحمل مُصَلّى ، فأمره القاضى بالجلوس ، فطرح المصلى ليقعد عليه ، فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، فطرح للخصم مصلى آخر فجلس عليه [2] . وقد خوصم مولى السيدة زبيدة زوجة الرشيد ووكيلها إلى القاضى محمد بن مسروق ، فأمر بإحضاره ، فجلس متربّعا فأمر به مسروق فبطح وضُرب عشرا [3] ، هذا مع أنه وكيل السيدة ذات النفوذ العظيم .

وقد تعرض أهل النظر للبحث فى جميع الأمور الصغيرة التى قد تؤثر على عدالة القاضى ، هل يجوز للمتخاصمين أن يسلموا على القاضى ؟ إذا سلم عليه أحد الخصمين فقال « السلام عليكم » ينبغى للقاضى أن يقول : « وعليكم » ، ولا يزيد على ذلك شيئاً ، لأن هذا يكفى ، أما إن قال : « وعليكم السلام » فإن كلمة السلام زيادة فى الجواب . ولهذا ذهب قوم إلى أنه لا ينبغى للخصوم أن يسلموا على القاضى [4] وكذلك شدد أهل العدالة على القاضى فى ألا يؤثر على المتخاصمين

---

(١) نفس المصدر ص ٣٧٤ — ٣٧٦ .

(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقى ص ٥٣٣ .

(٣) الكندى ص ٣٩٢ .

(٤) أدب القاضى مخطوط ليدن رقم ٥٥٠ ص ١٢٢ ا

أقل تأثير ، فلا يصيح على أحدهم ليستخرج منه الإجابة التي يريدها[١] وقد كانت هذه المعاملة اللينة من القضاة لمن يختصم إليهم ؛ وعجز القضاة أحياناً عن إلزام أحد الخصمين بإعطاء المال لصاحبه ، أن اخترعت عند أهل الفكاهة بمصر قصة القاضي النطاح الذي ثبّت في قلنسوته قرني ثور لينطح بهما المعاند من المتخاصمين ، وقد سمع الخليفة الحاكم بذلك . فلام القاضي على ما فعل فطلب القاضي من الخليفة أن يجلس وراء الستار في مجلس القضاء ليرى بنفسه مقدار بلادة الناس ، فحضر الخليفة ، ومثل بين يدى القاضي خصمان يطالب أحدهما الآخر بمائة دينار ، فاعترف المدعى عليه بالدين ، ولكنه طلب أن يدفعه مقسّطاً ، فاقترح القاضي في أول الأمر أن يدفع عشرة دنانير في كل شهر ، ولكنه اعترض فخفض القاضي ذلك إلى خمسة دنانير ، ثم إلى دينارين ، ثم إلى دينار ، ثم إلى نصف دينار ، فأظهر العجز ، وأخيراً سأله القاضي أن يبين ما يستطيع أن يدفعه فقال إنه يدفع ربع دينار في كل عام ؛ ولكنه شرط أن يبقى خصمه في السجن ، لأنه إن أطلق وعجز هو عن أداء ما عليه فربما قتله . عند ذلك سأل الحاكم القاضي : كم نطحته فقال : واحدة ، فقال الحاكم : مرتين ، أو انطحه مرة وأنا أنطحه الأخرى[٢] .

وكان القاضي يلبس السواد على هيئة عمال بني العباس ، وكان المفضل بن فضالة قاضي مصر من قبل المهدى عام ١٦٨ هـ — ٧٨٤ م يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة[٣] . ولما ولى الحارث بن مسكين قضاء مصر عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م

---

(١) فلا يضحك في وجه أحدهما أو يساره ، أو يومئ إليه بشيء دون خصمه لئلا ينكسر قلب أحدهما ، ويقعد عن الحجة تاركا الحق لصاحبه ، ويجب عليه أن يدنى الضعيف حتى يشتد قلبه ، ويتعهد الغريب حتى يقوى في المطالبة بحقه ، هذا ولا يجوز له أن يمازح الخصوم ، ولا أن يفعل ما ينافى هيبة القاضي . (المترجم)

(٢) de Sacy ,Religion des Druses, CCCCXXVIII.

(٣) الكندى ص ٣٧٨ .

طُلب إليه أن يلبس السواد ، فامتنع تخوّفه أصحابه سطوة السلطان به ، وقالوا له : يقال إنك من موالى بنى أمية ، فأجابهم إلى لباس كساء أسود من الصوف [١] .
وفى غضون القرن الثالث الهجرى كانت القلنسوة ، وتسمى أيضاً الدَّنِّيَّة فى لغة المستهزئين ، هى لباس القضاة الذى يميزهم ، وكانت تُلبس مع الطيلسان [٢] ، ولما صُرف القاضى أحمد التنوخى عن القضاء ، ثم أعيد إليه قال : أحب أن يكون بين الصرف والقبر فرجة ، ولا أنزل من القلنسوة إلى الحفرة [٣] . وقد شبّه أحد الكتاب رجلا فقد الملاحة فقال مثل قاض بلا دنّيّة [٤] . وكان ببغداد فى سنة ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م قاض يعرف بأحمد بن سيّار ، وكانت له هيبة وجثة مهولة ولحية طويلة ، فقدم إليه امرأتان ادعت إحداهما على الأخرى ، فقال : ما تقولين فى دعواها قالت أفزع أيّد الله القاضى ، قال مماذا قالت : لحيـة طولها ذراع ، ووجه طوله ذراع ، ودنّيّة طولها ذراع ، فأخذتنى هيبتها ، فوضع القاضى دنّيّته ، وغطى بكمّه لحيته ، وقال : قد نقصتك ذراعين ، أجيبينى عن دعوتها [٥] . وكان قضاة الفاطميين يحملون سيفاً [٦] .

(١) نفس المصدر ص ٤٦٩ . وكان محمد بن بشير قاضى قرطبة فى عهد الخليفة الحكم حسن الهيئة نظيف الملبس ، وكان يخرج إلى المسجد ويقعد للحكم فى إزار مورد ولمة مفرقة ، (أخبار مجموعة ص ١٢٧ ، البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى ج ٢ ص ٨١ طبعة ليدن) .

(٢) الأغانى ج ١٠ ص ١٢٣ والارشاد لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ ، ج ٦ ص ٢٠٩ ، ورسائل الهمذانى ص ١٦٨ وملحق الكندى ص ٥٨٦ .

(٣) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٩٢ .

(٤) كتاب الديارات للشابشتى ص ٨١ أ .

(٥) تاريخ الاسلام للذهبى فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية (JRAS, 1911, p. 669, Note. I) ، والظاهر أن قضاة مصر فى النصف الأول من القرن الرابع كانوا يلبسون طيلساناً أزرق (كتاب الديارات ص ١٣١ أ) ، وكذلك كان أحد القضاة ببغداد حوالى عام ٤٠٠ هـ يلبس طيلساناً أزرق (الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٦١) وكذلك كان العدول يلبسون قلانس سوداء طويلة ، ويسخر أحد شعراء القرن الرابع من القلانس ، فيشبه قلنسوة القاضى بأنها غراب نوح بلا جناح (انظر محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢٩) .

(٦) ملحق الكندى ص ٥٨٩ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ .

وكان موظفو ديوان قاضى القضاة ببغداد فى سنة ٣٣٦ هـ م :

الـكاتب ، وقد رُتِّب له فى كل شهر ثلثمائة درهم .

الحاجب ، ورزقه مائة وخمسون درهما فى الشهر .

ومن يعرض الأحكام ، وراتبه فى الشهر مائة درهم .

وخازن ديوان الحكم ومن معه من الأعوان ، ولهم ستمائة درهم[1] .

ومنذ عهد الخليفة المنصور ظهر أكبر ما يستلفت النظر فى النظام القضائى ، وهو إيجاد جماعة من الشهود الدائمين أمام القاضى ، ويخبرنا الـكندى وهو مؤرخ ثقة عن نشأة الشهود فيقول : كان القضـاة إذا شهد عندهم أحد وكان معروفاً بالسلامة قبله القاضى ، وإنْ كان غير معروف بها أُوقف ، وإن كان الشاهد مجهولا لا يُعرف سئل عنه جيرانه ، فما ذكروه به من خير أو شر عُمل به ، حتى كان غوث بن سليمان فى خلافة المنصور ، فكان أول من سأل عن الشهود بمصر فى السرّ ، وكان سبب ذلك كثرة شهادة الزور فى زمن غوث ، وكان من عُدّل عنده قبله ، ثم يعود الشـاهد واحداً من الناس ، ولم يكن أحد يوسم بالشهادة ولا يشار إليه بهـا[2] . ثم إن القاضى المفضل بن فضـالة عين رجلا يسمى صاحب المسائل ليسأل عن الشهود ويشهد عليهم ، وكان المفضل أول من استعمل هذا العامل ، فتحدث الناس أنه كان يرتشى من أقوام ليذكرهم بالعدالة[3] . ثم جاء القاضى العمرى على قضـاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ — ٨٠١ م فاتخذ الشهود « وجعل أسماءهم فى كتاب ، وهو أول من فعل ذلك ، ودوّنهم وأسقط سائر الناس ، ثم فعلت القضاة ذلك من بعده حتى اليوم »[4] وقد سخر الشعراء

---

(١) نفس المصدر ص ٥٧٤ ، والمنتظم لابن الجوزى ص ١٠٥ ب .

(٢) الـكندى ص ٣٦١ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٨٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٩٤ .

من هـذا القاضى لأنه اتخذ من أهل المدينة من موالى قريش والأنصار وغيرهم نحواً من مائة شاهد[١] ، ثم أسقط جمعاً منهم ، وحطّ عليهم نحواً من ثلاثين رجلا ممن ألّب عليه من الفرس[٢] .

ومن الشهود نشأت بطانة القاضى ، وقد أمر القاضى لهيعة بن عيسى الذى تولى القضـاء بمصر عام ١٩٩ صاحب مسـائله أن يجدِّد السؤال عن الشهود والموسومين بالشهادة فى كل ستة أشهر ، ليقف من حدثت له جرحة ، واتخذ من بين الشهود قوماً جعلهم بطانته وكانوا نحواً من ثلاثين رجلا[٣] .

وقد اهتم أحد القضاة وهو عيسى بن المنكدر الذى تولى القضاء عام ٢١٢ هـ ، بأمر الشهود اهتماما كبيراً ، فكان يتنكر بالليل ، ويغطّى رأسه ، ويمشى فى السكك ليسأل عن الشهود[٤] . ونجد فى عهد بولاية القضاء فى كتاب الخراج لقدامة بن جعفر أن التثبت فى شهادة الشهود ، والمبالغة فى المسألة عنهم ، والفحص عن وجوه عدالتهم ، والبحث عن حالاتهم ، من أهم واجبات القاضى[٥] . وكان عضد الدولة لا يجعل للشفاعات طريقاً ، ويحكى أن مُقَدَّم جيشه شفع فى بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضى ليسمع تزكيته ، ويُعَدِّله ، فقال عضد الدولة : « ليس هذا من أشغالك إنما الذى يتعلّق بك الخطاب فى زيادة قائد ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم ، وأما الشهادة وقبولها ، فهو إلى القاضى وليس لنا ولا لك الكلام فيه »[٦] . ويحكى أن الخليفة الحاكم فى هذه المسألة ، مسألة العدول ، جرى على

219

---

(١) الـكندى ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٠٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٤٢٢ .
(٤) نفس المصدر ص ٤٣٧ .
(٥) مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص ١٢ ب
(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥ .

ما عرف عنه من فعل الشيء ثم نقضه ، ففي سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م سأله جماعة من المصريين أن يؤهّلهم للعدالة ، فأذن لهم في ذلك ، وتشبّه بهم غيرهم في سؤاله ، حتى بلغ عدد العدول ألفا ومائتين ونيّفا ، فأعلمه قاضي القضاة أن كثيراً منهم لا يستحقون العدالة ، ولا يُوثَق بهم في شهادة ، فأذن له ، على حسب عادته بتصفحهم وإقرار من يرى إقراره منهم [١] . ولما كان هؤلاء العدول يختارهم القاضي ويُعَدِّلهم بنفسه ؛ فإنهم كانوا يُعزلون بعزله أو موته [٢] .

وكان القاضي إسماعيل بن عبد الواحد ، قاضي مصر سنة ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م يلزم الشهود أن يركبوا معه [٣] . وحوالي ذلك الوقت كان الرسم أن يجلس مع القاضي عند نظره في القضايا أربعة شهود ، اثنان يجلسان عن يمينه واثنان عن يساره [٤] . وفي القرن الرابع الهجري نجد الشهود قد أصبحوا نوعاً من العمال الثابتين بعد أن كانوا في أول الأمر من حاشية القضاة الأمناء الذين يوثق بشهادتهم . وهذا القرن أيضاً هو الذي أوجد هذا النظام الذي لا يزال باقياً إلى اليوم وأحلّه محل النظام الإسلامي القديم ، بل نجد أن القاضي التميمي في القرن الثالث الهجري بالبصرة قد عين في أثناء ولايته ستة وثلاثين ألف شاهد ، منهم عشرون ألفاً لم يشهدوا بعد تعيينهم ، فلم يحظوا بشرف منصبهم [٥] . وكان

(١) يحيى بن سعيد مخطوط باريس ص ١٢٤ أ — ب ، وملحق الكندي ص ٦١٢ .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٢٨ .

(٣) ملحق الكندي ص ٥٤٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦٩ ، ٥٩٠ .

(٥) Amedroz, JRAS, 1910, S. 779 ff. نقلا عن نشوار المحاضرة للتنوخي مخطوط باريس . انظر أيضاً رسائل الصابي ص ١٢٢ . ويسمى كبير الشهود مقدمهم ووجههم (كندي ص ٥٨٨ ، ٥٨٩) وقد تكلم المسعودي (مروج ج ٨ ص ٣٧٨) ، وهو بمصر عام ٣٣٣ هـ عن الشهود ببغداد ، وقد سمي الشهود في خراسان والمغرب في النصف الثاني من القرن الرابع بالعدول (يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٣ ، ومسكويه في مواضع كثيرة ، وقاموس دوزي ، ومقدمة ابن خلدون ترجمة دي سلان ص ٤٥٦) وقد بقيت هذه التسمية بمراكش =

ببغداد حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م نحو من ألف وثمانمائة شاهد . وفى سنة ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م أكثر الشهودُ التردُّدَ على القاضى محمد بن موسى بمصر فقال لهم . ما لكم معاش عندنا فلا يجىء أحد منكم إلا لحاجة أو لشهادة[١] ، فكأن الشهود أرادوا أن يكونوا موظفين ، ولكن القاضى كان على الرأى القديم فى أمر الشهود . وفى سنة ٣٨٢ هـ — ٩٩٢ م بلغ عدد الشهود ببغداد ثلاثمائة وثلاثة ، ولكن هذا العدد كان يعتبر كثيراً[٢] ، وفى أواخر القرن الرابع أنقص قاضى القضاة بالقاهرة عددَ الشهود[٣] ، وقد أوصى الدمشقى التاجرَ الماهرَ أن يحتاط فى شهادة من يشهدون على العقود التى يريد إمضاها فيسأل عنهم إن لم يكن خبيراً بهم حتى يعرف المشهورين بالأمانة والنزاهة فى الدين واليسار فيأخذ بشهاداتهم ، وذلك لأنه فى أكثر الأوقات يدخل فى الشهود من لا يستحق منزلة العدالة لعناية به أو جاه بعض أقاربه ويلبث مدة ثم ربما حدث أمر آخر فيُسْقَط الشاهد وتضيع قيمة الكتاب أو العقد الذى شهد عليه[٤] ، وكان ينوب عن القاضى شاهدٌ فى كل محكمة من المحاكم الخمس الصغرى ليحكم فيها باعتباره قاضياً مستقلا يحكم فى القضايا الصغيرة[٥] . وكان الشهود فى عصر

220

= إلى اليوم (انظر مجلة العالم الإسلامى Revue du monde musulman. XIII, 517ff) أما الشهود الذين لا يقومون بالشهادة ويرشحون لها فيسمون الموسومين بالعدالة (الكندى ص ٤٢٢ ورسائل الصابى ص ١٢٢) .

(١) الكندى ص ٥٤٩ ، وأمدروز Amedroz, JRAS. 1910, S. 783 نقلا عن رفع الإصر لابن حجر مخطوط باريس رقم ٢١٤٩ ص ١٢٨ ا .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ١٦٣ ا ، ١٣٤ ا ، Amedroz, JRAS. 1910 S. 779 ff. نقلا عن رفع الإصر ، وعن تاريخ الذهبى .

(٣) رفع الإصر ص ٢٨ ا ، الكندى ص ٥٩٦ .

(٤) الإشارة إلى محاسن التجارة لأبى الفضل جعفر بن على الدمشقى ص ٣٥ — ٣٦ من طبعة مصر ١٣١٨ هـ .

(٥) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٣٣ (؟)

لين Lane يجلسون فى دهليز المحكمة الكبرى ، ويقدّم الشاكى قضيته لمن يجده غيرَ مشغول منهم ، فيقيّدها هذا ، ويأخذ عن تقييدها قرشاً أو أكثر ، فإن كانت القضية صغيرة ، ورضى المدّعى عليه بحكم الشاهد حكم هذا فيها ، وإلا أدْخَلَ الخصمين إلى القاضى .

وقد أوصى الخليفة الطائع فى عهده لقاضى القضاة [1] ، أبى محمد بن معروف وهو العهد الذى كتبه الصابى فى سنة ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م وصية متكررة بالإكثار من تلاوة القرآن ، وأن يتخذه إماماً يهتدى بآياته ، وبالمحافظة على الصلوات فى أوقاتها ، وبالجلوس للخصوم وفتح بابه لهم على العموم ، وأن يوازى بين الفريقين المتحاكمين إليه ، ولا يحابى مليّا على ذِمّى . وأمره بالقصد فى مشيته . وبالغض من صوته ، وحذف الفضول من لفظه ، وأن يخفّف من حركاته ولفتاته ، ويتوقّر من سائر جنباته وجهاته ، وأن يستصحب كاتباً دَرِباً بالمحاضر والسجلات ، ماهراً فى القضايا والحكومة ، غير مقصّر عن القضاة المستورين والشهود المقبولين فى طهارة ذيله ونقاء جيبه ، وحاجباً سديداً رشيداً لا يُسِفُّ إلى دنيئة ، ولا يقبل رشوة ، ولا يلتمس جُعلا ، وخلفاء يردُّ إليهم ما بعد من العمل عن مقرّه ، وأعجزه أن يتولى النظر فيه بنفسه ، ويجعل لكل من هذه الطوائف رِزْقاً يكفّه ويكفيه ،

---

(١) يقال إن أول من لقب بهذا اللقب هو أبو يوسف قاضى الرشيد الذى كان يرشح القضاة للتعيين بالبلاد (خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٣) ، وكان يحيى بن أكثم قاضى المأمون يمتحن القضاة الذين يراد توليتهم (طيفور فى كتاب بغداد ص ٢٥٨) ، وكان مما امتحن به رجلا أنه سأله : ما تقول فى رجلين زوج كل واحد منهما أمه ، فولد لكل واحد من امرأته ولد ، ما قرابة ما بين الولدين ، فلم يعرفها ، فقال له يحيى : كل واحد من الولدين عم الآخر لأمه (عيون الأخبار طبعة بروكلمان ص ٨٦) ، وكان يعين قاض من كل مذهب من المذاهب الأربعة وذلك بعد عصر الحروب الصليبية — انظر كتاب زبدة كشف الممالك للظاهرى طبعة Ravaisse ص ٩٢ . وفى سنة ٦٦٤ هـ ضم الملك الظاهر بيبرس القضاة الثلاثة إلى الشافعية ، بعد أن كان القضاء للشافعية مصراً وشاما (طبقات الشبلى ج ٢ ص ١٧٤) .

وأن يبحث عن أديان الشهود ويفحص عن أماناتهم ، وأمره أن يضبط ما يجرى فى عمله من الوقوف الثابتة فى ديوان حكمه ، ويحتاط على أموال الأيتام ويسندها إلى أعفّ وأوثق القُوّام ، وأمره إنْ ورد عليه أمر يُعْيِيه الفصلُ فيه أن يردّه إلى كتاب الله ، فإن وجد فيه الحكم وإلا ففى السنّة ، فإن أدركه وإلا استفتى ذوى الفقه والفهم وأهل الدراية . وأمره ألا ينقض حكماً حكم به من كان قبله إلا إذا كان خارجاً عن الإجماع وأنكره جميع العلماء ، عند ذلك ينقضه نقضاً يشيع ويذيع[1] وهذا الإجماع الذى ينعقد من جماعة العلماء الذين لا يخضعون لسلطة أخرى هو المحكمة الإسلامية العليا ، وهؤلاء العلماء الذين يبدون رأيهم فى ميدان الأحكام القضائية الهامة هم المظهر الذى أثبتت فيه الديمقراطية الإسلامية وجودها ، لأن الحكم الأعلى هنا يصدر عن جماعة المسلمين .

وكان فى الحياة الديوانية نزعة قوية إلى جعل المناصب وراثية من الأب إلى الابن ، وأظهرُ ما كان ذلك فى مناصب القضاء ، ففى القرنين الثالث والرابع تقلد قضاء القضاة من أسرة واحدة هى أسرة أبى الشوارب ثمانيةُ رجال ببغداد ، هذا عدا ستة عشر قاضياً آخرين من هذه الأسرة[2] . وظل بنو أبى بردة منذ حوالى عام ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م يتقلدون قضاء القضاة بفارس أجيالا كثيرة ، كما ظلوا قروناً كثيرة منذ عام ٤٠٠ هـ قضاة فى غزنة[3] . وكذلك توارث آل النعمان

---

(١) رسائل الصابى ص ١١٥ وما بعدها ، وفى أوائل القرن الرابع الهجرى : حكم القاضى بفسخ زواج بكر كرهت زوجها ، لأن أباها لم يكن قد استأذنها عند العقد ، فأراد الزوج جمع كلمة الفقهاء على صحة النكاح ، وأخذ خطوطهم بصحة العقد ، وخشى القاضى من اجتماع كلمة الفقهاء على فساد حكمه فأشار عليه صديق له أن يسجل حكمه بفسخ النكاح ويشهد بذلك . فأفسد على الزوج وعلى الفقهاء تدبيرهم (ملحق الكندى ص ٥٦٦) .

(٢) انظر ما حكاه Amedroz, 1910, S. 780. نقلا عن تذكرة ابن حمدون ، مخطوط لندن ، وانظر أيضا المنتظم لابن الجوزى ص ١٧٤ ب .

(٣) ابن البلخى JRAS, 1912, S. 14 f.

قضاء القضاة ثمانين سنة فى عهد الفاطميين بمصر[١] . وقد زادت شوكة هذه الأسر التى توارثت القضاء زيادة هائلة وذلك لأن نظام الاستخلاف فى المناصب ظهر فى القضاء ، كما كان فى مناصب الولاية وحكم الأقاليم ، ونجد فى صور المخاطبات التى ترجع إلى أوائل القرن الرابع الهجرى أنه كان بمصر قاضٍ واحد ، وأن فارس والأهواز كانا يجمعان لقاض واحد[٢] . وكان القاضى عبد الجبار قاضى قضاة بنى بويه يجمع بين قضاء الرىّ وهمذان والجبال[٣] ، وكان قاضى مكة فى سنة ٣٣٦ هـ — ٩٤٧ م له قضاء مصر وغيرها[٤] . وفى عهد الفاطميين كان ربما جمع قضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب لقاضٍ واحد[٥] . ونجد فى العهد الذى كتب لقاضى القضاة محمد بن صالح الهاشمى سنة ٣٦٣ هـ — ٩٧٤ م ما يجعله قاضياً على المملكة الإسلامية كلها تقريباً من البلاد الواقعة غرب جبال فارس إلى مصر ، وكان تحته حكام فى البلاد عُهِدَ إليه فى تصفُّح أحوالهم واستشراف ما يجرى من الأحكام فى سائر النواحى[٦] .

وكان هناك إلى جانب القضاء النظرُ فى المظالم ، وكان الناظر فى المظالم ينظر فى كل « حكم يعجز عنه القاضى فينظر فيه من هو أقوى منه يدا »[٧] . وكان القضاء والنظر فى المظالم يقومان جنباً لجنب فى جميع البلاد الإسلامية[٨] . ولكن

---

(١) Gottheil, a distinguished family of fatimide Cadis in The tenth century, JAOS,1906. S. 217 ff,

(٢) كتاب الوزراء ص ١٥٧ .

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٣١٤ .

(٤) مروج الذهب للمسعودى ج ٩ ص ٧٧ .

(٥) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٦ من طبعة دار الكتب المصرية .

(٦) المنتظم ص ١٠٥ ب .

(٧) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٠٧ ، وإنى لأنتفع فى هذا المقام مع الشكر ببحث امدروز Amedroz, JRAS, 1911, S, 635 ff.

(٨) فيما يتعلق بالتركستان انظر Schwartz, Turkestan, S. 210 . أما فى مصر =

اختصاص كل من هذين القضاءين لم يُحَدَّدْ تحديداً دقيقاً ، وكانت المسألة الهامة دائماً هي هـذه : أيهما أقوى : سلطان الإسلام الذى يمثله القاضى أم السلطة الدنيوية ؟ وكانت الأمور المتعلقة بالحدود تُقدَّم إلى صاحب المظالم[(١)] . وكان القاضى أحياناً ينظر فى المظالم ، وكان قاضى القضاة بنوع خاص ينظر فى المظالم بدار السلطان[(٢)] . وكان الوزير هو الذى يعين أصحاب المظالم فى البلاد[(٣)] . وقد حاول المشرّعون مرتين فى القرن الرابع الهجرى أن يشرفوا على أعمال الشرطة . ففى سنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م أمر الخليفة المقتدر يُمْناً الطولونى صاحب الشرطة ببغداد بأن يُجْلِس فى كل ربع من الأرباع فقيهاً يسمع من الناس ظلاماتهم ، ويفتى فى مسائلهم حتى لا يجرى على أحد ظلم[(٤)] . فكان هؤلاء الفقهاء بمثابة أصحاب شرطة من الفقهاء يشرفون على أعمال أصحاب الشرطة لتكون مطابقة لفتواهم ، ويقول ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار المتوفى عام ٧٢٥ هـ بعد ذكر هذا النظام « فضعفت هيبة السلطة بذلك ، وطمع اللصوص والعيارون ، وكثرت الفتن ، وكُبست دور التجار ، وأُخذت ثياب الناس فى الطرق المنقطعة »[(٥)]

= فى عهد محمد على فانظر ...Lane, Manners and Customs فى أول الفصل التاسع . وفيما يتعلق بمكة انظر Snouck Hurgronje, Mekka, 1, 182

(١) Amedroz, JRAS, 1911 S. 664 .

(٢) كان ينظر فى المظالم بمصر قاضى الأخشيد الذى ولى القضاء سنة ٣٢٤ هـ — ٩٣٦ م انظر طبقات السبكى ج ٢ ص ١١٣ — ١١٤ . وفى سنة ٣٣١ هـ أفرد للنظر فى المظالم قاض مستقل (الكندى ص ٥٧٢) . وفيما يتعلق ببغداد للنظر فى سنة ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م انظر المنتظم ص ١٤٩ ب . وفى الأهواز تقلد القاضى التنوخى عام ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م القضاء والمظالم (الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٣٢) . وعندما لا ينظر القاضى فى المظالم كانت ترسل إليه قصص المتظلمين بعد التوقيع فيها (انظر كتاب الوزراء ص ١٥١) .

(٣) عريب ص ٥٠ ، والارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٣٢ .

(٤) عريب ص ٧١ .

(٥) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة مخطوط باريس رقم ٥٧٢ ص ١٨٦ أ .

وكذلك نصّب الخليفة الحاكم بمصر فى الشرطة وفى كل بلد شاهدين من العدول ، وأمر ألا يُقامَ على ذى جريرة أو مرتكب جريمة حدٌّ إلا بعد أن يصح عند ذينك الشاهدين أنه مستوجب لذلك[١] . ولكن هاتين المحاولتين لم يكن لها تأثير ، بل نجد الآية قد انعكست فكانت تُرفع الظلاماتُ من حكم القضاة إلى أصحاب المظالم ، ولا سيما إلى الوزير الذى يجلس للمظالم ، وهذا يخالف النظرية الفقهية . وقد جاء وصفٌ لجمهور المستصرخين إلى الوزير الذى كان يقعد للمظالم بأنهم كانوا « قوماً كثيرين قد قصدوا من نواح بعيدة وأقطار شاسعة مُسْتَصْرخين متظلِّمين ، فهذا من أمير وهذا من عامل ، وهذا من قاض وهذا من متعزِّز »[٢] .

وقد حدث حوالى سنة ٣٤٠ هـ — ١٠٣٩ م أن مات رجل بمصر وترك مالا جزيلا ، ولم يخلِّف سوى بنت واحدة فورثت جميع المال ، وتطاول الناس لتزوُّجها لكثرة مالها ، ومن جملتهم القاضى عبد الحاكم بن سعيد الفارقى ، فامتنعت عليه فحنق عليها ، وأقام أربعة شهود بأنها سفيهة ، وأخذ مالها ، فهربت إلى الوزير ، وعرّفته بما فعله القاضى ، فعمل محضراً برشدها وأشهد عليه ، وأمر بإحضار القاضى فأحضر مُهاناً ، وأخذ المال منه ، وأُنيب ولده عنه فى الأحكام ، ولزم داره فلم يخرج منها ، ثم قبض الوزير على الشهود الذين شهدوا بسفهها ، فأودعهم السجن ، وخلع على من شهد لها بالرشد[٣] . وقد داوم أحمد بن طولون صاحب مصر النظر فى المظالم بكل عناية « حتى استغنى الناس عن القاضى » ، وحتى كان القاضى ربما نعس فى محله ، ثم انصرف إلى منزله ، ولم يَتَقَدَّمْ إليه

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٢٣ ا .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٠٧ .

(٣) Amedroz, JRAS, 1910, S. 793 نقلا عن رفع الإصر مخطوط باريس رقم ٢١٤٩ ص ٦٠ ا — ب انظر أيضاً JRAS, 1911, S. 663 وملحق الكندى ص ٤٩٨ — ٤٩٩ ، ص ٦١٣ .

أحد . ولم يكن فى مصر قاضٍ فى ذلك العهد سبع سنين ، فكان كل شىء يُرَدُّ إلى الناظر فى المظالم[١] .

وكذلك كان كافور الأخشيدى الأسود يجلس للمظالم حتى « كان القاضى كالمحجور عليه لكثرة جلوس كافور للمظالم »[٢] . وفى سنة ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م وقع نزاع بين صاحب الشرطة وبين القاضى ، وذلك أن صاحب الشرطة حكم فى شىء ليس من اختصاصه ، فأنكر القاضى حكمه ، واعترض فيه ، فوقّع الوزير بأنه ليس لأحد الفريقين أن يعترض على الآخر فيما حكم به[٣] . وفى حوالى سنة ٤٠٠ هـ منع القاضى أصحابَ الشرطة من التكلم فى الأحكام الشرعية ، ثم أنهى الخليفةُ النزاعَ بأن أضاف للقاضى النظر فى المظالم[٤] . وكانت الظلامات تقدم مكتوبة[٥] ، وكان يحدث أحياناً حوالى عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م أن تُرمى الرقعة فى ورق المظالم أمام القاضى فى المجلس[٦] . وكانت الأحكام تصدر مكتوبة ، وقد جرت بعض هذه التوقيعات مجرى النصوص الأدبيــة المشهورة التى تؤثر لحسنها ، وهى شبيهة بحواشى فريدريك الأكبر التى كان يكتبها على هامش ما يرفع إليه[٧] . وكان يخصّص فى دار الخلافة يومٌ فى الأسبوع لسماع المظالم ، وكذلك كان الحال من قبل فى العصر البوزنطى ، ففى سنة ٤٩٦ م كان حاكم

---

(١) ملحق الكندى ص ٥١٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٣ ، ٥٨٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٩١ .

(٤) نفس المصدر ص ٦٠٤ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٥٢ ، ١٠٧ . وكان على صاحب ديوان المظالم أن يعمل بجميع القصص جامعاً يُعْرَض على الخليفة فى كل أسبوع (انظر كتاب الخراج لقدامة مخطوط باريس ٥٩٠٧ ص ٢٣ ب) .

(٦) كتاب الوزراء ص ٥٢ ، وملحق الكندى ص ٥٤١ .

(٧) ومن هذه التوقيعات توقيعات طاهر التى ذكرها طيفور فى كتاب بغداد =

الرُّها يجلس كل يوم جمعة فى الكنيسة للقضاء[١] . وفى عصر الخليفة المأمون مثلا خُصِّص يومُ الأحد للنظر فى المظالم[٢] . وكان أحمد بن طولون بمصر يجلس لذلك يومين فى الأسبوع[٣] . وكان الأخشيد يجلس للمظالم بنفسه كل يوم أربعاء[٤] . وبعده كان يجلس كافور كل سبت ، ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقضاة والشهود ووجوه البلد[٥] . وأول من جلس من الخلفاء المهدى وآخرهم المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ = ٨٦٨ — ٨٦٩ م)[٦] . وكان المهتدى يجلس للمظالم وينظر فيما يرفعه إليه العام والخاص ، وقد بنى قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها وسماها قبة المظالم ، وكان تقيًّا فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر . وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب الناس ويؤمّ بهم[٧] . وكان إذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كوانين الفحم فى الأروقة والمنازل عند تحرك البرد ، فإذا جلس المتظلم «أمر بأن يدفأ ويجلس ليسكن ويثوب إلى عقله ، ويتذكر حجته ، ثم يُدنيه ويسمع منه ، ويقول متى يلحن المتظلم بحجته إذا لم يفعل به هذا ، وقد تداخلته رهبة الخلافة وألم البرد ؟ »[٨] . وكان مما وعد به

= ص ٥٠ ب وتوقيعات المأمون عند البيهقى فى المحاسن والمساوئ ص ٥٣٤ وما بعدها ، وتوقيعات الصاحب بن عباد عند الثعالبى فى خاص الخاص طبعة القاهرة ١٩٠٩ ص ٧٣ .

(١) Josua Stylites, S. 29 .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص١٤٣ طبعة إنجر (Enger) .

(٣) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٤) المُغرب لابن سعيد ص ٣٩ .

(٥) ملحق الكندى ص ٥٧٧ ، والمقريزى ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٦) المقريزى نفس النص نقلا عن الماوردى ، ويُذكر هنا أن الأخشيد وابنه كانا يجلسان للمظالم يوم السبت . واللمحة التاريخية التى ذكرها المقريزى مأخوذة من الأحكام السلطانية ص ١٢٨ والصفحات التالية .

(٧) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ٢ .

(٨) المحاسن والمساوئ للبيهقى ٥٧٧ — ٥٧٨ .

الخليفة القاهر ، وهو يطلب الخلافة ، أن يقعد للنظر فى المظالم بنفسه[١] . وفى عهد الخليفة المعتضد قام مقامَ الخليفة فى النظر فى مظالم العامة الوزيرِ عبيدُ الله ابن سليمان ، وناب عنه القائد بدر فى النظر فى مظالم الخاصة . وكان يوم المظالم يوم الجمعة[٢] . ولكنا نجد الوزير فى أوائل القرن الرابع يجلس للمظالم يوم الثلاثاء ، وكان أكثر الكتاب يحضر مجلسه[٣] . وفى سنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م جلست للمظالم قهرمانةٌ لأم المقتدر تسمى ثمل[٤] . ولما كان النظر فى المظالم غير مقيّد بتدقيقات الفقهاء ، فقد كان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضى . وقد بين الماوردى بما له من قدرة على الإحصاء وبيان الفروق أن الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاء من عشرة أوجه : أهمها أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة بكفّ الخصوم عن التجاحد ومنع الظلَمَة من التغالب والتجاذب ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الأمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة المحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا إلى وساطة الأمناء ، ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراضٍ ، وليس للقاضى ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد ، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يبتدئ باستدعاء الشهود وسؤالهم

(١) Amedroz, JRAS, 1911, s. 657 ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٩٣ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٦ .

(٤) عريب ص ٧١ ، وأبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٠٣ ، وقد اختلف فى المرأة : هل تقضى ؟ فقال أبو حنيفة يجوز أن تقضى فيما تصح فيه شهادتها ، وأغلب العلماء على أنها لا تقضى ، وشذ الطبرى المتوفى عام ٣١٠ هـ فجوز قضاءها فى جميع الأحكام (الماوردى ص ١٠٧ — ١٠٨) ثم اشترط فيما بعد فى القاضى أن يكون ذكرا ، أما فى النظر فى المظالم فلم يشترط ذلك .

عما عندهم ، وعادة القضاة تكليف المدعى إحضار بيّنة ، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله[1] . ولكن هذا كله لا يعدو الكلام النظرى ، وكان يعمل فى كل بلد بحسب قانونها وعاداتها . وكانت الوسائل القديمة التى أثبتت التجربة قيمتها كالضرب مثلا منتشرة وإن كانت محرّمة على القاضى[2] .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٢) انظر الفصل الخاص بالأخلاق والعادات (الفصل العشرون) .

الفصل السادس عشر

علم اللغة

فتح القرن الرابع الهجرى فتحا جديداً فى كل من الناحيتين الرئيسيتين لعلوم اللغة العربية ، وهما : النحو ، وعمل المعاجم . وقد تخلّص علم اللغة ، كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية ، ويصف السيوطى طريقة علماء اللغة المتقدمين فى تعليمهم فيقول : « وظائف الحافظ فى اللغة أربعة ، أحدُها — وهى العليا — الإملاء ، كما أن الحفاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء . . . . . وطريقتهم فى الإملاء كطريقة المحدّثين سواء : يكتب المستملى أوّل القائمة : مجلسٌ أملاه شيخنا فلان بجامع كذا فى يوم كذا ، ويذكر التاريخ ثم يورد المملى بإسناده كلاما عن العرب والفصحاء فيه غريبٌ يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره ، وقد كان هذا فى الصدر الأول فاشياً كثيراً ، ثم مات الحفاظ ، وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد واستمرّ إملاء الحديث . . . . . وآخر من عَلِمتُه أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجى ، له آمالٍ كثيرة فى مجلد ضخم ، وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، ولم أقِفْ على أمالٍ لأحد بعده »[1] .

كان هؤلاء العلماء المتقدمون يضعون معارفهم بعضها إلى جانب بعض ، مفككة لا رباط بينها ، وكان اهتمامهم ينْصَبّ على الجزئيات : على حادثة

---

(١) المزهر للسيوطى ج ٢ ص ١٩٩ من طبعة القاهرة سنة ١٣٣٥ هـ .

واحـدة ، أو صورة من صور التعبير واحدة ، أو كلمة واحدة ، أو جملة واحدة ، كما نجد ذلك فى كتب المبرّد (المتوفى عام ٢٨٥ هـ — ٨٩٨ م) ، بل فى كتب القالى (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م) ، وهى كتب مؤلفة من علوم اللغة ومن القصص والتاريخ ، وكان أبو عمر محمد بن عبد الواحد اللغوى المعروف بغـلام ثعلب (توفى سنة ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م) يجعل كلامه بحسب أسئلة الحاضرين . فمثلا كان يسأله بعضهم : أيها الشيخ ما القنطرة عند العرب[1] ؟

أما أئمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى فقد شعروا بالحاجة إلى منهج يسيرون عليه ، وإلى تناوُل مادة بحثهـم على طريقة منظّمة . وقد كان لمعرفة العرب بعلوم اليونان اللسانية أثرٌ كبير فى ذلك . وكان البحث يدور فى مجلس عضـد الدولة (المتوفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م) حول الفرق بين النحو العربى والنحو اليونانى ، وأصـل استنباطهما ، وقد ميز أبو سليمان السجستانى النزعة الجـديدة فى النحو بأن قال : « نحوُ العرب فِطرةٌ ، ونحونا فِطْنَةٌ »[2] . وإذا وجـدنا ابن فارس (المتوفى عام ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م) يؤلف لأول مرة « مقدمة فى النحو » ، فينبغى ألا نرى فى هذا سوى وليد للمقدمات (إيساغوجى) التى كتبها علماء اللغة اليونان .

وأكبر ما تم على أيدى علماء اللغة هو تحديدُ معانى الكلمات وعملُ المعاجم ، ونجد هنا حدا واضحاً يفصل بين عهـدين وطريقتين ، وكان حمزة الأصفهانى (المتوفى بين ٣٥٠ ، ٣٦٠ هـ = ٩٦١ ، ٩٧٠ م) خاتمة اللغويين القدماء الذين كانت كتبهم لا تشتمل إلا على عبارات للخطباء والبلغاء والذين ألّفوا كتباً من

---

(١) المنتظم ص ٨٥ ا وليس فى النص ما يدل على أن هذه كانت طريقته . (المترجم)

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٢٨٣ من الطبعة الأوربية .

المترادف وأخرى يستعين بها الخطباء فى الخطابة ، ففى كتاب الموازنة مثلا ذكر أربعمائة كلمة فى معنى « الشق » ، وكذلك جمع فى كتاب الأمثال أكثر ما يعرض فى لغة الخطباء من عبارات المفاضلة من نحو أبيض من الثلج وأجشع من الفيل ، وقد كان جَمْعُه وافياً ، بحيث لم يضف علماء القرون التالية شيئاً إليها ، وكان سَلَفُه قد جمع من هذه العبارات ثلثمائة وتسعين فجمع هو ألفاً وثمانمائة ، ولم يفعل الميدانى (المتوفى عام ٥١٨ ﻫ — ١١٢٤ م) أكثر من نقل ما كتبه حمزة واستطاع أن يزيد على كل فصل مثلا واحداً أو مثلين أو أربعة على الأكثر. وكذلك أخذ الميدانى كل الشروح عن سلفه[١] . وفيما يتعلق بالأمثال الخالصة نجد أن أكبر كتاب هو الذى ألفه فى القرن الرابع الحسن العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ ﻫ — ١٠٠٥ م .

على أن المدرسة الجديدة أظهرت بعد جيل ما كانت تُعنى به ، ويتجلى ذلك فى كتاب الصحاح للجوهرى المتوفى عام ٣٩٢ ﻫ — ١٠٠١ م . وتدل كل المقارنة لهذا المعجم بالمعجم الكبير الذى ألفه ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ ﻫ — ٩٣٣ م على مقدار التقدم فى المنهج وفى الوضوح . ويقول ابن فارس المتوفى عام ٣٩٥ ﻫ — ١٠٠٥ م فى مقدمة معجمه المسمى بالمجمل : « والمقصود من كتابنا هذا من أوله إلى آخره التقريب والإبانة عما ائتلف من حروف العربية فكان كلاما »[٢] ، وكان شأن الجوهرى عظيما حتى إن الكتب الكثيرة أُلفت فى الطعن فيه والدفاع عنه[٣] ، بل نجد السيوطى المتوفى عام ٩١١ ﻫ — ١٥٠٥ م

(١) Nittwoch, MSOS, 1910, s. 148 f. (؟)

(٢) Goldziher, Beitr. Zur Gesch. d. Sprachgelehrsamkeit bei den Arabern, SWA, phil. hist. Kl. 73, S. 518.

(٣) Goldziher, SWA, 72, S. 587.

قد ألّف بمكة فى الدفاع عن الجوهرى كتاب اللفظ الجوهرى ، فى رد خباط الجوجرى ، وكتاب السكرّ على عبد البر . وكان السيوطى قاسياً بنوع خاص على الجوجرى معاصره المتوفى عام ٨٨٩ هـ — ١٤٨٤ م فقد أفحش فى الكلام عليه وأتى فيه من الازدراء وإساءة الأدب ما يستحق التعزير عليه[١] ، وكل المعاجم التى عُملت بعد الجوهرى هى أشبه بتوسيع وشرح لقاموسه ، وهنا نجد أيضاً — أعنى فى علم اللغة — نهاية عهد قديم وبداية عهد جديد بقى أثره قروناً متطاولة .

وكذلك ظهرت فى القرن الرابع دراسة جدّية للاشتقاق اللغوى ، وبقيت عصراً طويلا ، وكان أستاذ هذه الدراسة ابن جنّى الموصلى (المتوفى عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م) . وكانت أمه جارية رومية ، وهو الذى ينسب إليه ابتداع مبحث جديد فى علم اللغة ، وهو المسمى بالاشتقاق الأكبر[٢] ، وهو البحث الذى لا يزال يؤتى ثمره إلى اليوم ، والذى يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا .

وبقيت لغةُ التخاطُب الدارجة إلى جانب لغة الكتابة ، وكان الفرق بينهما كبيراً ، حتى نجد المؤرخين يذكرون مع العجب أن يكون فى بغداد فى القرن الثالث الهجرى من يستطيع الكلام الصحيح من غير تكلّف للأعراب ، بل كأن ذلك له كالطبع[٣] . وكان ما ظهر فى الأدب من عناية بالعامّة وبحياتهم مما جعل علماء اللغة يهتمون بدراسة لغة العامة ، وما يعرض فيها من خطأ ، فألّف

(١) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٤ — ٢٥ من إضافات الناشر الأوروبى .

(٢) Goldziher, SWA, 67, s. 250 نقلا عن المزهر للسيوطى (ج ١ ص ١٦٤) . وانظر ج ١ ص ٢٠١ من طبعة مصر سنة ١٣٢٥ هـ . وفى الكتاب الثانى (الفصل الثلاثين) من كتاب الخصائص تناول ابن جنى الكلام فى الاشتقاق الأكبر (انظر O. Rescher, Studien über Ibn Ginni, ZA, 1909, s. 20)

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ١٣١ .

أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الأندلسى المتوفى عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م كتابا فى لحن العامـة ، ثم ألف ابن خالويه (المتوفى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م) بجلب كتاب « ليس فى كلام العرب »[1]. أما ما تُرِكَ لعلماء اللغة وخصوصاً للحريرى فهو موضوع لبحث جديد .

---

(١) بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس لأحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة الضبي طبعة مجريط ١٨٨٤ ص ٥٦ .

الفصل السابع عشر

الأدب

إن تغيُّر دم الأمة العربية واضمحلال قوة الطبقة العليا فيها ، وهى التى كانت بيدها القيادة ؛ وعودة الشعوب الشرقية القديمة التى كانت تتألف من أجناس مختلطة إلى القوة والظهور ، كل هذه تتجلى أوضح ما تكون فى الأدب . وقد بدأ الأدب العربى حوالى عام ٢٠٠ هـ يخرج عن هدوئه المعهود ، وأصبح تقصيد القصائد الطوال — التى جرت عادة شعراء العرب القدماء أن يسيروا عليها فى التغنّى بما أثارته حياة البداوة فيهم من شعور — شاقًا على الجيل الجديد ، وكره هذا الجيل ما أولع به القدماء من تعظيم شأن القصيدة ، حتى فقدت هذه ما كانت تتمتع به من تفرّد بالسيادة . وقد عمل أهل المدن بعد أن صاروا هم الطبقة الممتازة على تأخير القصائد وما يتصل بها من شعر البطولة ولغتها إلى المحل الثانى ، واضطرت الأساليب البدوية الخشنة إلى إفساح المجال للعبارات الليّنة ، وبالغ الناس فى الميل إلى الأوزان القصيرة .

وأصبح ميل الشعراء إلى أن يبعثوا فى النفوس ما يرفعها إلى آفاق الحياة القوية أقل من ميلهم إلى التأثير فى الناس بمادة جديدة للأدب ، وبمعانٍ دقيقة وعبارات وأخيِلَة جميلة . وتيقظ فى الناس ميلٌ إلى الطرائف المستحدثة — وهو أخطر شىء على شعر البطولة بجميع أنواعه — وعاد الأدب مرة أخرى إلى كشف ما يحيط بالإنسان فى حاضره ، وأصبح يلذّ له البحث فيما حوله من حياة متشعبة النواحى ، وإن لم تكن حياة سامية . وبدأ يصبح للعامة — وخصوصاً عامة المدن غير المتعلمين —

شأن فى الأدب ، ولم يكن الشعر وحده هو الذى يصوّر الأشياء كما يراها العامة ، ويتغنّى بها على أوزانهم الشعبية ، بل إن الكلام المرسل أيضاً أصبح يستعمل فى ذلك . وهكذا نشأ النثر فى الأدب بعد أن كان حتى ذلك الحين مقصوراً على العلماء وأهل الدين ، أو على الأكثر على كتب شعبية قليلة نُقلت عن الفارسية . ويحكى عن قوم حوالى عام ٢٥٠ هـ — ٨٦٤ م أنهم فضلوا الكلام المنثور على المنظوم [١] .

١ — النثر

كان تقدير الكلام المنثور ، إلى جانب تقدير الشعر ، ذلك التقدير الذى هو أساس كل نثر جيّد ، أكبرَ فضيلة للعرب القدماء ، وقد فاقوا فى ذلك جميع الشعوب . فكان فى كل قبيلة خطباء إلى جانب الشعراء يساوونهم فى المكانة ، وكانت ملكة الخطابة تعتبر أشبه بملكة خارقة حتى نشأ الاعتقاد فى بعض القبائل أنه لا ينشأ فيها خطيب قط إلا مات من قبله [٢] . وكانت ملكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مخالفاً للملكة الشعرية إلى درجة أن المؤرخين يذكرون بالإعجاب من يكون إلى جانب الإحسان فى الشعر مُجيداً فى الرسائل والخطب [٣] . وقد بلغ من شدة تقدير الناس للّفظ الحسن أنه أصاب أهل مكة سنة ٢٠٨ هـ — ٨٢٣ م سَيْلٌ مات بسببه خلق كثير ، فكتب والى المدينة إلى الخليفة المأمون طالباً عطفه ومعونته لمن جرف السيل أموالهم وهدم بنيانهم ، فأنفذ إلى أهل مكة أموالا

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٧ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٢) الأغانى ج ١٨ ص ١٧٣ .

(٣) نفس المصدر ج ٢٠ ص ٣٥ ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص ٥٤٩ .

كثيرة ، وكتب مع ذلك كتاباً حسن العبارة فكان كتابُه « أسرَّ إلى أهل مكة من الأموال التى أنفذها إليهم »[١] .

وأول ما ظهر من اهتمام الأدباء بما يحيط بهم دراسةُ أخلاق العامة ، فمثلا ألف أبو عقّال الكاتب كتاباً فى أخلاق العوامّ ، وصف فيه أخلاقهم وشيمهم ومخاطباتهم وسماه المَلْهى[٢] ، وكذلك ألف القاضى محمد بن إسحاق الصيمرى ، قاضى صيمر ، المتوفى عام ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م ، كتاب مساوى العوامّ وأخبار السِفْلَة والأغتام[٣] . وكذلك كان وصف حياة المدن من الموضوعات التى أحب الجاحظ معالجتها[٤] . وهذا الأديب المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م والذى يُحكى الكثير من الحكايات الطريفة عن دمامة خلقته — كانت عيناه جاحظتين ، وكان جده أسود[٥] — هو أبو النثر العربى الجديد ، ويعتبره الثعالبى أعظمَ كُتّاب النثر[٦] . وكان من عادة الوزير ابن العميد أكبر كتاب الرسائل الديوانية إذا ورد حضرته أحد من منتحلى العلم وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد وعن الجاحظ[٧] ؛ ولذلك دُعى ابن العميد الجاحظ الأخير[٨] . ويحكى عن ثابت بن قرّة العالم المشهور أنه قال : ما أحسد هذه الأمة (الإسلامية) إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثانى الحسن البصرى ، والثالث أبو عثمان

---

(١) كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقى س ٤٧٥ — ٤٧٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٥ ص ٨٨ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٠١ — ٤٠٣ .

(٤) طراز المجالس لشهاب الدين الخفاجى طبعة مصر ١٢٨٤ هـ ص ٦٧ وما بعدها .

(٥) الإرشاد ج ٦ ص ٥٦ .

(٦) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٨ ، وقد سمى الباخرزى الثعالبىّ نفسه بأنه جاحظ نيسابور انظر مقدمة كتاب الإعجاز والإيجاز للثعالبى طبعة القاهرة ١٨٩٧ ص ٥ .

(٧) لطائف المعارف للثعالبى ، طبعة أوربا ص ١٠٥ ، والارشاد لياقوت ج ١ ص ٦٨٦ (؟) .

(٨) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣ .

الجاحظ[١] . وقد صنّف أبو حيان التوحيدى — الذى ربما كان أعظم كُتّاب النثر العربى على الإطلاق — كتاباً فى تقريظ الجاحظ ، وبلغ من مزيد اهتمامه بذلك أنه ذكر العلماء الذين كانوا يفضّلون الجاحظ وبيّن عِظَم مكانتهم[٢] . وبلغ من تقديره للجاحظ أنه كان يسلك مسلكه فى تصانيفه ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه[٣] . وقد كتب الجاحظ فى كل شىء من الكتابة فى المعلمين[٤] إلى الكلام عن بنى هاشم[٥] ومن ذكر اللصوص[٦] إلى الكلام عن الضِّباب ، ومن الكلام فى صفات الله إلى الكلام فى قبائح ما يحكى من كيد النساء . وكان أسلوب الجاحظ مستحدثاً ، ولم يكن النثر قد تكوّن بعد ، فكان الجاحظ من هذه الناحية مبتكراً لأسلوبه على غير أساس من تجربة سابقة . وكثيراً ما يشوب طريقته فى الكتابة الثرثرة والاستطراد وخلط موضوعات الكلام بعضها ببعض ، ولكن هذا بعينه هو ما كان موضع سرور المعجبين بالجاحظ ، وكانوا يشعرون بأنه إنقاذ لهم من طريقة العلماء الذين كانت لهم السيطرة إلى ذلك الحين ، والذين كانت كتاباتهم ثقيلة لكثرة ما فيها من الجد وإظهار العلم ، وكان المعجبون بالجاحظ يعتبرون الثرثرة فى المسائل الفكاهية فنّا تعمد الجاحظ أن يعالجه . وقد قدّر المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣م قدرة الجاحظ على التنسيق ومدَحَ متانة

---

(١) الإرشاد ج ٦ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٢) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٨٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٨٠ .

(٤) المستطرف ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ طبعة مصر ١٣٠٢ هـ . أما مقدار تأثر الجاحظ فيما كتبه من السخرية بالمعلمين بكتب اليونان الهزلية التى كانت شخصية المعلم من أكبر صورها فهو موضوع للبحث ، انظر Reich, Mimus, 1, 443

(٥) زهر الآداب للحصرى على هامش العقد الفريد ج ١ ص ٥٦ وما بعدها .

(٦) ذكر التنوخى فى الفرج بعد الشدة (ج ٢ ص ١٠٦) كتاباً للجاحظ يسمى كتاب اللصوص .

بناء تآليفه بقوله : « وكان إذا تخوّف مَلَلَ القارئ وسآمة السامع خرج من جدّ إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة » ويذكر المسعودى كتب الجاحظ فيبدأ بالبيان والتبيين ، ويقول إنه أشرف كتب الجاحظ « لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به »[1] . ويشبه المسعودى المصنف بأنه حاطب ليل لأنه يذكر فى تصنيفه من كل نوع[2] .

230 ثم إن التصوف الذى جاء فى أوائل القرن الثالث الهجرى على أثر اضمحلال الروح العربية ونضوب قوتها ساعد كثيراً على نشر الأدب ، والكتب بين الجماهير ، وصبغها بصبغتهم ، وساعد مساعداتٍ كبيرة على إنشاء المذهب الواقعى — كما فعل ذلك أيضاً فى الآداب الأخرى — وكان أهل التصوف يشنّعون على العلماء ، ويعتمدون فى الغالب على أوساط الناس ، وكان التصوف بمثابة وعظ للعامة ، ودعوة لهم إلى معرفة الدين ، وقد نظم حياتهم ، ولاءم حاجاتهم ، وتأثّر بكلامهم ولغتهم وأساليبهم . وأخيراً فإنه كان من أثر اضمحلال التقاليد العربية القديمة ظهور السجع فى البلاغة فى ذلك العصر .

وكان لا يزال فى مأثور العرب قليل من النثر الوثنى المسجوع ، وكان المسلمون ينفرون من هذا السجع نفورَ المسيحيين فى الامبراطوريه الرومانية من الأوزان اليونانية والرومانية ، ويبين لنا الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٨ م علة كراهية الأسجاع ، فيقول : « وكان الذى كرّه الأسجاع بعينها ، وإن كانت

---

(١) المسعودى فى مروج الذهب ج ٨ س ٣٤ ، وقد ظل هذا التنويع بين الجد والهزل منسوباً للجاحظ عند مؤرخى الأدب ، وقد ذكره كثير من الأدباء . انظر مثلا رسائل الخوارزمى س ١٨٣ .

(٢) مروج الذهب مثلا ج ٤ س ٢٥ .

دون الشعر فى التكلُّف والصنعة أن كُهّان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة ... كانوا يتكهّنون ، ويحكمون بالأسجاع ... قالوا فوقع النهى فى ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم »[١] ، ثم إن المسيحيين الذين دخلوا فى الإسلام وكان لهم الشأن الأكبر فى ذلك العهد كانوا قد ألفوا استعمال السجع فى مواعظهم الدينية ، وكذلك يظهر أنه « حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى دخل السجع عند المسلمين فى الخطب الرسمية ، ونجد كثيراً منه فى كتاب وجّهه الخليفة للمسلمين ، وإن لم يكن كله مسجوعا »[٢] .

وكانت كتابة الرسائل مجالا للتمرين على إظهار صور البلاغة وأساليبها ، وكان بين الأدباء من لا يأبه للاعتبارات الدينية فى كراهية السجع ، فيكتب سجعاً كالسجع العربى القديم الذى كان لا يزال موضع إعجاب . ويحدثنا الجاحظ أن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكى[٣] . وكان فى هذه الرسالة شىء من السجع ، على أن الرسائل الديوانية كانت هى مقياس العرف اللغوى العام ، ونجد وزير الخليفة المأمون حوالى عام ٢٠٠ هـ يكتب كتابة مرسلة لا سجع فيها[٤] ؛ وقد انتهى إلينا لابن ثوابة الكاتب (المتوفى عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م) رسالة فيها بعض السجع ، وكان هذا الكاتب معروفاً بالتكلف فى كتابته[٥] ، وكذلك نجد الكتاب

---

(١) كتاب البيان والتبيين ج ١ س ١١٣ .

(٢) Goldziher, Abhandlungen Zur arabischen Philologie, I, S. 65 f.

(٣) البيان والتبيين ج ٢ س ١١٤ .

(٤) الكندى س ٤٤٥ — ٤٤٦ ، وفى مواضع كثيرة من كتاب بغداد لطيفور ، ويجد القارئ كتاباً من المعتصم إلى عبد الله بن طاهر وهو نثر مرسل لا سجع فيه — انظر رسالة فى الصداقة للتوحيدى س ٥٤ — ٥٥ من طبعة قسطنطينية .

(٥) الإرشاد ج ٢ س ٣٧ .

الذى أُنشئ للعن الأمويين ، وكان يُراد قراءته على جميع المنابر ببغداد سنة ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م ، نثراً مرسلا ، وإن كان لا يخلو من أثر طفيف للسجع [١] . وحوالى هذا الوقت كان المنشئ فى الديوان يكتب من غير سجع [٢] . على أن السجع قد أصبح حوالى عام ٣٠٠ هـ هو الطريقة الجديدة المستحدثة عند كبراء بغداد ، فنجد الخليفة المقتدر يكتب إلى عمال البلاد سجعاً [٣] ، وكذلك كان الوزير على بن عيسى يحلّى كتبه بالسجع الكثير [٤] ولكن أمر السجع لم يصل فى سائر أجزاء المملكة إلى ما وصل إليه ببغداد ؛ فكانت رسائل الوزير ابن خاقان المسجوعة تقع لدى عمال الولايات موقع الشىء الغريب [٥] ، وكان أصحاب الدواوين فى البلاد يكتبون على الطريقة القديمة من غير سجع [٦] ؛ ثم انتشر السجع . قال ابن خفاجة « من كُتّاب المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يخلّ به ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى وأبو الفرج المعروف بالببّغاء ؛ ومنهم من كان يتركه ويتجنبه وهو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد ، وطريقة غير هؤلاء استعماله مرة ورفضه أخرى ، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير والإكراه والتكلف » [٧] .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢١٦٦ وما بعدها .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٦٣ . ولكن الرسالة التى يشير إليها المؤلف هنا فيها سجع ، وكاتبها ابن ثوابة نفسه ، والعيب هنا أن المؤلف يعتمد على أمر جزئى يبنى عليه قاعدة ، وقد فعل هذا كثيراً فى أثناء كتابه . ومما يدل على الاضطراب فى استنتاجاته أن ابن ثوابة كان منشئاً فى ديوان المقتدر ، ويقول المؤلف إن المقتدر كان يكتب إلى عماله سجعاً . (المترجم)

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٣٧ وما بعدها .

(٤) الارشاد ج ٦ ص ٢٨٠ ، وكتاب الوزراء ص ٢٧٧ .

(٥) انظر مثلا من سجعه فى كتاب الوزراء ص ٢٧٧ .

(٦) انظر مثلا كتاب صاحب الأخبار إلى بغداد من بلدة الدينور — عريب ص ٣٩ — ٤٠ .

(٧) ابن خفاجة فى مقدمة كتاب الخطب لابن نباتة ص ١٦ .

ويحكى عن الوزير ابن عبّاد ، وزير البويهيين ، أنه كان ولوعا بالسجع إلى حد الإفراط فيه ، ويقول التوحيدى عن هذا الوزير : « وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد . قلت لابن المسيبي : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحلّ بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل وكلفة صعبة ... لما كان يخفّ عليه أن يخليها ، بل يأتى بها ويستعملها »[١] . ويقول نقلا عن ابن العميد إن الصاحب خرج من الرى متوجهاً إلى أصفهان فجاوز فى طريقه قرية كالمدينة إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشئ إلا ليكتب قائلا : كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار[٢] ؛ وهذا ما حكاه التوحيدى ، وكان أثلب أهل زمانه ، وهو الذى يقول عن ابن عباد أيضاً إنه كان عنده أبو طالب العلوى ، فلحقه غشى بسبب كلام ابن عباد المسجوع ، فرش على وجهه ماء الورد[٣] . وهذا هو شأن السجع إلى اليوم[٤] .

وإن رسائل القرن الرابع الهجرى هى أجمل آية للفن الإسلامى ؛ ومادّتها أنفس ما اشتغل به الفنّانون ، وهى اللغة ، ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التى صنعتها أيدى الفنانين فى ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى فى هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق ، وامتلاكهم لناصية البيان

(١) الارشاد ج ٢ ص ٢٩١ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٣) الارشاد ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٤) مع شواذ قليلة جدا ؛ فقد كان وزير مشهور من وزراء المرابطين الأولين يتجنب السجع « وكان على طريقة قدماء الكتاب » انظر المعجب فى أخبار المغرب للمراكشى طبعة مصر ص ١٠٤ .

فى أصعب صورة ، وتلاعبهم بذلك تلاعباً ، وليس من محض الاتفاق أن يكون كثير من وزراء ذلك العهد أساتذة البيان وأعلامه ، ولذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة أن تُنشر كتباً للناس ، وكان من أولئك الوزراء : الخصيبى ، وابن مقلة[١] ، والمهلبى[٢] ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والإسكافى وزير السامانيين ، ويحكى أن الإسكافى كان أكتب الناس فى السلطانيات ، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قصير الباع[٣] . وهذا يدل على التمييز الدقيق بين نوعى الرسائل . وكانت الرسائل الهامة مثل كتب تولية العمال ونحوها تُكتب فى ديوان خاص يسمى ديوان الرسائل ، ولم تخل منه حكومة ما وقد بلغ من العناية بهذا الديوان أنه قلّد ببغداد لإبراهيم بن هلال الصابى المتوفى عام ٣٨٤ هـ ، وكان أكبر المنشئين فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ؛ مع أن الصابى كان يعتنق دين الصابئة ، ويصرّ عليه ، وقد عرضت عليه الوزارة إن أسلم ، فأبى[٤] . ولما مات ألّف نقيبُ العلويين مع علو منزلته فى الدين قصيدة فى رثاء هذا الكافر ؛ وهذا يدل على أن قيمة الإنشاء الجيد أعظم فى نظرهم من قيمة صحة العقيدة . وقد عرف الصابىء قدر نفسه ، وهو يقول مفتخراً :

وقد علِمَ السلطان أنى أمينُه ... وكاتبُه الكافى السديدُ الموفَّقُ
فيُمناىَ يُمناه ، ولفظى لفظُه ، ... وعينى له عينٌ بها الدهرَ يَرْمُقُ
ولى فِقَرٌ تضحى الملوكَ فقيرة ... إليها لدى أحداثها حينَ تطرقُ[٥]

وتنقسم رسائله كلها قسمين : فى الجزء الأول إجمال للخطاب الذى تُراد

(١) رسائل الخوارزمى ص ٣٥ .
(٢) الفهرست ص ١٣٤ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١١٩ ، ج ٤ ص ٣١ وكتاب الارشاد ج ٥ ص ٣٣١ .
(٤) الارشاد ج ١ ص ٣٢٤ .
(٥) رسائل الصابى طبعة بعبدا بلبنان ١٨٩٨ ص ٨ .

الإجابة عنه ، وفى هذا القسم مجال لإظهار الأدب فى الثناء على المُرْسِل وامتداحه والدعاء له ، فمثلا كتب الصابى عن الوزير ابن بقية إلى قاضى القضاة فقال فى أول الكتاب : « وصل كتاب قاضى القضاة بالألفاظ التى لو مازجت البحر لأعذبته ، والمعانى التى لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته »[1] ، ثم يمضى فى الإجابة عن الكتاب مبتدئاً بقوله : وفهمته ... ولا تزال رسائل الصابى تُقرأْ إلى اليوم مع لذة يحس بها القارئ وإعجاب بامتلاكه عنان البيان . وهى تُلبِس موضوعَها ثوباً من الجمال القشيب ، ولو كان الكتاب يتناول مسائل عملية رسمية ليس من شأنها أن تستثير ملكة البيان . وكان الصابى يدبج رسائلَه بعبارات جميلة مسهبة مسجوعة فى أولها وآخرها ، مليئة بضروب المجازات والاستعارات وأنواع الجناس ، ومع هذا لا يختفى المعنى بين ضغط الألفاظ ، ولا يطغى عليه جمال الألفاظ وموسيقى السجع ، بحيث يستطيع القارئ أن يفهم المراد من غير تلك المشقة التى يعانيها الإنسان فى فهم رسائل من جاء بعده . وحتى لو تُرجمت هذه الرسائل ، وجرّدت من كل ما تتحلّى به ، وعُرضت على صورة تُفقدُها الكثير من جمالها فإنها لا تزال حقيقة بالقراءة ، ولنذكر من أمثلة الرسائل الديوانية التى كتبها الصابى كتاباً عن عز الدولة إلى ابن عمه عضد الدولة جواباً عن كتاب عضد الدولة الذى أخبره فيه بفتح جبال القفص والبلّوص سنة ٣٥٧ هـ — ٩٦٨ م :

233 « .... وصل كتاب سيدى الأمير عضد الدولة أدام الله عزه بما سهّله الله على يده ، ويسّره بيُمْنه وبركته من فتح جبال القفص والبلوص ، وما بلغه أدام الله علوّه من أهلها المعادين كانوا للملّة ، العادلين عن سبيل الله ، حتى استنزلهم عن معْقِل بعد معقل ، واستباحهم فى موبل بعد موبل ، وقتل حُماتَهم ، وأفنى كُماتَهم ، وأباد خضراءهم وغبراءهم ، وعفّى معالمهم وآثارهم ، وألجأهم إلى الإذعان

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٧٧ .

وطلب الأمان ، وتسليم الرهائن ، والإفراج عن الذخائر ، والاستقامة على سواء الدين ، والدخول فى عصمة المسلمين ، وفهمتُه وحمدت الله على ما منح الأميرَ عضد الدولة حمدَ المتحقّق بما أفاء الله عليه ، المغتبط بما أزلّه إليه ، المشارك له فيما يخصه ، المساهم له فيما يمسُّه ، ووجدت الأثر فيه كبيراً بمؤثّره ، والتدبير جليلا كمدبّره ، وتلك عادة الأمير أيّده الله فى الصمد للفاسد حتى يصلح ، وللمعتاص حتى يسمح ، وعادة الله عنده فى المعونة الضامنة للنجاح ، الكافلة بالفلاح ، فما تَرِدُ علىّ من جهته بشرى إلا كنت متوقعاً لتالية لها أخرى ، ولا أستقل منها بشكر ماضٍ سالف إلا ارتهننى بترقُّب حادثٍ مُستأنف ، والله أسأل أن يهنئه نعمته ، ويملاه موهبته ، ويبلغه فى الدين والدنيا آماله ، ويُجمل فيهما أحواله ، ويجعل رايته منصورة على أعدائه ، صغروا أم كبروا ، وكلمته العليا عليهم ، قلّوا أم كثروا ، ويمكّنه من نواصيهم سالموا أم حاربوا ، ويقودهم إلى التسليم له رضوا أم كرهوا ، ولا أعدمه فيما اختصه به من حَباء وكرامة ، وظاهرَه عنده من إعلاء وأنافة مزيداً تتّصل مُدَّتُه إليه ، وتحل عائدته عليه بحوله وطوله ، والأمير عضد الدولة أطال الله بقاءه ولىُّ مواصلتى بما يبهجنى من أخباره ، ويغبطنى من آثاره ، ويسرنى من عافيته ويُؤنسنى من سلامته ، وأمتثله من أمره ونهيه ، وأقف عنده من حدّه ورسمه إن شاء الله »[1] .

ثم انتقل استعمال الأساليب المُحلّاة بالسجع من الرسائل السلطانية إلى الرسائل الإخوانية ، على أنه فى القرن الثالث الهجرى كتب الأمير الشاعر ابن المعتز إلى الأمير الشاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر رسالةَ تعزية عن وفاة زوجته ، وقد ردَّ عبيد الله على ابن المعتز شاكراً ، وكلا الرسالتين نثر مرسل ،

(١) رسائل الصابى ص ٥٦ — ٥٨ .

ولا سجع فيهما [1] . ولا يخطر بالبال أن تُكتب فى القرن الرابع رسائل مثلُ هذه من غير أن يكون فيها سجع ، وقد عظم شأن هذا الفن ، فن كتابة الرسائل الجيّدة ، فى أواخر القرن الرابع حتى كان الناس يستطيعون أن يعيشوا من هـذه الصناعة ، كما عاش الشعراء قديماً من التكسب بالشعر . وكان أشهر كُتّاب الرسائل الإخوانية أبو بكر الخوارزمى المتوفى عام ٣٨٣ هـ — ٩٩٣ م . وقد ظل زماناً طويلا أكبر كتاب العرب ، كان أصله من طبرستان ، ومولده ومنشؤه بخوارزم ، وقد تقلّب فى البلاد ، وشرّق وغرّب ، واتصل بجميع الأمراء تقريباً فى شرق المملكة الإسلامية : فورد بخارى ، ونيسابور ، وهراة ، وأصفهان وشيراز ، وغيرها [2] . وكانت رسائله توجّه إلى الأمراء والوزراء والقضاة والعمال والعلماء واللغويين ، وكان موضوعها ما يرد فى الرسائل عادة من التهنئة بالأعياد ، وبارتفاع المنصب ، وبالتخلص من الشر ، والتعزية بالوفاة ، والكتابة بعد نكبة أو محنة أو خلع ، والكتابة بمناسبة المرض ، أو الخروج لحرب ، أو للشكر على هدية . ومن رسائله رسالة كتبها إلى صاحب ديوان الخراج جاء فيها : « حيث صرت أُلزَمُ خراجاً التزم بنو المدبّر أضعافَه للبحترى ، وأُضايَق فى ضيعةٍ وهب أمثالَها محمد بن الهيثم الغنوى لأبى تمام الطائى . . . وقد عرف الشيخ أنى لا أقيم على الخَسْف ، ولا أحلّ إلا خُطة النَّصَف ، فإن رأى ألا يفجع خراسان بلسانها ، ولا يُخليها من سيفها وسنانها فعل » ، فوَضَع صاحبُ الخراج عنه خراجَ سنة [3] . ويظهر أن صيت الخوارزمى جذب إليه كثيراً من التلاميذ ، وخصوصاً من الفقهاء ، ونجد فى رسائله الكثير موجها إلى تلاميذه الجدد

(١) كتاب الديارات للشابشتى ص ٤٦ أ وما بعدها .
(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٢٣ والصفحات التالية .
(٣) رسائل الخوارزمى ص ٨١ .

أو القدماء ، ومنها رسالة شكر فيها رجلا على اصطناعه فقيهاً من تلاميذه [١] .
ومن أمثلة ما كتبه لبعض تلاميذه : « كُتُبُكَ ياولدى عندى تُحَفٌ وشمّامات وأنوارٌ وباكورات ، أفرَحُ بأولها ، وأنتظر ورود ثانيها ، وأشكرك على ماضيها ، وأعُدُّ الأيام والليالى على باقيها ، فكثّر علىّ سوادَها ، ووفّر علىّ أعدادها ، واعلم أنى أحبك حباً مستكنّا وباديا .

أُحِبُّكَ مالو كان بين معاشر   من الناس أعداء لجرّ التصافيا

وإنى آنس بك حاضراً ، وأشتاق إليك غائباً شوقاً لو عرفْتَه لتكبرت على الورى ، ولم تقم وزناً لأهل الدنيا ، وكنتَ لا تنظر إليهم إلا بمؤخَّر عينك ، ولا تكلمهم إلا ببعض شفتيك » [٢] . ولو قارنا بين رسائل الخوارزمى ورسائل الصابى لوجدنا هذه أكثر اتزاناً وأقل مبالغة وأقرب إلى الواقع ، وكان أهم شىء عند الخوارزمى المحسنات البديعية والسلاسة . أما موضوع الرسالة فهو بمثابة خيط ينسج الفنان حوله ثمرات خياله وبلاغته كما يلتف النبات المتسلق حول الخيط الذى ينصب له ، وبين هذا الأسلوب وبين الأسلوب العربى القديم كثيرٌ من وجوه الشبه ، من شَغَف بالألفاظ الجزلة ذات الجرس ، والتشبيهات الحسنة ، وقلق نفس الكاتب ، غير أن ما كانت تنطوى عليه الفروسية قديماً من نبل العاطفة قد تغير وصار موضع سخرية ؛ وهذه هى الصورة الوحيدة التى أتيحت له فى مجتمعات المدن . أما الصفات الرئيسية التى اتصف بها أسلوب الخوارزمى ، فهى أيضا صفات الأسلوب الساخر : وهى المبالغة والتكرار ، وهو يَعْمِد إليهما باعتبارهما طريقة فنية فى الكتابة ؛ يقول الهمذانى فى إحدى رسائله : « فلان أبطأ علىّ ، فليت شعرى الريح قلعته ، أم الأرض ابتلعته ، أم الأفعى نهشته ، أم السباع

235

(١) رسائل الخوارزمى ص ١١٩ .
(٢) رسائل الخوارزمى ص ٧٦ .

افترسته ، أم الغول أغوته ، أم الشياطين استهوته ، أم أصابته بائقة ، أم أحرقته صاعقة ، أم رفسته الجمال ، أم اغتاله الجمال ، انتكس على ظهر جمل ، أم تدحرج من رأس جبل ، أم وقع فى بير ، أم انهار عليــه جرف شفير ، أم جفت يداه ، أم قعدت رجلاه ، أم ضربه الجُذام ، أم أصابه البرسام ، أم جس غلامًا فقتله ، أم تاه فى البر ، أم أُغرِق فى البحر ، أم مات من الحرّ ، أم سال به سيل زاعب ، أم وقع فيه سهم من سهام الآجال صائب ، أم عَمِل عمل أهل لوط ، فأُرسلت عليه حجارة من طين منضود مسوّمة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد !»[١]

وكتب إلى رجل طلب نسخة من رسائله : « . . . ولو قدرتُ جعلتُ الورقَ من جلدى ، بل من صحن خدى ، والقلمَ من بنانى ، والمداد من أجفانى »[٢] . وقد تؤتينا مبالغته فى كثير من الأحيان مجموعة نافعة تحصى لنا ما يمكن أن يعرض فى ذلك العصر من تغير أحوال الناس ، كتب الخوارزمى إلى أبى على البلعمى لما فارق الحضرة وورد نيسابور ، ومما قاله فى وصف حاله : « . . . حتى لقد ركبتُ غيرَ دابتى ، وأكلت غير نفقتى ، ونزلت بيتا بكراً ، وأكلت خبزاً بسرا ، وحُرمت العينى ، وشربت الزبيبى ، ولَبِستُ الصوف فى المصيف ، والبردى فى الخريف ، وكوتبت مُواجهةً ، وخوطبت بالـكاف مشافهة ، وأُجلست فى صف النعال أعنى أُخريات الرجال ، وناظرنى من كان يدرس علىّ ، وخالفنى من كان يختلف إلى ، وحتى لقد نَشزَت علىّ جاريتى ، وحزنت علىّ دابتى ، وتقدمنى فى المسير رفيق ، الذى جمعنى وإياه طريق ، وحتى إنى أخذت الدرهم الجيّد فصار فى يدى ستوقا ، وقطعت الثوب المشترى فصار على بدنى مسروقًا ، وغسلت ثيابى فى تموز ، فغابت الشمس وطلع السحاب ، وسافرت فى حُزَيران فعصفت الريحُ

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٨٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٦ . انظر أيضاً ص ٦٨ .

وسدّ الأفقَ الضبابُ ، وفقدت كل شيء ملكته غير عرضي الذي عهده الشيخ معي وصبري الذي عرفه مني »[١] . وقد يصل باستعمال الحشو والتكرار إلى ملاطفة من يوجّه إليه الخطاب ومجاملته ، ويذكر لنا مع ذلك مجموعة من الكتب التي يستطيع الإنسان أن يرجع إليها حينما يريد أن يكتب خطاباً من السجع الحسن ؛ فقد جاء في إحدى رسائله : « ذكر السيد أنه كتب جواب كتابي من الظهر إلى العصر ، ولقد استبطأته على ما أعرفه من بُعد غوره ، وغزارة بحره ، ولكني أغلقت لهذا الجواب بابي ، وأرخيت له حجابي ، وضممت إلى نشر كتب آدابي ، وجلست من الدواوين بين آل الجرّاح وآل بويه وبني الحصيب وبني مُقْلة . ونشرت من المقابر آل يزداد وآل شداد ، وحشرت من الآخرة ابن المقفع البصري ، وسهل بن هارون الفارسي ، وابن عبدان المصري ، والحسن بن وهب الحارثي ، وأحمد بن يوسف المأموني ، ووضعت عن يميني عهد أردشير بن بابكان ، وعن يساري كتاب البيان والتبيين ، وبين يديّ فصول بزرجمهر بن البختكان ، وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب ، عين الزمان ، وزين الشيب والشبان ، فما زلت أسرق من هذا كلمة ، وأنظر من ذاك فقرة ، وأستعير من هناك نادرة وثيقة ، أغصب الأحياء على بيانهم ، وأنبش الموتى من أكفانهم ، وأنا في أثناء ذلك رَطْبُ اللسان بالدعاء ، رطب العين بالبكاء ، أدعو الله بالتوفيق والتسديد ، وبالعصمة والتأييد »[٢] .

على أن الخوارزمي كان في نظر معاصره الهمذاني (وكان هذا أصغر سناً من الأول) لا يحسن من الكتابة « إلا هذه الطريقةَ الساذجة وهذا النوعَ

---

(١) رسائل الخوارزمي ص ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٥ .

الواحد المتداول بكل قلم، المتناول لكلّ يد وفم »[١] . وكان أبو الفضل الهمذانى زعيم الطريقة الجديدة والمحامى لها، فارق همذان سنة ٣٨٠ هـ، وهو مُقتَبَل الشبيبة، غضُّ الحداثة (كان يناهز الثانية والعشرين)، وورد حضرةَ الصاحب فتزوّد من ثمارها، ثم ورد جرجان، وأقام بها مدة، ووافى نيسابور سنة ٣٩٢ هـ[٢]، أى بعد أن فارق وطنه باثنى عشر عاماً، ثم شجر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى ما كان سبباً فى عُلُوّ أمره، وبُعْد صيته، إذ لم يكن فى الحسبان أن ينبرى للخوارزمى أحدٌ، فلما تصدّى الهمذانى لمساجلته، وجرت بينهما مكاتبات ومناظرات ومناضلات، ، وغلّب هذا قومٌ وذاك آخرون، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمَيْن المتصاولَيْن، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، ثم أجاب الخوارزمى داعى ربه، فخلا الجو للهمذانى وتصرّفت به أحوالٌ جميلة، وأسفارٌ كثيرة؛ ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلد إلا دخلها، واستفاد خيرها؛ وألقى عصاه بهراة. ثم صاهر أبا على الحسين بن محمد الخشنامى، وهو الفاضل الكريم الأصل، فانتظمت أحوال أبى الفضل بهذه المصاهرة؛ واقتنى بمعونة صهره ومشورته ضياعاً فاخرة؛ وعاش عيشة راضية، وحين بلغ أشده وأربى على الأربعين سنة ناداه ربه فلبّاه فى سنة ٣٩٨ هـ « فقامت عليه نوادب الأدب وانثلم حدُّ القلم »[٣] .

كان أبو الفضل مشهوراً بذكاء القريحة، وقوة الحفظ، وكان يُنْشَدُ القصيدةَ

---

(١) رسائل الهمذانى طبعة بيروت ص ٧٦ .

(٢) هذا هو الصواب كما فى الارشاد لياقوت (ج ١ ص ٩٦)، لا ٣٨٢ هـ كما فى يتيمة الدهر للثعالبى (ج ٤ ص ١٦٨) .

(٣) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٧ — ١٦٨ . ويذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٦٨ — ٦٩ من طبعة فستنفلد) أن بديع الزمان مات من السكتة، وعجل بدفنه، فأفاق فى قبره، وسمع صوته بالليل، فنبشوا عنه فوجدوه قد مات من هول القبر .

التى لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ، ويؤدِّيها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ، ولا يُخِلّ بمعنى[١] . وكان من العجائب التى يقدر عليها ، ويعجز عنها الخوارزمى ، أنه كان يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ فيه جوابُه ، أو كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله ، أو كتاباً إذا قُرِئَ من أوله إلى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطوره مخالفة كان جواباً ، أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل ، من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها ، أو خالياً من الألف واللام ، أو من الحروف العوامل ، أو أول سطوره كلها ميم وآخرها ميم ، أو كتاباً إذا قرئ معرّجاً وسُرِد معوّجاً كان شعراً ، أو إذا فسّر على وجه كان مدحاً ، و إذا فسر على وجه كان قدحاً[٢] . وكان هذا وأشباهه يعتبر أعلى درجات القدرة على الإنشاء فى ذلك العصر .

237

وكذلك يعيب الهمذانىُ الجاحظَ بأن كلامه سهلٌ ، قليلُ الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الجاحظ « مُنْقَادٌ لعُرْيان الكلام يستعمله ، نَفُورٌ من مُعْتَاصه يُهْمِلُه »[٣] . غير أن رسائل الهمذانى التى انتهت إلينا ليس فيها لحسن الحظ مثل هذه الإشارات فهى قد كفتنا مشقة ذلك ، ولكنها أكثر التواء وتكلفاً من رسائل الخوارزمى وأحفل بالتشبيهات البعيدة المطلب و بأنواع الجناس .

وقد خرج شىء جديد تجاوز أسلوب الرسائل ، وهو الميل إلى القصص والحكاية ؛ فنجد الأدباء يذكرون فى سياق رسائلهم بين حين وآخر حكاياتٍ طويلةً أو قصيرةً على سبيل التمثيل ؛ فمثلا يشبِّه الهمذانى فى إحدى رسائله حال الطامع الذى يذهب به الأمل والطمع بعيداً ، والخيرُ منه قريب ، بحال الرجل

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٧ .
(٢) رسائل الهمذانى ص ٧٤ .
(٣) مقامات الهمذانى طبعة بيروت ١٨٨٩ ص ٧٢ .

البخارى الذى ضاع حماره . يقول الهمذانى : « .... ثم لم يكن مَثَلى معه إلا مَثَل البخارى الذى ضاع حماره ، وخرج فى طلبه حتى عبر جيحون بسببه ، يَطْلُبُه فى كل مَنْهَلةٍ وينشده فى كل مرحلة ، وهو لا يجده ، حتى جاوز خراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ، فلما لم يجده ، وأيس ، عاد ، وقد طالت أسفاره ، ولم يَحْصُل حماره ، حتى إذا حصل فى بلده ، بين أهله وولده ، أحبّ الله أن يَلْطُف به لُطفاً ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى اصطبله فإذا الحمار بسرجه ولجامه وثفره وحزامه قائماً على المعلف ينشّ ... »[1] . وهو يقول مدللا على أن الإنسان يظل هواه دائماً مع وطنه : « إن الإبل على غلظ أكبادها لتحنّ إلى بلادها ، وإن الطير لتقطع عرض البحر إلى مظانها » ، وَيَحْكِى عن ذى اليمينين طاهر بن الحسين أنه « لما وَلِىَ مصر وافاها مضروبةً قبابُها مفروشةً أرضُها مزخرفةً جدرانُها ، والناس ركباناً ورجالا ، والنثّار يميناً وشمالا ، فأطرق لا ينطق حرفاً ، ولا يرفع طرفاً ، ولا يهشّ إلى أحد ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما أصنع بهذا وليس فى النظّارة عجائز بوشنج (وهى بلده) ؟ »[2] . وكذلك يحكى الهمذانى حكاية التاجر مع ولده ويتمثل بها ، وكان التاجر قد جهّز ولده بمال للتجارة ، وأوصاه عند ما خرج من بلده بأن يحذر النفس وسلطانها . وكان مما قاله له : ستحدثك النفس بمعنى اسمه القرَم ، ويخبرك السفهاء عن شىء يقال له الكرم ، وقد جرّبت الأول فوجدته أسرع فى المال من السوس ، ونظرت إلى الثانى فوجدته أشأم من البسوس ، ودعنى من قولهم : أليس الله كريماً ؟ بلى ولكن كرمه يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضره ؛ فأما كرم لا يزيدك حتى ينقصنى ، ولا يريشك حتى يَبْرِيَنى ، فهو خذلان ، فلما فصلت

---

(١) رسائل الهمذانى ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٧٠ .

العير لجّت بالفتى همةُ العلم ، فأنفق ما معه من المال فى طلبه « فلما انسلخ من طارفه وتالده ، رجع بالقرآن وتفاسيره إلى والده ، فقيراً لا يملك نقيراً ، وقال : يا أبتِ جئتُك بسلطان الدهر ، وعزّ الأبد ، وحياة الخُلْد ؛ جئتك بالقرآن وتفاسيره ، والحديث بأسانيده ، والفقه بأبازيره ، والكلام بأفانينه ، والشعر بغريبه ، والنحو بتصاريفه واللغة بأصولها ، فاجْنِ العلم نَوْراً ونُوراً ، والآداب حُرًّا وحُوراً ؛ فأتى به إلى السوق وقدّمه للصراف والبزاز والعطار والخباز والقصاب ، وانتهى إلى البقال ؛ فساومه عن باقة بقل ، وقال : انتقِ تفسير أى صورة شئت ، فتنحّى البقال وقال : إنما نبيع بالكِسْرة المكسّرة لا بالسورة المفسَّرة ، فأخذ الوالدُ تراباً بيده ، ووضعه على رأس ولده ، وقال : يا ابن المشئومة ، ذهبتَ بقناطير ، وجئت بأساطير ، لا يبيع بها ذو عقل باقةَ بقل »[1] .

وإذا كنا نجد عند الهمذانى ميلا إلى القصص والحكاية ، فقد كان أيضاً عند الصاحب بن عبّاد ومن يتصل به اهتمام خاص شديد بالجوّالين المكدّين وحكاياتهم ومخاطراتهم . وكان الصاحب بن عباد نفسه يحفظ منا كاة بنى ساسان حفظاً عجيباً ؛ ويعجبه من أبى دُلَف الخزرجي الشاعر وفور حظه منها ؛ وكانا يتجاذبان أهدابها ، وكان أبو دلف هذا شاعراً كثير المُلح والطرف « أخْلَق التسعين فى الأطراف والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب وضرب صفحة المحراب بالجراب فى خدمة العلوم والآداب » ، وقد دوّخ البلاد ، فطاف بالهند والصين ، « وكان ينتاب حضرةَ الصاحب بن عبّاد ، ويكثر المقام عنده . . . ويتزوّد كتبه فى أسفاره ، فتجرى مجرى السفاتج فى قضاء أوطاره »[2] . ولم تقتصر دقة ملاحظته بالعين والأذن على أحوال البلاد الأجنبية ، بل شملت أحطّ طبقات أمته ، وهى

(١) رسائل الهمذانى ص ٣٩٣ وما بعدها .
(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

الطبقة التى يجهلها المثقفون فى العادة جهلهم لما ليس فى بلادهم ، وكان الجاحظ أيضاً هو أول من كشف عن هذه الناحية ؛ فقد تكلم قبل ذلك العهد بمائة وخمسين سنة عن المُكدّين ، وأسمائهم ، وما يمتازون به ، ويحتالون به[١] ، ثم جاء البيهقى فى أوائل القرن الرابع فنقل عن الجاحظ ، وتوسّع فى الكلام عن أصناف المُكدّين وأفعالهم ونوادرهم[٢] . أما أبو دلف فإنه ألّف قصيدة طويلة فى أصناف المكدين وشرحها شرحاً وافياً كافياً ، وتقدم كثيراً على كل من الجاحظ والبيهقى[٣] . ويرجع الفضل فى اتجاهه هذا الاتجاه إلى الأحنف العكبرى الشاعر . فقد كان الأحنف أيضاً جوّالا ، طاف البلاد ، وتغنى تغنياً مؤثراً بحرمانه من الوطن ؛ ولكنه التزم طريقة الشعراء الحقيقيين ، فلم يحاول أن يذكر فى شعره كل الألفاظ الصعلوكية التى تبين أصناف المكدين وألفاظهم ؛ وإنما ترك بعض ذلك لأبى دُلَف[٤] . أما الهمذانى فقد ظهر فى هذا الميدان متميزاً بنزعة خاصة إلى الحكايات القصصية التمثيلية القصيرة التى تغلب عليها الصبغة البلاغية وكانت ثمرة ذلك مجموعة من المقامات منها واحدة تسمى الرصافية ، وهى معرض تجتمع فيه الاصطلاحات المتعلقة بالمكدين ، كما هو الحال فى قصيدة أبى دلف[٥] والهمذانى نفسه يشير إلى تأثره فى مقاماته بأبى دُلَف وذلك بأن أخذ من قصيدته

239

---

(١) كتاب البخلاء للجاحظ طبعة فان فلوتن س ٤٧ وما بعدها .

(٢) المحاسن والمساوئ س ٦٢٢ — ٦٢٧ .

(٣) يتيمة الدهر ج ٣ س ١٧٥ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر س ١٧٥ . على أنه يقال فى هذا النص إنه كان للعكبرى قصيدة دالية فى المناكاة وذكر المكدين . (المترجم)

(٥) يفتخر الهمذانى (رسائل س ٣٨٩ — ٣٩٠ ، ٥١٦) بأنه أملى فى الكدية أربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ، ولكن لم يصل إلينا إلا نحو من خمسين مقامة منها ، وينبغى ألا نعتبر الأربعمائة رقماً دقيقاً ، فإن الهمذانى يؤكد فى رسائله (س ٧٤) أنه يقدر على أربعمائة صنف من الترسل .

الأبيات التى ذكرها فى المقامة الأولى[١] . وقد قدح الخوارزمى فى الهمذانى بأنه لم يحسن سوى هذه المقامات ، فثارت لهذه التهمة ثائرة الهمذانى[٢] . ومن أسف أننا لا نعرف الناحية التى أعجبت الخوارزمى فى هذه المقامات .

أما عندى فالتقدم الكبير الذى نلاحظه هو أن جميع المقامات تدور كلها حول رجل واحد ، هو أبو الفتح الإسكندرى : وبذلك تقوم الحكايات المختلفة الأشكال على أساس واحد ، وهذا تمهيد للكتابة الروائية على صورة أكبر . ولم يكن قد بقى على الهمذانى إلا خطوة واحدة ليأتى لنا بقصص المحتالين واللصوص من أخف وألطف نوع لم يصل إليه أحد إلى اليوم . ولكن هذه الخطوة لم تتم مع الأسف . ولم يكن ذلك لنقص أو قصور فى القدرة على نسج القصص وربط أجزائها ، فهذه القدرة كانت موجودة ، ونلاحظها فى القصص الشعبية ولكن السبب هو أن المقامات كانت ولا تزال أدباً يؤلف للبلغاء ، وهؤلاء لا يعنون بربط أجزاء القصة بعضها ببعض ، وإنما يعنون بالألفاظ والأساليب البليغة . وقد أوجدت هذه المقامات ميلا إلى الخطب ذات الأساليب الوضّاءة التى تشبه « السواريخ » التى تنطلق لامعة ، ثم تفنى ولا تترك أثراً ، وكذلك أساليب البلغاء لم يكن لها ، رغم جمالها ، أثر فى وضع قصة طويلة متماسكة الأجزاء

على أنه قد جُمعت أشعار الهمذانى أيضاً[٣] ؛ وهى قصائد تدل على أن صاحبها كان بفطرته كاتبا ولم يكن شاعراً ؛ فهى أساليب بلاغية محضة مجردة من كل عاطفة شعرية وفيها فرط تكلف فى الألفاظ والمعانى ، فمثلاً يقول الهمذانى :

---

(١) اليتيمة ج ٣ ص ١٧٦ . على أن المقامات لم يذكر تاريخ تأليفها ، فيقول الحصرى (على هامش العقد الفريد ج ١ ص ٢٨٠) إن المقامة الحمدانية (ص ١٥٠ وما بعدها من طبعة بيروت) أمليت سنة ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م .

(٢) رسائل الهمذانى ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٣) طبع ديوانه بمصر عام ١٣٢١ هـ ومخطوط باريس (٢١٤٧) أدق وأوفى .

إذا سجع القمرىّ راسلتُ لحنه بإيقاع دمع للغناء موافق[1]

وهو يتلاعب فى شعره بعلم اللسان فيكتب قصيدة معرّاة من الواو ، وهو ما لم يستطع الصاحب ابن عباد أن يفعله مع أنه استطاع عمل قصائد كل واحدة منها خالية من حرف من حروف الهجاء[2] .

وتدل عناية الحصرى[3] (المتوفى عام ٤٥٣ هـ — ١٠٦١ م) برسائل الهمذانى على أن الهمذانى قد غلب على من تقدمه ؛ فالحصرى يذكر أجزاء طويلة من رسائل الهمذانى ؛ أما الخوارزمى فلا يذكره أصلا .

240 وكان أبو العلاء المعرّى (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ — ٩٧٣ — ١٠٥٧ م) أكبر كتاب النثر فى عصر الحصرى . ويقول ناصر خسرو الرحالة الفارسى الذى ورد المعرّة سنة ٤٢٨ هـ — ١٠٣٧ م « وقد اتفقت كلمة أدباء الشام والمغرب والعراق على أنه لم يبلغ أحد فى هذا القرن درجة المعرى ، ولن يبلغها أحد » ، وقد أشاد الرحالة الفارسى إشادة خاصة بوصف كتاب لأبى العلاء « ذكر فيه من العبارات الفصيحة العجيبة ما لا يستطيع الإنسان أن يفهم إلا بعضه ، وما لا بد له من التماس تفسيره عند أبى العلاء نفسه »[4] ، وكان ذلك هو المثل الأعلى للنثر الجيد فى ذلك العصر ، وقد ادّخر أبو العلاء التعبيرات العويصة لقصائده ، ولكننا نجد الأسجاع قد صارت فى رسائله أقصر مما نجده عند الهمذانى ، كما أننا نجد تشبيهاته أكثر تكلفاً ، وكثيراً ما تطغى الصناعة والتكلّف اللفظيين على الغرض من الرسالة حتى يجد القارئ مشقة فى الوصول إلى معرفته ، وكثيراً ما نجد فى رسائله

---

(١) الديوان ص ٥٩ ، والظاهر أن المؤلف لا يعجبه تشبيه الدمع بالإيقاع الموسيقى . (المترجم)

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٢٣ والديوان مخطوط باريس ص ١٥٤ أ — ب .

(٣) زهر الآداب المطبوع بمصر على هامش العقد الفريد .

(٤) ناصر خسرو ص ١١ من طبعة شيفر .

تشبيهات متكلفة مطوّلة كثيراً بالنسبة لما عرف من قبل ، فمن ذلك قوله : « وأسفى لفراق سيدى الشيخ أدام الله عزه أسف ساق حرّ ، ساقه الطرب إلى الحر ، توارى بالوريقة ، من حر الوديقة ، كأنه قينة وراء ستر ، أو كبير حجب من الهتر ، فى عنقه طوق ، كرب يفصمه الشوق ، لو قدر لانتزعه باليد ، من المقلّد ، أسفاً على إلفٍ ، غادره للكمد أى حِلْف ، رسله فهلك نوح ، فالحمائم عليه تنوح ، يسمعك بالغناء ، أصناف الغناء ، ويظهر فى الغصون ، خبىّ الوجد المصون » ، وهلمّ جرا[١] ، ونجد الكلام تلمع من ثناياه الإشارات اللطيفة وأنواع الجناس اللفظى ، ونكاد نجد فى كل جملة صدى من ذلك قليلا أو كثيراً . وهذا التعبير عن الشوق للمرسل إليه هو الموضوع الذى تُبدأ به الرسائل عادة ، على أننا نجد الهمذانى قد عبر عن شوقه بما هو أبسط من ذلك ، مثال ذلك قوله : « معاذ الله أن أشتاق إلى حضرته ، لكنى أفتقر إليها افتقار الجسد إلى الحياة ، والحوت إلى الفرات »[٢] أما بعد ذلك فنجد الكتاب يعبّرون عن الشوق ، ويبالغون فى التمثّل بالحمام أو نحوه مما لم تجر به عادة ؛ فمثلا يقول أبو العلاء : « وشوقى إليه وإلى الجماعة الذين عرفتهم بمدينة السلام كالنسيم لا يجمد ، ونار فارس ليس تخمد ، وفقرى إلى لقائه ولقائهم فقرُ الذى أملق إلى الصلة ، وبيت الشعر إلى القافية المتصلة » . ويقول أيضاً : « شوقى إلى مولاى الشيخ مناسب طول الدهر لا ينفد بسنة وشهر ، وكلما ذهب زمان صادف ، أعقبه من الأزمنة رادف » ، ويقول « شوقى إلى سيدى الشيخ شوق البلاد الممحلة ، إلى السحابة المنسحلة ، وانتظارى لقدومه انتظار تاجر مكة وفد الأعاجم » ، ويقول أيضا : « وأنا والجماعة نبعث إلى سيدى الشيخ مع راكب الطريق ونسيم الريح الخريق ، والعقيق المومض ، والخيال المتعرض ، سلاما

241

(١) رسائل أبى العلاء نشرة مرجليوث ص ٤٦ — ٤٧ ، ص ٥٢ .
(٢) رسائل الهمذانى ص ٨ .

تأرّجُ رحالُ الرفقة إذا استودعته ، وتبتهج قلوب النفر إن الآذان منهم سمعته »(١)
أو نجد فى بعض الرسائل مبالغة فى المجاملة لا حدّ لها ، فمن ذلك أن أحد الأدباء
أهدى إلى أحـد الأمراء مختصراً لـكتاب مشهور فى النحو ، فعبّر المعرى عن
إعجابه بالمختصر بأن شبّهه فى دقته وإحاطته بما فى الأصل بالفرات ، جرى من سمّ
الخياط . وأول مانجده فى رسائله رسالته التى بعث بها إلى رجل بمصر ؛ وفيها
يقول : « إن كان للآداب ، أطال الله بقاء سيدنا ، نسيم يتضوّع ، وللذكاء نار
تشرق وتلمع ، فقد فغمنا على بعد الدار أرجُ أدبه ، ومحا الليلَ عنا ذكاؤه بتلهّبه ،
وخوّل الأسماع شنوفا غير ذاهبة ، وأطلع فى سويداوات القلوب كواكب ليست
بغاربة ، وذلك أنا معشر أهل هذه البلدة وُهب لنا شرف عظيم ، وأُلقى إلينا
كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحبر ، ومالك أعنّة النظم والنثر ، قراءته
نسك ، وختامه بل سائره مسك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، أُجلّ عن
التقبيل فظلالُه المقبّلة ، ونُزّه أن يبتذل فنسخه المتبذلة ، وإنه عندنا لـكتاب
عزيز ...... وإنما المنازل التى ينزلها السيد كالشهب الشآمية الموفية على العشرين
ثمانية ، نزل بها الزبرقان فتشهرت ، ونسبت العرب إليها كلّ سحابة أمطرت »(٢)
وكتب أبو العلاء إلى رجل أخبره بأنه سيزور بلدته المعرّة ، فوصفها له بقوله :
« مثله بقدوم هذه الناحية مثل النسر الذى هو من ملوك الطير وعظامها ، تتصل
من أوصاله رائحة المسك يهبط على نبيلة جد وبيله ، وهذه جمل من صفة المعرّة :
هى ضد ما قال الله عز وجلّ : (مثل الجنة التى وُعد المتقون فيها أنهار من ماء
غير آسن ....) اسمها طِيَرة ، وعند الله ترجى الخيرة ، المورد بها محتبس ، وظاهر
ترابها فى الصيف يبس ، ليس لها ماء جارٍ ، ولا تغرس بها غرائب الأشجار ،

(١) رسائل أبى العلاء ص ٣٦ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٨٨ .
(٢) رسائل أبى العلاء ص ٣ وما بعدها .

وإذا أُبرز لأهلها ذِبْحٌ ، يؤمّل به الربح ، تحسبه صبغ بخطر ، فكأنما يرمق به هلال الفطر ، وقد يجيئها وقت يكون فيها جدى المعز فى العزة كجدى الفرقد ، ومثل حمل الكواكب حمل النقد ، ويبكر فقيرها على الهداية قبل أبى الفرخين ابن داية ، حتى يقف ببائع الرسل ، فكأنما وقف برضوان يستوهبه ماء الحيوان »[1]

هذه الطريقة بما فيها من زخارف كثيرة جعلت اللغة سلسة القياد ، قوية التعبير ، وزادتها تلطيفاً رغم الاختصار ، وهى الطريقة التى لجأ إليها كل الذين كانوا يريدون التعبير عما فى نفوسهم مراعين فى ذلك غاية ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرية فى التعبير ، وقد بلغ أبو حيان التوحيدى المتوفى حوالى عام ٤٠٠ هـ مرتبة الأستاذ لهذه الطريقة . وأول ما نلاحظه أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع ، وقادراً عليه ؛ غير أننا نكاد لا نلاحظ فى أسلوبه ذلك التكلُّف الذى نجده عند غيره من الأدباء . ولم يُكتَب فى النثر العربى بعد أبى حيان ما هو أسهل وأقوى وأشد تعبيراً عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان ؛ ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين فى البديع . ولقد كان أبو حيان فناناً غريباً بين أهل عصره ، وكان يعانى وحشة من يرتفع عن أهل زمانه ، ويتقدّم عليهم وهو يقول : « فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرفق ومشفق . والله لربما صليت فى المسجد ، فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق فبقّال ، أو عصّار ، أو ندّاف ، أو قصّاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى بصنانه ، وأسكرنى بنتْنه ، فقد أمسيت غريب الحال ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً ما لا بد من حلوله ، فشمس العمر على شفا ،

(١) نفس المصدر ص ٥٥ .

وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول »[١] .

وفى آخر حياته أحرق كتبه ، فلما عُذل فى ذلك قال : « إنى فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً ، فشقّ علىّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنّسون عرضى إذا نظروا فيها .... وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة ، فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطررت بينهم ، بعد الشهرة والمعرفة ، فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفُّف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة »[٢] . وكتابه فى ذم الوزيرين مشحون بالثلب المقذع ، وقد ظل الناس زماناً طويلا يعتقدون أن هذا الكتاب يجلب النحس على من يقتنيه .

وآخر مظهر لضعف الذوق العربى الأصيل أنه منذ القرن الثالث الهجرى بدأت قصص السمر الأجنبية المطوّلة تحتل مكاناً كبيراً فى الأدب العربى[٣] . وكانت الإسرائيليات وقصص البحريين تقوم حتى ذلك الحين ، بحاجة من يريد التسلية . أما منذ القرن الثالث فقد أضيف إلى ذلك ما ترجم من قصص الهند والفرس ، وكان أهمها فى ذلك العصر حكايات ألف ليلة وليلة أو « هزار أفسان » (ألف خرافة) وهو اسمها الفارسى . وكانت هذه الحكايات دون المائتى سمر موزعة على ألف ليلة[٤] .

---

(١) رسالة فى الصداقة والصديق طبع القسطنطينية ١٣٠١ هـ ص ٥ — ٦ . ويقول أبو حيان إنه كتب هذه الرسالة « لما بلغت شمسه رأس الحائط » (ص ١٩٩) .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

(٣) جاء فى أخبار العرب أن أحسن الناس جواباً وأحضرهم قريش ثم العرب ، وأن الموالى تأتى أجوبتها بعد فكرة وروية (أمالى المرتضى ج ١ ص ١٩٧ طبعة القاهرة ١٩٢٥م) .

(٤) هل كانت قصص السندباد ضمن حكايات ألف ليلة وليلة ؟ كانت تلك القصص موجودة قائمة بذاتها على تفاوت فى طولها ، وكذلك كان يعرف أنها من كتب الهند (مروج =

ولم تكن تروق الأدباء الذين يؤثرون قراءة النثر الفنى الذى يهز أرجاء النفس والذى لايخلو أيضاً من زخرفة ، فكانوا يرون أن هذه القصص (كتاب غث بارد الحديث)[١] ، وكذلك نجد أبا العلاء الفنان الكبير يتكلم عن كتاب كليلة ودمنة كلام من لم يجده أهلاً للاهتمام ؛ فيقول إنه لم يقتن هـذا الكتاب ولم يتمكن علمه بما فيه ، ولم يستكمله سماعاً[٢] . ولكن روح ذلك العصر الجديدة التى خرجت عن النزعة العربية الأولى كانت تتجه إلى ما هو أجنبى فى الأسلوب والموضوع . على أننا نجد من العلماء المشهورين من لم يجد غضاضة على كرامته العلمية أن يؤلف أسماراً من النثر السهل ، غايتها مجرد التسلية ، فمثلاً ابتدأ أبو عبـد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى ، صاحب تاريخ الوزراء ، بتأليف كتاب على نسق كتاب ألف ليلة ، فاختار ألف سمر من أسمار العرب وغيرهم ، وكتب منها أربعمائة وثمانين سمرا ، ولكن المنيّة عاجلته قبل تتميمه الألف . ومما يجب ملاحظته أن الجهشيارى لم يهتم بوصل قصصه بعضها ببعض ، ولهذا الوصل سحره وتأثيره الخاص فينا ، لأنه يحببنا فى مواصلة القراءة ، بل جعل الجهشيارى كل سمر قائماً بذاته ، ويكفى لليلة واحدة[٣] . ومن هذا النوع الكتبُ المسلّيةُ التى ألفها القاضى التنوخى المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤م . وأخيراً جاء المؤرّخ الكبير مسكويه المتوفى حوالى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م ، وكان أكبر مؤرخى

= الذهب للمسعودى ج ٤ ص ٩٠ والفهرست لابن النديم ص ٣٠٥) . وقد ذكر الصولى فى الأوراق (مخطوط باريس ص ٩) وابن الحجاج الشاعر (ديوان ابن الحجاج (المتوفى عام ٣٩١هـ — ١٠٠٠ م) مخطوط مدينة جوتا ص ١١ ا) أن هذا الكتاب كتاب السندباد من كتب الحكايات المحبوبة ، التى يميل إليها الناس ميلا خاصا . ويقال إن مؤلفه طبيب هندى يسمى سندباد ، وهو يحتوى على كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك (مروج الذهب ج ١ ص ١٦٢) .

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٠٤ .

(٢) رسائل أبى العلاء المعرى طبعة مرجليوث ص ١٠٢ .

(٣) الفهرست ص ٣٠٤ .

القرن الرابع ، فألّف كتاب أُنس الفريد ، « وهو أحسن كتاب صُنِّف فى الحكايات القصار والفوائد اللطاف[١] » . وهذه القصص الجديدة هى من نوع يغاير كل المغايرة القصص القديمة التى ألفها ابن قتيبة وصاحب العقد ، ففيها نجد لأول مرة الأسلوب القصصى الإسلامى ، أعنى طريقة القصص التى ليست عربية خالصة . وإلى جانبها انتشرت كتب شعبية كثيرة لا يعرف مؤلفوها ، منها قصص فى الفروسية ، كالتى تحكى عن عروة بن عبد الله ، وأبى عمر الأعرج وكتبٌ فى النوادر والحكايات مثل حكايات جحا وحكايات ابن المعاملى المغنى المشهور ، وكتب هزلية مثل قصة عاشق البقرة والسنور والفأر[٢] وخرء الطائر ، وكتاب ذات الطيب ، ثم مجموعة كبيرة من القصص الغرامية وخصوصاً حكايات الشعراء المشهورين وأهل الدهاء من النساء العاشقات . وكذلك شغلت قصص الحب بين الآدميين و بين الجن مكاناً كبيراً[٣] ، وقد ذكر المؤرخ حمزة الأصفهانى حوالى عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م أنه كان فى عصره من كتب السمر التى تتداولها الأيدى ما يقرب من سبعين كتاباً[٤] . وكان من بين هذه الكتب القصصُ التى كان يؤثرها أهل الطبقة الراقيــة والتى يغلب عليها الوَلَه واللذة بسنح الدموع ، وكان يثير توله العشاق ما روى عن بنى عذرة من أن أحدهم يموت إذا عشق ، وعن أبطال القصص الغرامية الذين يموتون من شدة الفقد ، وتتضعضع أعضاؤهم من شدة الوجد[٥] .

وإلى هنا وقف النثر العربى إلى اليوم .

---

(١) تاريخ الحكماء للقفطى ص ٣٣١ — ٣٣٢ من الطبعة الأوروبية .
(٢) الأوراق للصولى ص ٩ .
(٣) الفهرست ص ٣٠٨ .
(٤) كتاب تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام تأليف حمزة بن حسن الأصفهانى طبعة جوتفالد ص ٤١ — ٤٢ .
(٥) الموشّى للوشّاء طبعة ليدن ١٣٠٢ هـ ص ٦٤ وما بعدها .

٢ ـ الشـعر

كانت مدن العراق الكبرى مهداً لشعر المُحْدَثين ، أما قائدهم فيعتبر بشّار ابن برد الذى نشأ بالبصرة ، وتُوفى عام ١٦٨ هـ — ٧٨٤ م (١) . وكان أبوه طيّاناً يضرب اللبن (٢) . وقد وُلد بشار أعمى ، وكان ضخما طويلا عظيم الخلق والوجه ، وقد سخر منه رجل بأن قال له : كأنك فيل عرضك أثقل من طولك ؛ وذلك عند ما رُوى له قولُ بشار :

فى حُلّتى جسمُ فتى ناحل لو هبّت الريح به طاحا (٣)

وكان إذا أراد أن ينشد شعراً صفّق بيديه ، وتنحنح ، وبصق عن يمينه وشماله ، ثم ينشد ، فيأتى بالعجيب (٤) . ويُحكى عن رجل أنه قال : « عهدى بالبصرة وليس فيها غَزِلٌ ولا غَزِلَةٌ إلا يروى من شعر بشار ، ولا نائحة ، ولا

---

(١) ألف المرزبانى (المتوفى عام ٣٧٨ هـ) كتابا كبيراً فى أخبار الشعراء المحدثين وجعل أولهم بشار بن برد وآخرهم ابن المعتز (الفهرست ص ١٣٢) . ويقول ابن خلاّد الشاعر فى شطر بيت له : والآخرون يقودهم بشار (يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٥) ؛ وهو يسمى قائد المحدثين (حمزة الأصفهانى فى ديوان أبى نواس طبعة القاهرة ١٨٩٨ ص ١٠ — ١١ ، والحصرى على هامش العقد ج ٢ ص ٢١) .

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٢٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢ و ٦٥ . ويحكى عن رجل أنه قال : مررت ببشار ، وهو منبطح فى دهليزه كأنه جاموس (نفس المصدر ص ٥٦) .

(٤) نفس المصدر ص ٢٢ . وكذلك كان البحترى من أبغض الناس إنشادا ، فكان يتشدق ويتزاور فى مشيه مرة جانباً ومرة القهقرى ويهز رأسه مرة ومنكبه أخرى ويشير بكمه ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المستمعين فيقول : مالكم لا تقولون : أحسنت ، هذا والله مالا يحسن أحد أن يقول مثله (الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٠٤) . وكان فى بعض البلاد فى أثناء القرن الرابع الهجرى شعراء يظهرون شذوذ الشعراء كما كان الحال فى العصور المتقدمة ، ويحكى عن أحدهم أنه دخل على بعض الولاة ، وقد طين وجهه بطين أحمر ولبس لبادا أحمر وعمامة حمراء وأمسك عكازا أحمر ولبس فى رجليه خفين أحمرين (كتاب الديارات ص ٨٦ ب) .

مغنّية إلا تتكسّب به ، ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخشى معرّة لسانه »[١] .
على أن بشاراً قصد بغداد وأنشد قصائده أمام الخليفة المهدى ؛ ويقال إنه ألف اثنى عشر ألف قصيدة من الشعر وهو من أحسن ما يؤثر[٢] .

وكانت لغة هذا الشعر هى اللغة العربية الخالصة ؛ ويُذكر أنه كان ينزل بظاهر البصرة قوم من أعراب قيس عيلان ، وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتيهم وينشدهم أشعاره[٣] . كأنما هو أحد الشعراء القدماء . وكان بشار عليما بأسرار اللغة حتى اعتبره اللغويون حجة . ولكن هذا كله كان على الطريقة القديمة ، فلم يبتكر الشعراء المُحْدَثون صوراً جديدة ولا هم اكتشفوا مادة جديدة إلا نادراً ، وإن كانوا قد افتتحوا قصائدهم بذكر الورد والنيلوفر وما أشبههما من أزهار الرياض والبساتين ؛ على حين كان أهل البادية يفتتحون قصائدهم بذكر الخزامى والبهار والعرار ونحوها من زهر البرّية[٤] ؛ وإن كانوا أيضاً تركوا وصفَ حمار الوحش إلى وصف البهائم ، كما فعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف الكاتب الذى كان يتولى ديوان الرسائل للمأمون[٥] ؛ أو إلى وصف القطط المنزلية ، كما فعل ابن العلاف المتوفى عام ٣١٨ هـ — ٩٣٠ م[٦] . ولكن كان

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٢٦ .

(٢) وقد قتل بشار وهو يناهز الستين أو نيف على السبعين ، وقد نكبه الدهر بفقد جميع أصدقائه قبل ذلك . وقد قال فى أشعاره إنه لم يبق إلا الناس الذين لا يعرفون ماهو الكلام ، وقد ذم المهدى فسعى به إليه ، وقيل له إنه زنديق ، فأمر بضربه ضرب التلف حتى مات ، فألقيت جثته فى البطيحة فحمله الماء إلى دجلة البصرة ، فأخذ ودفن ، وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح ، رؤيت تسير خلف جنازته وتصيح : وا سيداه وا سيداه (الأغانى ج ٣ ص ٧١ — ٧٢) .

(٣) كتاب الأغانى ج ٣ ص ٥٢ .

(٤) العمدة لابن رشيق ص ١٥٠ طبعة مصر ١٣٢٥ — ١٩٠٧ .

(٥) الأغانى ج ٢٠ ص ٥٦ .

(٦) الدميرى ج ٢ ص ٣٢١ . لابن العلاف قصيدة طويلة رثى بها هرا . وقد اختُلف =

هناك شيء واحد جديد، وهو البحث عن الطرائف البديعة التى تخالف المألوف، وهو أثر من آثار تدهور المدنية التى دخلت فى الشعر العربى حينما آلت الرياسة إلى الأخلاط الذين سكنوا المدن. وحدث فى الشعر ما حدث فى النثر. ذلك أن الميل إلى الطرائف والمسلّيات قتل فى الناس الميل إلى شعر البطولة القديم. وقد امتُدح الجاحظ لأنه كان مؤسس الطريقة الجديدة التى تجمع بين الجد والهزل؛ وكذلك نال بشارٌ — قائد الشعراء المحدثين — إعجابَ أبى زيد اللغوى والأصمعى. وأول ما أعجبهما فيـه أنه كان يجد ويهزل على حين أن منافسيه من المتمسكين بمذهب الأوائل لم يحسنوا إلا واحداً من هذين[1]. وكذلك أعجب الأصمعى فى بشار أنه كان أكثر تصرفاً فى فنون الشعر، وأغزر وأوسع بديعاً من غيره[2]. أما إسحاق الموصلى الذى كان يتحمس لمذهب القدماء فقد كان لا يعتد بشعر بشار، ويقول هو كثير التخليط فى شعره، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً، فمنها المتناهى فى الجودة ومنها غير الجيّد. وذكر لبشار هذين البيتين:

إنما عظم سليمى حبتى   قصب السكر لا عظم الجمل

وإذا أدنيت منها بصلا   غلب المسكُ على ريح البصل

ويقول إن هذا يزرى بشعره، مهما كان فيه من الجيد[3]. ولم يكن تمَس المستطرفات البديعة من المذاهب الحقيقة بالطلب عند الشعراء القدماء؛ ولكن

= فى سبب عملها، فقيل كان له قط حقيقة، فقتله الجيران، فرثاه. وقيل بل رثى بها صديقه ابن المعتز. ولم يصرح بذكره خوفا من المقتدر، فورى بالقط. وقيل بل هويت جارية لعلى بن عيسى الوزير غلاما لابن العلاف، ففطن بهما على بن عيسى فقتلهما جميعا. فرثى ابن العلاف غلامه وكنى بالهر (تاريخ أبى الفداء ج ٢ ص ٣٦١ — ٣٦٢ تحت عام ٣١٨)، وقد كتب الصاحب بن عباد مرثية لقط عارض فيها ابن العلاف (يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣).

(١) الأغانى ج ٣ ص ٢٥.
(٢) الأغانى ج ٣ ص ٢٤.
(٣) نفس المصدر ص ٢٨.

ذلك انتشر عند المحدثين ، وكانت الكلمة الجارية فى وصف الشعر الحسن فى القرن الثالث هى « البديع » أى الطريف المستحدث [١] . وقد كتب ابن المعتز (المتوفى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩م) — وهو من أكبر الشعراء — كتابًا خاصا بهذا المعنى . وقد تبوأت المعانى المقام الأول ؛ كما هو الحال فى كل شعر غايته الجرى وراء المستطرفات ، وكان الشعراء يتلمسون المعانى الدقيقة والتشبيهات المتنوعة فى تأليف الأبيات الشعرية ، وفى تصوير الفكرة التى تتضمنها . ومن هنا جاءت المعانى التى زادها بشار بن برد وأصحابه فإنهم أتوا « بمعانى ما مرت قط بخاطر جاهلى ولا مخضرم ولا إسلامى » [٢] . وقيل لبشار بم فُقْتَ أهل عصرك فى حسن معانى الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ قال « لأنى لم أقبل كل ما تورده علىّ قريحتى ، ويناجينى به طبعى ، ويبعث به فكرى ؛ ونظرت إلى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ، فسرت إليها بفكر جيّد ، وغريزة قوية ؛ فأحكمت سَبْرها ، وانتقيت حرها ، وكشفت عن حقائقها ، واحترزت عن متكلَّفها » [٣] .

ومن شعر بشار الذى يُعتبر مثالا للمعانى المبتكرة والشعر الجيّد قوله :

ياقوم أذنى لبعض الحىّ عاشقة　　والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم　　الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وهو يزيد هذا المعنى بساطة ودقة فى صورة أخرى له حيث يقول :

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها　　قلبى وأمسى به من حبها أثر

(١) وتتصل كلمة « بديع » من حيث الاشتقاق بمعنى ما هو فريد فى بابه أو غريب أو مستحدث .

(٢) العمدة ج ٢ ص ١٨٥ .

(٣) نفس المصدر .

أنى ولم ترها تهذى فقلت لهم إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر[1]

وكانت عادة الشعراء فيما سلف ، أنهم كانوا يشبهون الخدود بالورد ؛ أما اليوم فإن الورد صار يشبَّه بالخدود . وقد أنشد أحد الشعراء أمام رجل هذا البيت :

عشـــيَّة حيَّانى بورد كأنه خدود أُضيفت بعضهن إلى بعض

فأعجب السامع حتى زحف إلى المنشد وطلب الزيادة[2] . وقد نال أعظمَ الإعجاب قولُ ابن الرومى (المتوفى عام ٢٨٠ هـ — ٨٩٣ م) .

يجذب من نقرته طرة إلى مدى يقصر عن نيله

فوجهه يأخذ من رأســـه أخذ نهار الصيف من ليله

وهو يشير بالليل والنهار إلى لون الشاعر الأسود وجمال بياض جلد الرأس[3]

وكان ابن الرومى هذا متطرفًا فى حكمه على الشعراء المحدثين حتى كان يزعم أن بشاراً أشعر الناس جميعًا ممن تقدم وتأخر[4] ، وهو حكم كان يقف له شَعْر الأدباء واللغويين فى ذلك العصر . على أن ابن رشيق ، ناقد الشعر المعروف (المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م) ، قرَّر بعد ذلك بمائتى عام أن ابن الرومى نفسه أكبر الشعراء المحدثين . وهو يروى له البيت المتقدم ويقدّمه بقوله : فقال ابن الرومى وأحسن ما شاء[5] . وهـذه الطريقة الجديدة قوّت ما عند الشعراء الموهوبين من ميل إلى النظر المستقل وإلى الابتكار فى التعبير تقويةً كبيرة ، وأصبح لا يحمد لهم أن يسيروا على المناهج السهلة المطروقة . ولهذه الطريقة

(١) العمدة ج ٢ ص ١٨٨ وتجد صورة أخرى لهذه الأبيات فى الأغانى ج ٣ ص ٦٧ . وقد كان عمر بن أبى ربيعة هو صاحب طريقة قالوا وقلت فى شعر الغزل .

(٢) كتاب الديارات ص ٥ ب .

(٣) العمدة ج ٢ ص ١٨٨ .

(٤) حمزة الأصفهانى فى ديوان أبى نواس طبعة القاهرة ١٨٩٨ ص ١٠ .

(٥) العمدة ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٩٤ (؟) .

الجديدة يرجع الفضل فى هذه الملاحة الطبيعية التى تشبه الكحل من غير تكحل والتى نجدها مثلا فى رثاء بشار لبُنَيَّةٍ صغيرة له [1] .

يا بنت من لم يك يهوى بنتا   ما كنت إلا خمسة أو ستا
حتى حللت فى الحشى وحتى   فتتت قلبى من جوى فانفتا
لأنت خير من غلام بتا   يصبح سكران ويمسى بهتا

أو ما قيل فى وداع جارية [2] :

تقول غداة البين إحدى نسائهم   لِيَ الكبدُ الحرّى فَسِرْ ولك الصبر
وقد خنقتها عـــبرة فدموعها   على خدها بيض وفى نحرها صفر

أو فى أنواع التصوير القوية التى نجدها عند أبى نواس المتوفى حوالى عام ١٩٥ هـ — ٨١٠ م ، من نحو تشبيهه فعل الحب بالقلب بفعل القط بالفأر [4] .

أو فى التمثيل الرفيع الذى نجده عند ابن المعتز المتوفى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م فى قوله [5] :

وجلجل رعد من بعيد كأنه   أمير على رأس اليفاع خطيب

أو قوله [6] :

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٦٣ .

(٢) حلبة الكميت ص ١٩١ .

(٣) نشأ أبو نواس فى البصرة ، وكثيراً ما كان يتبع بشارا ويصب على قوالب معانيه كما يقول حمزة الأصفهانى (ديوان أبى نواس ص ١٠) . ويحكى عن الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م أنه قال : لا أعرف بعد بشار مولدا أشعر من أبى نواس (ديوان أبى نواس ص ٩) .

(٤) ديوان أبى نواس مخطوط فينا بألمانيا رقم ٧٣٤ ص ١٦٧ ب (؟) .

(٥) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٥ . وكذلك يقول أبو تمام (فى الديوان طبعة بيروت ١٨٨٩ ص ٣٧٠) .

فقام فيها الرعد كالخطيب   وحنت الريح حنين النوب

(٦) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٦ .

رددتُ إلى التقى نفسى فقرّت   كما رُدَّ الحسامُ إلى القراب

أو قوله فى إحدى الخمريات [(١)] .

فانظر إلى دنيا ربيع أقبلت   مثل النساء تبرجت لزناة

والكمأة الصفراء بادٍ حجمها   فبكل أرض موسم لحياة

أو قوله [(٢)] :

زارنى والدجى أسم الحواشى   والثريا فى الغرب كالعنقود

وهلال السماء طوق عروس   بات يُجلى على غلائل سود

أو قوله [(٣)] :

أطال الدهر فى بغداد همى   وقد يشقى المسافر أو يفوز

ظللت بها على كُرهٍ مقيما   كعنين تعانقه عجوز

وكثيراً مايكون فى شعر هؤلاء الشعراء ابتكار كبير فمن ذلك قول أبى نواس :

تقول غداة البين إحدى نسائهم   لى الكبد الحرّى فسر ولك الصبر

وقد خضبتها عبرة فلدمعها   على خدها حر وفى نحرها نحر [(٤)]

أو قول ابن المعتز [(٥)] :

أنظر إلى حسن هلال بدا   يهتك من أنواره الحِندسا

كمنجل قد صيغ من فضة   يحصد من زهر الدجى نرجسا

أو قول ابن الرومى [(٦)] :

---

(١) ديوان ابن المعتز ج ٢ س ٣٤ .
(٢) نفس المصدر ج ٢ س ١١٠ .
(٣) نفس المصدر س ١٢٢ .
(٤) ديوان أبى نواس س ٨ .
(٥) الديوان ج ٢ س ١٢٢ .
(٦) العمدة ج ٢ س ١٨٤ .

وقد نشرت أيدى السحاب مطارفا على الأرض دُكْنا وهى خضر على الأرض
يطرّزها قوسُ الغمام بأصفر على أحمر فى أخضر وسط مبيضّ
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبَّغة والبعض أقصر من بعض

ونجد هذا البحث عما هو غير مألوف من المعانى الجديدة يتمشى فى الشعر العربى طول القرن الرابع الهجرى ؛ وهو قد أيقظ جميع حواس الشاعر ونبّهها تنبيها كبيراً ، ليستخرج أعمق ما فى باطن الأشياء من أسرار ، وليكشف عن أغرب خصائصها . وأول ما نلاحظه أن الشعر لم يكن له بدّ من أن يقوم مقام الفن التصويرى ، فالكثير مما يعبر عنه الشعر ما هو إلا تصوير تجيش به نفس الشاعر ويضطر إلى إبرازه فى صورة من الألفاظ . وقد قويت فى الشعراء رغبةٌ عظيمة للنظر بأعينهم ، وقامت فى نفوسهم حاجة إلى النظر فى الأشياء نظرة فنية ، وإلى الإبانة عنها إبانة واضحة . وهذا ما لم يعرفه العرب الأوّلون فقد كان فنهم فنا لغويا أداته الألفاظ . وقد اتصل العرب بشعوب أخرى تختلف عنهم اختلافا تاما ، وربما كان لهذه الشعوب فنون غير الفنون الكلامية ؛ ولكن العرب لما غلبوا عليهم علّموهم الكلام لا التصوير ، أى أنهم وضعوا فى أيديهم القلم بدلا من ريشة الرسّام المصوِّر . ولما آل الأمر إلى هذه الشعوب وأصبحت هى القابضة على زمام الفن ، زاد الشعر التصويرى زيادة كبيرة ، بعد أن لم يجد أبو تمام ما يصلح للاختيار فى باب الصفات حتى يذكره فى ديوان الحماسة إلا بضعة عشر بيتا . وكان شعراء العرب القدماء قد اختصروا دائماً فى وصف الطبيعة المحيطة بهم ، وكانوا منذ القدم يذكرون شيئاً من وصفها فى شعر الشراب ، وخصوصا فى وصف الأيام المطرة المُدْجِنَة التى كان يحلو لهم فيها الشراب عادة . وفى هذا الباب جاء الشعراء المتأخرون بأدق التشبيهات ؛ فيقول ابن الرومى مثلا [1] :

249

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠ .

يومنا للنديم يومُ سرور والتذاذ ونعمة وابتهاج
ذو سماء كأدكن الخز قد غيـــمت وأرض كأخضر الديباج

ويقول الوزير أبو محمد المهلّبي (١) :

يوم كأن سماءه شبه الحصان الأبرش
وكأن زهرة روضه فرشت بأحسن مفرش
فسماؤه دكن الخزوز وأرضه حصر الوشى

وكان القدماء يفضلون الشراب فى الليل أو عند طلوع الفجر الأول ، فى الوقت الذى قال فيه ابن المعتز (٢) :

حان ركوع أبريق لكأس ونادى الديك حىّ على الصبوح

وكذلك قال أبو نواس فى قصيدتين له شيئاً من هذا ، فمن ذلك (٣) :

قد هتك الصبح ستور الدجى فانحسرت أثوابه الجون
فاصبح نداماك سخاميسة أتى لها فى دنّها حين

وبعد ذلك بنحو قرن نجد ابن المعتز قد جاء فى هـذا بالكثير المتنوع فمن ذلك قوله (٤) :

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ س ٢٠ .
(٢) الديوان ج ٢ س ٣٦ .
(٣) ديوان أبى نواس س ٣٤٩ . وقد افتتح أبو نواس إحـــدى خمرياته بما هو أكثر تواضعاً :

طاب الزمان وأورق الأشجار ومضى الشتاء وقد أتى آذار
وكسى الربيع الأرض من أنواره وشـبا تحار لحسنه الأبصار (ص ٢٩٠)

أما كلامه بعد ذلك عن الجنان الخضراء وغناء الأطيار فلا يتمشى مع بقية القصيدة ولعله من وضع المتأخرين ؛ ومن هذا القبيل ما نسبه المسعودى (مروج الذهب ج ٨ س ٤٠٧ — ٤٠٩) لأبى نواس من قتـال بين الأزهار فى قصيدة له ، فهو لا يوجد فى الديوان ، وأصله يرجع إلى المتأخرين .
(٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ س ٣٧ .

قم يانديمى نصطبح بسواد قد كاد يبدو الصبح أو هو باد
وأرى الثريا فى السماء كأنها قدم تبدّت فى ثياب حداد

وقوله [١] :

وقد بدت فوق الهلال كرته كهامة الأسود شابت لحيته

على أنه فى عصر ابن المعتز نفسه بدأ الناس ينصرفون عن الشراب فى هذا الوقت الغريب ، وابن المعتز يصفه أحيانا بعدم الملاءمة ، فمن ذلك قوله [٢] :

250

إذا أردت الشرب عند الفجر والنجم فى لجة ليل يسرى
وكان برد بالنسيم يرتعـــد وريقه على الثنايا قد جمد
وللغـــــلام ضجرة وهمهمه وشتمة فى صـــدره مجمجمه
يمشى بلا رجل من النعاس ويدفق الكاس على الجلاس
أعجل من مسواكه وزينته وهيئة تنظر حسن صورته
فجاءهم بقسوة اللحاف محمولة فى الثوب والأعطاف
فأى فضل للصبوح يعرف على الغبوق والظلام مسرف

وعند ابن المعتز نفسه نجد الشعور بجمال الطبيعة والتمتع به يظهر قوياً فى الخمريات ؛ فقد بدأ أصحاب الشراب يتمتعون بجمال الجنان والأشجار ، ويشربون بين الورد والنرجس والجلنار والأقحوان وغناء الطيور ، وذلك كله فى الربيع وموسم الحياة » [٣] . وفى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى نبغ شاعران شاميان وكانا صديقين ، فأنشآ قصائد تغنيا فيها بالبساتين وما لها من جمال دانى القطوف متنوع النواحى يخلب الألباب ، وبلغا بذلك الشعر أعلى مكان .

---

(١) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٠ .
(٢) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٣ .
(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣٤ ، ٥١ ، ١١٠ — ١١١ .

أما أولهما فهو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبرى[١] . ولد هـذا الشاعر بأنطاكية ؛ وكان أميناً على خزانة كتب سيف الدولة[٢] . ويدل لقبه الصنوبرى على أنه أو أباه كان يقطع خشب الصنوبر[٣] . ولما كان المخروط الشكل يسمى الصنوبرى تشبيهاً له بمحمل شجرة الصنوبر[٤] . فقد يجوز أن يكون هذا الشاعر لقب بهذا اللقب على سبيل الإشارة إلى صفته وصورته . وله لقب آخر هو الصينى وليس فى هـذا ما يدعونا إلى الظن بأنه ذهب إلى الصين ؛ فقد كان بالكوفة مثلا رجلٌ يسمى الصينى لأنه كان يتجر إلى الصين فَنُسب إليها[٥] . وقد مات الصنوبرى فى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م[٦] ، وهو يناهز الخمسين على الأقل[٧] . ونعرف من حياته أنه كان صديقاً للشاعر كشاجم ، وأن كشاجم وصفه بأنه « بحرٌ ماله شطٌ »[٨] ، وأنه طلب يد ابنته[٩] ، وعزاه عن فقد ابنة أخرى له تُوفِّيت بكراً[١٠] .

وقد تغنى كثيراً بذكر حلب والرقة ، وهما أكبر بلدين كانا يقيم بهما سيف

(١) هكذا فى الفهرست ص١٦٨ وعند أبى المحاسن (ج٢ ص٣١٢ تحت عام ٣٣٤) أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الحلبى ، وعند ياقوت (ج ٢ ص ٣١١) محمد بن الحسن بن مرار ، وعند الكتبى (ج ١ ص ٦١) أحمد بن محمد .

(٢) مطالع البدور للغزولى ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) يذكر ابن حوقل (ص١٢١) أنه كان على شط البحر مكان يعرف بمحصن التينات فيه مقطع لخشب الصنوبر الذى كان ينقل إلى مصر والشام والثغور . ويقول الشريف الإدريسى (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق طبعة براندل ص ٢٣) . إنه كان لبيروت غيضة أشجار صنوبر مما يلى جنوبها تتصل إلى جبل لبنان وتكسير هذه الغيضة اثنا عشر ميلا فى مثلها .

(٤) مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٢٠٧ .

(٥) معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٤٤ .

(٦) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٢ .

(٧) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٦٥ .

(٨) ديوان كشاجم طبعة بيروت ١٢١٣ هـ ص ١١٦ .

(٩) نفس المصدر ص ٧٤ وما بعدها .

(١٠) نفس المصدر ص ٧١ وما بعدها .

الدولة . على أنه سكن الرُّها ، وكان يجتمع فى دكان ورّاق يقال له سعد بكثير من أدباء الشام ومصر والعراق (١) . وكانت له بمدينة حلب حديقة بها قصر نخم حوله الغروس والرياحين وشجر النارنج (٢) ولذلك يسمى الحلبى . وكان الصنوبرى صغيراً فلم يَنَل مكانا فى كتاب الأغانى ، وكان مسنّاً فلم يَنَلْ مكانا فى يتيمة الدهر ، ولذلك بقى ديوانه مفرّقا ، ولم يوجد منه إلّا أجزاء صغيرة ؛ وإنْ كان الصولى قد رتّبه على حروف الهجاء ، وجمعه فى مائتى ورقة (٣) ؛ فلا بد أن تُجمع بقاياه من كل ناحية . يقول الصنوبرى فى وصف سرير من الشقيق أحاط به ورد أبيض (٤) :

251

قد أحدق الورد بالشقيق ... خــلال بستانك الأنيق
كأن حــوله وجوه ... مستشرفات إلى حريق

ويقول (٥) :

وكأنّ مُحْمَرّ الشقيـ ... ـق إذا تصوّب أو تصعّد
أعــلامُ ياقوت نُشر ... ن على بساط من زبرجد

ويقول (٦) :

يا ريم قومى الآن ويحك فانظرى ... ما للربى قد أظهرت إعجابها
كانت محاسن وجهها محجوبة ... فالآن قد كشف الربيع حجابها
وَرْدٌ بدا يحكى الخدود ونرجس ... يحكى العيون إذا رأت أحبابها

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ س ٢٣ .
(٢) ديوان كشاجم س ٧٤ .
(٣) الفهرست س ١٦٨ .
(٤) كتاب الديارات س ١٩٧ ا .
(٥) ريحانة الألبا للخفاجى س ٢٥٦ .
(٦) فوات الوفيات للكتبى ج ١ س ٦١ ، وكتاب من غاب عنه المطرب للثعالبى طبعة بيروت ١٣٠٩ هـ س ٢٥ .

وثيـاب باقلّاء يشبه نورُه بلَقَ الحمام مُشيلة أذنابهـا
والسرو تحسبه العيون غوانيا قد شمرت عن سوقها أثوابَهـا
وكأن إحـــداهن من نفح الصبا خود تلاعب موهنا أترابهـا
لو كنت أملك للرياض صـيانة يوما لما وطئ اللئام ترابها

ويعتبر الصنوبريُّ النرجسَ ملـكا للأزهار ، فمن قوله فى النرجس (١)

أرأيت أحسن من عيون النرجس أم من تلاحظهن وسط المجلس
درر تشقّق عن يواقيت على قضب الزمرد فوق بسط السندس
أجفان كافور حففن بأعين من زعفران ناعمـات الملمس
فـكأنها أقمـار ليل أحدقت بشموس أفق فوق غصن أملس

والنرجس هو أعظم أزهار الشام وهو الذى يجعل مراعيها بيضاء ناصعة (٢) .

وكذلك وصف هذا الشاعر معركة بين الأزهار فقال (٣) :

خجل الوردُ حين لاحظه النر جسُ من حسنه وغار البهارُ
فَعَلَتْ ذاك حمرةٌ وعَلَتْ ذا صفرةٌ واعترى البهارَ اصفرارُ
وغدا الأُقحوان يضحك عجباً عن ثنايا لثامهن نضـار
ثم نمّ النمّام واستمع السو سن لما أُذيعت الأسرار
عندها أبرز الشقيق خـدودا صـار فيها من لطمه آثار

---

(١) فوات الوفيات للـكتبي ج ١ ص ٦١ طبع القاهرة ١٢٩٩ هـ .

(٢) رحلة ناصر خسرو (سفرنامه) ص ٣٩ من ترجمة شيفر (Schefer) . بعد ذلك يذكرنا ناصر خسرو بجزيرة النرجس التى فى طرابلس الشام .

(٣) فوات الوفيات ج ١ ص ٦١ ، وينسب المسعودى (ج ٨ ص ٤٠٧) لأبى نواس قصيدة يصف فيها قتالا بين الزهور حيث نجد الزهور الحمراء مثل الورد والجلنار وتفاح لبنان تحارب الأزهار الصفراء مثل النرجس والبهار والأترج . وهذه النسبة لايمكن أن تكون صحيحة لأسباب يقتضيها النقد الداخلى . ولا نجد هذه القصيدة فى نسخة الديوان التى طبعت ببيروت ، ولا يمكن أن تكون هذه القصيدة من قول الصنوبرى لذكر ياطرنجى فيها ولأن الورد فيها يفضل على النرجس .

سكبت فوقها دموع من الطل   كما تسكب الدموع الغزار
فاكتسى البنفسج الغض أثوا   ب حداد دخانها الاصطبار
وأضرّ السقام بالياسمين الغ   ض حتى آذى به الأضرار
ثم نادى الخيرى فى سائر الزه   ر فوافاه جحفل جرّار
فاستجاسوا على محاربة النر   جس بالجحفل الذى لا يبار
فأتوا فى جواشن سابغات   تحت سجف من العجاج يثار
ثم لما رأيت ذا النرجس الغ   ض ضعيفاً ما إن لديه انتصار
لم أزل أعمل التلطف للور   د حذاراً أن يُغلب النوار
فجمعناهمو لدى مجلس فيـ   ـه تغنى الأطيار والأوتار
لو ترى ذا وذا لقلت خدود   تدمن اللحظ حولها الأبصار

وفى القرن الثالث وصف البحترى بركة فى دار الخلافة فقال :

تنصبّ فيها وفود الماء معجلة   كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة   من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها   ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها   لِبُعد ما بين قاصيها ودانيها
يَعُمْن فيها بأوساط مجنحة   كالطير تنقضّ فى جو خوافيها[1]

والآن نجد الصنوبرى يشبّه بركة بموضع يصفه تشبيهاً دقيقاً فيقول[2] :

هى الجو من رقة غير أن   مكان الطيور يطير السمك

ولكن لما كان الصنوبرى شاعراً وصّافاً للجنان فهو يقول فى تلك القصيدة :

---

(١) ديوان البحترى ج ١ ص ١٧ .
(٢) الحصرى على هامش العقد ج ١ ص ١٨٣ .

وقد نظم الزهرُ نظم النجوم فمفترقُ النظم أو مشتبك

وكان الصنوبرى ، وهو أول شاعر للطبيعة فى الأدب العربى . يجمع إلى ذلك ولوعاً شديداً بالسماء والضياء والهواء مع التطلع إلى أسرارها الجميلة ، فهو يقول فى إحدى أغانى الربيع[١] :

إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة والأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن فى الخريف النخل مخترفا فالأرض عريانة والجو مقرور
وإن يكن فى الشتاء الغيث متصلاً فالأرض محصورة والجو مأسور
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا جاء الربيع أتاك النوْر والنور
والأرض ياقوتة والجو لؤلؤة والنبت فيروزج والمـــاء بلّور
تبارك الله ما أحلى الربيع فلا تغرر فقايســه بالصيف مغرور
من شم طيب جنيات الربيع يقل لا المسك مسك ولا الكافور كافور

وكان أول من تغنى بالقصائد الثلجيات ، ومن ذلك قوله[٢] :

ذهّب كؤوسك يا غلا م فإنه يوم مفضّض
والجو يُجلى فى البيا ض وفى حلى الدر يعرض
أنظن ذا ثلجاً وذا ورد على الأغصان ينفض
ورد الربيع ملون والورد فى كانون أبيض

وقد ترك الصنوبرى آثاراً قوية فى الأدب العربى ، وقد ظهر أول أثر له عند كشاجم[٣] مواطنه وصديقه الحميم ، وقد عبر كشاجم عن هذه الصداقة بقوله[٤] :

---

(١) فوات الوفيات للكتبي ج ١ ص ٦١ ، ونثر النظم ص ١٤٥ .

(٢) نثر النظم للثعالبي طبعة دمشق ١٣٠٠ هـ ص ١٣٧ .

(٣) كان كشاجم شاعراً كاتباً . وإلى جانب ذلك كان منجماً وصاحب مطبخ لسيف الدولة ، (انظر ديوانه ويتيمة الدهر ج ٤ ص ١٥٢) .

(٤) ديوان كشاجم ص ٧٤ .

أتنسى زمناً كنا ... به كالماء فى الخمر
أليفين حليفين ... على الإيسار والعسر
مكبين على اللذا ... ت فى الصحو وفى السكر
نرى فى فلك الآدا ... ب كالشمس وكالبدر

وقد سار كشاجم فى شعره على الطريق الذى رسمه صديقه الصنوبرى ؛ فاقتدى به فى التغنى بملذات العين ، فمن ذلك قول كشاجم[١] :

أقبلت فى غلالة زرقاء ... زرقة لقيت بمجرى الماء
فتأملت فى الغلالة نهباً ... جسد النور فى قميص الهواء
هى بدر وإنّ أحسن لون ... ظهر البدر فيه لون السماء

وهو يصف مليحة فى لباس حداد بقوله :

فى حداد كأنها ... وردة فى بنفسج

ويقول فى غلام :

كلف الفؤاد بشادن أبصرته ... فى مأتم يبكى بطرف أدعج
ما زال يخمش خده ببنانه ... حتى تنقّب ورده ببنفسج[٢]

وقال يتغزّل فى نهر قويق بحلب[٣] :

والأرض تكسى بزهر الر ... ياض وشيا معمد
كأن خرّد عينا ... بها يضاحكن خرّد
. . . .
وحمرة فى شقيق ... وخضرة فى زبرجد
وأقحوان كعقد ... من لؤلؤ قد تبدّد

---

(١) ديوان كشاجم ص ٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٢١ ، ٢٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٤٨ وما بعدها .

والنرجس الغض يرنو إلى البهار المنضّد
كما أشار حبيب إلى حبيب بموعد
والنهر بين اعتدال من سيرة وتأوّد
كأفعوان تلوّى ثم استوى وتمدد
كأن فيه سيوفاً مهنّدات تجرّد
فتارة هى تنضى وتارة هى تغمد
كأن لنيلو فر النهر فيه سراج توقد
طوراً تضىء وطوراً بشدة الريح تخمد

وهو يقول فى وصف نيل مصر[1].

كأن النيل حين أتى بمصر وفاض بها وكسرت التراع
وأحدق بالقرى من كل وجه سماوات كواكبها ضياع

وكذلك نظم قصائد فى وصف الثلج منها قصيدة أولها :

الثلج يسقط أم لجين يُسبك أم ذا حصا الكافور ظل يفرك

على أنه فى هذه القصيدة قال ما يدل على عدم انصقال الذوق ، ومن ذلك قوله فى وصف الثلج :

راحت به الأرض الفضاء كأنها من كل ناحية بثغر تضحك[2]

وكان لكشاجم كثير من المعجبين ، وقد قال أحدهم :

يا بؤس من يُمنى بدمع ساجم يهمى على حجب الفؤاد الواجم
لولا تعلُّله بكأس مدامة ورسائل الصابى وشعر كشاجم[3]

254

(١) كتاب الديارات ص ١١٥ ا .
(٢) ديوان كشاجم ص ١٤٠ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٤ .

وكان كشاجم يلقب فى منتصف القرن الرابع الهجرى «ريحانة أهل الأدب» فى بلاد الموصل ، وكان الخالديّان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم شاعرين كبيرين فى الموصل ؛ وكان بهذه المدينة من الشعراء السرىّ بن أحمد الكندى المعروف بالرفّاء . وكلهم — رغم ما كان بينهم من تنابز وعداوة وكيد — كانوا يسيرون فى طريق كشاجم ، وينهجون منهجه . وكان السرىّ يشنّع على الخالديْن ويغض منهما ؛ فكان ينسخ ديوان كشاجم ، ويدسّ فيه أحسن شعر الخالديْن ، ليزيد فى حجم ما ينسخه من شعر كشاجم ، ويُظهر صدقَ ما يدعيه على الخالديّيْن من سرقة شعره ، ولذلك يقول الثعالبي : «فمن هذه الجهة وقعت فى بعض النسخ من ديوان كشاجم أشعارٌ ليست فى الأصول المشهورة منها وقد وجدتها كلها للخالديْن»[(١)] .

وكان أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامى المتوفى عام ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م من أشعر أهل العراق ، وورد الموصل صبيا ، فوجد بها أبا عثمان الخالدى وشيوخ الشعراء فعجبوا منه ، واتهموه بأن الشعر ليس له ، فاتخذ الخالدىُّ دعوةً ، وجمع الشعراء ، وحضر السلامى معهم ، فلما توسّطوا الشراب أخذوا فى مُلاحاته والتفتيش على قدر بضاعته ، فلم يلبثوا حتى جاء مطر شديد وبَرَد ستر الأرض ، فألقى أبو عثمان نارنجاً كان بين أيديهم على ذلك البَرَد ، وقال : يا أصحابنا هل لكم فى أن نصف هذا ، فقال السلامى ارتجالا[(٢)] .

---

(١) اليتيمة ج ١ ص ٤٥٠ — ٤٥١ . ومن رسائل الصابى رسالة بعث بها إلى الخالديّين برّأ فيها نفسه مما ظناه به من مساعدة السرى على عداوتهما والرضا بطعنه عليهما . وقال فيها أيضاً إن السرىّ سأله استماع شعر مدحه به ، فلم يجبه إلى ذلك إلا بعد أن شرط عليه ألا يعرض فى ذلك ذكر للخالديّين بسوء ولا غمز . ويذكر الصابى أيضاً أن السرى أحضر قطعة من شعره فيها أشعار للخالديين ، فأخرج ما عنده من نسخ لشعرهما وناظر السرى عليها ليثبت أنها ليست له : انظر رسائل الصابى مخطوط ليدن ص ٣٤ أ — ٣٥ ب .

(٢) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٥٧ — ١٥٨ .

لله درّ الخـــالدىّ الأوحد النَدْب الخطير
أهدى لماء المزن عنـــد جموده نار السعير
حتى إذا صـدر العتا ب إليه عن حنق الصدور
بعثت إليــه بعذره من خاطرى أيدى السرور
لا تعـــذلوه فإنه أهدى الخدود إلى الثغور

وقال أحد الخالديين فى وصف الفجر[1] :

أرعى النجوم كأنها فى أفقها زهر الأقاحى فى رياض بنفسج
والمشترى وسط السماء تخاله وسناه مثل الزئبق المترجرج
مسمار تبر أصفر ركبته فى فص خاتم فضة فيروزج
وتمايل الجوزاء يحكى فى الدجى ميلانَ شارب قهوة لم تمزج
وتنقبت بخفيف غيم أبيض هى فيـــه بين تخفز وتبرج
كتنفس الحسناء فى المرآة إذ كملت محاسنها ولم تتزوج

ويقول أيضاً[2] :

ومدامة صفراء فى قارورة زرقاء تحملها يد بيضاء
فالراح شمس والحباب كواكب والكف قطب والإناء سماء

وكان الوزير المهلّبى شاعراً فى مرتبةٍ أرقى من مرتبـة الطبقة الوسطى من الشعراء ، وقد أنشأ مجلساً حافلا للأدباء ، وكان يحب شعر الصنوبرى فى الخمر وفى وصف الطبيعة ، وقد نشره ببغداد . ويحدّثنا الصاحب بن عباد فى كتاب الروزنامجة أن الوزير المهلّبى كان كثير الإنشاد لشعر الصنوبرى[3] ؛ بل نجد

255

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٥١٤ .
(٢) نفس المصدر ص ٥١٩ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٢ .

المهلبي ينسج على منوال أستاذه فيصف الثلج ، وهو من الأعاجيب ببغداد ، ومن ذلك قوله(١) :

الورد بين مضمّخ ومضرّج — والزهر بين مكلّل ومتوّج
والثلج يهبط كالنثار فقم بنا — نلتذّ بابنة كرمة لم تمزج

وكذلك يقول القاضي التنوخي — وكان من ندماء المهلّبي — متأثراً بالصنوبري في وصف امرأة مسها خجل وقد بدت في رداء مُعَصْفر(٢) .

لم أنس شمس الضحى تطالعني — ونحن من رقبة على فرق
وجفن عيني بدمعه شرق — لما بدت في معصفر شرق
كأنه أدمعي ووجنتها — لما رمتنا الوشاة بالحدق
ثم تغطت بكمها خجلا — كالشمس غابت في حمرة الشفق

ويقول(٣) :

لم أنس دجلة والدجى متصوّب — والبدر في أفق السماء مغرب
فكأنها فيه بساط أزرق — وكأنه فيها طراز مُذهب

وإذا وجدنا سيف الدولة صاحب حلب يشبه نار الكانون والرماد بوجنة عذراء مسها خجل فاستترت بحجاب أشهب فإنه يرى ذلك بعين الصنوبري(٤) .
وكذلك الواثقي يتأثر بالصنوبري حين يصف نار فحم الغضا بقوله(٥) :

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠ ، وتجد قصيدة أخرى للمهلبي في كتاب من غاب الثعالبي طبعة بيروت ١٣٠٩ ص ٤٨ .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٣٨ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠٩ والإرشاد ج ٥ ص ٣٣٥ .
(٤) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢١ :
كأنما النار والرماد معا — وضوؤها في ظلامه يحجب
وجنة عذراء مسها خجل — فاستترت تحت عنبر أشهب
(٥) اليتيمة ج ٤ ص ١١٣ .

وليلة شاب بها المفرق   قد جمد الناظر والمنطق
كأنما فحم الغضا بيننا   والنار فيه ذهب محرق
أو سبج فى ذهب أحمر   بينهما نيلوفر أزرق

ولما قال الصاحب بن عبّاد بخراسان أواخر القرن الرابع فى الثلج .

هات المدامة ياغلام معجلا   فالنفس فى قيد الهوى مأثورة
أو ما ترى كانون ينثر ورده   وكأنما الدنيا به كافورة

لاحظ أبو بكر الخوارزمى أن هذه وأمثالها من الثلجيات كلها عيال على قول الصنوبرى [١] .

وكان الشريف أبو الحسن العقيلى بمصر حوالى عام ٤٠٠ هـ . يمثّل طريقة الصنوبرى فى الوصف ، وكان من أكبر المبرّزين فى هذا الباب « وكان له متنزهات بجزيرة الفسطاط ، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا يمدح أحدا » [٢] ومن شعره [٣] :

ونهر من الأنهار ألقت يد الصبا   عليه شقيقاً ناره تتضرّم
كأن ابيضاض الماء تحت احمراره   صفيحة سيف قد جرى فوقها الدم

وقد أُهمل وصف المسموعات إهمالا شديداً ، فمثلا وصف السلامى الشاعر المتوفى عام ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م السِكْر المبنى بشيراز من غير أن يذكر شيئاً عن خرير المياه أو صوتها [٤] . ولم أجد من هـذا القبيل إلا مثالا فى شعر للأمير البويهى عز الدولة ، وهو قوله فى سياق قصيدة له [٥] :

256

---

(١) نفس المصدر ج ٣ س ٩٥ .
(٢) المغرب لابن سعيد س ٥٢ .
(٣) نفس المصدر س ٧٨ .
(٤) يتيمة الدهر ج ٢ س ١٧٨ — ١٧٩ .
(٥) نفس المصدر ج ٢ س ٥ .

والماء ما بين الغصون مصفق　　مثل القيان رقصن حول الزامر

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى أولع الأدباء بوصف جميع الأشياء على اختلافها ، فنجد وصف الميزاب إلى جانب وصف الشاعر صورته فى المرآة[١] ، وذلك إرضاء لرغبة الناس فى المستحدث . وقد وصف المأمونى الشاعر ببخارى جميع أصناف الأطعمة من جبن وزيتون والسمك المشوى وماء الخردل والبيض المفلق والفالوذج والهريسة وغيرها كثير[٢] . وقال أبو العباس الفضل بن على الأسفراينى من كور نيسابور فى وصف شمعة نصبت فى بركة :

وشمعة وسط أيمن البرك　　تميس فى الماء ميس مرتبك

كأنها البدر فى السماء سرى　　لخار فى أوجه الفلك

وقال فى فوّارة أقلت تفاحة :

وفوارة سـائل ماؤها　　بتفاحة مثل خد العشيق

كمنفخة من رقيق الزجا　　ج تُدار بها كرة من عقيق[٣]

وقال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب الشاعر المصرى (المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م) . فى وصف الهرمين[٤] :

أنظر إلى الهرمين إذ برزا　　للعين فى علو وفى صعد

وكأنما الأرض العريضة قد　　ظمئت لطول حرارة الكبد

حسرت عن الثديين بارزة　　تدعو الإله لفرقة الولد

فأجابها بالنيـل يشبعها　　ريًا وينقذها من الكمد

---

(١) كما فعل القصّار الشاعر المعروف بصريع الدلاء المتوفى عام ٤١٠ هـ . انظر تتمة اليتيمة للثعالبى مخطوط فينا رقم ٦٦٨ ص ٢٨ ب (؟) .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٩٤ — ١١٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٣١٦ .

(٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٢١ .

ومما هو عظيم الدلالة أننا لا نجد فى الشعر العربى مكانا للمكدّين الطوّافين قبل القرن الرابع ، فمن ذلك قول الأحنف العكبرى مفتخرا[1] .

على أنى بحمد اللـــه فى بيت من المجد
بإخــوانى بنى ساسا ن أهل الجد والجـد
لهم أرض خراسا ن فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسـند
إذا ما أعوز الطرق على الطراق والجنـد
حـذاراً من أعاديهم من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديه بنا فى الروع يستعدى

وقد جاء فى قصائد المكدين شعر عاطفى طريف مزهر الألفاظ لا تكلف فيه ولا تقيُّد . وأكبر شعراء المكدين وظريفهم هو الأحنف العكبرى من مدينة عكبرى بالعراق ، وهو لم يعبأ فى خمرياته بوصف شىء من جمال الطبيعة لذى يلتذ منه الشعراء ، فمن قوله[2] :

شربت بمـــاخور على دفّ وطنبور
وصوت الطبل كردم وصوت الناى طلّير
فصرنا من حمى البيت كأنّا وسط تنّور
وصرنا من أذى الصفـــع كمثل العمى والعور
لقد أصبحت مخموراً ولكن أىّ مخمور

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٨٧ ويروى عن الخليفة المعتمد أنه قال :
وعضى الأمير أبو أحـمد ويضرب بالطبل كردم كدم
(انظر كتاب الديارات ص ٤٢ ب) .

وقال يصف آلام المكدّين [1] :

عشت فى ذلّة وقلة مال   واغتراب فى معشر أنذال
بالأمانى أقول لا بالمعانى   فغـذانى حلاوة الآمال
لى رزق يقول بالوقف فى الـرأى ورجل تقول بالإعتزال

وقال :

العنكبوت بنت بيتاً على وهن   تأوى إليـه ومالى مثله وطن
والخنفساء لها من جنسها سكن   وليس لى مثلها إلف ولا سكن

ولا نجد فى هذا الشعر صناعة لفظية ولا زخرفة ولا عبارات من التى تجرى مجرى الأمثال أو الحكم . هـذا هو الأسلوب الذى جرى عليه الأدب الفرنسى من عهد فيلون Villon إلى عهد فرلين Verlaine . وقد جرى على هذه الطريقة الشاعر محمد بن عبد العزيز السوسى ، أحد شياطين الإنس ؛ فقد قال قصيدة تربى على أربعمائة بيت ، وصف فيها حاله وتنقلَه فى الأديان والمذاهب والصناعات وقد افتتحها بقوله :

الحمد لله ليس لى بختُ   ولا ثيابٌ يضمّها تخت [2]

وإلى جانب هذا الشاعر نجد الشعراء الشعبيين الذين ظهروا فى مدن العراق الكبرى مثل أبى الحسن محمد بن لَنْكَك البصرى ، «وما أشبه شعره فى الملاحة وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة إلا بشعر كنيّه أبى الحسن بن فارس ... إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرب بما جلب وأبدع فيما صنع ؛ فأما إذا قصد القصيد

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٢٨٦ وكتاب الإعجاز للثعالبى ص ٢٣٦ ، وكتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للمؤلف نفسه ص ٣٤٢ .

(٢) تجد القصيدة كاملة فى اليتيمة ج ٣ ص ٢٣٧ .

فقلما يفلح وينجح »[١]، وابن سكرة الذى كان شاعراً متسع الباع ، إذ يقال إن ديوانه يربى على خمسين ألف بيت منها أكثر من عشرة آلاف بيت قالها فى قينة سوداء يقال لها خمرة[٢] . وكان أكبر هؤلاء الشعراء الشعبيين غير مدافع ابن الحجاج الذى كان ببغداد ، وتوفى عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م[٣]. وكان نحيفاً ولذلك يقول[٤] :

لا تخافى علىّ دقة كشحى   لا تكال الرجال بالقفزان

وقد قال مدافعاً عن نفسه لما خرج هارباً من غرمائه[٥] .

هربت من وطنى إلى بلد   قد صفر الجوع فيه منقارى

يقول قوم : فرّ الخسيس ولو   كان فتى كان غير فرار

لا عيب لا عيب فى الفرار فقد   فرّ نبى الهدى إلى الغار

ويظهر أنه قال فى ذلك الوقت العصيب هذه الأبيات مفتخراً[٦] :

258

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ١١٦ — ١١٧ وقد جمع ابن لنكك ديوان نصر بن أحمد الخبز أرزى البصرى الشاعر المتوفى عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م . (المنتظم لابن الجوزى ص ٧٠ ب) وكانت أشعار الخبز أرزى قصائد قصيرة فى الغزل ، وكانت حرفته خبز الأرز ، فكان يخبز وينشد أشعاره والناس يزدحمون عليه ليسمعوها . وكان معظمها فى الغلمان ، وكان أحداث البصرة يتنافسون فى ميله إليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لقرب مأخذه وسهولته (يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٣٢) . ويقول المسعودى عام ٣٣٣هـ — ٩٤٤م . (المروج ج ٨ ص ٣٧٤) « وأكثر الغناء المحدث فى وقتنا من شعره » . وكان الخبز أرزى محبوباً حتى بعد موته .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٨٨ .

(٣) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد ؛ توفى فى طريق النيل بالعراق وهو عائد منها فى ٢٧ جمادى الآخرة (وفى كتاب الوزراء لسبع بقين ص ٤٣٠) من سنة ٣٩١ هـ ، ودفن إلى جانب قبر جعفر الصادق محبة منه للشيعة ، وقد أمر أن يكتب على قبره : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد (سورة الكهف آية ١٧) . انظر الهمذانى مخطوط باريس ص ٣٤٠ ب (؟) . وكان يسكن سوق يحيى ، وقد تغنى بها فى شعره (انظر معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ١٩٥) .

(٤) اليتيمة ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٢٨ .

(٦) نفس المصدر ص ٢٦٠ .

قد قلت لما غدا مدحى فما شكروا ‏ وراح ذمى فما بالوا ولا شعروا

علىّ نحت القوافى من معادنها ‏ وما علىّ إذا لم تفهم البقر

وكان ابن الحجاج لسخفه ورداءة لسانه مَخْشِىّ الجانب ، مقضىّ الحاجة ، مقبول الشفاعة . ولم يزل أمره يتزايد حتى حصّل الأموال ، وصار من أهل الجاه ، وقد قال ابن الحجاج نفسه لبعض الرؤساء حين كتب إليه يذكر أن سخفه جاوز التناهى :

سيدى سخفى الذى قد ‏ صار يأتى بالدواهى

أنت تدرى أنه يد ‏ فع عن مالى وجاهى[1]

وكان ابن الحجاج من أولاد العمال ، واشتغل بالكتابة فى أول أمره ، ثم ضمن فرائض الصدقات بسقى الفرات ، وصار أخيراً محتسباً على مدينة بغداد . ولشدّ ما حسده ابن سكرة زميله فى المذهب الشعرى ، لأنه كان أقل نجاحاً من ابن الحجاج[2] . وكان ابن الحجاج فى قصائده يستعمل عبارات المكدين وأهل الشطارة[3] . وقد أتاح هو وأمثاله فرصة لظهور الفحش المستبشع فى المدن الشرقية ، فرفع هذا الفحش رأسه بعد أن كانت قد أخمدته الروح العربية وأخرجته من الأدب العربى ، لأن الذى كان يسيطر على النزعة الأدبية هم البدو الذين هم أكثر عفة واعتدالا[4] . وما أشبه ابن الحجاج برجل كانت تقيده سلطة خارجية ، فتحرر

---

(١) نفس المصدر ص ٢١١ ، وديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد (مرغانة) نسخة المؤلف ص ٢٥٨ من ج ١٠ .

(٢) ديوان ابن الحجاج ج ١٠ ص ٢٤٠ ، وكتاب الوزراء ص ٤٣٠ واليتيمة ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) اليتيمة ج ٢ ص ٢١١ .

(٤) ولو أراد الإنسان أن يفحص عن أصل هؤلاء المجّان الذين يجاهرون بالفحش لوجد أكثرهم يقال عنه مثل ما قيل عن ابن الروندى (المتوفى عام ٢٩٨ هـ — ٩١١ م) : الماجن المنسوب إلى الهزل والزندقة وكان أبوه يهوديا فأسلم (أبو المحاسن ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ليدن) .

منها وانطلق فى السخف . وكان أساس مبالغته فى ذلك أنه أراد أن يتخذ من الإسراف فى الفحش طريقاً لمعارضة الشعراء الآخرين الذين كانوا يعالجون فى شعرهم الموضوعات الحسنة ؛ وهو يقول[1] :

وشعرى سخفة لا بد منها　　فقد طبنا وزال الاحتشام
وهل دار تكون بلا كنيف　　فيمكن عاقلا فيها المقام

وهو يقول :

ترانى ساكناً حانوت عطر　　فإن أنشدتُ ثار لك الكنيف

ومن قوله :

ومن كان يحوى العطرَ دكان شعره　　فإنى كنّاس وشعرى مخرج

ولهذا جاء فى كتاب فى الحسبة لمؤلف متأخر ما يقضى بمنع الصبيان من حفظ أشعار ابن الحجاج والنظر فيها و بضربهم على ذلك[2] . ولكن يظهر أن معاصرى ابن الحجاج قلما لاموه لذكره للقاذر و إفصاحه عن السخف والفحش والمجون . فمثلا كان الرضى نقيب العلويين وأكبر أصحاب المناصب فى الدولة العباسية من أكبر المعجبين بابن الحجاج والمتعصبين له ، وقد رثاه بقصيدة ، واختار من شعره السليم أشياء كثيرة . وقد حمل إليه صاحبُ مصر عن مديح مدحه به ألف دينار مغربية على سبيل الصلة[3] . ويُحكى أنه كثيراً ما بيع ديوان شعره بخمسين ديناراً إلى سبعين . وقد سأل المنكرى مُغَنّى سيف الدولة ابن الحجاج أن يصنع شعراً ليغنّى به بين يدى سيده ، فألّف له شيئاً[4] . ويقول ابن الحجاج نفسه[5] :

259

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٢١٤ .
(٢) مجلة المشرق السنة العاشرة ص ١٠٨٥ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٤٣٠ ، وديوان ابن الحجاج ج ١٠ ص ٢٣٧ .
(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢٢٦ .
(٥) نفس المصدر ص ٢١٣ .

لو جدّ شعرى رأيت فيه كواكب الليل كيف تسرى

وإنما هزله مجون يمشى به فى المعاش أمرى

وكان ابن الحجاج لا يبنى جُلّ أقواله إلا على سخف ، « ولم يُرَ كاقتداره على ما يريده من المعانى مع سلامة الألفاظ وعذوبتها » ، وكان لا يبالى بالوزن والقافية ، وقد حوى ديوانه كثيراً من الكلمات غير المعروفة أخذها من لغة العامة ببغداد فى القرن الرابع الهجرى[1] . وكان يعرف النماذج الشعرية المأثورة ، غير أنه يتجاهلها و يعارضها معارضة سخرية وهزل ، فما قاله عند موت سبكتكين

واستى تبكى بفرد عينه لفقد عينى سبكتكين

إلى أن قال :

ما لكنيف دفنت فيه لا زال يُسق غيث البطون

ولكنا نرى بين حين وآخر من خلال هذا الضباب الذى يتكون من السخف والمجون معانى وألفاظاً مثل كواكب الليل ، ونستطيع أن ندرك لماذا كان معاصرو هذا الماجن يعدونه شاعراً كبيراً .

ونجد المتنبى الذى يرجع أصله إلى العراق ، والذى نشأ فى الشام يتمسك بطريقة العرب القدماء خلافاً لهؤلاء الشعراء[3] .

---

(١) ومن أسف أنها لم تشرح إلا شرحا جزئيا وذلك فى نسخة الديوان المحفوظة بالمتحف البريطانى .

(٢) ديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد ص ٨٠ ، ومخطوط دار الكتب المصرية رقم ٧٣٤٢ ص ٦١ — ٦٢ .

(٣) وكذلك كان الشاعران الشاميان أبو تمام (المتوفى عام ٢٣٠ هـ — ٨٤٥ م) والبحترى (المتوفى عام ٢٨٤ هـ — ٨٩٧م) محافظين ، وقد نهجا طريق أسلافهما من شعراء دمشق وهم الفرزدق وجرير والأخطل . على أنه قد بلغ من الحس الشعرى عند البحترى أنه قال : إن أبا نواس أشعر من مسلم بن الوليد لأنه يتصرف فى كل طريق إن شاء جد وإن شاء هزل . ومسلم يلزم طريقا لا يتعداه ، فقيل له إن ثعلبا لا يوافقه فقال : ليس هذا من =

كان أولئك الشعراء واقعيين فى نزعتهم الشعرية ، فكانوا يتغنون بالذى يشعرون به ؛ أما المتنبى فهو مثال للأستاذ العالم الذى يستهويه المعنى الكلى ؛ فمن ذلك أن رجلا خرج للصيد مرة ، وكان معه كلب فطرد به ظبياً ، ولم يكن معه صقر فاستحسن صيد الكلب ، وقال للمتنبى وَدِدْنا يا أبا الطيب لو كنت معنا ، فقال له : أنا قليل الرغبة فى مثل هـذا ، فقال له الرجل : إنما اشتهيت أن تراه فتستحسنه وتقول فيه شيئاً ، فأجاب المتنبى إنه يستطيع أن يفعل ذلك من غير أن يحضر الصيد أو يرى الكلب ، وقال قصيدة وصف بها الكلب وسرعته على الطريقة المألوفة[١] . وكان المتنبى كثير الأخذ من ابن المعتز على تركه الإقرار بالنظر فى شعر المحدثين[٢] . وقد عاداه شعراء العراق كابن سكرة وابن لنكك[٣] وابن الحجاج[٤] وعملوا على ثلبه والتماجن به والتنادر عليـه ، وقد انتهى إلينا وصف محاورة جرت بينه و بين أحد الشعراء لما ورد المتنبى مدينة السلام . وتدل هذه المحاورة على سوء ما وقع بين المتنبى شاعر الملوك و بين أدباء بغداد ، ذلك أن المتنبى قدم إلى مدينة السلام وقد التحف رداء الـكبر وصعّر خده ، فذهب إليه الحاتمى الشاعر فوجده يلبس سبعة أقبية كل قباء منها لون ، مع أن الوقت كان أحرّ أيام الصيف وأخلقها بتخفيف اللبس ، فأعرض المتنبى عنه ، وتجاهله

= علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ، وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه ؛ (انظر : Goldziher, Abhandlungen Zur Arabischen Philologie S., 164, Anm. 4)
على أنه كان بالشام شاعر مشهور هو أبو حامد أحمد بن محمد الانطاكى المعروف بابن الرقعمق المتوفى عام ٣٩٩ هـ . وقد تصرف بالشعر الجزل فى أنواع الجد والهزل ، وكان بالشام كابن الحجاج فى العراق (يتيمة الدهر ج ١ ص٢٣٨ — ٢٦١) انظر للاستزادة من أخباره معاهد التنصيص مخطوط برلين رقم ٧٢٢٤ ص ١٥٦ أ .

(١) ديوان المتنبى طبعة القاهرة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٨ م ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) اليتيمة ج ١ ص ٩٨ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٨٥ — ٨٦ .

(٤) ديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد ص ٢٧٠ .

ولم يسأله عن قصده ، ثم كلمه الحاتمى وأغلظ له القول[١] .

وكذلك كان أبو فراس الشاعر الشامى المتوفى عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٨ م ينسج على منوال القدماء ، لم يحد عن ذلك قط . وأغرب ما نراه فيه قلة تعرضه فى قصائده أو بالأحرى أنه لم يرد أن يتعرض فى قصائده لذكر الحروب الشعواء التى كانت ناشبة فى غرب المملكة الإسلامية ، ونظراً لأنه كان ابن خال سيف الدولة الأمير الحمدانى فلا بد أن يكون قد ذاق الكثير من أثر حوادث ذلك العصر ، وإن كان الكثير من شعره فى الفخر ليس إلا خيالا لا حقيقة وراءه . وقد يستحيل على من لم يكن ملما بحوادث ذلك العصر أن يستنبط من قصائده أن الروم والمسلمين والنصارى كانوا يتحاربون بجيوش جرّارة مسلحين بأكمل سلاح حربى عرفه ذلك العصر ، ولا يزيد وصفه لهذه الحروب الكبيرة فى شعره عما يمكن أن يقال فى وصف قتال بين قبيلتين من البدو . ولا أرى فى القصائد التى قالها فى سجنه ببلاد الروم إلا أنها نثر مسجوع ، وإذا وجدنا من يبالغ فى امتداحها من المؤلفين كالصاحب والثعالبى فهذا برهان جديد على ضعف الفارق بين الكاتب والشاعر .

وقد ولد الشريف الرضى عام ٣٦١ هـ — ٩٧٠م ببغداد ، وكان فى الثلاثين من عمره لما مات ابن الحجاج ، وكان الرضى شاعراً عظيما ، وقد اختار من شعر ابن الحجاج كتاباً سماه الحسن من شعر الحسين[٢] . وكان الشريف الرضى سيّداً

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٦ س ٥٠٥ وما بعدها ، طراز المجالس للخفاجى طبعة مصر ١٨٩٤ ج ٢ س ٦٥ وما بعدها واليتيمة ج ١ س ٨٥ ، وقد ترك أبو العلاء الشاعر الشامى مدينة بغداد فى عام ٤٠٠ هـ ، وذلك لأن الرضى طعن فى المتنبي ومدحه أبو العلاء فأخرجه الرضى من الغرفة (انظر مقدمة مرجليوث لرسائل أبى العلاء س ٢٨ ، وقد ألف أبو العلاء شرحا كبيراً لأشعار المتنبي سماه كتاب العلائق والغصون انظر : Kremer, SWA, 117, S. 89

(٢) ديوان الرضى طبعة بيروت ١٣٠٧ س ٢ .

كبيراً انحدر من شجرة عظيمة عريقة النسب ، فلم يستطع مخالفة التقاليد والنزول إلى ما نزل إليه ابن الحجاج من إسفاف ومعالجة لنواحى الحياة التى لا تليق بالرضى ، فقد كان أبوه نقيباً للعلويين جميعاً ، فلما مات فى سنة ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م تولى الرضى منصب أبيه وجميع ما كان يتقلده ويُعهد به إليه ، وإن لم يكن الشريف أكبر إخوته . وكانت داره مثال الأبهة فى المظهر ، وقد اتخذ داراً لطلبة العلم سماها دار العلم وهيأ لهم فيها ما يحتاجون إليه[١] . وكان الرضى مشهوراً بأنه لا يقبل من أحد شيئاً ، وقد رفض مرة هدية من وزير[٢] ، وكان ينسب إلى الإفراط فى معاقبة الجانى من أهله ، وله فى ذلك حكايات مشهورة ، منها أن امرأة علوية شكت إليه زوجها وأنه يقامر بما يتحصل له من حرفة يعانيها وأن له أطفالا وهو ذو عيلة وحاجة ، وشهد لها من حضر بالصدق فيما ذكرت ، فاستحضر الرجل وأمر به فبُطح ، وأمر بضربه ، فما زال يضربه ، والمرأة تنتظر أن يكفّ والأمر يزيد حتى بلغ ضربه مائة خشبة ، فصاحت المرأة : وايُتْمَ أولادى ! كيف تكون صورتنا إذا مات فكلمها الشريف بكلام فظّ وقال ظننتِ أنكِ تشكينه إلى المعلم[٣] ؟ وكان الشريف الرضى أول عظيم من عظماء العلويين ألقى سلاح النضال وغير لباس السواد بلباس البياض على الرسم العباسى للعمال ورجال الخلافة تاركا الشعار الذى كان يلبسه آباؤه بكبرياء يوازى ما كانوا يشعرون به من حزن . وهو يشير فى بعض شعره إلى أن حذره راجع إلى شىء من الكآبة والهم الذى انطوت عليه نفسه ؛ فهو يقول مثلا[٤] :

---

(١) نفس المصدر ص ٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢ ، ٣ .

(٣) ديوان الشريف الرضى ص ٣ وص ٩٢٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، وكان الشريف لا ينشد شعره إلا للخلفاء حتى قال أعداؤه لبهاء الدولة إنه يتكبر عليه بترك الإنشاد بين يديه (الديوان ص ٩٥٤) . ومما يلاحظ من أسباب كآبته أنه ولد لأبيه وهو فى الخامسة والستين من العمر .

أروم انتصاف من رجال أباعد ونفسى أعدى لى من الناس أجمع

ويقول :

إذا لم تكن نفس الفتى من صديقه فلا يحدثن فى خلة الغير مطلبا

ويقول :

وقالوا تعلّل إنما العيش نومة تقضى ويمضى طارق الهم أجمع

ولو كان نوماً ساكناً لحمدته ولكنه نوم مروع مفزّع

ولم يكن يخرج من فم هذا الرجل النبيل حقيقة كلمة واحدة من الكلمات القبيحة التى يتلفظ بها العامة ، والتى نرى مثلها عند إبراهيم الصابى صاحب ديوان الرسائل ، وعند الوزير المهلّبى ، وعند الوزير ابن عباد . وإذا كان غيره من الشعراء قد استباحوا لأنفسهم فى الذم كل قبيح فإننا لا نجد للشريف الرضى فى باب الهجاء أقوى من ذمه لمغنّ بارد قبيح الوجه وهو[1] .

تغنى بمنظره العيون إذا بدا وتقىء عند غنائه الأسماع

. . . .

أشهى إلينا من غنائك مسمعا زجل الضراغم بينهن قراع

وإذا كنا نجد رجلا كالشريف الرضى قد كلف نفسه مشقة قراءة ديوان ابن الحجاج وانتخاب أشعاره الخالية من السخف والمجون ثم ألّف مرثية لهذا الشاعر[2] فإن فى ذلك شرفا لهذين الرجلين معاً . على أن الرضى أكثر ميلا إلى المتنبى ، لأن ابن جنى صاحب الشرح لديوان المتنبى كان أستاذه ، وهو يقول الشعر فى كل ما كان يقرض الشعر فيه الشعراء المتمسكون بمذهب القدماء فى ذلك العصر كالتهنئة بالنيروز ، وبالربيع الشرقى وبشهر رمضان وبانتهاء شهر

---

(١) ديوان الرضى ص ٥٠٤ .

(٢) الديوان ص ٨٦٢ — ٨٦٤ .

الصوم ، وبالمهرجان وبالتهنئة بمولد بنت أو ولد ، وبمدح الخلفاء والسلاطين والوزراء ، وبرثاء من يموت من العظماء أو من المقربين إليه ، وخصوصاً برثاء الحسين فى عيد وفاته وهو يوم عاشوراء . وهو يفتخر بأهل بيته وبالأشراف ، ويشكو الزمان والشيب . وقد شكى المشيب وهو صغير ، كما جرى عرف الشعراء ، ولحسن الحظ حلق الشريف مقدّم رأسه مرة وفاء بيمين فوجد شعراً أبيض ، وكان إذ ذاك فى العشرين من العمر ، فكان فى هذا على الأقل سبب شخصى يبرر له أن يبدأ الكلام فى المشيب [1] . ويعتبر الشريف الرضى فى تاريخ الأدب العربى أحسن أصحاب المراثى [2] ، وهو يفعل ذلك متبعاً للقوالب المأثورة من غير دخول فى تفاصيل شخص المرثى ، وهذا غريب ومما لا يكاد يُصدق . وفى سنة ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م فقد الشريف الرضى أستاذه وصديقه ابن جنى اللغوى المشهور ، وقد بدأ رثاءه له بالشكوى من الفناء وهو يقول [3] :

كأنا قذى يرمى به السيل كلما تطاوح ما بين الربى والأبارق

ثم يمضى مكثراً من تسائله أين ؟ مثل قوله :

فأين الملوك الأقدمون تساندوا إلى جذم أحساب كرام المعارق

. . . .

وبعد هذا يذكر ما امتاز به الفقيد من المواهب فيقول :

فمن لأوابى القول يبلو عراكها ويحذفها حذف النبال الموارق

263

(١) وروى مثل هذا عن أبى فراس الأمير الشامى الشاعر ، وقد لوحظ أنه أخذ ذلك من أبى نواس . أما أبيات أبى فراس فهى : (نقلا عن كتاب :Dvorak Abû Firâs, 1895, S. 141

عذيرى من طوالع فى عذارى ومن رد الشباب المستعار
وثوب كنت ألبسه أنيق أجرر ذيله بين الجوارى
وما زادت على العشرين سنى فما عذر المشيب إلى عذارى

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٣) ديوان الشريف الرضى ص ٥٦٤ .

إذا صاح فى أعقابها اضطردت له ... ثوانى بالأعنــاق طرد الوسايق

وسوّمها مُلس المتون كأنها ... نزائع من آل الوجيـه ولاحق

تغلغــل فى أعقابهن وسومه ... بأبقى بقاء من وسوم الأيانق

ومن للمعانى فى الأكمة ألقيت ... إلى باقر غيب المعانى وفاتق

يطوح فى أثنائها بضـميره ... مرير القوى ولّاج تلك المضايق

تسنم أعلى طودها غـير عاثر ... وجاوز أقصى ضحضها غـير زالق

وهنا ينتهى كلام الشريف الرضى عن صفات المرثى ، أما بقية القصيدة فهو مما يصلح أن يقال فى كل رثاء . ورغم أن الشريف الرضى كان يقيم ببغداد عاصمة المملكة ، وكان عالما هادئا ، فإنه تجاهل حياة المدن ، ومضى فى شعر الفروسية الخيالى من كلام فى الحرب والصحراء والجمال وكرام الخيل . على أن الكثير من شعره ثمرة لتجربته الخاصة أحس به إحساساً عميقا ، وعبر عنه تعبيراً خاصا به ، بحيث نستطيع أن نستشف من وراء هذه الأشعار التى تجرى على نسق واحد أنه تلميذ لابن الحجاج . ومن غرر قصائد الشريف الرضى القصيدة التى ألقاها فى مجلس الخليفة القادر حينما جلس يحتفل بالحجيج من أهـل خراسان . ومطلعها [(١)]:

لمن الحـدوج تهزهن الأينُقُ ... والركب يطفو فى السراب ويغرق

يقطعن أعراض العقيق فَمُشْئمٌ ... يحدو ركائبـه الغرام ومُعرق

أبقوا أسيراً بعدهم لا يفتـدى ... ممـا يجن وطالبا لا يلحق

يهفو الولوع به فيطرف طرفه ... ويزيد جولان الدموع فيطرق

---

(١) ديوان الشريف الرضى ص ٥٤١ .

ومن أروع قصائده قوله فى النسيب[١] بامرأة جميلة فى قافلة تسير ليلا :

طلعت والليل مشتمل سابغ الأذيال والأزر
من خصاصات الغبيط وقد غرّد الحادى على أثر
ورقاب القوم مائلة من بقايا نشوة السهر
فاستقاموا فى رحالهم يتبعون الضوء بالنظر
فامتر بنا ثم قلت لهم ليس هذا مطلع القمر

وهكذا نجد الصنوبرى والمتنبى وابن الحجاج والشريف الرضي يقفون جنبا لجنب فى القرن الرابع الهجرى ، وكل واحد منهم قد بلغ أعلى قمة فى الناحية التى نبغ فيها ، وهو من هذا المكان العالى يرمق القرون الآتية للأدب العربى :

(١) نفس





